المغول

بين الوثنية والنصرانية والإسلام

حسن الأمين

دار التعارف للمطبوعات

المغول

بين الوثنية والنصرانية والإسلام

حسن الأمين

دار التعارف للمطبوعات
بيروت لبنان

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

دار التعارف للمطبوعات

المكتب : شارع سوريا - بناية درويش - الطابق الثالث
الإدارة والمعرض : حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية الحسنين
تلفون : ٨٣٧٨٥٧ - ٨٢٣٦٨٥
صندوق البريد : ١١-٨٦٠١ / ١١-٦٤٣

الإهــــداء

إلى: أ.ل.و

الحروف التي كانت نوراً في الظلام، ورياً في الأوام، وسَوْرة الوحي والإلهام.

الحـروف التي صاغت عـواطفي، وشـدت عـزائمي، وحثت خطاي، ووردت بي مشارع النثر وخمائل الشعر.

الحروف التي حملت أنضر ما تحمل روح من حنان، وأنقى ما ينطوي عليه الإنسان، وأسمى ما يخفق به الجنان.

الحـروف التي أدين لها حـين تكون للقلم صـولته، وللسـان روعته. وساعة ينمنم اليراع الأغاريد، ويتمتم الفم بالأناشيد. . . .

وما بعدت دار ولا شط منزل   إذا نحن أدنتنا الأماني والذكر.

(ح)

بسم الله الرحمن الرحيم

صدر هذا الكتاب أول ما صدر في طبعته الأولى باسم (الغزو المغولي) وكذلك في طبعته الثانية، ولكن حدث خلال ذلك أن رأيت أن لا بد من الحديث عما آل إليه أمر المغول بعد استقرارهم في المناطق التي تم لهم فتحها لا سيما إيران والعراق، لأن الحديث عن (الغزو المغولي) لا يتم إلا بالحديث عن نتائجه، وما أدت إليه هذه النتائج في مصائر البلاد المغزوة وكذلك في مصائر الغازين، لا سيما وأن هذه المصائر كانت فريدة في التاريخ، شاذة عما كان محتوماً فيه من تأثر المغلوب بالغالب، لا الغالب بالمغلوب.

فالمغول الذين غزوا البلاد الإسلامية وثنيين معادين للإسلام انتهوا بعد سيطرتهم على أجزاء من هذا العالم إلى مسلمين!

ومن هنا كان لا بد من إضافة بحوث جديدة إلى البحوث السابقة في الكتاب، وكان من شأن هذا الجديد أن تشعب وطال حتى أصبح الكتاب شيئاً آخر لا ينطبق عليه الاسم السابق، فكان لا بد من الاسم الجديد، وهكذا كان.

وقد يتأتى لنا في قادم الأيام أن نضيف إضافات أخرى إلى الكتاب تتناول نواحي لم نتطرق إليها فيما اضفناه إلى هذه الطبعة لأنه سيظل للحديث عن نتائج الغزو المغولي ما يجب الإستمرار فيه أكثر مما فعلنا، وذلك مرهون بمشيئة الله، فمنه نستمد العون وعليه نعتمد.

والحمد لله أولاً وآخراً.

حسن الأمين

ابن الفوطي والهمذاني

اثنان من المؤرخين انصرفا إلى تسجيل وقائع المغول كل على طريقته هما : رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، وعبد الرزاق بن أحمد المعروف بابن الفوطي ، فحفظا لنا بذلك الكثير مما كان يمكن أن يضيع لولا أن حفظاه .

ومن المؤسف أنهما مجهولان حتى في الأوساط الثقافية لذلك رأيت قبل البدء بتسجيل الأحداث أن أقدمهما للقراء تعريفاً بهما وإتماماً للبحث .

ابن الفوطي مؤرخ العصر المغولي

بين الأسرى الذين وقعوا في أيدي المغول بعد النكبة الكبرى ، أسير لم ير فيه آسره إلا غلاماً حدثاً قد يصلح أكثر ما يصلح للخدمة في الدور أو الدواوين ، ولم يثر في نفس الآسر أبعد مما يمكن أن تثير فيها أية دابة من دواب الأرض التي تسعى في مصالح الناس وتقاد إلى العمل طوعاً أو كرهاً وأي شأن لصبي لم يتجاوز الأربع عشرة سنة من سنه يقبض عليه بين عشرات الألوف التي قبض عليها في بغداد وغير بغداد ممن هوت دولتهم وهانت عزتهم وتلاشت قوتهم .

هذا الصبي الأسير الذليل عو عبد الرزاق بن أحمد الذي اشتهر بعد ذلك بابن الفوطي والذي ولد في المحرم سنة ٦٤٣ هـ ببغداد ثم وقع في

أيدي المغول بعد افتتاحهم عاصمة الخلافة العباسية . فمضى مقوداً إلى آذربايجان ثم منها من مكان إلى آخر حتى عثر عليه فيمن عثر عليهم الفيلسوف نصير الدين الطوسي ، الرجل الذي كان له فضل إفساد المخطط المغولي في القضاء على الإسلام في معاقل الإسلام .

عثر عليه الطوسي بعد سنة من أسره فلم تفته ملامح الذكاء في وجهه ودلائل النبوغ في تصرفه ، والطوسي يومذلك يفتش عن الأكفاء ويسعى إلى الأذكياء ليلم بهم الشمل فيجدد مسيرة الإسلام قدماً إلى أبعد الغايات . فعمل الطوسي على فكاك الغلام ثم ضمه إلى حاشيته . وما عسى أن تكون حاشية الطوسى ؟ كانت علماء حكماء وبناة أشداء رصهم الطوسي رصاً في صفوف حاشدة وجمعهم من كل مكان جيشاً يقاتل بالقلم ويحارب بالفكر ويكر بالكتاب فكان لفتانا الأسير الطليق مكان واضح في تلك الجموع العالمة العاملة ، بدأه أولاً تلميذاً للطوسي تلمذة استمرت ثلاث عشرة سنة في مدينة مراغة التي اختارها الطوسي ميداناً لكفاحه المرير الطويل .

ووجه الطوسي تلميذه فيما وجهه إلى دراسة العلوم الرياضية والنظريات الفلسفية ،وأتقن التلميذ اللغة الفارسية وأحاط بآدابها ونظم الشعر بها ، وألم بلغة الفاتحين المغول . وكان من أعظم انجازات الطوسي حرصه على انقاذ الكتب وجمعها في مكتبة كبرى وصونها من أيدي المخربين والعابثين ، وبعد أن تم له ذلك وقامت المكتبة ، عهد بالأشراف عليها إلى تلميذه ابن الفوطي . وهكذا اجتمع لعبد الرزاق الفكر النير والذهن المتفتح والأستاذ الموجه والمناخ المؤاتي ، فكان أن انتهى إلى أن يصبح مؤرخ العصر المغولي العالم الكاتب الشاعر .

في مراغة

قلنا إن عبد الرزاق ولد ببغداد ونقول إن اللقب الذي التصق به (ابن الفوطي) إنما جاءه من قبل جده لأمه ، وهو منسوب إلى الفوط جمع فوطة

وهي نوع من الثياب ويبدو أن الجد كان يعمل في صنع هذه الثياب أو بيعها ، ويقال أنه ينتسب إلى معن بن زائدة لذلك يلحق بإسمه أحياناً لقب الشيباني . وكانت ولادته بعد مضي سنتين من خلافة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين . ولا يدري شيء عن حداثته سوى ما يستنتج مما كتبه هو من انه ولد في محلة الخاتونية القريبة من دار الخلافة وإنه سمع قبل سقوط بغداد من الصاحب محيي الدين ابن الجوزي أحد قتلى وقعة بغداد ، وإنه ولد في أسرة متوسطة الحال ثم أسر وأطلق من الأسر وأصبح قيماً للمكتبة الكبرى في مراغة طيلة ثلاثة عشر عاماً . وفي خلال ذلك كانت مراغة قد أصبحت مقراً لدولة تتبعها خراسان وإيران بأسرها والعراق والأناضول أي إنها كانت عاصمة المشرق الذي استولى عليه المغول ، وكانت الحال في هذه الدولة تتطور عاماً بعد عام ، فمن عداء صريح للإسلام والمسلمين ومذابح وفواجع ونهب وسلب وإحارق إلى هدؤ ثم تحول لتأسيس دار الرصد وخزانة الكتب وتأمين العلماء واستقدامهم من الآفاق البعيدة . كل ذلك تم بعد عام واحد من استباحة بغداد ، وكان الفضل في تمامه للعقل المدبر نصير الدين الطوسي .

المكتبة ودار الرصد

يفهم مما سجله ابن الفوطي نفسه أنه وضع للمكتبة نظاماً دقيقاً يسير عليه المطالعون والدارسون والمشرفون ثم عكف على طلب العلم فكان أن استهواه التاريخ فانصرف إليه . وبدأ أول ما بدأ بتسجيل تاريخ الدار التي آوته وحمته وثقفته فسجل كيف أنشئت دار الرصد وأشار إلى استقدام العلماء المدرسين إليها وذكر عمل كل منهم واختصاصه ومؤلفاته مترجماً له ترجمة ممتعة . وألف كتاباً خاصاً سماه «تذكرة الرصد» خصصه بالذين وفدوا إلى الدار أو مكتبتها ، كما وصف بعض ما حوته المكتبة من نفائس الكتب وصفاً ممتعاً ذكر فيه تراجم المؤلفين وزياراتهم للمكتبة وبعض آثارهم .

وقـد حفظ في كل ذلـك صوراً للحيـاة السياسيـة العلمية والاجتمـاعيـة والأدبية ما كان لها أن تحفظ لـولا أن سجلها بقلمـه المبدع . ممـا كان حقيقـاً بما وصف به من((إنه مؤرخ النهضة العلمية الكبيرة في مراغة) .

العودة الى بغداد

وتزداد الحياة تـطوراً وتحولاً فمن بين السنين الثـلاث عشرة التي قضـاها في مـراغة كـانت ست منها في حيـاة الطاغيـة هولاكـو والباقيـة في عهـد ابنـه أباقا ، انغمـر فيها ابن الفـوطي في المجتمع انغمـاراً كامـلاً واستطاع بكيـاسته أن يتغلغـل في أرفع المقـامات المغـولية وأن يـزور الأميـرات المغـوليـات وأن يستـزيد من الصـداقات ويكثـر من الأخوان . وأن يسجـل من وحي ذلك كـل طريف معجب .

على أنـه وهو في قمـة نجاحـه وعنفـوان تـألقـه لم ينس وهـو البغـدادي العـريق والعـراقي الأصيـل ضفـاف دجلة ومسـارح الـطفـولـة ومـدارج الصبـا وذكـريات الأهـل والأحباب ، وثـار به الحنين إلى بغـداد التي فـارقهـا غـلامـاً غض الأهـاب ، فلم ينسه إيـاها نضـوح الشباب وشيـوع الذكـر ونجـاح الأمـر حتى كـان العام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) حين حكم العـراق الصاحب عـلاء الدين الجويني صديقه في مراغة .

وكانت الرغبة الكبرى لابن الفـوطي هي أن يحمله الصاحب إلى بغـداد فحقق الصاحب له الرغبة فكان مما قـاله عنـه : «هو الـذي أعادني إلى مـدينة السلام سنة تسع وسبعين وستمائة وفوض إلي كتـابة التـاريخ والحـوادث وكتب لي الاجـازة لجميـع مصنفـاتـه وأملى علي شعـره في قلعـة تبـريـز سنـة سبـع وسبعين وستمائة .

العمل الذي أتقنـه ابن الفوطي في مـراغة هـو نفسه الـذي عهد إليـه به علاء الدين الجويني في بغداد وهـو الإشراف على مكتبـة المستنصريـة وكانت

آنـذاك أعظم مكتبـة عامـة في العـالم وكـانت ملتقى لـرجـال العلم والفكـر ، فعكف ابن الفوطي على عمله فيها بنفس الدقة والإتقـان والتنظيم الـذي عرف بـه في مكتبة مـراغة . وكـانت سنه يـومئذ دون الثـلاثين فرأى أن يستـزيـد من العلم فـأقبـل على دراسـة الفقـه والحـديث بتعمق وإتقـان حتى استحق بين المحدثين لقب (الحافظ) .

وأنشأ لنفسه مكتبة خاصة كانت محجـة للعالمين والمتعلمين البغـداديين ومقصداً للطارئين الوافدين ، وكان يشيـر في تدوينـاته إلى زواره وزوار مكتبتـه من كل الأصناف .

كمـا وضع معجمـاً خاصـاً بمن تتلمـذ عليهم وأخـذ عنهم فبلغ عـددهم إلى الخمسمائة .

وظـل ابن الفـوطي على عمله في المستنصـريـة خمسـاً وعشـرين سنـة بـدأت سنة ٦٧٩ وانتهت سنـة ٧٠٤ كـان التحـول خـلالهـا قـد ازداد سـرعـة والـدنيا تبـدلت غير الـدنيا . وكـانت غـراس نصيـر الـدين الـطوسي قـد نمت وأثمـرت فأسلمت الـدولة المغـولية وتحـولت إلى مجتمع إسـلامي يساهم في نهضة الإسلام وتقدم المسلمين .

كما إن السياسـة تطورت من حـال إلى حال فـإن أرغون حفيـد هولاكـو صب نقمتـه على آل الجـويني لأنهم نصـروا عمنه أحمـد تكـودار فبـطش بهم واستـأصلهم وقرب خصـومهم ، كمـا عـامـل العـراقيين معـاملة انتقـام وقمـع لميلهم إلى آل الجويني .

وقـد كـان كـل ذلـك بمـرأى من ابن الفـوطي فشهـد الصـراع الحـزبي المغـولي الدامي وشهـد مصارع آل الجـويني الذين حكمـوا العـراق أكثـر من عشـرين سنة حكمـاً حببهم إلى العراقيين وآمـالهم إليهم ، كما كـان قد شهـد من قبل وفاة الصاحب علاء الـدين ووفاة استـاذه ومربيـه نصير الـدين الطوسي ووفيات الأجيال التي عاصرت الطوسي أو تخرّجت عليه .

شهـد كل ذلـك في العصـر المغـولي الأول من فتـح بغـداد إلى أواخـر

القرن السابع ،وهذه الفترة تعتبر من أشرس الفترات المغولية وأعنفها ، ولكن المغول أخذوا يتكيفون تكيفاً تدريجياً فلطف الإسلام من شراستهم وخفف من شدتهم ، ولم يكد القرن السابع ينتهي ويقبل ما نستطيع أن نسميه العهد المغولي الثاني حتى كان التكيف قد ازداد بالتصاق المغول بالإسلام وتحسسهم بمظاهر الحضارة الإسلامية فرأينا الحواضر المغولية تصطبغ بصبغة جديدة من المدنية ، ورواسب الوثنية تذوب في النفوس والإدارة تتحضر والنظم الاجتماعية تتبدل .

وقد شهد ابن الفوطي هذه العهود كما شهد التي قبلها مشاهدة المؤرخ المرهف الحس واتصل برجالها حكاماً وعلماء ونافذين ، فكتب عن كل ما شاهد وترجم للرجال ووصف الحياة ، بعقل نير وفكر ثاقب وقلم رشيق .

في تبريز

بعدما تخلى ابن الفوطي عن عمله في المستنصرية سنة ٧٠٤ رحل إلى تبريز حيث أقام هناك ست سنوات ثم عاوده الحنين إلى بغداد فرجع إليها وكثر تردده إلى تبريز . ويبدو أن الذي جذبه إلى تبريز هو وجود صديقه القديم وزميله في الدرس على نصير الدين الطوسي الطبيب رشيد الدين الهمذاني العالم المفكر السياسي الذي عرفت تبريز في عصره أزهى عهودها العلمية والعمرانية والسياسية فلازمه ابن الفوطي وعاود سيرته في الأخذ عن العلماء والدرس على الشيوخ ولقي في تبريز قطب الدين الرازي الفقيه الرياضي الفيلسوف فتلمذ عليه ثم استجازه كما أخذ عن غيره من مشاهير العلماء الذين كانت تعج بهم تبريز ، ولكن أثر الرازي كان فيه بارزاً .

وبعد أن وزر رشيد الدين لثلاثة من ملوك المغول الايلخانيين هم غازان وخربنده وأبي سعيد تغير عليه الأخير لدسائس حيكت حوله فأقصي عن الحكم ثم أعيد إليه ولكن المؤامرات ظلت تلاحقه حتى قتله السلطان

أبو سعيد في أحداث ليس هذا مكان ذكرها . . .

على أن أفجع ما أعقب هذه الأحداث هو إحراق مكتبة رشيد الدين وكانت تضم ما لا يقل عن خمسين ألف مجلد . ويبدو أن معظم مؤلفات ابن الفوطي كانت ضمن تلك المكتبة فذهبت طعمة للنيران فيما ذهب من كتب ، وهكذا لم يبق من تلك المؤلفات إلا أسماؤها فضاع بذلك تاريخ فترة من أدق فترات تاريخنا ولم يبق في أيدينا إلا أجزاء محدودة مما كتب ابن الفوطي .

ولقد هزت هذه الفاجعة كيان ابن الفوطي إذ قتل صديقه واحترقت كتبه فترك تبريز وعاد الى بغداد ومات بعد انقضاء خمس سنوات على حادثة تبريز عن إحدى وثمانين سنة .

ضاعت مؤلفات ابن الفوطي النفيسة حرقاً في أحداث تبريز على الأرجح ، وإن كان يمكن أن يكون بعضها قد ذهب للأسباب نفسها التي ذهبت بها مؤلفات غيره من العلماء . ومن كتبه كتاب (مجمع الآداب) الذي لم يوجد منه إلا جزءان الرابع والخامس وقد وجد الأول منهما في دار الكتب الظاهرية بدمشق وهو نسخة الأصل ومسودة المؤلف بخط يده . ووجد الثاني في مكتبة جامعة لاهور في الباكستان وهو نسخة المؤلف أيضاً . وهذان الجزآن هما اثنان من أصل خمسين مجلداً يتألف منها الكتاب وقد ضاعت كلها ما عدا هذين الجزأين وطريقة المؤلف في هذا الكتاب هي أن يؤرخ للعصر عن طريق التاريخ لرجاله . وقد ظل يعمل في الكتاب ويجدد فيه حتى قبيل وفاته ، إذ وردت دراسات عن جماعة وجدوا سنة ٧٢١ أي قبل وفاته بسنتين وسنة ٧٢٢ أي قبل وفاته بسنة واحدة ولا ننسى إنه كان عند ذلك في الواحدة والثمانين من عمره .

وقد كان لهذا الكتاب أثره الكبير في إمداد المؤرخين الذين تلوا عصر المؤلف بأدق المعلومات التاريخية عن ذاك العصر . وممن استفاد منه وأخذ

عنه كل من الصفدي في (الوافي بالوفيات) والذهبي في (تاريخ الإسلام) والسيوطي في (بغية الوعاة) وابن عنبة في (عمدة الطالب) وشمس الدين الجزري في (غاية النهاية) وابن كثير في (البداية والنهاية) وغيرهم .

ابن الفوطي في المصادر القديمة

في طليعة من تحدث عن ابن الفوطي كان الذهبي في كتابه «تذكرة الحفاظ» إذ جعله منهم كما سماه مؤرخ الآفاق ، ويبدو من حديث الذهبي أن كتابه (مجمع الآداب) ذا الخمسين هو مختصر لكتاب أكبر ، فالذهبي يقول : (وعمل تاريخاً كبيراً لم يبيضه ثم عمل آخر دونه في خمسين مجلداً أسماه مجمع الآداب) .

فهل مجمع الآداب هو مختصر من مطول أم هو كتاب آخر ؟ . . .

وذكر كذلك صاحب الدرر الكامنة إن المجمع هو اختصار للكتاب الكبير ، الذي كان تاريخاً حافلاً جداً ثم اختصره في آخر سماه مجمع الآداب في خمسين مجلداً . . .

وذكر صاحب الدرر فيما ذكر من مؤلفاته : كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وموضوع الكتاب يعرف من اسمه ، وهكذا فإننا نرى أن ابن الفوطي لم يكن مؤرخ سياسة وأحداث فحسب ، بل هو أيضاً مؤرخ أدب . ولا شك أن فقدان هذا الكتاب خسارة تضاف إلى غيرها من الخسارات ، ولو بقي لعرفنا فيه حياة شعراء تلك الفترة وقرأنا آثارهم بقلم معاصر سامع لهم بأذنيه شاهد لهم بعينيه . ويبدو إبداع ابن الفوطي بكتابة التراجم في وصف الذهبي له حين قال عنه : (. . .له الباع الطويل في ترصيع تراجم الناس) . ووصفه الذهبي أيضاً بقوله : (كان روضة معارف وبحر أخبار) .

في المصادر الحديثة

لم يلق ابن الفوطي حتى اليوم ما يستحقه من الدارسين في العصر الحاضر بإستثناء الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي اكتشف مخطوطة الجزء الرابع في دمشق فاستهواه ابن الفوطي استهواء عجيباً جعله يخصه بعدة بحوث ثم ختم ذلك بكتاب من جزئين سماه (مؤرخ العراق ابن الفوطي) .

المثقف الفريد

لا شك إن ابن الفوطي كان في عصره مثال المثقف العالي الثقافة الموغل فيها والآخذ من كل فنونها بطرف ، ومثال العالم الجاد المواصل للمطالعة والكتابة والتفكير ، وحسبك في ذلك أن يظل القلم والورق في يده وهو في الواحدة والثمانين من عمره . كما كان وهو في مطالع الشباب ونضارة العمر . وأن يذكره المؤرخون في أول صفوفهم كما يذكره المحدثون في رأس حفاظهم ، فقيهاً بين الفقهاء وفيلسوفاً بين الفلاسفة ورياضياً بين الرياضيين وشاعراً بين الشعراء وصوفياً بين الصوفيين ، وإدارياً بين الإداريين ومعلماً بين المعلمين متذوقاً للجمال والموسيقى والشعر .

وإذا كنا قد ذكرنا فيما تقدم أنه ترجم للعلماء والشعراء والسياسيين فإن هذا الفقيه المحدث الحافظ قد ترجم فيمن ترجم لهم لا علام الموسيقى الآلية والصوتية بل يبدو أنه كان ذا بصر في الموسيقى وتجارب عملية . كما أرخ للوراقين والناسخين والمعلمين والمؤدبين وذوي الفنون والصنائع الجميلة ، وبذلك خرج على طرائق المؤرخين قبله الذين أهملوا تاريخ الشعب وعنوا بتاريخ المتسلطين وحدهم فهو في الواقع مؤرخ الشعب بكل طبقات هذا الشعب .

رشيد الدين فضل الله الهمداني وكتابه جامع التواريخ

الغـزو المغـولي الأول الـذي حمـل وزره جنكيـز ، ثم الغـزو المغـولي الثـاني الذي بـاء بإثمـه هولاكـو لم تؤرخهما المصـادر العربيـة تأريخـاً مفصلاً يعرض دقائقهما ويوضح وقائعهمـا بحيث تكون الصـورة أمامنـا جلية تـرينا مـا جرى رؤية بينة شاملة .

وكـل مـا اشتملت عليـه المصـادر العـربيـة حـديث إجمـالي متقــطع ، وتـدوين عام مـوزع على وقائـع النسن . ولم يكن من هم أكثـر من كتبـوا عن ذلـك أن يخصصوا تـاريخاً محصـوراً بالغـزو وحـده ، بـل كـان هم معـظمهم منصرفاً إلى التدوين العام لما يجري خلال كل عـام ومنه بـطبيعة الحـال تقدم المغول إلى البلاد الإسلامية .

وممن عني من مؤرخي العـرب بتاريـخ المغول ، ابن كثيـر في البـاديـة والنهاية وأبو الفداء في تاريخه ومؤلف الحوادث الجامعـة والسبكي في طبقاتـه وابن خلدون وابن حجـر في الــدرر الكــامنــة والعيني في عقــد الجـمــان والسخاوي في الضوء اللامع . هذا مضافاً إلى ما ورد في الكـامل لابن الأثيـر وما أورده ابن الفرات في تاريخه . . . وفي عصرنا هـذا يمكن أن نعتبر كتـاب الدكتور جعفر خصباك أفضل ما ألف في هذا الموضوع .

أمـا في غير اللغـة العربيـة فمن أشهر تـواريخ المغـول باللغـة الفارسيـة كتاب (جهان كشاي) لعطا ملك الجويني و(تاريـخ وصاف) لعبـد الله بن فضل

الله الشيرازي المعروف بوصاف الحضرة و (تقويم الوقائع التركية) لصاحب كشف الظنون . وفي اللغة التركية عدة كتب وضعت بالتركية رأساً أو ترجمت إليها مثل كتاب (شجرة الترك) لأمير خيوة وكتاب (كلشن خلفا) وكتاب (ترك تاريخي) وكتاب التاريخ العام لسائر بطون التتر والمغول والترك ، منقول من الفرنسية إلى التركية .

والمغول سواء في عهد جنكيز أو حفيده هولاكو لم يكونوا حملة حضارة ولا رسل عقيدة . كما لم يكونوا ذوي ثقافة ولا أهل علم مما يمكن أن يحملهم على أن يدونوا التاريخ بأنفسهم لأنفسهم ، أو أن يعدوا من رجالهم من ينصرف إلى غير القتل والضرب والتخريب والسلب .

ولكنهم بعد ذلك وقد أسلموا ثم بدأوا يتشبّعون بروح الحضارة الإسلامية ويروضون من جماحهم ويهذبون من عتوهم ، ثم يوغل الفكر الإسلامي فيهم فيلتفتون إلى غير الطغيان والجبروت ، ويتأملون شؤون الحياة تأمل ذي الفكر الذي أخذ يستنير بنور المدنية وضياء العلم .

أنهم وقد احتوتهم الذهنية الإسلامية وصهرتهم أوساطها ، بدأوا يعنون بتاريخهم والتطلع إلى ماضيهم وحاضرهم وتسجيل ما يمكن أن يعتبروه من مآتيهم ومآثرهم .

وإذا كان ماضيهم زاخراً بسفك الدماء ، حافلاً بالترويع قائماً على الغدر وتحليل كل محرم . فإن ذهنيتهم ، بل ربما كان لنا أن نقول : إن ذهنية الناس كل الناس يومذاك وما بعد يومذاك ، كانت ترى في الغلبة وقهر الشعوب أفخم أمجادها بصرف النظر عما يرافق هذه الغلبة من أهوال وفجائع .

وهكذا فإن مجرد تصورهم ما أحرزه جنكيز من انتصارات ، وما حققه هولاكو من فتوح ، كان في نظرهم شيئاً خطيراً يستحق أن يتمدحوا به ويسجلوه في صحفهم دليلاً على بطولتهم وإشارة إلى قوتهم وشجاعتهم .

وكان أول من فكر منهم بوضع تاريخ لهم هو غازان الذي عهد بهذه المهمة إلى الطبيب فضل الله رشيد الدين الهمذاني .

رشيد الدين

وتعود الصلة بين رشيد الدين وبين المغول إلى اليوم الذي حقق فيه هولاكو انتصاراته الحاسمة في زحفه الطويل فكان مما خضع له قلعة ألموت حصن الإسماعيليين الحصين فاستسلم حاكمها ركن الدين خورشاه واستسلم معه فيمن استسلم ثلاثة من نزلاء القلعة هم نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة الهمذاني . فقتل هولاكو الجميع واستثنى من القتل هؤلاء الثلاثة لا رحمة بهم ، بل حاجة إليهم لأن الأول كان فيلسوفاً كبيراً وفلكياً مشهوراً والثاني والثالث كانا طبيبين معروفين . وكان هولاكو بحاجة لهذا النوع من الرجال فالزم الثلاثة صحبته وأمرهم بمرافقته والسير في ركابه .

والطبيب موفق الدولة هو جد الطبيب فضل الله رشيد الدين الهمذاني .

ولسنا ندري إلى أي مدى استمرت صلة الجد بالمغول ، ولا نوع الصلة التي كانت بعد ذلك للأب بهم ولكننا نعلم أن رشيد الدين كان من أعوان غازان السلطان المغولي المسلم المقربين وخلصائه الأثيرين .

على أن ما يرويه رشيد الدين نفسه قد يدلنا على أن صلة الآسرة بالمغول ظلت مستمرة وأنها تعمقت بعد إسلامهم ، فرشيد الدين يقول عن نفسه : «على هذا النحو كنت استغل أوقات فراغي ، وذلك لأني ألحقت بقصر السلاطين منذ شبابي الغض» .

ولا بد أن الذي ألحقه بالقصر هو ارتباط أبيه بذلك القصر بعد ارتباط جده . ويبدو لنا أن ذلك الارتباط كان في تسلسله ارتباط أسرة عرفت بالطبابة ومهارتها بها وانه كما كان الجد طبيب القصر المغولي كذلك كان

الأب ثم كان الحفيد .

ولد رشيد الدين في مدينة همذان سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) على الأرجح إذ يحدثنا إنه كان في سنة ٧٠٥ في حدود الستين من حياته. وقبل غازان كان على صلة بأباقا خان وخلفائه مكرماً عندهم معنياً به في بلاطهم . ولكننا لا نعلم أنه تولى منصباً كبيراً قبل غازان الذي ولي الملك سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) .

ونحن نعلم إن أول من أسلم من ملوك المغول هو (تكودار) بن هولاكو الذي ولي الملك بعد أخيه (أباقا خان) وتسمى بأحمد . وكان أباقا خان قد عهد بالملك إلى ابنه (أرغون) . ولكن آل الجويني ومن والاهم من الأمراء والقواد لم يدعوا أرغون يتولى الملك ونادوا بتكودار ملكاً سنة ٦٨٠ ولم يطل الأمر أكثر من ثلاث سنين حيث استطاع آرغون التغلب على عمه الأمير (أحمد تكودار) وقتله وتولى الملك بعده . وفي عهد أرغون انتعشت الوثنيةُ من جديد كما اشتد نفوذ اليهود . وبعد أرغون تولى ابنه غازان الذي كان أول ملك مغولي يؤدي الصلاة في المساجد الجوامع فيحذو حذوه الأمراء والكبراء وجمهرة الشعب المغولي . وكانت صلة رشيد الدين بغازان في أول أمرها صلة علمية بحتة . وكان السلطان يغتنم فرصة لقائه برشيد الدين ليذاكره في مبادىء الإسلام وتفسير القرآن ويستوضحه ما خفي عليه من شؤون الدين ، وليجول معه في أمور العلم والفكر .

ثم ولاه المنصب الأول في الدولة وجعله وزيراً له ، بعد مقتل الوزير السابق صدر الدين الزنجاني ، الذي أودى به سعيه برشيد الدين عند غازان ومحاولة الإيقاع به لديه ، فأدى ذلك إلى مقتله وإحلال رشيد الدين محله عام ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) وأشرك معه في الوزارة سعد الدين الساوجي .

ثم مات غازان وتولى الحكم بعده أخوه ألجايتو خدابنده فحفظ

للوزيرين منصبيهما وظلت لرشيد الدين نفس المنزلة التي كانت له عند غازان .

وكما حيكت له الدسائس لدى غازان أخذت الدسائس تحاك له ولزميله سعد الدين لدى (خدابنده) فنجا منها رشيد الدين مراراً في حين إنها أدت إلى مقتل زميله سعد الدين وإحلال علي شاه محله الذي أخذ يدس على رشيد الدين دون أن ينجح في دسائسه ومات ألجايتو خدابنده ورشيد الدين على مكانته ، وتولى بعد خدابنده ولده أبو سعيد والتنافر بين الوزيرين على أشده ودسائس علي شاه لدى أبي سعيد تتوالى حتى نجح في حمل السلطان على أقصائه عن الوزارة سنة ٧١٧ هـ (١٣١٧ م) . على أن مساعي أصداقائه أعادته من جديد إلى الوزارة بعد أن تردد وأحجم ، ولكن هذه العودة كانت السبب في وصوله إلى نهاية المحنة . إذ أتهمه زميله علي شاه بأنه سمم السلطان خدابنده وبعد مناقشات طويلة اقتنع أبو سعيد بأن رشيد الدين إن لم يسمم أباه فهو على الأقل وصف له دواء كان السبب في موته وبالرغم من أن التهمة كانت واهية فقد سيطرت على أبي سعيد فأمر بأن يقتل رشيد الدين وأن يقتل معه ولده اليافع إبراهيم الذي لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره بدعوى إنه هو الذي ناول الدواء بنفسه للسلطان ، فقتل ولده أمام عينيه ثم قتل هو سنة ٧١٨ هـ (١٣١٩ م) وقد بلغ الثالثة والسبعين من عمره .

ولم يلبث بعد ذلك أبو سعيد أن أدركِ أنه كان مخطئاً فيما أجراه على رشيد الدين وولده ، وشاء أن يكفر عما فعل فاستدعى غياث الدين أحد أولاد رشيد الدين وعهد إليه بالمنصب الذي كان يشغله أبوه في الوزارة .

أنشأ رشيد الدين في تبريز ضاحية أطلق عليها اسم الربع الرشيدي وعني بها عناية فائقة . على أن أكثر ما يهمنا من تلك الضاحية إنه أنشأ فيها مكتبة حافلة جمع فيها من صنوف الكتب ما قل أن يجتمع مثيله في مكتبة وكانت تحتوي على ما لا يقل عن خمسين ألف مجلد .

ولما نكب وقتل كان من أفجع آثار النكبة إحراق تلك المكتبة بكل ما فيها . ولدينا الكثير من الكتب التي لم يصلنا إلا اسمها وكانت فيما تحويه مكتبة الربع الرشيدي وذهبت كلها طعمة للنار . ويكفي أن نذكر منها مؤلفات ابن الفوطي وحدها .

هذا تلخيص لحياة رشيد الدين السياسية ، وهي حياة مهما كان قد أوتي فيها من كفاءة وتفوق في حسن تصريف الأمور ، ومهما كتب له من النجاح في ميادينها ، فهي على كل حال حياة كحياة كل السياسيين المتفوقين منهم وغير المتفوقين ، الذين لا يلبث اسمهم أن يضيع في طيات الزمن ويختفي في أغوار الدهر . ولو كانت هذه الحياة هي كل ما كان لرشيد الدين لما وجد من يشغل نفسه بها ويلفت قراءه إليها .

ولكن لرشيد الدين حياة أخرى هي التي تعنينا في هذا البحث ، وهي التي عنت قبلنا غيرنا من الكاتبين : هي حياة العالم المفكر المؤرخ ، وهي حياة أكسبت رشيد الدين الخلود ، وجعلته من إحياء الذكر على طول الدهر .

يقول المستشرق الفرنسي (كاترمير) في مقدمته التي كتبها لكتاب جامع التواريخ : « إذا غضضنا النظر عن الطب الذي أقبل رشيد الدين على تعلمه منذ زمن مبكر ، وعن شتى فروع المعرفة الأخرى التي ترتبط بهذا العلم برباط مباشر وجدنا أنه أيضاً لم يهمل دراسة الزراعة والهندسة والميتافيزيقا واللاهوت . وكان يحيط إحاطة تامة بكثير من اللغات وهي : الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية وربما الصينية » .

ويقول عنه أيضاً : « كان مولعاً بالمعرفة أشد الولع فاستطاع رغم كل هذه المشاغل والموانع أن يجد لنفسه الوسيلة لمعالجة الآداب والعلوم والإحاطة بالدين الإسلامي إلى أعمق حد » .

ويبدو مما ذكره الفقيه الكبير الحسن بن يوسف بن المطهر ، المعروف

بالعلامة الحلي في بعض كتبه أن مجالس رشيد الدين في عهد وزارته كانت مجالس علمية ومباحث إسلامية تعرض فيها شتى البحوث وتطرح مختلف الأسئلة لا سيما المتعلق منها بالإسلام . وأن بعض من كان يحضر كان يسأل رشيد الدين عن دقيق الأمور ، وكان رشيد الدين يجيب ويناقش .

وقد ذكر العلامة الحلي أنه حضر بعض تلك الجلسات في عهد السلطان الجايتو حدابنده واستمع إلى سؤالين إسلاميين طرحا على رشيد الدين وأنه أجاب عنهما . ولشدة إعجاب الحلي بجواب رشيد الدين فقد دوّن السؤالين والجوابين . يقول العلامة الحلي ما نصه : « وحضرت في بعض الليالي للاستفادة من نتائج قريحته فسئل في تلك الليلة سؤالين مشكلين فأجاد في الجواب عنهما » .

والواقع أن رشيد الدين كان يمثل المسلم المثقف ، الرفيع الثقافة كما كان يمثل العالم العالمي ، بأوسع ما تعنيه هذه الكلمات من معنى . ولو لم تشغله السياسة ولو لم يغره الحكم لكان له من الشأن فوق الذي كان . إذ أنه لم يعط الجانب الثقافي إلا بعض العطاء ومع ذلك فقد كان له فيه مثل الذي رأينا .

وإذا كان لرشيد الدين من الكتب مثل « التوضيحات » و « مفتاح التفاسير » و « الرسالة السلطانية » و « الأحياء أو الآثار » و « لطائف الحقائق » و « بيان الحقائق »، فلا شك أن قمة أعماله التأليفية هي ما كتبه في التاريخ في كتابه « جامع التواريخ » .

قصة جامع التواريخ

يعود الفضل بالدرجة الأولى في تأليف هذا الكتاب إلى السلطان غازان الذي شاء أن يكون للمغول تاريخ مكتوب . وكان لا بد في الرجوع في تسجيل هذا التاريخ إلى مصادر معروفة وأحداث مكتوبة تكون المادة الأولى للمؤرخ الذي يأخذ على نفسه القيام بهذا العبء .

وكان سلاطين المغول يحتفظون في خزائنهم بوثائق مكتوبة بلغتهم فيها تدوين لكثير من وقائعهم ، كما كان كثير من الأسر المغولية العريقة يحتفظ بمثل هذه الوثائق ، وكان كل ذلك يحتاج إلى من ينظمه وينسقه ويستخلص منه الحقائق ، ويخرج منه أصولاً لتاريخ يمكن أن يدون .

واهتم غازان بهذا ونضجت الفكرة في ذهنه فعمل على تحقيقها ، ولم يكن في بلاطه أفضل من رشيد الدين من يمكن أن يعهد إليه بإنجاز تاريخ المغول وتدوينه . فأودع لديه كل ما كان تحت يده من وثائق وعهد إليه باستطلاع ما يمكنه استطلاعه من المدونات الأخرى أو الروايات غير المعروفة .

فقام رشيد الدين بالمهمة على أفضل وجوهها وعكف على انجازها بقدر ما تسمح له به ظروف اضطلاعه بشؤون الإدارة والحكم .

ولما أوشك الكتاب على التمام كان غازان قد توفي سنة ٧٠٣ (١٣٠٣) وورث عرشه أخوه (الجايتو خدابنده) فلم يكن أقل اهتماماً من أخيه بإنجاز هذا التاريخ ، بل زاد عليه بأن طلب إلى رشيد الدين أن يشير إلى الشعوب التي اتصل بها المغول ويعرض لتاريخها وأن يضيف إلى ذلك دراسة شاملة لكل الشعوب .

ولم تأت سنة ٧١٠ (١٣١٠) حتى كان الكتاب قد انتهى مكتوباً باللغة العربية واللغة الفارسية باسم « جامع التواريخ » وأودع المسجد الذي كان رشيد الدين قد بناه في مدينة تبريز .

ويصف كاترمير الكتاب قائلاً : « الواقع أن تاريخ رشيد الدين قد اعتمد في تأليفه على فحص الوثائق الوطنية الصحيحة المحفوظة في سجلات الأمبراطورية والمذكرات التي في حوزة الأسر الكبيرة وقام بتأليفه رجل صادق حي الضمير ، وبذلك يكون قد توفرت له كل مقومات الصدق » .

وينقل كاترمير عن المخطوطة العربية وصفاً لمنهج رشيد الدين

وطريقته في التدوين بقلم رشيد الدين نفسه: «أستطيع أن أشهد لنفسي بأني لم ادخر أي احتياط أو جهد في تحري الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف أو مشكوك فيه . وقد اقتبست دون أي تغيير ما انطوت عليه أصدق الوثائق الخاصة بكل شعب ، والروايات التي حازت أحسن التقدير والمعلومات التي استقيتها من أعلم الرجال في كل قطر . وفتشت كتب المؤرخين ورجال الأنساب . وحققت هجاء اسم كل أمة وكل قبيلة » .

الواقع أننا نستطيع أن نعد ميزة التجرد أولى الميزات التي اتصف بها رشيد الدين في تاريخه ، وأن نوقن بأنه سعى وراء الحقيقة سعياً مخلصاً شجاعاً، ولم يراع جانب المغول وهو يتحدّث عما في تاريخهم من فظائع، وكان كما قال عنه كاترمير : «إذا كان يبدو في كتابه مسلماً صادق الإسلام ، فإنا نراه من جهة أخرى يتجنب الإطراء غير المجدي ويتمسك دائماً بنزاهة في الرأي تستحق كل إجلال ، ولا سيما إذا كانت من مؤرخ» .

ويقول أيضاً : «يذكر دون مواربة ولكن دون مبالغة أيضاً ضروب القسوة الشنيعة التي ارتكبها هذا الشعب (المغولي) وتخريب أعظم المدن وأكثرها ازدهاراً وتذبيح السكان العديدين دون قلق أو ندم ، كما يصور بهدوء وتحفظ ضروب التجديف التي قاموا بها في مساجد بخارى وغيرها من المدن ، حيث مزقوا المصاحف والقوا بها أرضاً وصنعوا من أغلفتها الثمينة مذاود لخيلهم» .

وعندما نراجع كتاب تاريخ هولاكو ونتجاوز ما فيه من ذكر المذابح والأهوال التي رافقت هولاكو ومشت معه في كل خطوة خطاها مما نص عليه رشيد الدين نصاً واضحاً ، وعندما نقف عند محاولة المغول غزو مصر ، وتصميم الملك المظفر سيف الدين قطز على المقاومة والقتال وما انتهى إليه الأمر بعد ذلك من الظفر . نرى أن هذا القسم قد حوى من الحقائق وأوضح من الخوافي ما لم يكن ممكناً الوصول إليه في غير هذا الكتاب .

لقد أبرز لنا مثلاً مقدمات معركة عين جالوت والأحداث التي أدت إلى تلك المعركة إبرازاً لا نجد له مثيلاً في غيره . وحين نريد الاعتزاز بما جرى لا نجد أمامنا ما يمدنا بمثل ما أمدنا به رشيد الدين في كتابه .

وعندما يصف المؤتمر العسكري الذي عقده وترأسه الملك المظفر سيف الدين قطز ، فإنه يذكر كل الكلمات والجمل التي وصفت هولاكو بما هو فيه والتي صورته سفاكاً غادراً لا يرعى ذمة ولا يحفظ عهداً ولا أماناً .

أنه يذكر عن لسان ناصر الدين قيمري من كبار أعضاء المؤتمر قوله عن هولاكو : «لا يتورع عن احتزاز الرؤوس . وهو لا يفي بعهده وميثاقه» .

ويذكر عن لسان سيف الدين قطز قوله واصفاً ما جرى في البلاد التي مر بها هولاكو : «أن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ، وقضي على جميع ما فيها من حرث ونسل» .

ومن الحقائق التي عرفناها في كتاب «جامع التواريخ» حقائق مذهلة حقاً . فلم يكن يدور في خلدنا أن المحرضين للمغول على غزو المسلمين هم بعض المسلمين . وأن قاضي القضاة شمس الدين القزويني كان هو المحرض والمصر على التحريض والثابت عليه . فإن هذا القاضي أو قاضي القضاة هذا كان لا يحتمل وجود الإسماعيليين في قلاعهم المنيعة التي ارتدت عنها جحافل جنكيز ، فكان لا يفتأ يتوسل إلى منكوخان بمختلف الوسائل المثيرة ليحمله على توجيه هولاكو لمباشرة الغزو والتقدم إلى القلاع الإسماعيلية .

ولقد سار هولاكو وشعار حملته القضاء على الإسماعيليين الذين كان يسميهم الملاحدة . ويحدثنا رشيد الدين عن ذلك قائلاً عن هولاكو : «ثم أرسل عدة رسل إلى الملوك والسلاطين في إيران تشتمل على تلك

العبارات : «بناء على أمر القآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة . . .» .

تدابير ابن العلقمي

ويعرض لنا رشيد الدين التدابير المحكمة التي كان يعدها ابن العلقمي لدفع عادية المغول وكيف كان يفسدها الدوادار الصغير مجاهد الدين ، كما يحدثنا عما يشبه المؤتمر الذي عقده من يسميهم أمراء بغداد وعظماؤها في منزل ابن العلقمي الذين كان منهم سليمان شاه والذي اضطر على حضوره ـ على ما يبدو ـ الدوادار نفسه وكيف حمل الحاضرون على ضعف الخليفة مستشعرين الخطر الداهم وكيف قام ابن العلقمي بعد ذلك بإعداد الجند وعرضهم وكيف كان نقص المال يحول دون إكمال الأعداد وكيف أن الخليفة رفض مد الجند بالمال مما أفسد خطط الوزير . .

ثم يشير رشيد الدين إلى حقيقة إتهام ابن العلقمي قائلاً :

«ولما كان الدوادار ـ في تلك الفترة ـ خصماً للوزير فإن أتباعه من سفلة المدينة وأوباشها كانوا يذيعون بين الناس أن الوزير متفق مع هولاكوخان» .

كما يشير إلى أن سليمان شاه حين احضر بين يدي هولاكو واستجوبه هولاكو متسائلاً كيف لم يشر على الخليفة بما فيه الرأي ، وأن سليمان شاه أجابه بأن الخليفة لم يستمع لنصح الناصحين .

ومما يثير النفس أسى أن المستعصم الذي رفض أن يجود بالمل لاعداد الجيش وتنظيمه كما أراد ابن العلقمي ، يضطر بعد أن دخل المغول بغداد لأن يكشف لهولاكو عن حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفروا الأرض حتى وجدوه وكان مليئاً بالذهب الأحمر وكله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال ، كما يروي رشيد الدين .

ثم يقـول : وقصارى القـول أن كل مـا كان الخلفـاء قد جمعـوه خـلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل .

وبعـد فوات الأوان يـدرك المستعصم أن مـا قـد أشـار بـه ابن العلقمي كان هو الصواب وانه لو عمل بآرائه لما وصل الحال إلى ما وصل إليه . . .

ولمـا استـدعـاه هـولاكـو عـاد يستشيـر ابن العلقمي قـائـلاً لـه : مـا حيلتنـا ؟ . . فقال ابن العلقمي . «لحيتنـا طـويلة» . وكـان مـراده من ذلـك ـ كمـا نص رشيد الـدين ـ : (إنه عنـدما فكـر أول الأمـر في أن تـرسـل أحمـال وفيـرة لدفـع هذا البـلاء ، قال الـدوادار : «لحية الـوزيـر طـويلة» وحـال دون الأخذ بهذا الرأي واستمع الخليفة لكلامه وأهمل تدبير الوزير) .

ولا شـك أن الأمر الآن قـد خرج عن كـل تدبيـر ورأي . ومن صـراحـة رشيـد الدين استعمـالـه كلمـة الشهـادة لمن يقتله المغـول كمـا قـال عن تـاج الدين بن صلايا الأربلي : « . . . وعند محاكمته ثبت جرمه واستشهد» .

كـذلـك يشيـــر إلى مـا بلغ إليــه الملوك من الهلع الــذي حملهم على الاستخذاء استخذاء مزريا : فهو مثلاً يحـدثنا عن السلطان عـز الدين صـاحـب الـروم ، انه عنـدمـا فتحت بغـداد أمـر بصنـع حـذاء ملكي في غـايـة الجـودة ونقشت صورته على نعـل ذلك الحـذاء ثم قدمـه لهولاكـو أثناء معـاتبته إيـاه ، وعندما وقع نظر هولاكو على تلك الصـورة قبل عـز الدين الأرض وقـال : (إن أملي هو أن يشرف الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها) .

مجلدات الكتاب

يشتمـل كتاب جـامـع التـواريـخ على أربعـة مجلدات : الأول : يتعلق بتاريخ المغـول المشتمل على تاريخ القبائل التركية المغـولية وأجـداد جنكيز ، ثم جنكيـز نفســه ومن بعـده خلفـاؤه حتى غـازان . والثـاني : يتعلق بتـاريـخ الفرس قبل الإســلام ثم التاريـخ الإسلامي إلى سقـوط بغداد ، ثم الأمم التي

اتصل بها المغول في فتوحاتهم ، والثالث : يشتمل على أبعد عصور التاريخ حتى آخر خلفاء بني العباس والرابع : يشتمل على تفصيل حدود الأقاليم السبعة وولايات ممالك العالم .

على أن كاترمير يقول : لدينا الجزء الأول من كتاب رشيد الدين وهو الجزء الخاص بتاريخ المغول . وإنه الكتاب الوحيد الذي نستطيع العثور فيه على أصدق المعلومات عن حياة جنكيز خان وخلفائه وعن عهودهم .

ثم يتساءل كاترمير : هل الأجزاء الثلاثة الأخرى قد ضاعت دون أمل في العثور عليها ؟ وكان في نية كاترمير تحقيق أكثر مما يمكنه تحقيقه من المجلد الأول ولكنه لم يستطع تحقيق سوى القسم الخاص بهولاكو ونشره بالفرنسية مع مقدمة نفيسة طويلة سنة ١٨٣٦ .

ويقول يحيى الخشاب : إن حديث كاترمير عن (جامع التواريخ) قديم ، وقد جد الكثير عنه سواء من ناحية اكتشاف أجزاء منه لم تكن قد عثر عليها أيام كاترمير أو من ناحية النشر .

ومن أمثلة ذلك الطبعة التي صدرت سنة ١٨٥٨ وهي قسم من الجزء الأول متعلق بأجداد جنكيز وتاريخ جنكيز نفسه . وكان إخراج آخر جزء من هذا البحث سنة ١٨٨٨ باللغة الفارسية مع الترجمة الروسية وقد أخرج هذه الأجزاء المستشرق الروسي (برزين) .

كما صدر بعد ذلك ابتداء من أوائل هذا القرن أكثر من قسم من المجلد الأول كهذا الذي نشره المستشرق الفرنسي (بلوشيه) سنة ١٩١١ والذي نشر في إيران سنة ١٩٣٧ والذي نشره المستشرق التشكسلوفاكي (كارل) سنة ١٩٤٠ وكذلك سنة ١٩٤١ .

وهكذا يمكن القول أن المجلد الأول من جامع التواريخ قد نشر كله . كما نشر كارليان سنة ١٩٥١ القسم المتعلق بالفرنج من المجلد الثاني .

في اللغة العربية

كان عبد الوهاب عزام أول من دعا في العرب لنشر (جامع التواريخ) وترجمته والقى عام ١٩٤٧ محاضرة في الجمعية الجغرافية عن رشيد الدين تحدث فيها عن كتابه وضرورة القيام بنشر القسم العربي منه وترجمة بقية الأجزاء إلى اللغة العربية .

ثم مضت عهود وعهود فكان أن قررت إدارة الثقافة والإرشاد القومي في مصر أن تقوم بنشر هذا التاريخ . ولكننا لا نعلم أنه صدر في اللغة العربية غير قسم من المجلد الثاني ـ الجزء الأول وهو (تاريخ هولاكو) . نقله إلى اللغة العربية كل من محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ، وراجعه وقدم له يحيى الخشاب . وطبع سنة ١٩٦٠ .

كما نشرت مع هذا القسم السيرة الطويلة النفيسة لرشيد الدين التي كتبها المستشرق الفرنسي كاترمير والتي ترجمها محمد القصاص .

وكذلك نشر الجزء الثاني من المجلد الثاني .

ووعد يحيى الخشاب في آخر مقدمته بنشر ما ينجز من الكتاب الأول . ولا نعلم بعد هل تحقق شيء من هذا الوعد أم لا .

حرص رشيد الدين على حفظ مؤلفاته

كان رشيد الدين حريصاً على أن تصل مؤلفاته لا سيما جامع التواريخ إلى الأجيال الآتية . وقد كان يعلم ما كان يمكن أن يكون عليه ، أو ما كان عليه مصير كثير من الكتب حين لا يكون في أيدي الناس منها إلا نسخ محدودة تذهب بها أيدي الحثان لا سيما في العصور التي تكثر فيها الفتن وتعم الفوضى .

لذلك حرص أشد الحرص على أن يتخذ طريقة يكتب لمؤلفاته معها

الوصول من جيل إلى جيل ، فاستكتب عدة نسخ من كتبه مفردة ومجمعة ، بالفارسية وبالعربية . كما استكتب مجلداً ضخماً ضم كل مؤلفاته بالفارسية والعربية زيادة منه في الحرص على حفظها . وأودع ذلك في البناء الكبير الذي شاده في الربع الرشيدي ليكونْ مدفناً له . ثم توسع في الاحتياط فوقف قسماً من ثروته لكتابة نسخة بالفارسية ونسخة بالعربية في كل عام من مجموعة مؤلفاته كلها لترسل إلى مدينة من مدن الإسلام الكبرى وتوقف على أهل تلك المدينة ، وكتب وصية جميلة طريفة مؤثرة .

ولكن كل ذلك الحذر لم يفد وضاع ما ضاع من مؤلفاته ووجد ما وجد شأنه شأن كل المؤلفين في تلك العهود .

ولعل هذا الحرص هو الذي أوصل إلينا ما وصل ، ولولاه لضاع الجميع ، وقد كان مطمئناً إلى بناء الربع الرشيدي الذي حفظ فيه كتبه ، ولكن الربع كله نهب بعد نكبته واحترقت مكتبته كما قلنا .

جنكيز والمغول

قصة الغزو المغولي الفاجع من أضخم الأحداث في تاريخنا ، وقد كان لا بد من التنقيب والبحث ، والايغال في استقصاء الأخبار عن عوامل ذلك الغزو ، وعن وقائعه ، وما رافق تلك الوقائع من إباحة من الغازين ، ومن صمود وتناصر ، أو هروب وتخاذل من المغزوين .

ففي طيات ذاك الحدث المريع من القصص العجيبة ما يثير الفكرة بعد الفكرة ، وما يدعو إلى التأمل الطويل ، وما يجدر بنا الكشف عنه وبثه بثاً شاملاً لنستخلص ما نشاء من العبر والعظات ، مما لا بد منه في حياة الأمم المتوثبة إلى الحياة الكريمة ، الطامحة إلى مقامات العلى . . .

شعب شرس مجتاح

لم تكن هجمة المغول على البلاد الإسلاميه وغير البلاد الإسلامية أول هجمة تنقض بها تلك الجماعة على الناس مكشرة عن أنيابها باسطة أيديها بالسيف . . فقد سبقتها في التاريخ البعيد هجمات دامية عانت منها البشرية ما عانت ، وكابدت منها الأرض ما كابدت .

فمن تلك السهول المنبسطة في الشرق من آسيا ، ومن تلك البقاع الممتدة امتداداً طويلاً عريضاً حيث تقوم اليوم جمهورية (منغوليا) انطلقت على فترات متباينة من التاريخ موجات من الناس العتاة القساة ، كان قوام

حياتهم الغزو العنيف لجيرانهم في الصين وتركستان غزواً عماده القتل والسلب . بل كانوا إذا اعوز جماعة منهم ضرورات العيش ، لم تبال تلك الجماعة أن تستطيل على من هو أضعف منها من قومها ، فتقتل فيه وتسلب وتنهب وتعيث ما استطاعت العيث .

ومن سلالات تلك الجماعات الدموية عرف الكون قبائل (الهون) في القرن الثالث قبل الميلاد ، تلك القبائل التي تصدرت اكتساح أوروبا فهزمت (القوط) الجرمانيين ، وبدت بأقصى مظهر من مظاهر العنف والوحشية ، فنشرت في أوروبا الهلع المقيم المقعد .

وفيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين عرفت آسيا ما عرفت من البلاء من قبائل (تليو) المغولية التي كانت مواطنها على ضفاف نهري «أورخون» و «تولا» حيث تقوم اليوم «أولان بانور» عاصمة منغوليا .

لقد سيطرت قبائل تليو على المناطق الشاسعة فيما حولها وتحكمت بأهلها على اختلاف عشائرهم تحكماً قاسياً ، على أنها هي نفسها كانت محكومة حكماً جائراً لا رحمة فيه ، فقد كانت السيطرة فيها لطبقة معينة ، هي الفائزة بالمغانم والأموال ، وهي المتمتعة بالترف والنعيم . طبقة مؤلفة من القواد والحكام والقضاة وجامعي الضرائب ، تلتف حول مقدمها (الكاغان) ، وأما بقية الشعب فقد كان يتألف منها مجموعة الجيش ، وكان عليها أن تملأ بطونها وتسد خلتها بما تجنيه من المعارك وما تنهبه من المقهورين المهزومين .

الأمبراطور ابن الراعي

وتطورت بعد ذلك الأمور ، فقلت الفروق بين الطبقات بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين . ثم استطاع راع بسيط أن يسيطر بقوة شخصيته وجبروته على الموقف ويستولي على الحكم وأن يتزوج أميرة رزق منها ابنه (تيموشين) ويسميه ابن الأثير (تموجين) الذي ورث ملك والده .

وفي سنة ١٢٠٦ نودي بتيموشين (كاغنا) ولقبوه ب (جنكيزخان) أي مبعوث السماء[1] . وأطلق على القبائل كلها اسم القبائل «المنغولية» . (مبعوث السماء) هذا ، هو الذي مضى يفسد في الأرض ، بعد أن أعد قومه إعداداً جباراً ، مدخلاً في روعهم أنهم فوق كل الأقوام ، وأنه سيقودهم إلى السيطرة على الأمم ، وإلى الغنائم والأسلاب . وفي السنة نفسها التي تولى فيها الملك (١٢٠٦) نظم جيشه تنظيماً محكماً ، وصهر تلك القبائل المتفرقة صهراً جعلها كتلة واحدة .

---

(١) تعددت التفسيرات لكلمة جنكيز ، وقيل أن معنى جنكيز : القوي .

الدولة الخوارزمية

الدولة الخوارزمية التي واجهت الغزو المغولي ، دولـة قامت أول أمـرها تابعة لحكم سـلاجقة إيـران والعراق ، وعنـدما انهـار السلاجقـة قامت مستقلة على أنقاضهم لا يربطها بـالخلافـة العباسيـة في بغداد إلا الخـطبة للخليفـة . وبالرغم من أنها تهيأت لها موارد عسكرية ومـالية كبيـرة فإن صلتهـا بالشعـوب التي حكمتهـا كانت صلة واهيـة قامت على القهـر والعسف . وسيـطرت على الـدولة طبقـة عسكريـة من أتـراك مـا وراء النهـر لم تكتـرث بمن تحكمـه من جماعات ، بل عاملتها بالشدة والاستغلال والغصب .

أصل الدولة

وأصل هذه الدولة هو أن الأمير السلجوقي بلكباك اشتـرى مملوكاً اسمـه أنوشتكين كان على نبـاهة فـاشتهر أمـره وعلت منزلتـه ، ثم ولد لـه ولد اسمه محمـد فـأحسن تثقيفـه وتـأديبـه ، ثم حـدث أن خـلا منصب حـاكم خـوارزم سنـة ٤٩٠ في تفاصيـل ليس هنا محـل ذكرهـا ، فعهد إلى محمـد هذا بحكم خوارزم باسم شاه خوارزم على مـا عهد في حكـامها . ثم أقـر السلطان سنجر السلجوقي محمداً على منصبه فأبـدى كفاءة وثقت صلتـه بسنجر . ولمـا مات محمد تولى بعده ابنه اتسز الذي تقـدم عند سنجـر ، ثم فسد مـا بينهما فسـاداً أدى إلى مقتـل ابن اتسز في حـادث بينهما . فـانتقم اتسز لنفسـه بـأن حـرض (الخطا) على سنجر .

الخطا

وليس المجال مجال الحديث عن الخطا ولكننا نقول أن الخطا فيما يقول ابن خلدون : «هم أعظم الترك فيما وراء النهر» وأنهم : «أمة بادية يسكنون الخيام وهم على دين المجوسية» وإنهم : «كانوا موطنين بنواحي اوزكنده وبلاد ساغون وكاشغر» . وهم كذلك أتراك في رأي ابن الأثير ، إذ يعبر عنهم : «بالأتراك الخطا» ولكنه وهو يصف وقعة لهم ، يقول : «وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم في خدمة الخانية أصحاب تركستان» وعندما يسترسل في الحديث يقول : «وعنده جنود الترك والصين والخطا» ويقول أيضاً : « واستقرّت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر » .
و «الخطا» فيما يقول الدكتور حسين مؤنس : «أن العرب سموا التتار «الخِطا» وهي تسمية خاطئة لأن الخطا أو الخطاي في الحق هم أهل الصين» .

وسيكون لنا حديث مفصل عن الخطا في غير هذا الكتاب نحيل القارىء عليه إذا وفقنا لإخراجه .

بين الخطا وسنجر

والمقصود هنا أن نشير إلى أن اقسز حرض الخطا على السلطان سنجر وسهل عليهم أمره مغرياً لهم به فساروا إليه في ثلثمائة ألف فارس فاستطاعوا إلحاق الهزيمة به وقتل مائة ألف ممن معه . ثم التقى بهم مع حلفاء له في وقعة أخرى ، وهم مع حلفائهم ، فكانت هزيمته عامة شاملة استقر بعدها الخطا وحلفاؤهم فيما وراء النهر استقراراً كاملاً لم يقلقله بعد حين إلا شاه آخر من شاهات خوارزم هو علاء الدين محمد الآتي ذكره .

بين سنجر واتسز

وبهزيمة سنجر عاد اتسز إلى خوارزم التي كان سنجر قد أخرجه منها

ثم سيطر أتسز على سرخس ومرو الشاهجان ونيسابور وبيهق بل على خراسان كلها ، وأجرى في ذلك على الآهلين صنوف القتل والعسف .

وفي سنة ٥٣٨ عاد الصلح بين أتسز وسنجر بعد حصار سنجر لمدينة خوارزم حصاراً لم يستطع معه فتحها ، فعاد إلى مرو واستقر استز في خوارزم معلناً انقياده لسنجر . وفي سنة ٥٥١ توفي أتسز وكان قد تولى سنة ٤٩٠ ، فخلفه ولده أرسلان فافتتح عهده بقتل أعمامه وسمل عيني أخيه الذي يبدو أنه آثر الموت انتحاراً بعد ثلاثة أيام من سمله . ثم وثق علائقه بالسلطان سنجر وبذل له الطاعة والانقياد فكتب له منشوراً بولاية خوارزم .

سيرة اتسز

وصف ابن الأثير أتسز بأنه «كان حسن السيرة كافاً عن أموال الرعية منصفاً لهم محبوباً منهم مؤثراً للإحسان والخير إليهم وكانت الرعية معه بين أمن غامر وعدل شامل» .

على أننا لا ندري كيف نوفق بين هذا القول وبين ما ذكره ابن الأثير نفسه قبل ذلك وهو يصف استيلاء أتسز على ما استولى عليه من خراسان ففي مرو مثلاً يقول : أنه قتل كثيراً من أهلها وفيهم بعض العلماء . ويقول عن تسييره الجيش إلى بيهق ورجوعه عنها : «ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد وعملوا بخراسان أعمالاً عظيمة » .

ويبدو أن الرعية في نظر ابن الأثير وربما في نظر غيره من المؤرخين تنقسم إلى نوعين : نوع هو في الأصل من الرعية ، ونوع يراد إدخاله في الرعية وأن المعاملة تختلف في كل من النوعين ، مع أن كلاً منهما مسلم مواطن هو في نظر الشريعة مساو لغيره في المواطنية والعقيدة . صحيح أن عامة مرو لم يستسلموا بسهولة ولكن المقاومة لا تقتضي مثل تلك العقوبة .

علاء الدين تكش

والخطا الذين كـان اتسز قـد حرضهم على سنجـر عبروا سنـة ٥٦٧ نهر جيحـون وهاجمـوا ولده أرسـلان وهـزمـوه ولم يلبث أن مـات بعـد أن مـرض خلال الحرب . وكان ولده الأكبر علاء الدين تكش غائبـاً عن العاصمـة فتولى ولـده الآخر سلطان شـاه محمد ، فلم يـرض بذلـك علاء الـدين فتـوجـه إلى الخطا يستنصر بهم فنصـروه فتغلب على أخيه . وكـان من الطبيعي أن يـطالب الخطا بالثمن تحكمـاً وتسلطاً فأرسلوا وفـداً إلى علاء الـدين ، يطالب أول مـا يطالب بالمال فلم يستسلم علاء الـدين ، وزاد فقتل الـوفد وفيـه بعض أقربـاء الملك . فعاد هذه المـرة سلطان شاه يستنجـد بدوره بـالخطا فـأنجدوه بجيش كثيـر حاصـر خوارزم فلم ينجـح في فتحها . وامتـدت بعد ذلـك سلطة عـلاء الدين تكش إلى الري ومرو ونيسابور وهمذان ومـا إليها في أحـداث عديـدة . وبعد صدام مع الخطا استـولى على بخاري سنـة ٥٩٤ وفي السنة ٥٩٦ تـوفي خـوارزم شاه تكش عـلاء الدين بن أرسـلان ، فتولى بعـده ابنه محمـد وتلقب بلقب أبيه علاء الدين وكان يلقب من قبل قطب الدين .

محمد بن تكش

واستطاع محمد بن تكش أن يصل بالدولة الخـوارزمية إلى قمتهـا ، كما أنهـا انحدرت على يـديه إلى الهـاوية . ويعتبـر أشهـر الملوك الخـوارزميين ، وإذا كان مرد هـذه الشهرة في الأغلب هـو ما لقيـه من المغول ثم النهـاية التي انتهى إليهـا ، فإن لهـذه الشهرة عـوامـل أخـرى غيـر ذلـك ، منهـا أنـه حكم مستقـلاً عن السلاجقـة وغير السـلاجقـة ، ومنهـا أفـاعيله في الخـطا ، ومنهـا توسيعه رقعـة المملكة حتى لقـد امتدت بحسب التقسيم الجغـرافي الإسلامي القـديم من حد العـراق إلى تـركستـان ، ودخـل فيهـا بـلاد غـزنـة وسجستـان وكـرمان وطبـرستان وجـرجان وبـلاد الجبـل وخـراسـان وبعض فـارس وبعض الهنـد . على أننا نستـطيع القـول : أنها كـانت تمتد من إيـران إلى فرغـانة ،

ومن بحر أرال إلى منابع نهر الأندلس . وكانت عاصمنها (جرانج) الواقعة على نهر (أموداريا) وهو ما عرف باسم (جيحون) . ولا تزال أطلالها بادية في ضواحي مدينة (كن أورمنش) في جمهورية تركمانيا السوفييتية .

ويقول ابن الأثير : «لم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه» . ويقول صاحب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» : «قيل أن جيش علاء الدين بلغ أربعمائة ألف مقاتل» .

وفي سنة ٦٠٢ صانع الخطا بأن سلمهم ترمذ ولكن لم تجيء سنة ٦٠٤ حتى كان يعبر نهر جيحون ليهاجم الخطا أنفسهم بعد أن كان قد بلغ من اتساع الملك وكثرة الجند حداً كبيراً . وكان الخطا منذ هزيمتهم للسلطان سنجر الهزيمة الحاسمة قد فرضوا سيطرتهم المادية والمعنوية على البلاد الإسلامية المجاورة وجبوا منها الأموال وأذلوا الناس . وكان خان خانان حاكم سمرقند وبخارى ممن أرهقهم حكم الخطا ففاوض خوارزم شاه باسم الحمية الدينية في التحالف عليهم وأن يؤدي إليه ما يؤديه إليهم من الأموال وأن يذكر اسمه في الخطبة في بلاده .

بين علاء الدين محمد والخطا

فاقتنع علاء الدين بذلك وانصرف أول ما انصرف إلى تقوية أمره داخلياً في خراسان فغير وبدل في الإدارة وأعد العدد وجمع الجند والتقى بحاكم سمرقند للتشاور والتعاهد مما لم يكن خافياً على الخطا الذين أدركوا ما وراء ذلك من تهديد لهم فأسرعوا إليه وعبر هو جيحون إليهم فكانت وقعات كثيرة يوماً لهؤلاء ويوماً لهؤلاء . وانهزم المسلمون في إحدى المعارك هزيمة منكرة أسر فيها خوارزم شاه نفسه دون أن يعرف آسروه حقيقته ، وبهذا الجهل استطاع التخلّص من الأسر . وخلال افتقاده تقاسم ولاته وبينهم أخوه علي شاه حكم الولايات وألغوا اسمه من الخطبة ، فلما نجا من الأسر أخمد الحركات المضادة وعاد إلى السيطرة الكاملة وسطا بعنف وكان فيمن أمر

بقتلهم أخوه علي شاه وغياث الدين محمود الغوري الذي انتهى به ملك الغورية .

وصفت خراسان من جديد لخوارزم شاه محمد سنة ٦٠٥ وعاود سنة ٦٠٦ عبور نهر جيحون لملاقاة الخطا الذين استعدوا لقتاله بجموعهم ، فمضى إليهم مع حليفه سلطان سمرقند وبعد المعارك العنيفة انهزم الخطا وأسر كبيرهم . فمضى خوارزم شاه في بلاد ما وراء النهر يملكها «مدينة مدينة وناحية ناحية» حتى بلغ «أوز كند» وأقام نوابه فيما استولى عليه من مدن وعاد إلى خوارزم ، كما عاد حاكم سمرقند إليها مصحوباً بمندوب من خوارزم شاه .

انفصام الوحدة

ويبدو أن الخوارزميين لم يحسنوا السيرة في سمرقند وأنهم أسرفوا في العسف مضافاً إلى ما وجد نفسه فيه صاحب سمرقند من عدم انفراد بالحكم ومشاركة الخوارزميين له فيه ، مما أدى إلى أن ينسى حميته الأولى التي دفعته إلى الاستنجاد بالمسلمين على الوثنيين ، فعاد الآن يستنجد بالوثنيين على المسلمين . وهكذا كان أولئك الحكام جميعاً يكونون مخلصين بقدر ما يتفق الإخلاص مع مصالحهم فإذا تعارضا عادوا لا يبالون بشيء .

وأول ما فعله خان خانان أنه أمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزميين سواء منهم الساكنون فيها منذ القديم أو ممن أتوها حديثاً وغالى بالفظائع فكانوا يقطعون الرجل قطعتين ثم يعلقونه في الأسواق . واستمر في العسف حتى أنه قصد إلى زوجته ابنة خوارزم شاه ـ وكان قد تزوجها بعد النصر على الخطا ـ وأراد قتلها فسدت دونه الأبواب مع جواريها وأرسلت إليه متوسلة بأنها امرأة ولا ذنب لها فخلى عنها .

ولما بلغت الأخبار إلى خوارزم شاه ثار لذلك ثورة عنيفة وأراد أن يقتل كل من في خوارزم من الغرباء ، سمرقنديين وغير سمرقنديين فكانت

أمـه أكثر رحمـة منه فنهتـه عن ذلك وحين هم بـالسمرقنـديين وحدهم أصـرّت على نهيها فأطاعها .

وكم يشبـه هذا التصـرف ما يجـري بين بعض الحكام العـرب في هـذا العصـر . عندمـا يفسد مـا بينهم فيصبون جـام غضبهم على من يسكن بلدهم من رعايا مغاضبيهم فيأمرونهم بالرحيل حالاً دون ذنب اقترفوه .

وسـاق خوارزم شـاه على سمرقنـد حملة ضخمـة سـار هـو على رأسهـا فافتتحها وأذن لعسكره بالنهب والقتل فاستمر ذلك ثلاثة أيـام حتى لقد قيـل بأن عدد القتلى بلغ مائتي ألف قتيل .

أربعة شعوب تتلاقى

هنا تتداخل الأمور وتبرز شعوب جديدة وتظهر عوامل جديدة . وهنا تبدأ الخطوات الأولى للاحتكاك بين تلك الشعوب التي يجاور بعضها بعضاً ويتحفز بعضها للانقضاض على البعض الآخر ، فنحن الآن أمام أربعة شعوب يجعلها ابن الأثير ثلاثة ويجعل أحدها ذا وجهين . ولكنها في الحقيقة أربعة لا ثلاثة ، فابن الأثير كغيره من قدامى المؤرخين العرب يجعل المغول والتتار شعباً واحداً .

نحن هنا الآن أمام : الخوارزميين ، الخطا ، التتر ، المغول :

الخطا : الهازميين من قبل للمسلمين ، المتقاضين منهم الجزية ، ثم المنهزمين أمام علاء الدين محمد خوارزم شاه .

التتر : المعادين للخطا .

الخوارزميين : المنتصرين على الخطا .

ويأتي في النهاية المغول : الذين لم يكونوا قد برزوا إلى المسرح بروزاً كاملاً ، ثم يبرزون معادين للتتر .

ولا بد لنا من وقفة للتمييز بين التتر والمغول الذين اعتبرهم مؤرخو العرب القدامى جنساً واحداً كما قلنا من قبل ، فهم يعبرون ـ مثلاً ـ عن جنكيز خان وقومه بالمغول تارة وبالتتر تارة أخرى .

وابن الأثير يقول عن أحـداث خوارزم شـاه والخطا والتتـر والمغول : إن التتـر بقيادة ملكهم كشلي خـان كانـوا أعداء الخـطا . ثم لا يلبث أن يقول مـا نصه : « ثم اتفق خروج التتر الآخر الـذين خربـوا الدنيـا وملكهم جنكيز خـان النهرجي على كشلي خان التتري الأول ».

فهم كلهم عنده تتر وللتمييز بينهم يصنفهم : بالأول والآخر .

وفيما نرى: أن التتر في الأصل فرع من المغول خرجوا منهم، ثم انفصلوا عنهم مع الزمن انفصالاً تاماً جعلهم شعباً مستقلاً لا تربطه بالمغول إلا رابطة الأصل الواحد البعيد. وإن ظل يجمعه بهم تشابه الملامح وتقارب بعض الخصائص، وبذلك يكـون كشلي ملك التتر ، ولا حـاجة لابن الأثيـر أن يعبر عنـه بقولـه : « التتـر الأول »، ويعبر عن قوم جنكيـز خان : « بـالتتر الآخـر ». فكما أن كشلي ملك التتر فإن جنكيز خان ملك المغول .

تجاذب خوارزم شاه

كـان علاء الـدين محمد خـوارزم شـاه قـد أصبـح قـوة ضخمـة يخشى بـأسها ويحسب لهـا ألف حساب ، وتسعى مختلف القـوى للتحـالف معهـا ، وهذا ما حدث فعلاً عندما حفزت هزيمة الخطا أمـام خوارزم شـاه التتر بقيـادة ملكهم كشلي خـان لقصـد الخـطا ثـأراً لمـا بينهم وبينـه من عــداء متصـل . وتنـاسى الخطا مـا كـان من هـزيمتهم أمام خـوارزم شـاه واحتـلالـه لبـلادهم ففـاوضـوه على أن يتعـاونـوا معـاً في قتـال التتـر . وحـذروه بـأن التتـر لا بـد مهاجموه إذا انتهوا من الخطا . وفعل التتر الفعـل نفسه . وأرادوا خـوارزم شاه على محـالفتهم على الخـطا مشيـرين إلى مـا بينهم وبين أسـلافـه وبينــه من ترات .. فـأراد خوارزم شاه أن يستغـل الموقف فـأوهم كلا من الفـريقين بأنـه معه وسار بجيوشه فنـزل قريبـاً من الفريقين مـوهماً كـلا منهما بمناصرته له، وما هي أن نشبت الحـرب ورأى الخـطا يـأخـذون في الأنهــزام حتى مـال عليهم يقتـل ويأسـر وينهب حتى كاد يبيـدهم ، وأرسل إلى كشلي يمننـه بما صنـع ،

فاعترف له كشلي بذلك ولكنه طلب إليه أن يقاسمه بلاد الخطا التي احتلها خوارزم شاه . فأبى ذلك خوارزم شاه ووقع الشر بينهما فكان خوارزم شاه يتحامى مواجهته حرباً إلى أن ظهرت القوة الأخرى قوة المغول بقيادة جنكيز خان التي هددت التتر فانشغلوا عن خوارزم شاه الذي تسلل عابراً نهر جيحون إلى خراسان . ولم تتجاوز هذه الأحداث سنة ٦٠٤ وهكذا كان الموقف العام سنة ٦٠٤ ملائماً لخوارزم شاه حيث ظهر جنكيز خان منافساً لكشلي فكان في ذلك نجاة لعلاء الدين محمد بن تكش ، وتنقضي على ذلك ثلاث عشرة سنة يختفي فيها ذكر هذه الشعوب المتنافسة .

مطامع خوارزم شاه

كانت لشاه خوارزم علاء الدين محمد بن تكش مطامع واسعة . وكان من مطامعه ، ولنا أن نقول من مطامحه : أن يدوي اسمه في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ويعبر ابن الأثير عن ذلك بقوله في الكامل : « كان يهوى أن يخطب له في بغداد ويلقب بالسلطان »، ولا شك أن ما سبق وحدث في بغداد قد أغراه بهذا (الهوى) فمن قبل خطب للبويهيين ثم للسلجوقيين مقرونة اسماؤهم باسماء الخلفاء . ولكن الأمر هذه المرة كان على غير ما كان عليه أيام البويهيين والسلاجقة ، فالفريقان استغلا ضعف الخلافة وهوان الخلفاء ، ففرض كل منهما نفسه فرضاً على بغداد بقوة الساعد ونفوذ السيف .

أما اليوم فإن الخليفة (الناصر لدين الله) قد حرر عاصمته وحرر نفسه من كل نفوذ آخر ، وبسط سلطته بسطاً ثابتاً ، وأعاد للخلافة الكثير من بريقها الماضي وهيبتها السالفة ، مما جعله يعرض عن (هوى) شاه خوارزم ويرده رداً حاسماً .

وأكثر من ذلك فقد كان إذا ورد (الشاه) بغداد لا يعامل المعاملة التي يرى أنه يستحقها . يقول ابن الأثير : « وكان سبيله إذا ورد بغداد أن يقدم غيره عليه ولعل في عسكره مائة مثل الذي يقدم سبيله عليه ، فكان إذا سمع بذلك يغضبه ».

الجيوش توجه إلى الأهل

في الحين الذي كان (مبعوث السماء) يحشد قومه على حدود خوارزم ويثير فيهم الروح العسكرية الطاغية ، وينظم جيشه تنظيماً دقيقاً كان خوارزم شاه مشغولاً بالحصول على الألقاب ومتلهياً بطلب ترديد اسمه على منابر بغداد . بل كان العالم الإسلامي كله متمزقاً يقاتل بعضه بعضاً ويثب فيه القوي على من يحسبه أضعف منه ، وما خوارزم شاه إلا مثال لغيره من المتسلطين في تلك الأيام . وتذكر شاه خوارزم أنه قوي وأن السلاجقة وقبلهم اليويهيون قد لجأوا إلى القوة فكانوا أصحاب السلطة في بغداد يتلقبون بما يشاؤون ويضعون اسماؤهم حيث يريدون ، فقرر التشبه بهم والزحف على بغداد . ولكن الثلوج أعاقت تقدم جيوشه وأبادت منها ما أبادت ، فأوقف الزحف راجعاً إلى خراسان .

ولم يكن أمر المغول خافياً عليه ، ولا كانت أهدافهم مجهولة منه ، ومع ذلك تخلى عن الإعداد لهم ووجه جيوشه إلى بغداد ، والدليل على ذلك أن ابن الأثير يقول وهو يصف ما حل بالجيوش الخوارزمية المنطلقة إلى بغداد : (ومات كثير منهم وطمع فيمن بقي بنو ترجم الأتراك وبنو هكار الأكراد فتخطفوهم فلم يرجع منهم إلا اليسير ، فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق وعزم على العود إلى خراسان خوفاً من التتر) . إذاً فالخوف من التتر كان وارداً في ذهنه ، ماثلاً أمام عينيه ، ومع ذلك ساق الجيوش إلى بغداد ليفوز بترديد اسمه على منابرها .

وعاد علاء الدين إلى بلاده وظل هاجسه الانتقام من الخليفة الناصر لدين الله لما ألحقه به من مهانة فلم يجد أفضل من أن يعامله بمثل ما عامله الناصر ، لذلك قطع الخطبة باسم الناصر فيما تحت يده من بلاد .

ذهنية عجيبة

ولنتعرف إلى الذهنية المسيطرة على العقول يومذاك ، نذكر أن ابن

الأثير ـ بالرغم من رصانته بالنسبة إلى غيره ـ قد شمت بما نال خوارزم شاه على أيدي المغول بعد ذلك .. فقد قال ابن الأثير معلقاً على قطع الخطبة باسم الناصر ومشيراً إلى خوارزم شاه : « .. فبقيت كذلك إلى أن كان منه ما كان ، وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي ، لم يقصده أحد بأذى إلا لقيه فعله وخبث نيته ، لا جرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله قديماً وحديثاً ».

بهذا المستوى من التفكير كان يعالج أمر الخطر المغولي .. ومؤرخ بمنزلة ابن الأثير يرضيه أن يضرب خوارزم شاه على يدي جنكيز خان وتسحق بلاده وتدمر أرضه ، لأن ابن الأثير يرى في ذلك عقاباً إلهياً لمن تجرأ فتعرض (للبيت العباسي الشريف).

وليت ابن الأثير عاش فأدرك عصر هولاكو حفيد جنكيز خان حين تعرض (للبيت العباسي الشريف) لا بقطع الخطبة فحسب بل بالإذلال والقتل والقضاء على الخلافة فلم (يلقه فعله وخبث نيته)، وإن البيت العباسي وغير البيت العباسي ، لا يحميهم الله حين لا يحمون شعوبهم ، ولا يعزهم الله حين يذلون أمتهم ...

على أن ابن الأثير نفسه لا يلبث حين يتحدث بعد ذلك عن نهاية خوارزم شاه أن يرثيه بمثل هذا القول : « ... وكان فاضلاً عالماً بالفقه والأصول وغيرهما ، وكان مكرماً للعلماء محباً لهم محسناً إليهم يكثر مجالستهم ومناظرتهم بين يديه ، وكان صبوراً على التعب وإدمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات وإنما همه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظماً لأهل الدين مقبلاً عليهم متبركاً بهم .. ».

وحدة بالقتل والإفناء

يرى ابن الأثير أن العامل الأكبر فيما كتب للمغول من فوز كان « أن خوارزم شاه محمد كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي هو

وحده سلطان البلاد جميعاً فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ».

ولا يستطيع المؤرخ الحديث إلا أن يقف طويلاً أمام هذا الرأي يقلبه على وجوهه ، بل أن هذا المؤرخ لتأخذه الحيرة كل الحيرة من هذا القول يرسله مؤرخ معاصر ، إذا كان لم يشهد الأحداث عن كثب ، فقد كان على كل حال ، قريباً منها مصغياً إليها ، سامعاً أخبارها عند حدوثها خبراً بعد خبر [1] . .

لقد كان يبدو لنا أن تمزق البلاد إلى سلطات متعددة وإمارات متنوعة هو اليوم وقبل اليوم ، هو في عصر الصهيونية الآثمة كما في عصر المغولية المجرمة ، عامل الضعف الأول وسبيل العدو الأفضل . وإن تجميع الشمل في وحدة شاملة هو السند القوي . ولكن نظرية ابن الأثير تظهر الأمر على غير ما نعتقد ونجزم .

فكيف كان استيلاء خوارزم شاه على البلاد وبقاؤه وحده سلطانها جميعها ، كيف كان ذلك هو سبب الهزيمة وعلة النكبة ؟

إن ابن الأثير نفسه قد أجاب على ذلك بكلماته القليلة التي قرن بها رأيه هذا ، وهو وإن لم يقصد التعليل ولم يرد التفصيل ، فإن عباراته على إيجازها تدل دلالة واضحة على جوهر الأمر . إن ابن الأثير يوجز تصرف خوارزم شاه بأنه (قتل ملوكها وأفناهم) .

إذن فسبيل التوحيد كان (القتل والإفناء)، وإذا كان ابن الأثير لم يذكر إلا الملوك ، فمن البديهي أن الملوك لم يقتلوا ولم يفنوا إلا بعد استحرار القتل في الشعوب وإشرافها على الفناء .

ومن المؤكد أن (القتل والإفناء) كانا شعار الحكام منذ العام ٤١ من

---

(١) كان ابن الأثير يومذاك في بلاد الشام .

الهجرة ، وأن هذا الشعار هو الذي أوقع في الأمـة النكبة بعـد النكبة ، ومـزق صفوفها وجعلها فريسة الفتن والخصام .

علاء الدين ومبرر الهجوم

لم يكن جنكيز خان بحاجة لمبرر ، لكي يقذف بفيالقه التي أعدها أحسن إعداد إلى البلاد الإسلامية ، ومع ذلك فإن خوارزم شاه قد أعطاه المبرر وفتح له الباب ليلج منه جباراً طاغياً بقوم متعطشين إلى الدم ، متحفزين لكل شر .

لقد كان جنكيز خان سيزحف حتماً إلى بلاد خوارزم شاه ، سواء أعطاه خوارزم شاه المبرر أم لم يعطه إياه ، هذا ما يلوح لكل ذي فكر وما يستنتجه كل ذي بصر .

ولكن الوقائع كانت في أول أمرها تتجه غير هذا الاتجاه ، فإن جنكيز خان كان قد (فارق بلاده وسار إلى نواحي تركستان) ، كما ينص ابن الأثير ، وما أدرانا أن لو واصل جنكيز خان سيره ، ولم تحوله أفعال خوارزم شاه عن خطه الأول ـ ما أدرانا ماذا كان يمكن للأقدار أن تفعل وماذا كان يمكن أن يطرأ على خطط المغول من تبديل وتغيير ؟

ولكن تصرف خوارزم شاه الأهوج وموقفه غير المتسم بالحكمة والروية ، عجل بالصدام وجعله محتوماً وأدى إلى أن تكون مملكة خوارزم شاه هي الهدف الأول .

الوضع الاقتصادي المغولي

يبدو أن جنكيز خان كان بحاجة إلى أن يعد لرجاله كسوة تنقصهم في سيرهم الطويل نحو تركستان ، فبعث بجماعات تحمل منتوجات بلاده لبيعها في مملكة خوارزم شاه ، ثم تشتري بثمن ما باعت كسوة وتعود بها .

ويهمنا أن نعلم ماذا كانت بلاد المغول تصدر ، بعد أن عرفنا ما تريد أن تستورد ، وفي هذا ما يعطينا فكرة عن نوع التعامل بين البلاد في ذلك الزمن ، وما يوضح أمامنا بعض ملامح الوضع الاقتصادي المغولي .

ومن حسن الحظ أن ابن الأثير قد أشار إلى ذلك إشارة عابرة ، ولكنها ثمينة . فقد قال وهو يتحدث عن هذه القصة : « وسيَّر ـ أي جنكيز ـ جماعة من التجار الأتراك ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى بلاد ما وراء النهر : سمرقند وبخارى ليشتروا له ثياباً للكسوة » .

وهكذا عرفنا خلو البلاد المغولية من صناعة النسيج وقيام اقتصادها على قواعد بدائية عمادها الصيد ، وأن أقصى ما يمكن أن تصدره هو جلود الحيوانات المعدة فراء ثميناً [١] أما النوع الآخر والذي يمكن اعتباره أكثر عراقة في البدائية ، كما يمكن اعتباره عماد الاقتصاد العالمي على مر العصور ، (النقرة)، فإنها حين تنهب من الشعوب ثم تذاب وتكدس ليقايض عليها بالكسوة ، تكون في ذلك معرقة في البدائية الشرسة [٢] . .

وقد رأينا أن ابن الأثير قد أضاف إلى كلمتي : « القندر والنقرة » كلمة « وغيرهما » مما دل على أن في صادرات بلاد المغول غير هذين النوعين ولكن هذين النوعين هما الأساس ، وغيرهما ثانوي قليل . وليت ابن الأثير

---

(١) القندر أو القندس : حيوان مائي لبون من رتبة القواضم ، له ذنب مفلطح قوي ولون أحمر قاتم ، تتخذ منه الفراء ، معرب كندسك بالفارسية .

(٢) النقرة : القطعة المذابة من الذهب والفضة .

سمى لنا ما قصد (بغيرهما) إذن لزادنا بذلك معرفة على معرفة .

المال يعمي البصائر

هذه الصلات التجارية التي افتتح بها جنكيز خان روابطه مع مملكة خوارزم والتي كان يخيل للناظر أنها ربما كانت فاتحة علائق غير سيئة بين الطرفين ، أصبحت فاتحة شر مستطير صار بمملكة خوارزم ، وبعلاء الدين محمد بن تكش شاه خوارزم ، ثم بما طالته أيدي المغول في تلك الفترة الرهيبة ، إلى أفظع مصير . .

ذلك أن أولئك التجار مضوا إلى مملكة خوارزم ، فوصلوا أول ما وصلوا إلى مدينة (اوترار)، وهي أول مدينة يصلها القادم إلى خوارزم ، ومن البدهي أنهم كانوا من الكثرة بحيث يبرز وجودهم في (اوترار) بروزاً واضحاً ، فلم يدعهم والي (اوترار) يؤدون مهمتهم بسلام ، بل أرسل إلى علاء الدين يخبره بأمرهم وبما يحملونه من مال وافر . ويبدو أن بريق (النقرة) وصفاء (القندر) قد أعشيا عقل علاء الدين ، وإن ما وصفت به تلك السبائك وتلك الجلود من الكثرة والوفرة قد غطى على بصيرته فلم يعد يفكر بغير الغنائم والأسلاب ، ولم يعد يرى غير المال . فأرسل إلى واليه في (اوترار) يأمره بقتل التجار حملة الذهب والفضة ونقلة الفرو الثمين ، واحتواء جميع ما يحملونه وانفاذه إليه (وكان كثيراً) ـ على حد تعبير المؤرخين ـ فنفذ واليه أوامره فقتل التجار جميعاً وقبض ثرواتهم وأنفذها إلى خوارزم شاه فأسرع هذا ببيعها على تجار بخارى وسمرقند وقبض أثمانها .

وجهاً لوجه

لـو أن الفـطنـة التي لمعت في ذهن خـوارزم شـاه بعـد أن قتـل تجـار المغـول ، كانت قـد ومضت له قبـل أن يفعل فعلتـه لاعتبـر قـائـداً حكيمـاً ، يعرف كيف يزن خطواته ويعـالج متـاعبه . ولكن الحـذر الذي بـدا أنه يتحلى به جاء متأخراً جداً . فإنه بعد أن أمر واليه في (اوتـرار) بقتل مـوفدي جنكيـز ومصـادرة أموالهـم دون تـرو وتفكير في العـواقب ، وبعد أن أوقـع الواقعـة بينه وبين الطاغية ، دون النـظر إلى قوتـه وتقديـر تلك القوة ، ومـدى مقدرتـه على مقاومتها واستـطاعته الـوقوف في وجههـا ، عاد يفكـر فيما كـان يجب أن يفكر فيه من قبل ، عاد يفكر حين لم تعد فائدة من التفكير . .

إذا أنـه أرسل جـواسيسه إلى جنكيـز خان يتحـرون له حقيقـة قـوة هـذا المتحفـز للانتقـام المتربص بـه ساعـة الانقضاض ، وليـروا بأعينهم صـدى ما جرى على تجاره وموفديه من قتل وسلب ، ومـاذا يبدو أنـه يريـد أن يفعله رداً على ما جرى .

ومضى الجواسيس ثم عادوا بعد رحلة بعيدة شاقة حـاملين صورة رهيبـة لمـا رأوا وما سمعـوا . ولكي نترك الصـورة على ما عـرفها سـامعوهـا يومـذاك نـدع كلمـة ابن الأثيـر تـظهـر كمـا هي حين قـال يصف عـودة الجـواسيس : « . . . فعـادوا بعد مـدة طـويلة واخبـروه بكثـرة غـددهم وأنهم يخـرجـون عن الإحْصـاء وأنهم من أصبر خلق الله على القتـال ، لا يعرفـون هزيمـة ، وأنهم

يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم ».

وهكذا نرى أنه قد تجمع للمغول كل مقومات الجيش المستصري ، كثرة عدد ، وصبر على الشدائد وتمرس بالحروب ، وتعود للنصر ، واكتفاء ذاتي بالسلاح . وهي صفات مخيفة حقاً جعلت خوارزم شاه في وضع يقول عنه ابن الأثير : « فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم . وحصل عنده فكر زائد ».

استشارات

فرأى أن يستشير أهل الرأي فيما ينبغي عمله . وقسم الاستشارة إلى نوعين : استشارة فردية لشخص بعينه كان يثق به ويطمئن إليه ، يبدو أنه كان بمثابة مستشاره الدائم لدى الأزمات، وهو الشهاب الحوفي .

واستشارة جماعية لأمرائه ورجاله مجتمعين . ويصف ابن الأثير المستشار الشخصي لخوارم شاه بأنه : « فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف ما يشير به ».

فالصفة الأولى للرجل هي أنه فقيه ، ولكن الأعتماد على آرائه لا يدل على أنه فقيه متواكل متكاسل متخاذل ، مكتف من الفقه بمواعظ يرددها وأحكام يطلقها ، بل هو الفقيه العالم ـ كما يريده الإسلام ـ رجل العلم والعمل والجد والمشاركة في الشؤون العامة مشاركة صحيحة سليمة .

وحين نرى ما أشار به ندرك أنه كان أهلاً للثقة التي وضعها فيه خوارزم شاه ، وأنه ليس عالماً مفكراً فحسب ، بل هو أيضاً مخطط عسكري ومشير حربي ، لا نستطيع على بعد ما بيننا وبينه إلا أن نحترم آراءه .

ولا نشك أبداً بأن خوارزم شاه لم يستشره في فعلته الأولى ، وإنه لو استشاره لما أشار بقتل الوفد التجاري المغولي والاستيلاء على أمواله . ففضلاً عما في هذا الرأي من منافاة لدين الفقيه وأخلاقه فإنه مناف للسداد

والحكمة والصواب مما لم يكن يخفى على الشهاب الحوفي .

لقد كان من رأي المستشار خطة لا هي بالهجوم المحض ولا بالدفاع المحض ، بل هي بينهما ، وإن كانت في النهاية تفضي إلى الدفاع لا إلى الهجوم .

لقد كان من رأي الشهاب إن يستنفر خوارزم شاه الأطراف ويجمع العساكر أو بالأحرى أن يعلن ما نسميه في مصطلحنا الحديث : « التعبئة العامة ». ثم تتحرك الجيوش في اتجاه أرض المغول حتى تصل نهر (سيحون) وهو النهر الكبير الفاصل بين المغول والخوارزميين ، وعلى ضفة النهر ترابط القوى الخوارزمية جاعلة من النهر حائلاً مائياً بينها وبين أعدائها ، تاركة محاولة العبور الشاقة للعدو بعد أن تكون قد سبقت إلى الضفة فاستراحت منتظرة وصول العدو المتعب المكدود فتقاتله مستريحة .

أما رأي العسكريين والإداريين فقد كان على العكس من ذلك ، لقد كان رأياً دفاعياً محضاً ، يرى بأن يترك العدو يعبر النهر ، ثم يوغل في الجبال والمضايق فيكون في طريق يجهلها ، بينما يعلمها الخوارزميون .

الصدام المروع

على أن جنكيز خان قطع عليهم الحوار بمجموعة من رجاله أوفدها إليهم حاملة إلى خوارزم شاه التهديد والوعيد ، قائلاً : « تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به ». فقبض خوارزم شاه على رئيس الوفد فقتله وأمر بحلق لحى الباقين وأعادهم إلى جنكيز خان يخبرونه بما حدث لهم ولرئيسهم ويقولون له إن خوارزم شاه سائر إليك كي يلحقك بأصحابك .

وهكذا أصبح خوارزم شاه ملزماً بالزحف إلى عدوه محاولاً مباغتته وأخذه على غرة وظل في سيره أربعة أشهر حتى انتهى إلى ديار المغول فلم يجد فيها المقاتلة ، بل وجد النساء والصبيان والأطفال فغنمهم ، وغنم

ما في ديارهم ، وقبل أن يقفل راجعاً ، كان الخبر قد وصل إلى المغول الذين كانوا قد تركوا ديارهم في غزو لهم لبعض الأتراك عادوا منه منتصرين ، فأسرعوا عائدين إلى ديارهم فأدركوا فيها الخوارزميين ، فاشتبكوا معهم في قتال عنيف دام ثلاثة أيام بلياليها وسقط فيها ما لا يحصى من القتلى ، وصبر الفريقان وثبتا لا يحولان .

لم يكن الجيش الذي اصطدم بالخوارزميين هو الجيش الرئيسي ، ولا كان في قيادته جنكيز نفسه ، بل كان الجيش بقيادة ولده ، وكان جنكيز لم يصل بعد . وبلغ عدد قتلى الخوارزميين في هذه المعارك العشرين الألف القتيل .

وأيقن الفريقان أن أحدهما لن ينال من الآخر منالاً ، وأن كلاً منهما صامد صابر لا يستطيع عدوه أن يكسب النصر عليه . وحين أقبل الليل عزم كل منهما على الأنسحاب دون أن يشعر الفريق الآخر بذلك لئلا يتعقبه فيحيل انسحابه إلى هزيمة ، ولذلك عمد المغول إلى إيقاد نيرانهم وتركوها منسحبين ، وكذلك فعل المسلمون .

الهزيمة النفسية

وإذا كانت هذه المعارك لم تنته بهزيمة خوارزم شاه العسكرية ، فإنها انتهت بهزيمته النفسية .

أما الخطة الجديدة التي باشر خوارزم شاه تنفيذها فقد كانت خطة انهزامية بحتة ، كانت تقضي هذه الخطة بعدم الاصطدام بالمغول بنفسه ، فانسحب إلى بخارى مستعداً للحصار . ثم ترك من جيشه عشرين ألف فارس في بخارى لمشاركة أهلها في الدفاع عن مدينتهم ، وكذلك فعل في سمرقند فترك لهم خمسين ألف فارس ، وأمر أهل المدينتين بجمع الذخائر والمؤن استعداداً لحصار طويل ، ووعدهم بالعودة إليهم بعد جمع العساكر الجديدة والاستنجاد بالمسلمين . .

ثم مضى ذاهباً إلى خراسان فعبر نهر جيحون ونزل بالقرب من مدينة بلخ حيث اتخذ من ذاك المنزل مقراً له .

المغول يزحفون

وأما المغول فبعد أن حشدوا قواهم وأعدوا أمرهم ، زحفوا يطلبون (ما وراء النهر) فوصلوا أول ما وصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزم شاه إليها ، فأحكموا حصارها (وقاتلوها ثلاثة أيام قتالاً شديداً متتابعاً)، على حد تعبير ابن الأثير . ولكن الملك كان قد أعدى شعبه بروح الهزيمة وسرى الفشل النفسي منه للناس بعد أن رأوه يبتعد عن طريق المغول ، ويوكل للناس أن يدافعوا عن أنفسهم ، وهكذا فإن الحصار الذي حسبه خوارزم شاه طويلاً لم يطل أكثر من ثلاثة أيام ، وكان أول المنهزمين العشرين الألف الفارس الذين تركهم (الشاه) في بخارى ، فخرجوا منها يطلبون خراسان ، وأصبح أهل بخارى وقد رأوا أنفسهم وحدهم ، ورأوا أن من عندهم قد تركهم ، فهل يطمعون بعد ذلك بالنجدات تأتيهم من الأقاصي . لذلك فإننا لا نعجب إذا رأينا أنه لم يبق في نفوسهم بقية قوة ولا في معنوياتهم أثر لم ينهدم ، فقرروا التسليم وجعلوا رسولهم إلى المغول قاضي البلد (بدر الدين قاضي خان) فطلب من المغول الأمان لأهل بخاري فأعطوهم الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لهم يوم الثلاثاء (رابع ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة) فدخلوها ولم يتعرضوا لأحد من أهلها بأذى . وكل ما فعلوه هو أن طلبوا من البخاريين معاونتهم على قتال من بقي في القلعة من الخوارزميين . ذلك أن بقية من الفرسان لم تستطع الانسحاب مع من انسحب فلجأت إلى القلعة .

وأضافوا إلى هذا الطلب طلباً ثانياً هو أن يقدموا لهم كل ما لشاه خوارزم من مال وذخيرة . ثم ساروا فيهم أحسن سيرة .

وأقبل جنكيز خان على المدينة ودخلها مشرفاً بنفسه على حصار من

بـالقلعـة من الخــوارزميين ، وطلب بـأن لا يتخلف أحــد من البخـاريين عن المشاركة في هذا الحصار ومن تخلف قتل .

فاستجاب البخاريون فـأمرهم بـردم الخندق المحيط بـالقلعة بـالأخشاب والأحجار وكان المغول يقتلعون منابر المسـاجد ويحملون ربعـات القرآن التي تـودع عادة في المسـاجد بكثـرة ، واضعين كل ذلـك في الخندق مسـاعدة في ردمه .

أمـا الذين في القلعـة فكانـوا لا يتجاوزون الأربعمـائة الفـارس فصمدوا في القتـال اثني عشر يـوماً ، ولمـا تم ردم الخندق ووصـل المغـول إلى سـور القلعة نقبوه على من في القلعـة فاشتـد القتال واستمـات الخوارزميـون بحيث أعجـزوا المغول عن أن ينـالوا منهم منـالاً ، وقد استعملوا في قتـالهم كـلٍ مـا وصلت إليــه أيـديهم ، استعملوا السهــام والحجـارة والنــار ، فـاشتــد حنق جنكيـز خان عليهم ، وأمـر بالارتـداد عنهم ، ثم بـاكـرهم من الغـد فصمـدوا صمودهم بالأمس ولكنهم كانوا قد أعيـوا ، وظلوا يقاتلون حتى أبيدوا .

مصير بخارى

وهنـا تفرغ جنكيـز خان للبخـاريين فـطلب أن يكتب لـه اسمـاء رؤسـاء البلد ، ثم أحضـرهم بين يـديـه وطـالبهم بمــا اشتـروه من خــوارزم شـاه من الأمـوال التي أخذهـا من تجار المغـول المقتولين ، وقـال لهم : هذه الأمـوال أمـوالنا ، فـراح كل من عنـده شيء منها يعيـده ثم أمـر النـاس بـالخـروج من البلد .

فخـرجوا لا يحملون سـوى ملابسهم على أجســادهم ، وانطلق المغـول في بخارى يقتلون وينهبون ويهدمون ويهتكـون الأعراض . ووجـد من أبى أن يحتمل ما نـزل من الهوان والشنـار فجرد سيفـه يقاتـل حتى قتل ، وبين هؤلاء الفقيـه ركن الدين إمـام زاده وولده والقـاضي صـدر الـدين خـان . ثم أشعـل المغول النار بالمدينـة ، ومضوا عنهـا إلى سمرقنـد مستصحبين معهم من سلم

من البخاريين أسارى .

لم يكن رجل الموقف

بعد المعركة الأولى التي التقى بها خوارزم شاه بالمغول وانسحب عنهم بجيشه ، لم يحاول أن يلتقي بهم بنفسه ، وكان قد ترك في سمرقند خمسين ألف مقاتل ليدافعوا عن سمرقند مع السمرقنديين . ثم أخذ يحاول جمع المقاتلة وإرسالهم إلى سمرقند مدداً لها ، ولكن الرعب كان قد سيطر على النفوس ، فكان إذا أرسل نجدات تملصت ولم تصل إلى سمرقند فقد أرسل مرة عشرين ألف مقاتل لينضموا إلى حامية سمرقند فلم يواصلوا السير ، وكذلك أرسل مرة عشرة آلاف ففعلوا كالأولين .

والواقع أنه ما دام الرعب قد سيطر على القائد الأول ، وما دام الرجل الذي جعلته المقادير زعيم المقاومة ، ما دام ينهار بعد الصدمة الأولى ، فلماذا نلوم تلك الفرق من الجند على تملصها من القتال ما دامت تجد القائد الزعيم الموجه مرعوباً مستسلماً لليأس ، بعيداً عن المعركة .

وإذا كان ما يفصلنا عن تلك الأحداث أزمان بعيدة متطاولة ، فإن هذا البعد الزمني لا يحول بيننا وبين الحكم على الناس والأحداث ، ومن النظر نظرة واقعية صحيحة إلى المسؤولين عما جرى .

من هنا نستطيع القول أن علاء الدين محمد خوارزم شاه لم يكن الرجل المعد لمثل هذه الأحداث . ومن سوء حظ المسلمين في ذلك العصر أن الذي واجه رجلاً مثل جنكيز خان هو علاء الدين محمد ، فعندما لاحت له المغانم في أيدي تجار المغول سهلة هينة أسرع لانتهابها وقتل أصحابها ، متصرفاً تصرف الرجل الأحمق الذي لا تسيره إلا المطامع الرخيصة . وعندما جد الجد فر من الميدان وتباعد عن لقاء العدو تاركاً عبء ذلك على شعب حائر مشتت يفتش عمن يقوده فلا يجد .

لقد كان عليه أن يتحمل مسؤولية عمله وأن ينفخ في الأمة روح

الجهاد ويثير فيها كوامن الحماسة فيؤلب الجموع معطياً لها من بسالته بسالة ومن صموده صموداً ، وأن يكون القدوة والمثل لكل فرد من أفراد الشعب .

ولم تكن القوى التي يمكن حشدها قوى قليلة ، ولا كانت حماستها حماسة ضئيلة ولكن ذلك لم يكن ليجدي شيئاً إذا كان الرأس ضعيفاً متخاذلاً ، فلقد كان من الممكن خوض معركة طاحنة مع المغول ، إذا أمكن أن لا تنتهي إلى النصر ، فإنها كان يمكن أن لا تعطي المغول نصراً سهلاً رخيصاً .

فجموع البخاريين مع حاميتهم وجموع السمرقنديين مع حاميتهم ، وجموع كل مدينة مع ما يمكن إعداده من مقاتلة ومجندين ، كان يمكن أن يقف في وجه المغول وقفات بطولية ربما صدتهم وحولت وجهتهم .

وقد رأينا ما فعلت إرادة القتال وقوة النفس في المعركة الأولى التي خاضتها القوات الخوارزمية بقيادة علاء الدين نفسه حين اصطدم بابن جنكيز خان . فقد صمد المسلمون صموداً بطولياً ولم يتزحزحوا عن خطهم القتالي قيد أنملة واضطروا المغول إلى الانسحاب .

ويقول ابن الأثير عن تلك المعركة : « . . . واقتتلوا قتالاً لم يسمع بمثله فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين ما لا يعد ، ولم ينهزم منهم أحد . أما المسلمون فإنهم صبروا حمية للدين وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهلهم وأموالهم واشتد بهم الأمر حتى أن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلاً ويتضاربون بالسكاكين وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنفذت الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال . . . » إلى آخر ما قال .

صحيح أن المغول لم يكونوا كلهم في هذه المعركة ، وإن جنكيز خان لم يكن على رأسهم ، ولكن الصحيح أيضاً أن الخوارزميين لم

يكونوا كلهم هم الآخرون في المعركة ، وإنه كان في البلاد قوى كبرى لم تشترك في القتال ، وفي أهل بخارى وسمرقند ، كما في أهل المدن الأخرى التي اجتاحها المغول بعد ذلك خير مثال على ما نقوله .

ولقد رأينا ما فعل الأربعمائة الفارس الذين تترسوا بقلعة بخارى وما كبدوا القوى المغولية وما عانت منهم . مضافاً إلى أن السبب الذي حدا بالمسلمين إلى الاستقتال في المعركة الأولى كان لا يزال قائماً وهو (صبرهم حمية للدين وعلمهم أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية)، - كما قال ابن الأثير - في حين أن السبب الذي حمل المغول على الصمود كان قد زال . (وهو استنقاذ أهلهم وأموالهم) .

تحطيم المعنويات

لم يكن يخفى على المغول أن قوى كبرى تنتظرهم على الطرق الطويلة ، كما لم يكن يخفى عليهم ما يمكن أن يفعله الأنهيار المعنوي في نفوس تلك القوى ، لذلك عمدوا إلى خطة تحطم روح المقاومة في المسلمين ، حتى إذا تحطمت لم تفد عند ذلك الكثرة والوفرة ، وكانوا على علم بأن قوى سمرقند أضخم من قوى بخارى ، وأن ما يمكن أن تحشده تلك لم يكن مستطاعاً لهذه . كما أنه لم يكن ليخفى عليهم أن ما فعلوه في بخارى وما نكثوه من عهود وما حل بالمدينة العظيمة من الفواجع سيكون حافزاً للسمرقنديين على عدم الاستسلام ، وعلى المقاومة المستميتة . لذلك عمدوا إلى الحرب النفسية واعتمدوا على التهويل لينهار السمرقنديون نفسياً وينشلوا روحياً فلا يبقى فيهم إلا أجسام لا أرواح فيها ولا نفوس تأوي إليها . وبذلك يسهل أخذ الأجسام الخاوية الخالية .

الزحف إلى سمرقند

الخطة التي اعتمدها المغول كانت ترتكز أول ما ترتكز على تضخيم صورة الجيوش الزاحفة إلى سمرقند ، فعمدوا أولاً إلى حشد جميع

البخاريين الذين سلموا من القتل وساقوهم معهم وكل من عجز عن السير قتلوه ، فلما دنوا من سمرقند قدموا خيالتهم ومن ورائها رَجَّالتهم ومن وراء الرجالة الأسارى البخاريون بأعدادهم الكثيرة ووراء البخاريين الأثقال والأحمال وأعطوا كل عشرة من البخاريين علماً يرفعونه أمامهم ، أيهاماً لمن يراهم أنهم من صميم الجيش .

وتقدم الخيالة فأدركوا سمرقند ، وفي اليوم الثاني تقدمت تلك الجموع منتشرة على الطرق بكثافتها وتكتلها ، فأحدث ظهورها أثره في نفوس السمرقنديين ، وهالهم ما رأوا من أعداد زاحفة إليهم ، ظنوها كلها جنوداً مقاتلة .

الدفاع عن سمرقند

وكانت قوى السمرقنديين مؤلفة من الخمسين الألف المقاتل الذين تركهم علاء الدين للدفاع عن سمرقند ، ثم من أهل سمرقند أنفسهم الذين يقول ابن الأثير أنهم لا يحصون كثرة ، ومن هنا يتبين أن قوة الدفاع لم تكن ضعيفة ولا سهلة الأخذ لو أنها كانت تتمتع بقيادة مؤمنة شجاعة ، ولو أنها كانت على مستوى رفيع من المعنويات يتفق مع ما هي عليه من الماديات .

وأول خذلان أصابها هو أن الخمسين الألف المقاتل الخوارزميين كانت قد ماتت فيهم عزيمة المقاومة وتملكهم الرعب فأبوا المشاركة في القتال . ولكن هذه الصدمة لم تضعف السمرقنديين ، فتقدم رجَّالتهم خارجين من البلد وزحفوا للقاء المغول ، فتراجع المغول أمامهم . وقد وضعوا لهم كميناً فلما جاوزوه خرج عليهم الكمين ، وقطع عليهم طريق الرجوع ، فأحيط بهم من الأمام والوراء فاستقتلوا فأبيدوا عن آخرهم . ويقدر ابن الأثير عددهم بسبعين ألف شهيد .

فلما رأى من بالبلد ما حل بالخارجين ، كان الجنود الخوارزميون الخمسون الألف أسرع الناس إلى التسليم ، فقد اعتقدوا ـ وهم أتراك من

جنس المغول ـ أن الرابطة العنصرية ستنجيهم من القتل فطلبوا الأمان فأعطوه ففتحوا أبواب المدينة ولم يقدر الناس على منعهم ، وخرجوا إلى المغول بأهلهم وأموالهم ، فطلب المغول منهم تسليم السلاح أولاً ، وتعهدوا لهم بإيصالهم إلى مأمنهم ، فلما سلموا السلاح، أعمل المغول فيهم السيف حتى أفنوهم جميعاً وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم .

وفي اليوم الرابع وذلك في المحرم من سنة ٦١٧ للهجرة أعلنوا في المدينة بأن يخرج أهلها جميعاً ومن تأخر قتل ، فخرج الجميع رجالاً ونساء وأطفالاً ، فأعادوا ما فعلوه في بخارى من القتل والنهب والسبي والأسر والتعذيب والهتك .

مطاردة خوارزم ونهايته

بعد سمرقند كان هم جنكيز خان ملاحقة خوارزم شاه نفسه فأعد لذلك عشرين ألف فارس جعل مهمتهم الوصول إلى خوارزم شاه ، وهؤلاء عرفوا في التاريخ باسم (التتر المغرّبة) لأن اتجاههم كان إلى غرب خراسان ، وتمييزاً لهم عن بقية المغول الذين عهد إليهم بمهمات أخرى .

ومضى التتر المغرّبة حتى بلغوا النهر في مكان يدعى (بنج آب) أي المياه الخمسة ، فكان النهر حاجزاً بينهم وبين خوارزم شاه ومن معه من المقاتلة ، ولم يطل الأمر ، بل عمدوا إلى صنع أحواض من الخشب غلفوها بجلود البقر ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وأطلق كل واحد منهم فرسه في الماء ممسكاً بذيل الفرس وشاداً إليه الحوض الخشبي فانطلقت الخيل في النهر دفعة واحدة جارة وراءها الرجال ، والرجال بدورها تجر الأحواض . فلم يشعر خوارزم شاه ومن معه إلا والمغول معهم على أرض واحدة .

وقد كان الحاجز المائي باعثاً على تماسك المسلمين أول الأمر ، فلما عبر المغول الحاجز انتهى كل شيء وساد الرعب والهلع ، وانفرط النظام ، وأصبح هَمُّ كل جماعة نفسها ، وانتهت المقاومة كجيش مجتمع ، إذ سلكت

كل شرذمة جهة من الجهات ، أخذت تسرع إليها فراراً .

ومضى خوارزم شاه نفسه في شرذمة من تلك الشراذم ، تضم خواص أصحابه حتى وصل نيسابور فاجتمع عليه من فيها من العسكر . ولكنه لم يكد يستقر حتى فوجىء بالمغول قادمين إليه ، فلما بلغه قربهم رحل عن نيسابور إلى مازندران ، فلما علم المغول بذلك لم يعرجوا على نيسابور ، بل واصلوا السير وراءه ، وهو يواصل الفرار أمامهم ، وظل يفر وهم يطاردونه كلما نزل منزلاً تعقبوه فيه فيتركه إلى غيره ، فقد مضى من مازندران إلى الري إلى همذان ، ومن همذان عاد في قلة من أصحابه إلى مازندران ، حتى انتهى إلى بحر الخزر المعروف أيضاً ببحر قزوين ، والذي كان معروفاً باسم بحر طبرستان ، وهناك ركب الماء إلى (آب سكون) ونزل قلعة كانت له فيها . ولم يكن المغول مهيئين لركوب البحر فتوقفوا على الشاطىء ، وكان آخر العهد بعلاء الدين خوارزم شاه .

وبانطواء علاء الدين انطوى - إلى حين - آخر أمل يمكن أن تجتمع عليه البلاد للمقاومة والدفاع ، وأصبح الوطن كما عبر عنه ابن الأثير : « وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائباً لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد » .

على أن العدو لم يترك شيئاً فقد حطم ما مر به ، حرقاً وهدما وقتلاً ونهباً وهتكاً . .

التتر المغرّبة

كـان هم «التتر المغـربة» الـوصول إلى خـوارزم شاه فلمـا أعياهم ذلـك وهبط الشاه إلى بحر الخزر نازلاً قلعـة (آبسكون) ، منهيـاً بذلـك الصراع بينـه وبين المغول ، بل منهياً حياته في تلك القلعة النـائية بعيـداً عن ضجيج القتـال وزمجرة السيوف .

لما أعيا المغول الوصـول إلى خوارزم شـاه ثم أيقنوا أن لا عـودة له إلى بلاده ولا رجاء بتجـدد الكفاح واستئنـاف القتال وأن لا قيـادة بعد اليـوم تجمع النـاس وتؤلب الجموع ، وأن الـدولة الخـوارزمية بكـل ما فيهـا من رجال ومـا تضمه من حشود عادت كقطعان سائبة بلا رعاة ولا هداة .

لما وصل الأمر إلى هذا الحـال ، انطلق المغـول في البلاد من بلد إلى بلد ، فكان أن عادوا إلى مازندران ومازندران تعتبر من أحصن المدن وأمنعها حتى أنهـا أعجزت المسلمين عن فتحهـا أيام الفتـوح الأولى ، وظلت قلاعهـ مغلقـة في وجوههم . فـاكتفوا منهـا بأخـذ الخراج دون أن يـدخولهـا حتى عهد سليمان بن عبد الملك سنة تسعين من الهجرة . ولكن مـازندران المنيعـة هذ كـانت غنيمة بـاردة للمغول واستسلمت لهم بـلا عناء ، فـأعادوا فيهـا ما فعلو في غيرها من القتل والسبي والنهب والإحراق .

ومضـوا عنها نحـو الري ، فشـاء الله أن تستكمل مـأساة خـوارزم شاه . ذلـك أن أمه لمـا سمعت بما جـرى على ولـدهـا خـافت على نفسهـا فتـركتـ

مقرها متجهة إلى الري فاصفهان فهمذان فبلاد الجبل لتحتمي بها . وفي طريق الري صادفها المغول ومعها نساء ولدها وأمواله وذخائره ، التي يصفها المؤرخون بأنها ، (لم يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة) ، فقبضوا عليها وعلى من معها ، وصادروا ما معها ، (فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس الجواهر) . وأنفذوا كل ذلك إلى جنكيز خان في سمرقند .

وأنك لتعجب حين تكشف الأحداث أبداً عما كان يجمعه أولئك الملوك والخلفاء من أموال ضخمة من ذهب وفضة وجواهر وكل ثمين ثم يودعونه خزائنهم ويقفلون عليه أبوابهم . إنك لتعجب كيف كان أولئك المتسلطون يستحلون سلب الشعب أمواله واستصفاء ثرواته ، وتكديس ذلك في مخازنهم وترك الناس للفاقة والحرمان .

وما الذي كان يدفعهم إلى التخزين والاستزادة من التخزين في حين أن المال موفور دائماً لهم والثروة أبداً في متناول أيديهم .

وهكذا صار أمر تلك الكنوز مغنماً لطاغية مثل جنكيز خان كما صار أمر كنوز أعظم منها مغنماً لطاغية آخر هو هولاكو حفيد جنكيز حينما اكتشف في بغداد بقصر الخليفة حوض الذهب المملوء به كالتلال . .

ثم صار أمر الري وهمذان وكل ما في طريق المغول من بلدان وقرى مصير غيرهما مما استباحوه ، وأدركهم الشتاء وهم في همذان وبلاد الجبل فأرهقهم بردها فتركوها إلى أذربيجان وهم يمعنون في طريقهم حرقاً وقتلاً ونهباً إلى أن وصلوا تبريز ، وكان صاحبها ، بل صاحب ـ أذربيجان كلها أوزبك بن البهلوان ـ كان هذا الأمير في شاغل عن المغول وعن البلاد بكؤوسه وشرابه ، فاسترضاهم بهدايا وأموال ودواب ، فرضوا ومضوا عنه .

ويبدو أن ما حملهم على تجاوز تبريز ليس هدايا أوزبك وحدها ، بل

حرصهم على الوصول إلى ساحل البحر والتخلص من البرد الشديد وامتلاك المراعي الواسعة هناك .

فأدركوا موفان ولكنهم وهم في طريقهم احتكوا ببلاد الكرج[1] ، فحشد لهم الكرج نحو عشرة آلاف فارس واصطدموا بهم فتغلب المغول وهزموا الكرج وقتلوا أكثرهم .

محاولة

لقد كان من أعظم ما حقق للمغول سهولة الانتصار ، هو فقدان القيادة وتفكك الناس ، فاستفردوا المدن مدينة مدينة ، والجموع جمعاً جمعاً ، مما أدى إلى إنهيار العزائم وتشتت القوى واستيلاء اليأس . وجاءت هزيمة الكرج مشيرة إلى تمادي الأخطار واستفحال الأهوال . ولم تكن الأمور بين الكرج وأوزبك صاحب اذربايجان صافية ، بل كانوا على خصام مستمر . وجاء هذا الخطر المريع المهدد للجميع ، فدعا الكرج اوزبك إلى الصلح وتناسي الماضي والعمل يداً واحدة على دفع ما ينتظرهم من توغل المغول . فاستجاب اوزبك لذلك ، وتقرر توسيع الحلف والإتصال بآخرين ، فاتصلوا بالملك الأشرف صاحب خلاط وديار الجزيرة فوافق .

وهكذا بدا أن الأمور تسير إلى توحيد الكلمة وجمع القوى ، وإيجاد القيادة . ولكن الذي أفسد الأمر هو سوء التقدير . إذ إن الحلفاء قدروا أن المغول لن يتحركوا في الشتاء لقساوة البرد ، وأن تحركهم لا يكون قبل دخول فصل الربيع ، لذلك لم يحزم المتحالفون أمرهم ويجمعوا شملهم منذ اللحظة الأولى ، بل أهملوا ذلك إلى ما بعد انقضاء فصل الشتاء .

ويبدو أن المغول لم يكونوا غافلين عما يجري ، وأن عيونهم كانت حسنة الاستطلاع فأدركوا حقيقة المحاولات لذلك عزموا على الانقضاض

---

(١) كان الكرج مسيحيين يسكنون جبال القبق « القوقاز » .

على الكـرج قبل تـوحيد الجيـوش ووطنوا النفس على تحمـل البـرد وقسـاوتـه وعـدم الانتظار إلى الـربيـع . والمؤرخـون لم يشيـروا إلى السبب الـذي دعـا المغـول إلى هـذا التعجـل ولكننـا نحسب أن السبب هـو مـا تـرامى إليهم من نجاح فكرة التحالف فصمموا على القضاء عليها في مهدها .

قوى تنضم إلى المغول

وزاد الأمر سوءاً إن قوى جديـدة انضمت للمغول يقـول عنها ابن الأثيـر إن الدافع لها للإنضمام هو الجنسية الواحدة بينها وبين المغول . .

ولكننـا لا نحسب إن الجنسية كـانت كافيـة لتجـذب هؤلاء المنضمين ، فقد رأينا من قبل أن الجنسية لم تحل دون تذابـح الجنس الواحـد في الحرب الضارية وأن المغول لم يستثنوا من هم من جنسهم من مجازرهم ، كما أن من هم من جنسهم لم ينفكوا عن قتالهم ومدافعتهم .

وإنمـا يخيل إلينـا أن ما أحـرزه المغـول من انتصـارات ومـا حققـوه من مغانم كان حافزاً للنفـوس الضعيفة المـوجودة في كـل زمان ومكـان للإنضمـام إليهم . وأنـه يوجـد أبداً من هم حـاضرون لـلأخذ بجـانب القـوي حين تبـدو قوته ويتأكد فوزه .

وهكـذا كان أمر أحـد أتبـاع أوزبـك صـاحب اذربـايجـان ، وهـو مملوك تركي من مماليـك اوزبك اسمـه (أقوش) خـرج على سيده (وجمـع أهل تلك الجبـال والصحراء من التـركمان والأكـراد وغيرهم ، فـاجتمع معـه خلق كثيـر وراسل التتر في الإنضمام إليهم فأجابوه إلى ذلك ومالوا إليه للجنسية)[1] .

وتقـدم أقوش بجمـوعه جمـوع المغول ومضـوا جميعاً في بـلاد الكـرج نهباً وقتلاً وتخريباً حتى شارفوا تفليس ، فخرج الكرج بكـل قواهم واصـطدموا

---

(١) ابن الأثير .

بـأقوش فصمـدوا له وصمـد لهم . وأثخن الكرج بقـوات أقوش قتـلًا ذريعـاً ، ولكن المغـول وصلوا وقـد تعب الكـرج وكلوا فكـانت القـاضيـة عليهم إذ لم يثبتوا للقوى القادمة وانهزموا فتبعتهم السيوف تفتك بهم الفتك المريع .

الانهيار المعنوي

هذه الانتصارات المتلاحقة للمغول ، وتخاذل القيـادة الإسلاميـة وانهيار معنوياتهـا فعلت أسوأ الفعـل في نفوس الشعـوب وأوهت عزائمهـا وضعضعت روحها فغدا الناس وكأنهم أشبـاح لا قوة فيهـا ، ولا رجولـة تحميها ، ولا ذهن يمدها ، ولا حسّ يشدها . ويـروي المؤرخون المعـاصرون أقـاصيص عجيبة تريك إلى أي حد بلغ الوهن بالنفوس والتلاشي بالهمم والضياع بالعقول .

فيذكر ابن الأثير مثلاً أن مغولياً واحداً دخل دربـاً فيه مـائة رجـل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ، ولم يمد أحد يده إليه بسوء .

نجاة العراق

وقامت محاولات لصد هذا الـزحف الطاغي بعـد أن إتجه المغـول نحو إربـل ، فاستنجـد صاحبهـا مظفـر الدين كـوكبـري ببـدر الـدين لؤلؤ صـاحب الموصل فأنجده بكل ما استطاع واضطربت النفوس في الموصـل نفسها خـوفاً من وصـولهم إليهـا . واتخـذ المسلمـون خط دفـاعهم في (دقـوقـا) وحـاولـوا تجميع القوى فيها .

وتعهد مظفر الدين لخليفة بغداد بصد المغول ثم استنقـاذ ما أخـذوه من بـلاد ، إذا أنجـده بعشـرة آلاف فـارس ، فكـان كـل مـا وصله من النجـدات ثمـانمائـة طواشي . يقـول مظفـر الدين «فـأقمت وما رأيت المخـاطـرة بنفسي وبالمسلمين» .

ويبدو أن تمركـز مظفـر الدين في دقـوقا جعـل المغول يحسبـون حسابـاً للدفاع الإسلامي ويتـرددون في قصد العـراق والتوجـه إلى إربل ، ثم انكفؤوا

راجعين معتقدين أن المسلمين يتبعونهم فلما رأوا أن أحداً لا يتبعهم عادوا فاستقروا .

أما المسلمون فلما رأوا أن النجدات لا تأتيهم ، وأن المغول لا يقصدونهم ، تركوا مواقعهم وتفرقوا في بلادهم .

ثم عاد المغول إلى همذان ، فنجا العراق هذه المرة ، على أن نجاته كانت مؤقتة ، والشر لا يزال متوقعاً والبلاء لا ينفك شاخصاً .

يعودون للشقاق

ومن عجيب أمر الناس يومذاك أن أولئك الذين أبصروا بعيونهم ما آل إليه حال العالم الإسلامي ، وشهدوا بأنفسهم المصير المفجع الذي صارت إليه البلاد التي عبر إليها المغول ، ثم رأوا المغول يطرقون أبوابهم ويصلون إلى حدودهم ، أولئك الأمراء الذين كان مفروضاً بهم أن يكونوا القادة الذادة فيخططوا للمستقبل ويعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لحماية أوطانهم أولاً ، ثم لدفع المغول عما اغتصبوه من بلاد وما استباحوه من ديار.

أولئك الأمراء ، لم يكد المغول يهدؤون عنهم قليلاً ، ويؤخرونهم يسيراً ، حتى عادوا إلى الاحتراب فيما بينهم وغزو بعضهم بعضاً .

فإذا بمظفر الدين كوكبري صاحب إربل وشهاب الدين غازي صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق يتواعدون على قصد بلاد الملك الأشرف .

وإذا بالذين فشلوا في التحالف لصد المغول والذين لم ينجدوا خط الإسلامي في دقوقا بأكثر من ثمانمائة طواشي ، إذا بهم لا يفشلون في التحالف ضد بعضهم البعض وإذا بنجداتهم هذه المرة تتوالى ألوفاً ، وإذا ببدر الدين لؤلؤ الذي كان الوحيد الذي أنجد مظفر الدين كوكبري في دقوقا ، إذا به يجد نفسه محاصراً في الموصل بقوى كوكبري ، ولكن الحصار فشل .

المغول يصلون إلى الفرات

نهاية علاء الدين خوارزم شاه في (آب سكون) لم تكن نهاية المقاومة الخوارزمية للمغول ، بل كانت نذير تلك النهاية .

فقد بقي من علاء الدين ولده جلال الدين منكبرتي ، وبقي له ستون ألف مقاتل وصار جلال الدين في غزنه ومعه أولئك الجند ينتظرون ما سيصير إليه الأمر ، ولم يكن جنكيز ليغفل عن تلك البقية ، لذلك أرسل لقتالها اثني عشر ألفاً مستهيناً بها مستضعفاً أمرها . وخرج جلال الدين للقاء المغول فقابلوه في ناحية من نواحي غزنة تعرف ببلق ، فانهزم المغول هزيمة منكرة كانت الأولى في غزوهم الفظيع . وبالرغم من قلة عدد المغول فإن مجرد التفكير يومذاك بالصمود لهم ، ثم قتالهم ، ثم هزيمتهم ، كان يعد أمراً خطيراً بعد أن تلاشت العزائم وضعفت الهمم وخارت النفوس .

ولم يسكت جنكيز على الهزيمة ، فقد تمثلت عنده أمراً جللاً ربما جرأ الناس عليه ، وكان فاتحة عهد من نضال ظافر ! . لذلك عاود الكرة فأرسل هذه المرة جمعاً أعظم من الجمع الأول وجعل قيادته لأحد أولاده .

ومضت الحملة الجديدة تجر معها العديد من أسرى المعارك الأولى من المسلمين ، ربما لتتخذ منهم دريئة ، وربما لتهول بهم على المقاتلين نظير ما فعلته في معارك بخارى وسمرقند وغيرها من قبل . والتقاها جلال الدين في كابل وصمد الفريقان وقاتلوا أشد قتال فانهزم المغول هذه المرة

أيضاً وخلفوا وراءهم ما لا يحصى من القتلى ، وتخلوا مرغمين عن أسرى المسلمين وكانوا خلقاً عظيماً على حد تعبير صاحب (مفرج الكروب) ، كما تركوا غنائم كثيرة .

ويبدو أن الغنائم كانت من الوفور بحيث أغرت بالتنازع عليها ، ولم يحفل المنتصرون بعظيم ما جنوه من هزيمة الطغاة ، وعظيم ما يرجى من وراء انتصارهم ، ولا ازدهاهم ما تجرؤوا به على المغول من تكرار الهزيمة لهم والايغال في قتالهم ، ولا شغلهم التفكير في المستقبل الزاهي المنتظر لتكرار مثل هذه المعارك وتكرار النصر فيها ، بل شغلهم عن كل ذلك عظم الغنائم فاختلفوا عليها .

وكان بين المسلمين أمير تركي يقال له سيف الدين بغراق ، وكان من أشجعهم وأكثرهم مكيدة في الحرب ، وكان له في تحقيق النصر الدور الأكبر ، فوقع الخلاف بينه وبين أمير آخر يدعى ملك خان يمت إلى جلال الدين بعلاقة نسب ، وقع الخلاف على الغنائم فعاد الإقتتال بين المسلمين أنفسهم ، وقتل فيمن قتل أخ لبغراق . فعز ذلك على بغراق وأثاره فقال : «أنا أهزم الكفار ويقتل أخي لأجل هذا السحت» ! .

ثم نادى بعسكره وفارق جلال الدين متجهاً إلى الهند ، فتبعه ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً ، فكانوا قوة ضخمة تترك المعركة المنتظرة .

انسحاب جلال الدين

وأدرك جلال الدين خطر ما جرى فتبع بغراق وتوسل إليه أن يرجع وبكى بين يديه وذكره الجهاد ، ولكن بغراق أصر على التخلي عن القتال وأوغل في السير ، فكان ذلك كافياً لإنهاء الصراع وضمان الظفر للمغول الذين كانوا قد ساروا هذه المرة بقيادة جنكيز نفسه ، فلم يقف لهم جلال الدين ، بل سار قبل وصولهم متجهاً هو الآخر إلى الهند وفي الطريق حجزه نهر السند فلم يستطع عبوره مع جنده لفقدان السفن ، وكان جنكيز قد وصل

إليهم فاشتبكوا في قتال ضار يقول عنه صاحب (مفرج الكروب) : «أن ما مضى قبله من الحروب كان لعباً بالنسبة إليه» ، واستمر القتال ثلاثة أيام لم ينهزم فيها أحد من الفريقين وكثر القتل فيهما جميعاً ، وكان القتل في المغول أشد ، وكان فيمن قتل ملك خان صاحب فتنة الغنائم .

ويبدو أن كلاً من الفئتين قد يئست من الظفر ، وأدى يأس المغول إلى انسحابهم إلى مكان بعيد ، ورأى المسلمون أنهم منفردون في هذا المكان ، وأن لا نجدات يحتمل وصولها إليهم ، فانسحبوا هم الآخرون عابرين نهر السند ، غير عارفين بما حل بالمغول أنفسهم من يأس وما نزل بهم من قتل وجرح .

ويرى بعض المؤرخين القدامى أن لو علم المسلمون حقيقة ما حل بالمغول لعاودوا الكرة عليهم ولكان لهم أمل كبير بالظفر بهم .

وهكذا خلا الجو لجنكيز فاستهدف هذه المرة مدينة غزنه فاقتحمها معيداً فيها فظائع بخارى وسمرقند وهرات وغيرها من قتل ونهب وهتك ، ثم إحراق عام للمدينة .

عودة جلال الدين

لم يكن مضي جلال الدين إلى الهند مضياً دائماً ، فبعد بضع سنين عاد إلى إيران فقصد أولاً إلى كرمان ثم إلى أصفهان التي كانت قد أعيت المغول ، فاستولى عليها وسيطر على ما كان يسمى بعراق العجم أو بلاد الجبل . ثم وجه همه لا إلى قتال المغول بل للسيطرة والفتح داخل بلاد المسلمين واتجه إلى ما كان بأيدي الخليفة العباسي فحاصر (تستر) فلم يقدر عليها ، ثم انتشر جنده حتى بلغوا أطراف بغداد وأطراف البصرة ، وتقدم إلى دقوقا فافتتحها عنوة . فإذا به يُنسي المسلمين ما فعل المغول بهم فيعمل في أهل دقوقا المسلمين وفي مدينتهم أشنع من أفعال المغول من قتل ونهب وتخريب ، واصطدم بعد ذلك بالكرج - غير المسلمين - فهزمهم

ومضى رجاله في بلادهم نهباً وقتلاً وسبياً وتخريباً ، ويقول صاحب مفرج الكروب : «فاستأصل أهلها قتلاً وسبياً» ، واستولى على تفليس فسار فيها نفس السيرة الدموية .

ويبدو أن فريقاً من المغول قد انشقوا عن مركز السلطة واستقلوا بالعمل وحدهم ، فخرجوا من جديد إلى البلاد الإسلامية فالتقوا بجلال الدين في وقائع لمْ يظفروا عليه فيها إلى أن تبلبل الموقف بينه وبين أخيه غياث الدين وبعض الأمراء في أحد المواقف مع المغول ، مما جعل جلال الدين ينكفىء عن المغول الذين اتجهوا بعد ذلك إلى أصفهان فاتجه إليها جلال الدين واستطاع بمعاونة الأصفهانيين التغلب على المغول .

ثم عاود غزو المسلمين فحاصر مدينة (خلاط) واستطاع فتحها فارتكب فيها من الفظائع والأهوال إلى الحد الذي قال فيه محمد. بن سالم بن واصل : «فقتل كل من وجد في البلد ، وسبى عسكره الحريم وباعوا الأولاد كما يفعل بالكفرة ونهبت الأموال وجرى نظير ما جرى من التتر» ! !

هذا القائد الذي لا يزال يواجه الخطر المغولي ، والذي يتجه المسلمون إليه وإلى أمثاله ليحموهم من هجمة مغولية جديدة، هذا القائد المسلم تنسي أفعاله في المسلمين ما لقيه هؤلاء من المغول، ويستبيح في المسلمين مثل ما استباح المغول فيهم من قبل. هذا القائد ينسى أباه، وكان عليه ـ على الأقل ـ أن يذكره ويذكر ما لاقى من المغول ، فينصرف إلى الإعداد للمعركة على المغول وجمع كلمة المسلمين وتطييب قلوبهم وجبر كسورهم ! . . ولكنه كان على الضد من ذلك فكان عليهم أشد من المغول !

وقيض الله له السلطان الملك الأشرف الذي اصطدم به في أرزنجان فهزمه ، وهكذا كان هؤلاء يتقاتلون على مشهد من المغول المتحفزين ، وكانت هذه المعارك تزيد المسلمين ضعفاً على ضعف وهواناً

على هـوان ، وكان المغـول يراقبـونها فعنـدمـا تلوح لهم الفـرصـة يستغلونهـا أوسع الاستغلال .

ويبـدو جلياً أنـه لم يكن في هؤلاء الخوارزميـة خير ، فعـلاء الـدين من قبل كان العامل المباشر للغـزو المغولي بـأطماعـه وسوء رأيـه ، فلما بـدأ هذا الغزو مليء رعباً وانهزم نفسياً وترك الأمة بـأيدي المغـول سائبـة بلا رأس حتى فعلوا فيها ما فعلوا .

وهذا ابنه جـلال الدين يـرتكب ما ارتكب ، ويمضي في ذلـك إلى بلاد الإسمـاعيليـة ، فيقـول صـاحب مفـرج الكـروب عن فعله بهم : «نهب بـلاد الإسمـاعيلة نهباً وخـرب ضياعهم وقتـل أهلها وسبى الحـريم واستـرق الأولاد وعمل فيهم الأعمال الفظيعة» .

ثم يصفه قائلاً : قبيح السيرة سيء التدبيـر جداً وهـو الذي أفسـد حالـه وحال المسلمين» .

وكان لا بد من النهـاية الأليمـة ، فإن هـزيمة جـلال الدين أمـام الملك الأشـرف هيأت الأمر لانقضـاض مغولي جـديد فتتبعـوا جلال الـدين معيدين فيما يمرون بـه من بلاد سيـرتهم الأولى ، وجلال الـدين يمضي أمامهم معلنـاً ـ بعد فوات الآوان ـ أنه يريـد أن «يقصد الخليفـة المستنصر بـالله ملتجئاً إليـه مستنجداً به وبملوك المسملين على المغول» .

وظـل يمضي والمغول يـطاردونه حتى نـزل قريـة من قرى ميـافـارقين ، كـان فيها رجـل قتلت عساكـر جلال الـدين أباه وأخـاه ، فـوثب الـرجـل على جلال الدين فقتله .

وبمقتـل جلال الـدين ونهـايتـه انتهى كـل تفكيـر في الإعـداد لمقـاومـة المغول والتبصر في أمور المستقبل ، وانصـرف الناس إلى شؤونهم ، وأمعنـوا في نـزاعاتهم ، فتقـدم المغول إلى أذربـايجان وارّان ، وبـلاد الجبل وكـرمان وغيـرها . ووصلوا إلى أصفهـان ، وكانـوا من قبل قـد عجزوا عنهـا ، وكـادوا

يعجـزون الآن لـولا فتنـة وقعت بين الأصفهـانيين سهلت الأمـر للمغـول[1] ومضـوا بعد ذلـك سائـرين حتى بلغوا الفـرات ، وكـان هـذا أول وصـول لهم إليه .

---

(١) كانت فتنة مذهبية ، وذلك أن الشافعية والحنفية كانا يتقاسمان أصفهـان ويسودهـا مذهبـاهما ، وكـانوا في احتـراب دائم . وفي أول الأمر لمـا شعروا بـالخطر المهـدد لهم جميعاً اتفقـوا على مقاومة المغول . ولكنهم لم يلبثوا أن عـادوا إلى الاختلاف . فخـرج قوم من الشـافعية إلى من يجـاورهم من المغول فقـالوا لهم : اقصدوا البلد حتى نسلمـه لكم ، فـأرسـل المغول الجيوش إلى أصفهان فحاصروها ، ومع ذلك ظل الشافعيـة والحنفية يقتتلون حتى قتـل كثيـر منهم ، ثم فتح الشـافعية أبـواب المدينـة للمغول على عهـد بينهم وبين المغول أن يقتلوا الحنفيـة ويتركـوا الشـافعيـة ، فلما دخلوا البلد بـدأوا بـالشـافعيـة وقتلوهم قتـلاً ذريعـاً ثم قتلوا الحنفية . (انظر تفاصيل الفتنة في شرح النهج الحديدي) .

إمبراطورية جنكيز

كان انهيار الدولة الخوارزمية على الشكل الذي مر ذكره في الفصول السابقة إيذاناً بسيطرة المغول ، إذ لم يكن أمامهم قوة إسلامية أخرى كافية لصد زحفهم وإيقاف تقدمهم . وكان استيلاؤهم على ما استولوا عليه من البلاد الإسلامية في عهد جنكيز خان بعض ما كانوا يهدفون إليه من إقامة ملك مغولي يستوعب أكثر ما يمكن استيعابه من العالم . وقد وفق جنكيز في السيطرة على الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وجورجيا والقفقاس وروسيا وبولندة وأجزاء أخرى من أوروبا الشرقية . وهذا كما نرى أمبراطورية مترامية الأطراف .

العالم الإسلامي يومذاك

وإذا كان العراق وبقية العالم الإسلامي قد نجت من يد جنكيز فإن العراق وغيره لم ينج من يد هولاكو حفيد جنكيز . فبعد أربعين سنة من بدء تعرض جنكيز للعالم الإسلامي (٦١٦.هـ ١٢١٩) استولى هولاكو على بغداد (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) وكانت أمبراطورية المغول وقت سقوط بغداد تضم أغلب بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند وأكثر إيران وآسيا الصغرى وأكثر روسيا .

أما العالم الإسلامي فلم تكن موارده يومذاك بالموارد القلية ، بل كان لا يزال واسع الرقعة مكتظاً بالناس ، كثير الرجال والسلاح والمال ، ولكن

كـان ينقصه التمـاسك وتعـوزه الزعـامة . ولم تكن خـلافة بغـداد جديـرة بمـا يفترض فيها من الدعوة إلى الوحدة وقيادة الناس . ففي الـوقت الذي كـان فيه المغـول يتهيؤون لمـا يتهيـؤون لـه من الامتـداد واختـراق البـلاد كـانت سلطة بغداد تشتغل بإعداد المذابح المذهبية والهجـوم بفريق من الشعب على فـريق آخـر بقيادة ابن الخليفـة نفسه فيحـرقون وينهبـون ويسفكـون الـدمـاء ويسبـون النساء المسلمات . ويوالون ذلك مرات ومرات .

لـذلـك كـان من العبث تـرقب شيء من حكـام بغـداد وكـانت سلطة الخليفــة المستعصم بـالله (٦٤٠ ـ ٦٥٦) = (١٢٤٢ ـ ١٢٥٧ م) تشمــل في ذلك الوقت جزءاً من عراق اليـوم يمتد من تكـريت إلى الفاو ومن حـدود إيران إلى عـانـة بمـا في ذلـك خـوزستـان . وكـان الخليفـة يستقـل بمـا تحت يـده استقـلالاً كـامـلاً منـذ انقضـاء السيـطرة السلجـوقيـة على الخلفـاء ومن قبلهـا السيطرة البويهية ، وفشل السيطرة الخوارزمية في الحلول محلهما .

هـذا إذا نظرنـا إلى السلطة الماديـة ، أما سلطتـه المعنويـة فقـد كـانت تشمـل كل مـا بقي سالمـاً من العـالم الإسـلامي من النيـل إلى سيحـون ، إذ كـان يخطب بـاسمه على منـابـر الإسلام في كـل مكـان ، وينـظر إليـه كـرمـز إسلامي يمثل المسلمين كافة . وبهـذا كان مستـطيعاً أن يهيب بـدنيا الإسـلام من جميـع أطرافهـا ويجمع الشمـل ويوحـد الكلمة للوقـوف في وجه الـطغـاة الزاحفين . ولكن شيئاً من ذلك لم يقع ولا كـان أحد يؤمـل أن يقع ممـا سهل على هـولاكو إنهـاء أمر الخـلافـة بـأقـل جهـد . ولمـا تفـاقم الأمـر في عهـد المستعصم وطلب إليـه العمـل الجـدي كـان يقــول : «أن بغـداد تكفيني ولا يستكثرونها علي إذا نزلت لهم عن باقي البـلاد ، ولا أيضاً يهجمـون علي وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي»[١] .

بهذه الروح الانهزامية كـان رأس الأمة وخليفـة المسلمين يعالـج الخطر

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ـ ص٢٥٥ ـ طبع بيروت١٩٥٨ .

المغـولي ، وبهذا التفكيـر كانت تقـابل احتشـادات العدو . وإذا كـان الرجـل الأول يـرى مثـل هـذه الآراء ، وهـذه هي همتـه وهـذا هـو عـزمـه فكيف بالآخرين .

بعد جنكيز

العام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) كان جنكيز قد حقق أهدافه الأولى في البلاد الإسلامية فعاد إلى بلاده ومات بعد أربع سنين ، فتولى بعده ابنه (أوغاتاي) . وقد رأينا محاولات جلال الدين منكوبرتي في مقاتلة المغول وما كان من أفاعيله في المسلمين ثم نهايته وقتله سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) وما كان من وصول المغول إلى الفرات .

ثم كانت لهم بعد ذلك غزوات اصطدموا فيها بقوات المسلمين غربي مدينة أربيل سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) ، ثم سنة ٦٣٣ (١٢٣٥) حول أربيل نفسها ، كذلك سنة ٦٣٤ (١٢٣٦) حيث اجتاحوا أربيل وارتكبوا فيها ما اعتادوا عليه من فظائع ، ثم رحلوا عنها حين بلغهم أن الخليفة المستنصر جهز عليهم الحملات . وفي سنة ٦٣٥ (١٢٣٧(وصل المغول إلى (سر من رأى) وعادوا عنها منهزمين ثم رجعوا في السنة نفسها ووصلوا (خانقين) وهزموا جيوش الخليفة وغنموا غنائم عظيمة .

وفي سنة ٦٣٩ (١٢٤١) ملكوا أرزن الروم وقتلوا منها كثيراً . وفي السنة التالية عقد حلف بين سلطان الروم غياث الدين كيخسرو وجمع من اليونانيين والفرنج والكرج والأرمن والعرب وساروا لمحاربة المغول فالتقوا بهم بنواحي أرزنكان فانتصر المغول ، وكان من نتائج هذا النصر أن انتشروا

في آسيا الصغرى يقتلون وينهبون . وبسقوط آسيا الصغرى صار العراق مطوقاً من الشرق والشمال وفي سنة ٦٤١ (١٢٤٣) غزوا أطراف الشام ووصلوا إلى قرب حلب .

وفي سنة ٦٤٢ (١٢٤٤) تقدموا من همذان نحو العراق فوصلوا خانقين واقتربوا من بعقوبا . وفي سنة ٦٤٧ (١٢٤٩) كبسوا أبواب خانقين ووصلوا إلى «البت» و «الراذان» وهما من نواحي بغداد وقتلوا هناك مقتلة عظيمة ووصل الهاربون إلى بغداد . وعاد المغول بعد أن قتلوا في «دقوقا» خلقاً وأسروا آخرين .

وتوقف المغول عن التعرض للعراق حتى حملة هولاكو سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) على أنهم أغاروا على بلاد الجزيرة الواقعة إلى شمال العراق سنة ٦٥٠ (١٢٥٢) حتى بلغوا حران والرها ونهبوا ديار بكر وميافارقين .

المغول في أوروبا

وعدا عن غزو البلاد الإسلامية فإن المغول في عهد أوغتاي استولوا على أقاليم الصين الشمالية بأكملها وأنهوا حكم أسرة «كين» .

كما تم في عهد خلفاء أوغتاي تصفية الصين الجنوبية . وكذلك سير أوغتاي الجيوش إلى أوروبا الشرقية بقيادة (سبوتاي) فاستطاع الاستيلاء على جميع البلاد الواقعة بين جبال أورال وشبه جزيرة القرم وهزم الروس وأحرق موسكو وأخضع أوكرانيا . وبذلك سقطت روسيا كلها بأيدي المغول وظلت بأيديهم طيلة قرنين ونصف القرن (١٢٣٩ ـ ١٤٨١ م) .

كما أخضعوا بولونيا وارتكبوا فيها الأهوال ووصلوا إلى ألمانيا وهنغاريا ، وتقدموا إلى النمسا وسواحل بحر الأدرياتيك .

وهكذا عانت أوروبا المسيحية مثلما عانى الشرق الإسلامي من فظائع المغول مما حمل البابا «غريغوري التاسع» إلى استنهاض الحكام المسيحين لصد المغول[١] .

كيوك خان

وفي ذروة هذه الفتوح مات أوغتاي سنة ٦٣٩ هـ وقام نزاع على

---

(١) التاريخ الأدبي لإيران من الفردوسي إلى سعدي لبراون ـ ص٥٧٣ .

خلافته ولم يتول كيوك خان الحكم إلا في سنة ٦٤٤ (١٢٤٦) وكانت توراكينا خاتون زوجة أوغتاي هي التي تدير الملك إلى تولي ابنها كيوك (٦٤٤ ـ ٦٤٧) = (١٢٤٦ ـ ١٢٤٩ م) .

ومن الجدير بالذكر أنه حضر حفلات تنصيب أوغتاي مندوب لخليفة بغداد ومندوب لحاكم الإسماعيليين في ألموت علاء الدين فيمن حضر من ممثلي الدول الأخرى المجاورة للمغول والمهددة بهم ، كما حضر بعض المندوبين المسيحيين .

وبالرغم من المعاملة الحسنة التي عومل بها مندوب الخليفة فإنه تسلم رسالة كلها تهديد ووعيد ، أما مندوب الإسماعيليين فقد عومل بغضب ومهانة[١] .

ومن هنا نستطيع أن نفهم نوايا المغول وما كانوا يضمرونه منذ تلك الفترة وما قبلها للإسماعيليين ولحكام بغداد وللبلاد الإسلامية كلها .

وتميز عهد كيوك بإيثار المسيحيين لان أمه كانت مسيحية .

(١) مختصر الدول لابن العبري ـ ص٤٥٠ .

منكوقا

٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧م

وبعد كيوك خان انتقل الحكم إلى فرع آخر من أبناء جنكيز هم أبناء نولوي حيث تولى منكوقا آن بعد شيء من النزاع حكمت خلاله زوجة كيوك خان .

وعهد منكوقا آن من أخطر العهود في تاريخنا ففيه تقرر غزو البلاد الإسلامية وتم هذا الغزو على يد أخي منكوقاءان ، هولاكو .

وبالرغم مما يبدو من أن هذا الغزو كان تصميماً مغولياً بحتاً ، وأن تنفيذه كان ينتظر الساعة المناسبة فقد حرضت عليه وقوت عزيمة المغول فيه رغبة أخرى في قهر العالم الإسلامي وتمزيقه ، هي رغبة أوروبا التي كانت لا تزال متشبثة بالحروب الصليبية .

فإن لويس التاسع المعروف ملك فرنسا ظل يحلم بالانتصار على المسلمين وتحقيق أمانيه في استصفاء بلادهم ، وعلى ذلك فقد رأى في المغول الوثنيين حلفاء له فيما يصبو إلى تحقيقه ، لا سيما وهناك ما اشتهر عن بعض زوجاتهم المسيحيات وما لهن من الأثر عليهم . فأرسل إلى منكوقا آن سنة ٦٥٠ (١٢٥٢ م) بعثة برئاسة الراهب «غيوم روبرك Guillame robruk» سارت من عكا إلى القسطنطينية ومنها إلى شبه جزيرة القرم ، ثم مدينة «سراي» ثم عبرت منافذ الأورال ونهر إيلي إلى أن وصلت إلى قراقورم حيث قابل غيوم منكوقا آن .

ويبدو أن الهدف كان إنشاء تحالف مسيحي مغولي يتقدم فيه المغول من الشرق والصليبيون من الغرب لحصر العالم الإسلامي وتحطيمه .

ولقد قوبلت البعثة بترحيب في البلاط المغولي وعادت تحمل رسالة جوابية إلى لويس التاسع[١] .

ولم تقتصر هذه الدعوة على مسيحيي أوروبا فإن مسيحيي غرب آسيا حاولوا هم الآخرون التقرب إلى المغول والعمل على اجتذابهم إلى صفوفهم حتى يستطيعوا بمعاونتهم أن يستخلصوا بلاد الشام من أيدي المسلمين .

هذا الأمل هو الذي حفز «هيتوم Hethoum» ملك كليكيا إلى الإسراع إلى قراقورم في السنة نفسها التي عاد فيها رسول لويس التاسع إلى أوروبا وألح على منكوقا آن للقيام بحملة مشتركة على المسلمين .

على أن الواقع يدل على أن نية منكوقا آن لم تكن تهدف إلى التحالف مع الصليبيين بل كان ينوي الحلول محلهم في السواحل الشامية وأن ترحيبه برسلهم والتظاهر بالموافقة على دعوتهم كان يقصد بها تطمينهم وبعث الثقة في نفوسهم إلى الوقت المناسب .

(١) الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ـ ص٢٤٨ .

التفكير في التخلص من الاسماعيليين

رأينـا فيما تقـدم أن وفد الخليفـة إلى حفلة تنصيب (أوغتاي) لقي إلى جـانب الترحيب تهـديداً ووعيـداً ، وعاد إلى بغـداد يحمل رسـالة معـربـة عن ذلك . أما وفد الإسماعيليين أصحـاب قلعة آلمـوت فقد لقي غضبـاً ومهانـة ، ولكل من المعاملتين أسبـاب وجذور ودلالات . فـوفد الخليفـة يمثل سلطة لم يصطدم بها المغـول اصطدامـاً مباشـراً بعد ولكنهم يتهيؤون لهـذا الأصطدام ، فهم على تـرحيبهم يريـدون أن يفهموا الـذين وراء الوفـد أن عليهم التسليم أو انتظار عواقب عدم التسليم .

وأمـا الإسماعيليـون فقد استـطاعوا أن ينجـوا من غزو جنكيـز وأن تـظل قـلاعهم سليمة ويـظلوا هم فيها سـالمين ، وهذا مـا أثار حنق المغـول عليهم حنقـاً تجلى في مقابلتهم لـوفـدهم وفيمـا بـدر منهم بعـد ذلـك عنـدمـا تهيؤوا للغـزو العام . فقـد أعلنـوا بكـل وضـوح أن هـدفهم استئصـال الإسمـاعيليين ولقوا بين المسلمين من يحرضهم على ذلك ويمهد لهم السبيل .

بعض المسلمين الذين كان الخطر المغولي لا يزال جاثماً على أبوابهم بكل جبروته وقوته بعد غزو جنكيز خـان ، لم يروا في وثنيـة المغول إلحـاداً ، وإنمـا رأوا هذا الإلحـاد في عقيدة الإسمـاعيليين فقط ، لذلـك أطلقـوا عليهم اسم « الملاحدة » وأصبحت قلاعهم تعرف بـاسم قلاع « المـلاحدة » وأصبـح همّ المسلمين لا العمـل على وضـع الخــطط للمستقبـل القــريب والبعيـد ،

والاعتبار من الماضي بالتفكير في تنظيم القوى الإسلامية وجمع صفوفها لتكون سداً منيعاً في وجه غزو مغولي جديد متوقع في كل ساعة . لم يصبح همهم هذا ، بل كان همهم كيف نتخلص من « الملاحدة » ، وكيف نقضي على الإسماعيليين وحكومتهم . إن التخلص من تلك الدعوة وأصحابها شيء لا يلام عليه من يريدون التخلص منها ومنهم ، ولكن على أن يتم ذلك بالقوى الذاتية لا سيما المعنوي منها من إقناع ودليل وحجة . لا باستدعاء الأجنبي الوثني الطامع بالبلاد الإسلامية ، والذي هو في الوقت نفسه أشد إلحاداً من كل ملحد ، وأفظع فتكاً من كل فاتك .

كان منكوقا آن حفيد جنكيز هو الذي انتهت إليه خلافة جنكيز ـ كما رأينا ـ وكان هو الحاكم الذي تسير بإشارته جيوش المغول في كل مكان . وكان له عدة أخوة يقودون جيوشه ويحكمون باسمه ، أحدهم « هولاكو » .

على منكوفا آن هذا كان يتردد قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني ، وكان هم هذا القاضي أن يثير حفيظة الأمبراطور المغولي على الإسماعيليين ويحرضه على اقتحام بلادهم ، فلم يترك وسيلة من الوسائل إلا استغلها لإنجاح مقصده .

يقول رشيد الدين الهمذاني في كتابه جامع التواريخ في الصفحة ٢٣٣ من المجلد الثاني ـ الجزء الأول : « في ذلك الوقت كان قاضي القضاة المرحوم شمس الدين القزويني موجوداً في بلاط الخان . وذات يوم ظهر للخان مرتدياً الزرد وأخبره أنه يلبسه تحت ثيابه خشية الملاحدة ، كما سرد له طرفاً من اعتدآتهم وغاراتهم . وكان الخان يتوسم في أخيه هولاكو مخايل الملك ، ويرى في عزائمه مراسم الفتح والغزو . وكان قد تفكر فرأى أن بعض ممالك العالم قد دخل فعلاً في حوزة جنكيز خان وبعضها لم يستخلص بعد » .

ويقول الجوزجاني : « انظر طبقات ناصري ، صفحة ٤١٣ ـ ٤١٤ »،

إن شمس الدين هذا كان على اتصال بالمغول ، وكان إماماً وعالماً كبيراً ، ذهب مرة إلى منكوخان وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة ويخلص الناس من فسادهم . ويقول الجوزجاني أيضاً أن كلمات هذا القاضي كان لها أثر عميق في نفس منكوخان إذ نسب إليه الضعف والعجز لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة التي تدين بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول ، وما ذلك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بالمال . بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته ، فيخرجون من الجبال والقلاع ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم .

هذا بعض ما حفظه المؤرخون من تحريض قاضي قضاة المسلمين (الإمام العالم الكبير) على حد تعبير الجوزجاني . أما ما لم يحفظوه فلا شك أنه شيء كثير ، كما أنه من غير شك لم يكن الوحيد الذي كان يقوم بهذه المهمة «المقدسة» مهمة تحريض المغول على الإسماعيليين ، والصدفة وحدها جعلت اسمه يذكر وبعض أقواله تسجل .

وتدل أقواله وتصرفاته على أنه كان داهية دهماء يعرف كيف يصل إلى قلب محدثه وعقله وكيف يستحوذ على عواطفه وشعوره . ثم انظر كيف استطاع أن يثير في نفس حفيد جنكيز خان ذكريات عدم توفق جده بالاستيلاء على قلاع الإسماعيليين ، حتى أدى الأمر إلى أن يروي لنا المؤرخ الموقف على هذا الشكل «فرأى ـ منكو خان ـ أن بعض ممالك العالم قد دخل فعلاً في حوزة جنكيز خان ، وبعضها لم يستخلص بعد». ومن البدهي أن قلاع الإسماعيليين كانت مما لم يستخلص بعد .

وتعقيباً على تحريض القاضي يقول صاحب جامع التواريخ : «فاستقر رأي منكو خان على أن يعهد بكل طرف من المملكة إلى واحد من أخوته ليخضعها تماماً لإرادته».

هذه هي قصة من قصص بداية الغزو المغولي للبلاد الإسلامية على

يد هولاكو الذي انتهى إلى ما انتهى إليه من الوصول إلى بغداد وما جرى فيها من الفظائع والفجائع والأهوال .

لقد كان بعض المسلمين محرضين على هذا الغزو ، وكان بطل التحريض «قاضي القضاة الإمام العالم الكبير» .

ويفجعك فيما يفجعك أن القاضي الإمام المحرض قد جعل في أبرز جرائم الإسماعيليين أنهم لا يدينون بالوثنية دين المغول . فلو دانوا بها لخفت جرائمهم عند قاضي قضاة المسلمين وإمامهم العالم الكبير واستطاع هذا القاضي الإمام أن ينجح في مسعاه ، فقضى المغول على دولة الإسماعيليين ، ولكنهم قضوا في نفس الوقت على خلافة بغداد وأزالوا دولة العباسيين . وليتنا نعرف رأي القاضي المحرض بالنهاية التي وصل إليها العالم الإسلامي نتيجة تحريضه وخيانته . صحيح أن المغول كانوا يعدون العدة لغزو العالم الإسلامي سواء حرضهم القاضي أم لم يحرضهم ، ولكن الصحيح أيضاً أن «قاضي القضاة» كان من المحرضين المتحمسين لهذا الغزو وأنه أعطاهم المبرر ورفع لهم الشعار وكان من أخلص الأعوان .

ومضى هولاكو بجيشه الجرار معلناً أنه إنما يمضي للتغلب على الإسماعيليين ، ولما وصل إلى «كش» أقام مدة شهر ، ثم أرسل عدة رسل إلى الملوك والسلاطين في إيران تشتمل على هذه العبارات «بناء على أمر القا آن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة . فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والآلات فسوف تبقى لكم ولايتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى»[1] .

(١) جامع التواريخ .

وهكـذا نرى أن شعـار الحملة المغوليـة كان تحـطيم قـلاع الاسماعيليين الـذين استعار هـولاكو من المسلمين لقبهم فسمـاهم هو الآخـر «مـلاحـدة» . وأحسب أن القارىء يشاركني العجب من الزمن الذي جعل وثنياً مثـل هولاكـو يسمي الإسمـاعيليين ملاحـدة . ولم يكن عبثـاً اصـرار هـولاكـو على أن يعلن بأن شعار حملته هو القضـاء على الإسماعيليين وتحـطيم قلاعهم وازعـاج تلك الطائفة ، فلولا أنه كان يـوقن بأن هـذا الشعار يلقى صـدى طيباً ، وأنـه إعلان لتلبية ما دُعي إليه وحُرض عليه ، لما أكثر من ترداد هذا الشعار والتصريح به في كل مناسبة .

وأحسب أن القارىء يشاركني العجب أيضـاً من الزمن الـذي أرانا وثنيـاً يتبجـح بين المسلمين بأنـه سيقضي على الإسماعيليين الـذين لم يتمكن جده من القضاء عليهم ، يتبجح بذلك ممتناً به على المسلمين الـذين دعاه إمـامهم وقاضي قضاتهم وألحـوا في دعوتـه ليبيد جمـاعة لـو لم يكن لهم من الصفات إلا أنهم مـواطنون شـركاء في الأرض التي يعيش عليهـا المسلمون لكـان ذلك كـافياً للغضب لهم والـذود عنهم ، وكـان مـانعـاً لمـواطنيهم من أن يحـرضـوا عليهم الأجنبي الوثني .

الهجوم الأول على بغداد

وأول معركة دارت بين الجانبين كانت في سنة ٦٤٣ هـ - ١٢٤٥ م وقد أشار إليها رجل عاصر أحداثها بنفسه وهو عز الدين بن أبي الحديد المعتزلي حيث يقول في (شرح النهج ٦ / ٣٥٠) .

«دخلت سنة ثلاثة وأربعين وستمائة فاتفق أن بعض أمراء بغداد وهو سليمان ابن برجم وهو مقدم الطائفة المعروفة بالإيواء وهي من التركمان قتل شحنة من شحنهم في بعض قلاع الجبل يعرف بخليل بن بدر . فأدى قتله أن سار من تبريز عشرة آلاف غلام منهم يطوون المنازل ويسبقون خبرهم . فلم يشعر الناس ببغداد إلا وهم على البلد وذلك في شهر ربيع الأول من هذه السنة في فصل الخريف .

وقد كان الخليفة المستعصم بالله أخرج عسكره إلى ظاهر سور بغداد على سبيل الاحتياط وكان التتر قد بلغهم ذلك إلا أن جواسيسهم غرتهم وأوقعت في آذانهم أنه ليس خارج السور إلا خيم وفساطيط مضروبة لا رجال تحتها . وأنكم متى أشرفتم عليهم ملكتم سوادهم ويكون قصارى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزموا إلى البلد ويعتصموا بجدرانه .

فأقبلت التتر على هذا الظن وسارت على هذا الوهم فلما قربوا من بغداد وشارفوا الوصول إلى المعسكر أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشه «شرف الدين اقبالا الشرابي» إلى ظاهر السور وكان خروجه في

ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين فإن التتار لو وصلوا وهو بعد لم يخرج لاضطرب العسكر لأنهم كانوا بغير قائد ولا زعيم بل كان كل واحد منهم أمير نفسه وآراؤهم مختلفة لا يجمعهم رأي واحد ولا يحكم عليهم حاكم واحد فكانوا في مظنة الاختلاف والتفرق والاضطراب والتشتت فكان خروج شرف الدين إقبال الشرابي في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور ووصلت التتر إلى سور البلد في اليوم السابع عشر فوقفوا بإزاء عساكر بغداد صفاً واحداً وترتب العسكر البغدادي ترتيباً منتظماً ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعدد خيولهم ما لم يكونوا يظنونه ولا يحسبونه وانكشف ذلك الوهم الذي أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان .

وكان مدبر أمر الدولة والوزارة في هذا الوقت هو الوزير مؤيد الدين «محمد ابن أحمد بن العلقمي» ولم يحضر الحرب بل كان ملازماً للخلافة بالحضرة لكنه كان يمد العسكر الإسلامي من آرائه وتدابيره مما ينتهون إليه ويقفون عنده . . فحملت التتار على عسكر بغداد حملات متتابعة ظنوا أن واحدة منها تهزمهم لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم وأن الرعب والخوف منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم فثبت لهم عسكر بغداد وأحسن الثبوت ورشقوهم بالسهام ورشقت التتار أيضاً بسهامها وأنزل الله سكينته على عسكر بغداد وأنزل بعد السكينة نصره فما زال العسكر البغدادي تظهر عليه امارات القوة وتظهر على التتار امارات الضعف والخذلان إلى أن حجز الليل بين الفريقين ولم يصطدم الفيلقان وإنما كانت مناوشات وحملات خفيفة لا تقتضي الإتصال والممازجة ورشق بالنشاب شديد فلما أظلم الليل أوقد التتار نيراناً عظيمة وأوهموا أنهم مقيمون عندها وارتحلوا في الليل راجعين إلى جهة بلادهم فأصبح العسكر البغدادي فلم ير منهم عين ولا أثر .

وما زالوا يوطئون المنازل ويقطعون القرى عائدين حتى دخلوا «الدربند» ولحقوا ببلادهم . وأضاف ابن أبي الحديد قائلاً :

«كتبت إلى مؤيد الدين الوزير عقب هذه الواقعة التي نصر فيها الإسلام ورجع التتر مخذولين ناكصين على أعقابهم أبياتاً أنسب إليه فيها الفتح وأشير إلى أنه هو الذي قام بذلك وإن لم يكن حاضراً له بنفسه واعتذر إليه عن الأغباب بمديحه فقد كانت الشواغل والقواطع تصد عن ذلك :

أبقى لنا الله الوزير وحاطه	بكتائب من نصره ومقانب
وامتد وارف ظله لنزيله	وصفت متون غديره للشارب
يا كالىء الإسلام إذ نزلت به	فزعاء تشهق بالنجيع السالب
في خطة بهماء ديمومية	لا يهتدي فيها السليك للاحب
فرجت غمرتها بقلب ثابت	في حملة ذعرى ورأي ثاقب
ما غبت ذاك اليوم عن تدبيرها	كم حاضر يحمى بسيف الغائب

موقف ابن العلقمي

رأينا فيما تقدم أن (الإمام العالم الكبير) قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني كان المحرض الأول للمغول على العالم الإسلامي تعصباً منه على الإسماعيليين وانتقاماً من وجودهم سالمين في قلاعهم الحصينة . وبعض الناس ينسون هذا ولا يقفون عنده في حين أنه جدير بالتوقف الطويل ، وخليق بأن يُركز عليه كلما كتب كاتب عن المغول ، فليس أفظع في تاريخ الأمم من أن يكون أمام المسلمين وقاضي قضاتهم هو المحرض للمغول ، الصريح في تحريضه المغالي به . وليس من خيانة ثابتة في تاريخ الإسلام تعدل هذه الخيانة ، ولا من جريمة فيه تقاس بهذه الجريمة ، من حيث موضوعها ، مضافاً إلى شخصية صاحبها وصفته الدينية .

ومع هذا يمرون بها مرور الكرام ولا يتعرض لها متعرض ويتمسكون بابن العلقمي تمسكاً عجيباً ويهيمون في تمسكهم بالاختلاق والاختراع . وقد رأيت أن من أفضل ما كتب في هذا الموضوع هو ما كتبه الدكتور جعفر

خصباك في كتابه (العراق في عهد الملوك الايلخانيين) لذلك أخذته لهذا الكتاب ، على أطنابه لأنه أطناب في محله .

قال الدكتور جعفر خصباك :

يكاد المؤرخون يتفقون في الثناء على شخصية محمد بن أحمد بن العلقمي وزير المستعصم بالله آخر بني العباس فقد وصفوه بالعقل والعلم والأدب والكفاية والوقار والنزاهة والعفة عن أموال الديوان والمعرفة بأدوات الرياسة[١] . وقد وصفه سبط ابن الجوزي بأنه (كان رجلاً فاضلاً صالحاً عفيفاً قارئاً للقرآن)[٢] . ووصفه الخزرجي بأنه (كان عالماً فاضلاً أديباً حسن المحاضرة دمث الأخلاق كريم الطباع خير النفس كارهاً للظلم خبيراً بتدبير الملك)[٣] . كان مؤيد الدين أسدياً من المنيل قيل لجده العلقمي لأنه حفر النهر المعروف بهذا الاسم . وكان خاله عضد الدين أبو نصر المبارك بن الضحاك من المعدلين بمدينة السلام رتب ناظراً بديوان الجوالي وكتب في ديوان الإنشاء ونفذ رسولاً إلى صاحب الشام وعندما توفي الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله سنة ٦٢٣ هـ /١٢٢٦ م كان هو المتولي لأخذ البيعة للخليفة الجديد المستنصر بالله وقد ظل في عهده أستاذاً للدار حتى وفاته سنة ٦٢٧ هـ /١٢٢٩ م[٤] . واشتغل محمد بن العلقمي في صباه بالأدب ففاق فيه وسمع الحديث واشتغل في الحلة على عميد الرؤوساء أيوب وعاد إلى بغداد وأقام عند خاله عضد الدين أستاذ الدار الذي عرف بالعلم والرياسة والتجربة لتخلقه بأخلاقه واستنابه في ديوان الأبنية إلى أن

---

(١) انظر تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج٥ ص١١٠ . ابن الطقطقي تاريخ الدول الإسلامية ـ ص٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

(٢) مرآة الزمان ، ج٨ قسم٢ ص٧٤٧ .

(٣) العسجد المسبوك ، ج٢ الورقة١٩٤ .

(٤) الحوادث الجامعة ـ ص١٦ .

تـوفي حيث انقطع ابن العلقمي ولـزم داره ولكن شمس الـدين أبـا الأزهـر أحمـد بن الناقـد الذي عين أستـاذاً للدار بعد عضـد الـدين استـدعـاه إلى دار التشريفات وأمره بالتردد إليها ومشاركة النواب بها وعندما عـزل المستنصر بـالله وزيـره ابن القمي سنـة ٦٢٩ هـ /١٢٣١ م كـان ابن العلقمي مشـرفـاً بـدار التشـريفات فعين بعـد قليل أستـاذاً للدار مكان شمس الـدين ابن الناقـد الذي عين نـائباً للوزارة[١] وعنـدما تـوفي ابن الناقـد سنـة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م عين ابن العلقمي مكـانـه وظـل يشغـل منصب الـوزارة حتى سقـوط بغـداد ومقتـل الخليفـة عـام ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م . وقـد عـرف ابن العلقمي بحبـه للعلم والأدب ومعرفته بـاللغة وكـانت له مقـدرة على نظم الشعـر وكتابـة النثر الجيـد الحسن . وقـد أنشـأ لنفسـه مكتبـة في داره في ٦٤٤ هـ /١٢٤٦ م نقـل إليهـا عدداً كبيراً من الكتب من أنـواع العلوم وصفها العـدل موفق الـدين القاسم بن أبي الحديد بأبيات أولها :

رأيـت الـخـزانـة قـد زيـنـت ... بكتـب لهـا الـمنـظر الـهـائـل[٢]

وذكـر علي ابن أخت الوزيـر المذكـور أنهـا كـانت تشتمـل على عشـرة آلاف مجلد من نفـائس الكتب وقـد صنفت للوزيـر كتب منهـا العبـاب الـذي وضعه الصغاني اللغوي وشرح نهـج البلاغـة لعز الـدين عبد الحميـد ابن أبي الحديد[٣] .

ومـع ذلـك فقـد وجـه كثيـر من المؤرخين المسلمين إلى الـوزيـر مؤيـد الدين بن العلقمي تهمة في غـاية الخـطورة خلاصتهـا أنه خـان سيده الخليفـة المستعصم بـالله ودينـه الإسـلام وجلب على قـومـه القتـل والـذل والخـراب بمكاتبة هولاكو طـاغية التتـار وأطماعـه بفتح العـراق بل دعـوته لـذلك وتهيئـة

---

(١) ن. م. ص٣٥ ، خلاصة الذهب المسبوك ـ ص٢١١ ، المسجد المسبوك ، ج٢ الورقة١٩٤ .

(٢) الحوادث الجامعة ـ ص٢٠٩ .

(٣) ابن الطقطقي ـ ص٣٣٧ .

الامور له باساليب متعددة منها إشارته على الخليفة بتسريح أكثر جنوده وتشجيعه على عدم انفاق المال في سبيل الاستعداد العسكري وتهوين أمر المغول أمامه ودعوته للخروج لمواجهة هولاكو حينما أحاط هذا ببغداد للتغرير به بحجة حضور عقد نكاح ابنة هولاكو لابن الخليفة وسبب ذلك أن الوزير كان شيعياً رافضياً وأنه كان يريد الانتقام من أهل السنة خصوصاً طائفة من مستشاري الخليفة كابنه أبي بكر وقائد عسكره مجاهد الدين الدويدار الصغير لأنهم أوقعوا بمحلة الكرخ الشيعية سنة ٦٥٤ هـ وقتلوا العديد من أهلها وسبوا نساءها ونهبوا دورها وكان في المحلة أقارب للوزير .

ولعل من المفيد أن نستعرض أهم ما ورد من أقوال المؤرخين في هذه التهمة الخطيرة : قال أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٢ م عن حوادث سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م أن التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة[1] . وأعاد قطب الدين اليونيني البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ /١٣٢٥ م نفس العبارة ثم أضاف إليها قوله أن هولاكو تهيأ في سنة أربع وخمسين وستمائة لقصد العراق وسبب ذلك أن (مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة كان رافضياً وأهل الكرخ روافض وفيه جماعة من الأشراف والفتن لا تزال بينهم وبين أهل باب البصرة فاتفق أنه وقع بين الفريقين محاربة فشكا أهل باب البصرة وهم سنية إلى ركن الدين الدوايدار والأمير ابي بكر بن الخليفة فتقدما إلى الجند بنهب الكرخ فهجموا ونهبوا وقتلوا وارتكبوا العظائم فشكا أهل الكرخ ذلك إلى الوزير فأمرهم بالكف والتغاضي وأضمر هذا الأمر في نفسه وحصل بسبب ذلك عنده الضغن على الخليفة) وبعد أن أشار اليونيني إلى الخليفة المستنصر بالله وحال الجند في عهده ، عاد إلى ابنه المستعصم وقال :

---

(١) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ـ ص١٩٨ .

(وكاتب الوزير ابن العلقمي التتر وأطمعهم في البلاد وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهل عليهم ملك العراق وطلب منهم أن يكون نائبهم في البلاد فوعدوه بذلك وأخذوا في التجهيز لقصد العراق وكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في أن يسيّر إليهم ما يطلبونه من آلات الحرب فسير إليهم ذلك ولما تحقق قصدهم علم أنهم إن ملكوا العراق لا يبقون عليه فكاتب الخليفة سراً في التحذير منهم وأنه يعد لحربهم فكان الوزير لا يوصل رسله إلى الخليفة ومن وصل إلى الخليفة منهم بغير علم الوزير أطلع الخليفة وزيره على أمره). ثم يمضي اليونيني فيصف تقدم جيش هولاكو إلى بغداد وهزيمته لعسكرها وإحاطته بها ثم يعود فيقول: (فحينئذ أشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة بمصانعة ملك التتر ومصالحته وسأله أن يخرج إليه في تقرير ابنته من ابنك الأمير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى سلطان الروم في سلطنة الروم لا يؤثر إلا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية وينصرف بعساكره عنك فتجيبه إلى هذا فإنه فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك أن يفعل ما تريد فحسن له الخروج إليه فخرج في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا عقد النكاح فيما أظهره فخرجوا فقتلوا وكذلك صار يخرج طائفة بعد طائفة[1]. وقال شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م في كلامه عن وقائع سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ما يأتي: (وأما بغداد فضعف دست الخلافة وقطعوا أخبار الجند الذين استنجدهم المستنصر وانقطع ركب العراق. كل ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي الرافضي جهد في أن يزيل دولة بني العباس ويقيم علوياً وأخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل لا يطلع على الأمور ولا له حرص على المصلحة[2]. وقال عبد الله بن فضل الله الشيرازي الذي ألف

(١) ذيل مرآة الزمان ـ ج١ ص٨٥ ـ ٨٩.

(٢) دول الإسلام ـ ج٢ ص١١٨.

كتابه حوالى ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م ما معناه أن الخليفة المستعصم بالله كان منصرفاً إلى الراحة واللهو وكان وزيره ابن العلقمي مستبداً بالأمور حتى أنه لم يكن يحترم المقربين إلى الخليفة ولا يظهر تأدباً في مخاطبته إياهم وقد تغيرت نيته إزاء الخليفة بسبب واقعة الكرخ لأن ابن الخليفة أرسل جنوداً أغاروا عليها وأسروا البنين والبنات وبينهم العلويات فبعث ابن العلقمي لذلك رسالة إلى تاج الدين محمد بن نصر الحسيني أحد سادات العصر وعندما فرغ البادشاه هولاكو سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م من فتح قلاع الملاحدة وأرسل بالرسل يبشرون بالنصر في المشارق والمغارب أرسل ابن العلقمي في الخفاء رسولاً إلى هولاكو أظهر الإخلاص والطاعة وزين مملكة بغداد في خاطره وذم الخليفة وقال لهولاكو إنه إذا توجه بسرعة فسوف تسلم له مملكة بغداد ولكن هذا لم يعتمد على قوله لأن حصانة بغداد وكثرة جنودها كانت أمراً مشهوراً في الأقاليم السبعة وكان ملك العالم أوغوتاي في أول جلوسه على العرش قد أرسل القائد جرماغون بجيش فتاك فهزم من قبل الخليفة المستنصر بالله ولذلك فإن البادشاه طلب من رسول ابن العلقمي ما يؤكد صحة أقواله ليطمن بذلك خاطره الشريف . وعندما زحفت جيوش هولاكو على بغداد واطمأن ابن العلقمي لنجاح مكيدته قال للخليفة إن الجم الغفير من سلاطين وملوك الأطراف أظهروا والحمد لله إخلاصهم وطاعتهم وسمعة الخليفة كبيرة وحكمه نافذ وماله كثير فمن الخير توفير أموال الخزينة وعدم صرفها على الجند فكان الخليفة منصرفاً لسماع الأغاني والاجتماع بالجواري والمغنيات وابن العلقمي يفرق الكلمة ويشرد جميع الأفراد وينفر الجنود في الوقت الذي انتشرت فيه أخبار جيش المغول وكان الشرابي والدوايدار يحذرون الخليفة منه وابن العلقمي يسخف أقوالهم (١) . وقال ابن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م في كلامه عن الوزير ابن العلقمي : (ولم يزل ناصحاً لأصحابه وأستاذه حتى وقع بينه وبين الدوايدار

(١) تاريخ وصاف الحضرة (طبعة الهند) ج١ ص٢٧ ـ ٣٨.

لأنـه كان متغـالياً في السنـة وعنده ابن الخليفـة فحصـل عنـده من الضغن مـا أوجب سعيه في دمار الإسـلام وخراب بغـداد على ما هـو مشهور لأنـه ضعف جـانبه وقـويت شوكـة التتار بحـاشية الخليفـة . . . وأخذ يكـاتب التتار إلى أن جرأ هولاكو وجره على أخذ بغداد) (٢) وقـال عنه أيضـاً : (وحكي أنه لمـا كان يكاتب التتار تخيل أنه أخـذ رجلاً وحلق رأسـه حلقاً بليغـاً وكتب ما أراد عليـه بالإبر ونفض عليه الكحل وتركه عنـده إلى أن طلع عليه شعـره وغطى مـا كتبه فجهزه وقال : إذا وصلت أؤمرهم بحلق رأسك ودعهم يقـرؤون ما فيـه . وكان في آخـر الكلام «اقـطعـوا الـورقـة» فضـربت عنقـه . وهـذا في غـايـة المكـر والخزي) (٣) . وقال تاج الدين السبكي المتـوفى سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م أنـه لما توفي المستنصر بالله كـان أكبر الأمـراء وأعظمهم الـدوايدار والشـرابي وهم الـذين أقروا المستعصم لضعفـه ولينه وأقـاموه واستـوزروا ابن العلقمي (وكـان فاضلاً أديبـاً وكان شيعيـاً رافضياً في قلبـه غل على الإسـلام وأهله وحبب إلى الخليفـة جمـع المـال والتقليـل من العسـاكـر فصـار الجنـود يـطلبـون من يستخـدمهم في حمل القـاذورات ثم كرر الكـاتب المذكـور رواية مكـاتبـة ابن العلقمي للتتـار وعـزا ذلـك إلى رغبتـه في الانتقـام من الأميـر أبي بكـر ابن الخليفة والدوايـدار قائـد الخليفة لأنهمـا أوقعا بـالكرخ ووصف طـريقة مكـاتبة التتـار بمـا يـأتي : «إنـه حلق رأس شخص وكتب عليـه بـالسـواد وعمـل على ذلك وأصار المكتوب كل حرف كالحفـرة في الرأس ثم تـركه عنـده حتى طلع شعـره وأرسله إليهم) وأضـاف السبكي إلى ذلـك قـولـه إن الـوزيـر كتب إلى نـائب الخليفة في أربيـل تاج الـدين محمد بن الصـلايا وهـو شيعي أيضـاً رسالة يقول فيها : (نهب الكـرخ المكرم والعتـرة النبويـة وحسن التمثيل بقـول الشاعر :

أمـور تضحـك السفهـاء منهـا ويبكي مـن عـواقبهـا اللبيب

---

(٢) فوات الوفيات ـ ج٢ ص٣١٣.

(٣) ن. م. ص٣١٥.

فلهم أسوة بالحسين حين نهب حريمه وأريق دمه .

أمــرتـهم أمــري بـمنـعــرج اللوى فلم يستبينـوا الرشـد إلا ضحى الغد

وقـد عزمـوا لا أتم الله عزمهم ولا أنفـذ أمـرهم على نهب الحلة والنيـل بـل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميـل والخادم قـد أسلف الإنذار وعجـل لهم الاعتذار .

فكان جوابي بعد خطابي لا بد من الشنيعة بعـد قتل جميـع الشيعة ومن إحراق كتاب الـوسيلة والذريعـة فكن لما نقـول سميعاً وإلا جـرّعنـاك الحمـام ولآتيناهم بجنود لا قبل لهم بها ولأخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

ووديـعــة مــنــي لآل مــحــمــد أودعـتهــا إذ كـنت مـن أمـنــائـهــا
فــإذا رأيـت الكــوكـبيـن تـقــاربــا في الجـدي عند صبـاحها ومسـائهـا
فـهنــاك يـؤخــذ ثــأر آل مـحـمــد لــطلابهـا بــالتــرك من أعــدائهــا

فكن لهذا الأمر بالمرصاد وترقب أول النحل وآخر الصاد) [1] .

وقــال عــبــد الــرحــمــن بـن مــحــمــد بــن خـلدون الــمـتــوفــى سنـة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م إن هولاكـو لما رجـع إلى بلاد الإسمـاعيليـة وقصـد قلعة آلموت بلغته (في طريقـه وصية من ابن العلقمي وزيـر المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب أربيـل يستحثه للمسيـر إلى بغداد ويسهـل عليه أمـرها لمـا كان ابن العلقمي رافضيـاً هو وأهـل محلته بـالكـرخ وتعصب عليـه أهل السنة وتمسكوا بأن الخليفة والدوايـدار يظاهـرونهم وأوقعوا بـأهل الكـرخ وغضب ابن العلقمي ودس إلى ابن الصـلايـا بـأربيـل وكـان صـديقـاً لـه بـأن يستحث التتر لملك بغداد وأسقط عامة الجند) [2] .

وعنـدما نصـل إلى أواخر القـرن العاشـر الهجري نجـد أن قصة سقـوط

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى - ج٥ ص١٠٩ - ١١٢ .

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر : ج٥ ص١١٤٩ .

بغداد وخيانة الوزير ابن العلقمي تتسع إلى حد غير معقول وتختلط بأقاصيص غريبة على يد الشيخ حسن الديار بكري المتوفى سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م حيث كتب يقول إن الوزير (ابن العلقمي الرافضي كان قد كتب إلى هولاكو ملك التتار في الدست أنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك وكان قد داخل قلب اللعين الكفر فكتب هولاكو أن عساكر بغداد كثيرة فإن كنت صادقاً فيما قلته وداخلاً في طاعتنا فرّق عساكر بغداد ونحن نحضر فلما وصل كتابه إلى الوزير ودخل إلى المستعصم وقال إن جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة والعدو قد رجع من بلاد العجم والصواب أنه تعطي دستوراً لخمسة عشر ألف من عسكرك وتوفر معلومهم فأجاب المستعصم لذلك فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الإقامة بها ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفاً من الديوان ثم كتب إلى هولاكو بما فعل وكان قصد الوزير بمجيء هولاكو أشياء منها أنه كان رافضياً خبيثاً وأراد أن ينقل الخلافة من بني العباس إلى العلويين فلم يتم له ذلك من عظم شوكة بني العباس وعساكرهم ففكر أن هولاكو قد يقتل المستعصم وأتباعه ثم يعود لحال سبيله وقد زالت شوكة بني العباس وقد بقي هو على ما كان عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير ممانع لضعف العساكر ولقوته ثم يضع السيف في أهل السنة فهذا كان قصده لعنه الله ولما بلغ هولاكو ما فعل الوزير ببغداد ركب وقصدها إلى أن نزل عليها وصار المستعصم يستدعي العساكر ويتجهز لحرب هولاكو وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو وخرجوا إلى ظاهر بغداد ومضى عليهم بعساكره فقاتلوا قتالاً شديداً وصبر كل من الطائفتين صبراً عظيماً وكثرت الجراحات والقتلى في الفريقين إلى أن نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاكو أقبح كسرة وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالأسرى ورؤوس القتلى إلى ظاهر بغداد ونزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدو فأرسل الوزير ابن العلقمي في تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط

دجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقي فرساً يركبها وكان الوزير قد أرسل إلى هولاكو يعرّفه بما فعل ويأمره بالرجوع إلى بغداد فرجعت عساكره على بغداد وبذلوا فيها السيف [١] . وأضاف هذا الكاتب رواية جديدة عن مصير ابن العلقمي بقوله : (فلم يلبث أن أمسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بأيام ووبخه بألفاظ شنيعة معناها أنه لم يكن له خير في مخدومه ولا دينه فكيف يكون له خير في هولاكو ثم إنه قتله شر قتلة) [٢] .

هذه هي خلاصة النصوص التي وردت باتهام الوزير مؤيد الدين بن العلقمي ومثل هذه التهم ليست غريبة في أيام المحن العامة والكوارث الخطيرة وقد كان سقوط بغداد بأيدي المغول الوثنيين وقتلهم خليفة المسلمين حدثاً عظيماً هز العالم الإسلامي وترك جرحاً عميقاً في قلوب المسلمين جعلهم يفتشون عمن كان السبب فيه وكان الوزير شيعياً في وقت كان للدين فيه سيطرة عظيمة على النفوس والمنازعات الطائفية شديدة في بغداد ، وكان يحتل اسمياً المنصب الثاني في دولة الخليفة وأعداؤه يتربصون به الدوائر والأحوال العامة في تدهور والمغول يطرقون أبواب البلاد دون أن يكون أمامهم استعداد عسكري واضح وقد قتل الخليفة واستبيحت بغداد فلم يقتل الوزير بل أنه كان أحد جماعة عهد إليهم إعادة تنظيم إدارة العراق فلم لا توجه إليه التهمة وقد جمع إليه الخيانة من أطرافها كما يبدو ذلك لأول وهلة . وقد سبق للخليفة الناصر لدين الله أن اتهمه خصومه بخيانة تشبه ما وجه لابن العلقمي ولكنها أعظم خطراً وأورد ياقوت الحموي إشاعة كانت تتردد في عهده هي أن علوياً كان مقدماً على أحد أبواب نيسابور قاعدة خراسان ، راسل المغول خلال غزوهم هذا الإقليم ، يتعهد

---

(١) الشيخ حسن بن محمد بن الحسن الديار بكري ، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس - ج٢ ص٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢) ن . م . ص٤٢١ .

فيه بتسليم البلد إليهم مقابل جعله متقدماً عليه فأجابوه إلى ذلك وعندما فتحوا المدينة المذكورة كان هو أول من قتلوهم فيها[1] . وقد أدت بنا دراساتنا للتهمة الموجهة للوزير ابن العلقمي بعد قراءة المصادر التي أوردتها وتفهم طبيعة الغزو المغولي منذ بدايته وأحوال العراق والعالم الإسلامي المعاصر ، إلى رفضها بناء على الأسباب التالية :

أولاً : أن التهمة تحدد البادية التاريخية لخيانة ابن العلقمي بمراسلته هولاكو بعد استباحة محلة الكرخ الشيعية سنة ٦٥٤ هـ /١٢٥٦ م خصوصاً بعد فراغ الفاتح المذكور من فتح قلاع الإسماعيلية أو خلال محاصرته لها في السنة المشار إليها ولكن الحقيقة هي غير ذلك لأن هولاكو كان يسير إلى غزو العراق قبل هذا التاريخ ببضعة سنين وأنه كان يعمل طبقاً لأوامر عليا صدرت إليه قبل وصوله بلاد الإسماعيلية أي قبل وقوع حادثة الكرخ

ولعل الأمر يتضح بدارسة النقاط الآتية :

أ ـ كان غزو العراق أمراً تتضمنه طبيعة الغزو المغولي الذي كان يستهدف السيطرة على العالم وقد استولى المغول فعلاً على أكثر الصين وأواسط آسيا وإيران وأوروبا الشرقية وبقيت بلاد الإسماعيلية والعراق وسورية ومصر جيباً جغرافياً وعسكرياً كان لا بد من الاستيلاء عليه وهذا ما قام به هولاكو وإذا كان العراق قد سقط بأيدي المغول نتيجة لخيانة وزيره ابن العلقمي فكيف نفسر سقوط كل هذه البلاد الممتدة من المحيط الهادي إلى أواسط أوروبا ومن هم الخونة الذين سلموها إلى الأعداء ثم كيف نفسر احتلال هولاكو لسورية واستعداده للزحف على مصر .

ب ـ ربما تلقي ضوء على رغبة المغول في ضم العراق إلى منطقة نفوذهم

---

(١) معجم البلدان ـ ج٥ ص٣٣٢ .

قبل سنين عديدة من استيلائهم الفعلي عليه ، المقابلة التي جرت بين الأمبراطور كيوك خان بمناسبة تنصيبه على العرش المغولي سنة ٦٤٤ هـ /١٢٣٦ م ورسول الخليفة حيث هدد الخان ذلك الرسول موعداً ومنذراً .

ب ـ إن زحف هولاكو على العراق واحتلاله إياه إنما تم بناء على أوامر عليا أصدرها أمبراطور المغول مانغو خان سنة ٦٥١ هـ /١٢٥٣ م بفتح البلاد الغربية التي ضمنها العراق وسورية ومصر يؤيد ذلك التقرير الذي رفعه (جانغ تـه) الذي أرسله (مانغو خان) إلى أخيه هولاكو ودونه أحد الصينيين المسمى (ليو) المتصلين بالسفير المذكور وما ورد في كتاب التاريخ الصيني للأسرة المغولية التي حكمت الصين والذي أمر بوضعه أحد أباطرة الصين وتم إعداده سنة ٧٧٢ هـ / ١٢٧٠ م وقد ورد في كلا المصدرين أن مانغو خان أمر أخاه هولاكو سنة ٦٥١ هـ /١٢٥٣ م بالزحف لاحتلال البلاد الغربية وإخضاع خليفة بغداد[١] . وقد سبق هذا التاريخ حادثة الكرخ بثلاث سنوات على أقل تقدير وقد أيد ذلك ابن العبري[٢] والكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة[٣] ورشيد الدين فضل الله[٤]

ثانياً: إن القول بأن الوزير كان يسيطر على الخليفة تماماً بحيث إنه كان يمنع الرسل الذين يحذرونه من خطر المغول ، مردود لأن الأدلة تشير إلى أن الوزير كان ضعيفاً غير مسموع القول وليس له نفوذ على الخليفة

---

(١) E . Bretchneider . Medieval Reserches from Eastern Asiatic Sources . I . P . 109 . 121 .
يحدد عطا ملك الجوني بداية تفكير مانغو خان بفتح هذه البلاد بسنة ٦٤٩ هـ/١٢٥١ .

(٢) تاريخ مختصر الدول ـ ص٢٦٣ .

(٣) ص٢٦٧ .

(٤) جامع التواريخ ـ ج٢ قسم١ (النسخة المترجمة) ص٢٣٨ ، انظر النصر الفارسي ـ ج٢ ص٦٨٧ .

الذي كان واقعاً تحت نفوذ أعداء الوزير وخصوصاً مجاهد الدين الدويدار الصغير الشركسي الذي كان قائداً للجيش والدليل على ذلك ما يأتي :

أ ـ إن الخليفة لم يعهد بالوزارة إلى ابن العلقمي سنة ٦٤٢ هـ /١٢٤٤ م إلا بعد أن عرضها على مربيه صدر الدين ابن المظفر علي بن محمد النسيار شيخ الشيوخ فامتنع عليه[١] .

ب ـ إن استباحة محلة الكرخ سنة ٦٥٤ هـ /١٢٥٦ م إنما تمت نتيجة لأوامر الخليفة القاضية بكف الشقي الكرخي الذي قتل أحد سكان محلة (قطفتا) السنية كما إن إيقاف الاستباحة بعد أن أفلت زمام الأمور من يد الحكومة بتسلط الغوغاء وأهل الفوضى إنما صدر من قبل الخليفة أيضاً وكان في محلة الكرخ أقارب للوزير فلو كان له أي نفوذ في الدولة وهو بمنصب وزير وهو يقابل رئيس الوزراء في عصرنا ، لمنع إستباحة المحلة المذكورة أو لأوقفها عند حدها حفظاً لأقاربه على الأقل[٢] .

جـ ـ في الخلاف الذي وقع بين الوزير والدويدار الصغير قائد الجيش ، لم يأخذ الخليفة برأي الوزير بل إنه صفح عن الدويدار مع عظم التهمة التي نسبت إليه[٣] .

د ـ أن هولاكو كان يراسل الخليفة ويطلب منه نجدة وينذره بالقدوم إليه منذ أن كان يحاصر قلاع الإسماعيلية وكان الخليفة يستشير الوزير والدويدار وغيره من أفراد حاشيته وخواصه ، وكانت نصائح الوزير معقولة تدل على تفهم لطبيعة الخطر المغولي من جهة وأحوال العراق من جهة أخرى ولم تكن تتضمن تغريراً بالخليفة ولا تآمراً عليه ولكن الخليفة كان

(١) العسجد المسبوك ـ ج٢ الورقة١٩٣ .

(٢) انظر في حوادث استباحة الكرخ ـ ص٢٣ .

(٣) انظر موقف الوزير .

يهمل نصائح الوزير ويأخذ برأي خصومه خصوصاً الدويدار الصغير

هـ - وفيما يتعلق بمنع الوزير للرسل من الوصول إلى الخليفة أن الأدلة لا تؤيد ذلك لأن الخطر المغولي كان يهدد العراق منذ أيام الخليفة الناصر لدين الله أي منذ أن كان المستعصم بالله صبياً صغيراً وقد استمر أيام الظاهر لدين الله والمستنصر بالله وأمره ذائع معروف وأخباره يعرفها الخاص والعام والمعروف أن المستشارين أيام الخطر العسكري هم العسكريون لا المدنيون ولم يكن الوزير عسكرياً ، فكيف يعتمد عليه الخليفة دون قواد الجيش وأمرائه ، وقد قدمنا أن الوزير لم يكن صاحب نفوذ على الخليفة بل إن النفوذ الحقيقي كان بأيدي الفئة العسكرية وعلى رأسها الدويدار الصغير عدو الوزير ، ثم كيف كان يستطيع الوزير أن يمنع الرسل من الوصول إلى الخليفة وهل كان يلقي بهم في السجن وما هي الأمثلة على ذلك وإذا كان يفعل هذا فهل كان يستطيع منع أفراد العائلة العباسية من تحذير الخليفة أو الوقوف بين رجال الدولة الآخرين كصاحب الديوان وعارض الجيش والنقباء والمحتسب وغيرهم وأخبار الخليفة بحقيقة الأمر . ولو صحت هذه التهمة على الوزير لكان معناها أنه كان يترأس مؤامرة كبرى يشترك فيها أكثر رجال الحكومة لكن المصادر التاريخية تبين أن المراسلات كانت قائمة بين هولاكو والخليفة فعلاً وأنها لم تكن سرية لأن الخليفة كان يستشير فيها حكومته وأن الخليفة أرسل ابن الجوزي إلى هولاكو وأن هذا الرسول كان مخلصاً للخليفة بدليل أن هولاكو قتله بعد فتح بغداد[1] .

ثالثاً : أما عن تآمر الوزير مع المغول لينصب علوياً خليفة للمسلمين بدلاً من المستعصم بالله فهو أمر مردود أيضاً لأن علاقة العلويين بالعباسيين

---

(١) انظر الحوادث الجامعة - ص٣٢٨ .

كانت طيبة في هذه الفترة . وقد عرض المستنصر بالله على رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن طاووس (ت ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م) أن يذهب رسولاً إلى سلطان التتر فرفض ذلك وعرض عليه أن يكون وزيراً ولكنه رفض أيضاً[١] . وقد قتل المغول الفاتحون العديد من العلويين ومنهم السيد شرف الدين بن الصدر العلوي وكان محترماً في الدولة العباسية وروسل به الملوك وقد قتلوا نقيب العلويين علي بن النقيب الحسن بن المختار وعمر بن عبد الله بن المختار العلوي حاجب باب المراتب كما قتلوا نقيب مشهد موسى الكاظم[٢] وأحرقوا المشهد نفسه . يضاف إلى ذلك كيف يرضى العلويون بتنصيب أحدهم خليفة للمسلمين من قبل المغول الوثنيين وهل كان الوزير يستطيع تدبير مثل هذا الأمر الخطير بدون استشارة كبار العلويين فمن هم هؤلاء ؟ أما اتهام الوزير بأنه كان يعمل على إطماع المغول بالعراق ليكون نائباً لهم فهو مردود لأنه ـ أي الوزير ـ كان يشغل منصب الوزارة في دولة الخليفة وليس هناك ما يدل أنه كان سيمنح منصباً أعلى من ذلك .

رابعاً : اختلفت الروايات التي تعين رسل الوزير إلى هولاكو فمنهم من قال أنه أرسل أخاه ومنهم من قال انه أرسل غلامه ومنهم من قال أنه راسل هولاكو بواسطة ابن الصلايا العلوي صدر اربيل يضاف إلى ذلك أننا نلاحظ ما يأتي :

أ ـ إن كل ما قيل عن رسل الوزير إنما كان مجرد ترديد لإشاعات لا تستند إلى أي دليل فليس هناك حتى من ادعى أنه رأى رسل ابن العلقمي إلى هولاكو وقبض عليهم أو تحدث معهم أو شهدهم يدخلون على هولاكو .

ب ـ إن هولاكو في مراسلاته مع الخليفة طلب مواجهة عدد من كبار رجال

---

(١) رضي الدين على بن موسى بن طاووس ، كشف الحجة لثمرة المهجة ـ ص١١٣ ـ١١٤ .

(٢) العسجد المسبوك ـ ج٢ الأوراق١٩٢ ـ ١٩٣ .

الدولة العباسية ولكنه لم يقصر طلبه على الوزير وحده في أية مرة من المرات وكان من المعقول أن يفعل ذلك لو كانت هناك اتصالات سرية بينهما .

جـ - إن ابن الصلايا العلوي الذي تزعم بعض المصادر أنه كان صلة بين الوزير وهولاكو لا يمكن أن يكون قد قام بالعمل الخياني هذا لأنه أحد الناس الذين أمر هولاكو بقتلهم(١) .

خامساً : أن الوضع والتكلف يتضحان من نصوص الروايات التي تتهم الوزير فهو يحلق رأس رسوله ويكتب عليه بالإبر أو يجعل الكتابة على رأسه كل حرف كالحفرة وهو يخرج إلى هولاكو ليتوثق لنفسه ثم يعود إلى الخليفة ليبلغه أن هولاكو يرغب بزواج ابنته من ابن الخليفة وإن الأصلح الخروج مع أعيان الدولة لحضور عقد النكاح في وقت كان فيه الجيش المغولي يحيط ببغداد ويضربها بالمنجنيق . والمعروف أن هولاكو لم يجلب معه إحدى بناته عند زحفه على العراق . وهو يبعث إلى ابن الصلايا العلوي رسالة متكلفة في أسلوبها وأفكارها مثل : (فكان جوابي بعد خطابي لا بد من الشنيعة بعد قتل الشيعة . . . إلخ) ومثل : (فكن لهذا الأمر بالمرصاد وترقب أول النحل وآخر الصاد) وغير ذلك . . .

سادساً : إن الزعم بأن الخلفاء السابقين للمستعصم بالله وخصوصاً المستنصر بالله كانوا يتخذون جيوشاً كبيرة وإن الوزير ابن العلقمي عمل على صرفها وتفريقها ليسهل أمام هولاكو غزو العراق أمر مردود للسببين التاليين :

أ - ليس هناك دليل يؤيد اتخاذ أولئك الخلفاء جيوشاً كبيرة بل يبدو أن العكس هو الصحيح فجيش الناصر لدين الله وهو أكثر الخلفاء العباسيين

---

(١) الحوادث الجامعة - ص٣٣٧ .

اهتماماً بالأمور العسكرية ورغبة في التوسع ، لم يستطع الوقوف أمام الخوارزميين ومنهم السلطان جلال الدين منكوبرتي الذي لم يستطع بدوره الوقوف أمام المغول لأنهم هزموه وشردوه فكيف يستطيع الجيش العباسي وحده الوقوف أمامهم .

يضاف إلى ذلك أن غزوات المغول للعراق تكررت أيام المستنصر بالله وكان الخوف منهم يسيطر على البلاد ولو كان لدى الخليفة جيش كبير لهاجم المغول في قواعدهم وهي إيران مع أنهم لم يكونوا في عهده على ما وصفهم أستاذ داره غير (سرايا متفرقة وغارات متفقة)[1] ولكن قوات الخليفة التي وقفت لمحاربتهم كانت ضعيفة وقليلة العدد .

ب ـ كيف يستطيع الوزير إقناع الخليفة بصرف أكثر جنوده والاكتفاء بالقليل منهم في وقت كان الخطر المغولي يهدد الدولة العباسية والعراق وكان للخليفة مستشارون عسكريون على رأسهم الدويدار الصغير عدو الوزير ؟؟ .

سابعاً : هناك مصادر مهمة لم ترد فيها أية إشارة إلى خيانة الوزير مثل كتاب (جهانكشاي) لعطا ملك الجويني الذي هو أحد المصادر الرئيسية في تاريخ المغول وقد سرد الأحداث إلى نهاية احتلال جيش هولاكو لقلاع الإسماعيلية وتدميره لدولتهم والمفروض أن مراسلات الوزير مع هولاكو إنما جرت أيام تلك الأحداث ولم يشر عطا ملك الجويني إلى أية مراسلات من هذا النوع مع أنه كان شديد الصلة بهولاكو وكان في رفقته عند رحفه على بغداد في حين أنه ـ أي الجويني ـ أورد التهمة المنسوبة إلى الناصر لدين الله من أنه راسل ملوك الخطا . ولم ترد التهمة كذلك في الرسالة المنسوبة إلى نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢ هـ /١٢٧٣ م) وقد رافق هولاكو إلى بغداد وكان كبير الاطلاع على خفايا الأمور . ولا يذكرها عبد الرحمن سنبط بن

(١) كشف الحجة لثمرة المهجة ـ ص١٤٧ ـ ١٤٨ .

فنيتو الاربلي في كتابه (الذهب المسبوك) مع انه عراقي معاصر للحوادث ولا يذكرها كذلك أبو الفرج بن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) مع أنه معاصر اتصل بالمغول وعرف أخبارهم بينما يرفض التهمة ابن الطقطقي (وضع كتابه سنة ٧٠١ هـ (١٢٣٠ م) وفوق كل هذا يفصل رشيد الدين فضل الله أحداث الفتح ويشير إلى التهمة بأن مصدرها الدويدار الصغير عدو الوزير . ورشيد الدين مؤرخ عرف بصلته الشديدة بسلاطين المغول وأخبارهم وتاريخ شعوبهم وقد اطلع على المصادر الإسلامية والمغولية ولم تكن له أية مصلحة في الدفاع عن الوزير[١] . ولا حجة لمن يقول أن هذه المصادر كتبت في ظل المغول وتحت ضغطهم لأن عبد الله بن فضل الله الشيرازي الذي عرف بوصّاف الحضرة لمدحه سلطان المغول الأيلخاني محمد خدابنده ، شدد التهمة على الوزير وقدم كتابه إلى السلطان المذكور . كما لم يردنا من الأخبار ما يفيد أن حكام المغول كانوا يأمرون الكتاب والمؤلفين بالدفاع عن الوزير بل هناك من المصادر الإسلامية من يزعم أن هولاكو قتل ابن العلقمي لأنه خان مخدومه الخليفة ولم ترد التهمة في كتاب ابن الفوطي البغدادي تلخيص مجمع الآداب وهو معاصر كبير الاطلاع .

ثامناً : أن سلامة شخص الوزير وداره ومشاركته في اللجنة التي أعادت تنظيم بغداد والعراق بعد الفتح لا تقوم حجة على خيانته لأن صاحب ديوان الخليفة المستعصم بالله أي وزير ماليته وحاجب الباب في عهده أي مدير شرطة العاصمة قد عوملوا بنفس المعاملة كما سلم أقرب مستشاري الخليفة إليه صديقه عبد الغني بن الدرنوس وسلم الابن الأصغر للخليفة مع أخواته فاطمة وخديجة ومريم[٢] وقد كان هولاكو بحاجة إلى من يدبر أمر

---

(١) انظر : جامع التواريخ - ج٢ قسم١ (الترجمة) ص٢٧٢ -٢٧٤ ، النص الفارسي في المرجع الأصلي - ج٢ ص٧٠٢ - ٧٠٤ .

(٢) الحوادث الجامعة - ص٣٢٩ -٣٣٢ .

العراق بعد فتحه وكان الوزير وصاحب الديوان وحاجب الباب خبيرين بأموره فأشركهم في لجنة عهد إليها أمر تنظيمه ومن المحتمل أن هولاكو أعجب بالوزير عند مقابلته له نيابة عن الخليفة فاستبقاه والأرجح أن شفاعة نصير الدين الطوسي له كانت أهم سبب في نجاته[1] .

تاسعاً : تجمع الروايات أن هولاكو لم يفرق في إستباحته لبغداد بين السنيين والشيعيين بينما استثنى النصارى والمعقول أن ابن العلقمي لو كان قد اتفق مع المغول على تسليم بغداد لهم انتقاماً من السنيين لحفظ له المغول جميل عمله فلم يقتلوا الشيعة على الأقل .

عاشراً : أما سقوط بغداد نفسها فلم يكن للوزير أي دخل فيه لأنه تم بعد هزيمة جيش الخليفة بقيادة الدويدار واستيلاء المغول على أسوار المدينة وسبب ذلك تفوق المغول الواضح في العدد والعدد والقيادة والمعنوية .

والخلاصة ليست هناك دلائل تدين ابن العلقمي وقد كان سقوط بغداد أمراً متوقعاً منذ تدمير المغول لدولة خوارزم وقتلهم آخر سلاطينها جلال الدين منكوبرتي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ولو أراد المغول فتح العراق آنذاك لما وجدوا صعوبة في ذلك . وخيانة ابن العلقمي لو صحت ما كانت تعمل أكثر من تشجيع هولاكو على قصد العراق وما كان هذا في حاجة إلى تشجيع لأنه كان يحمل أوامر عليا بالفتح أصدرها إليه الأمبراطور مانغو خان و عه جيش متفوق على عدوه تفوقاً ساحقاً في العدد والعدد لم يستطع الإسماعيلية إيقافه بالرغم من كثرة عدد حصونهم وامتناعهم في جبال عالية وقمم شاهقة بينما تقع بغداد في سهل فسيح يسهل الإحاطة بها وقطع الميرة عنها . ويبدو أن إلصاق تهمة سقوط بغداد بالوزير إنما غايتها تبرير الإهمال والتسيب اللذين سيطرا على إدارة العراق منذ بداية الغزو المغولي لدولة

---

(١) ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الإسلامية ـ ص٣٣٨ .

خوارزم سنة ٦١٦ هـ /١٢١٩ م وقد كانت الخطة الصحيحة المناسبة آنذاك هي محاربة المغول منذ أول ظهورهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان وليس التفرج على هجماتهم وفظائعهم وانتظارهم عند أسوار بغداد ثم إتهام الوزير بأنه السبب في سقوط المدينة .

زحف هولاكو

النصوص التي أوردها رشيد الدين فضل الله الهمذاني في كتابه جامع التواريخ كذلك ما ورد في طبقات ناصري[1] تدل على أن شمس الدين القزويني محرض المغول كان موجوداً في بلاط منكوقا آن عندما جرى تقسيم المهمات العسكرية بين أخوة منكوقا آن وإرسال كل واحد منهم إلى جهة من الجهات لفتحها . فعهد إلى هولاكو بفتح «غرب إيران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن» كما يقول الهمذاني .

وقبل مسير الحملة أرسل منكوقا آن خبراء الطرق ليكشفوا على الطريق الذي ستسلكه حملة هولاكو من قراقورم حتى شاطيء جيحون وليقيموا الجسور على الأنهار والمجاري . وحدد لكل جندي مائة مَنّ من الدقيق وقربة من النبيذ . وحدد لهولاكو مهمته بهذه الوصية : «حافظ على تقاليد جنكيز وقوانينه في الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر ، بلطفك وبأنواع عطفك وأنعامك . أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به . وابدأ بإقليم قهستان فخرب القلاع والحصون . فإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق وأزل من

(١) ص٤١٣ ـ٤١٤ .

طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً ، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال . وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة . وشاور دوقوز خاتون في القضايا والشؤون»[١] .

في هذه الوصية تحديد لمهمة هولاكو فهي تحدد له المنطقة التي عليه أن يجتاحها بجحافله ، وهي تمتد من نهر جيحون حتى أقاصي مصر . وسترى أن هولاكو نجح في المهمة فاجتاح جميع البلاد المحددة ولكنه وقف دون مصر .

وكان تنفيذه للوصية تنفيذاً حرفياً إذ أغرق في الذلة والمهانة فضلاً عن المنية كل من اجتاز بهم . وزاد فلم يقتصر في التخريب على القلاع والحصون ، بل شمل جميع العمران . أما الذي لم ينفذه من الوصية فهو تخفيف التكاليف والمؤن على الرعية والترفيه عنهم ، هذا إذا كان مفهوم الرعية هو الشعوب التي ستحكم من المغول . أما إذا كان مفهومها هو المغول أنفسهم فقد فعل ولا شك .

وفي شهر ذي الحجة سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) قصد هولاكو معسكره يتهيأ ويستعد وينظم أموره . وبعد سنة كاملة أي في شهر ذي الحجة سنة ٦٥١ كان قد أتم تدارك حاجاته فمشى زاحفاً بجيوشه الجرارة .

وقبل أن يسير كان قد عهد إلى حكام الولايات التي سيجتاز بها بأن يعدوا المأكل والمشرب للجنود وأن يمهدوا من الطرق ما يحتاج للتمهيد وأن

(١) جامع التواريخ .

يعدوا السفن لعبور الأنهار . وكان كلما اجتاز بولاية ينضم إليه ما أعدته من جنوده . وقد صحب معه زوجتيه «دوقوز خاتون» و «أولجاي خاتون» كما صحب ابنيه آقا ويشموت . وفي صيف سنة ٦٥٢ كان يعسكر في تركستان وما وراء النهر . وفي شهر شعبان من سنة ٦٥٣ (١٢٥٥) كان ينزل على مراعي سمرقند فأمضى هناك ما يقرب من أربعين يوماً منصرفاً للشراب . ثم رحل حتى نزل عند حدود «كِش» فأقام فيها مدة شهر . ومن هناك أرسل إلى الملوك والحكام رسائل تقول : «بناء على أمر القا آن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة . فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننـ حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لا نقبل عذركم ، ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم»[1] .

ففي هذا المنشور الموجه إلى الحكام لا يوضح هولاكو حقيقة مهمته التي حددتها وصية منكوقا آن من أن عليه أن يفتح البلاد من جيحون إلى أقاصي مصر ، بل يحصر مهمته في «تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة» . أي إنه يعلن أنه إنما ينفذ ما طلب إليه أمام المسلمين وقاضي قضاتهم شمس الدين القزويني تنفيذه وإن على هؤلاء الحكام المسلمين أن يسارعوا إلى معونته ونصره .

فها نحن نصبح في صميم المأساة : طاغية وثني يعكف في طريقه شهراً على الشراب ، يريد أن يخلص «المؤمنين» من «الملحدين» تنفيذاً لرغبة أولئك المؤمنين ! . .

تخليص الناس من «الإلحاد» هو ما يهدف إليه هولاكو . وعلينا أن لا

---

(١) جامع التواريخ .

نعجب من ذلـك ما دام «المؤمن» شمس الـدين القـزويني قـد رفـع لـه الشعار ! .

ويصف رشيد الدين فضل الله الهمذاني في (جـامع التـواريخ) التسـارع إلى تلبيـة نداء هـولاكو فيقـول : «أقبل من بـلاد الـروم السلطانـان عـز الـدين وركن الـدين . ومن فـارس سعـد ابن الأتـابـك مـظفـر الـدين . ومن العـراق وخـراسان وآذربيجان واران وشروان وجـورجيا الملوك والصـدور والأعيـان » . من جيحون إلى أقاصي مصـر ! . وها هـو هولاكـو على ضفة جيحـون ليخطو الخطوة العملية الأولى في طريق رحلته الـطويل فـأمر بتـوقف حركـة النقل في النهـر الكبيـر ونصب عليـه جسـراً عبـرت عليـه قـواتـه في غـرة ذي الحجـة سنـة ٦٥٣ (١٢٥٥) وفي اليـوم التـالي كـان ينـزل في مـرعى «شبـورقـان» من توابع بلخ ففاجأته هناك الأمطار والثلوج واستمرت سبعة أيام فهلك الكثير من دوابه برداً . فقرر تمضية الشتاء هناك عاكفاً على اللهو والطرب والاستمتاع .

قلاع الاسماعيليين

ما هي قلاع الإسماعيليين التي أعلن هولاكو أن شعار حملته هو تحطيمها ؟ يوصل بعض المؤرخين عدد هذه القلاع إلى المائة قلعة وهي واقعة إلى الشمال الغربي من مدينة قزوين . والذي يقصد قزوين من همذان يشاهد إذا قارب قزوين سلسلة جبال الديلم التي وجدت فيها قلاع الإسماعيليين . وأهمها قلعة «ألموت» وتقع على ارتفاع أكثر من ستة آلاف قدم لا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة ممر ضيق منحدر حلزوني ، تتحكم بواد مزروع ومغلق طوله نحو ثلاثين ميلاً وعرضه في أعرض نقاطه : حوالي ثلاثة أميال . وتليها قلعة لمسر وقلعة قوهستان وقلعة كردكوه وقلعة ميمون دز ثم بقية القلاع .

وكانت هذه القلاع مقر الدعوة الإسماعيلية النزارية ، وألموت منهـ خاصة قاعدة دولتها .

الإسماعيليون النزاريون

ويعود قيام الدعوة والدولة إلى العهد الذي انفصل فيه الحسن بن الصباح عن الدولة الفاطمية في مصر وانتقل بدعوته إلى إيران ولجأ إلى قلعة ألموت متخذاً منها حصناً منيعاً وقاعدة متينة ، ينطلق منها دعاته ويمتد نفوذه حتى توفي سنة ٥١٨ (١١٢٤) وتوالى خلفاؤه فيها حتى كان عهد ركن الدين

خور شاه معاصر هولاكو الذي سينتهي به عهد إسماعيلي ألموت كما سيأتي .

ولا بد من القول أنه حيكت حول الحسن بن الصباح وحول دعوته وجماعته حكايات هي أقرب إلى أن تكون أساطير منها إلى أن تكون حقائق . منها الإسم الذي أطلق على أتباعه الذين كانوا منهم في سوريا وهو «الحشيشية» نسبة إلى الحشيش المادة المخدرة وأن الحسن كان يزرعها في ألموت ويحمل أتباعه على إدمانها ولذلك كانوا يقدمون على الأهوال تنفيذاً لأوامره وأوامر خلفائه من بعده . إلى غير ذلك من الأقوال المتعلقة بهذا الموضوع مما ليس هذا مكان بحثه .

والحقيقة أن اللقب لحق القوم مما كتبه الرحّالة (ماركوبولو) ، وهو أسطورة خيالية يكفي في دحضها ان الحشيش لا يقوي العزائم بل يضعفها ، وان من يقدم على الأهوال يبتعد عن الحشيش واستعماله .

مقدمة هولاكو

قبل أن يعبر هولاكو نهر جيحون متوجهاً إلى البلاد الإسلامية سبقته مقدمة لجيوشه مهدت له الطريق وعملت أول ما عملت على حصار قلاع الإسماعيليين . ففهي شهر جمادى الآخرة سنة ٦٥٠ تقدم «كيتوبوقا» بهذه المقدمة تاركاً بلاط منكوقا آن . وفي أوائل شهر المحرم سنة ٦٥١ عبر نهر جيحون فهاجم أول ما هاجم ولاية قهستان فسيطر على بعض أجزائها ثم تقدم لحصار قلعة «كرده كوه» في ربيع الأول من السنة نفسها واكتفى بأن أحكم حصارها بخندق حفره حولها وأحاط الخندق بسور كما أحاط جيشه بخندق آخر وسور آخر ، ثم ترك عندها قطعة من الجيش ومضى إلى قلعة «مِهرين» وحاصرها . وتقدم إلى مدينة (شاه) فكانت فيها أولى المذابح ورجع عنها في الوقت الذي كان قائد آخر من قواده يتغلغل في البلاد محدثاً مذبحة استمرت ثمانية عشر يوماً .

وفي التاسع من شوال سنة ٦٥١ كان المحاصرون في كرده كوه يقومون بغارة ليلية على المغول مستهدفة قائدهم «بوري» فتنجح في القضاء عليه وعلى مائة جندي من جنوده محاصريهم . فرأى كيتو بوقا في ذلك تحدياً ضخماً قابله بهجوم ساحق على ولاية قهستان استولى فيه على «تون» و«ترشيز» وأباح القتل والعسف والأسر . ولم تلبث قلعة مهرين أن سقطت ثم تبعتها قلعة «كمالي» .

هولاكو يتولى بنفسه

ثم أرسل هولاكو رسالة إلى ناصر الدين المحتشم في قلعة «سر تخت» . ويبدو جلياً من النص الذي أورده الهمذاني في جامع التواريخ[1] أن بعض المسلمين كانوا قد بدأوا يتعاونون مع هولاكو ويسيرون في ركابه وينفذون أوامره ، فإن الذي حمل رسالة هولاكو إلى ناصر الدين المحتشم هو الملك شمس الدين كُرت .

كانت الرسالة تدعو المحتشم للدخول في الطاعة ، وكان المحتشم قد شاخ وضعف ورأى تساقط القلاع من قبل بيد المغول فآثر إجابة الطلب ومضى مع الملك شمس الدين حاملاً معه الهدايا والتحف معلناً بذلك استسلامه الشخصي لهولاكو في حين أبقى على القلعة ولم يسلمها . فاعترض هولاكو على ذلك ، ولكن ناصر الدين رد قائلاً : «أن لهم ملكاً يدعى خورشاه يأتمرون بأمره» .

وأراد هولاكو أن يضرب مثلاً حسناً لمن يستسلمون ولا يقاومون وأن يشجع على التسليم فأنعم على المحتشم وعينه حاكماً على مدينة «تون» .

وهنا يبدو الغموض في النصوص التاريخية التي تذكر احتلال تون احتلالاً ثانياً على يد هولاكو بعد أن ذكرت احتلالها أولاً على يد كيتو بوقا . والذي يستنتج من ذلك أن تون ربما عادت فخرجت على المغول قبل وصول هولاكو ثم عادوا فاحتلوها بعد وصوله .

وقد تابع هولاكو خط زحفه حتى بلغ حدود «زاوه»[2] و «خواف»[3] ومن هناك وجه قواده لاكتساح الولايات الإسماعيلية فلقوا مقاومة عند حدود قهستان تغلبوا عليها في خلال أسبوع فانتهت بأسر المقاومين . ثم تقدموا

---

(١) ص٢٤٦ .

(٢) كورة بخراسان .

(٣) مدينة بخراسان .

إلى «تـون» ونصبوا عليهـا المجانيق ثم استـولوا عليهـا وقتلوا جميـع سكـانهـا مستثنين أرباب الحرف ، ثم عادوا إلى معسكر هولاكو يعلنون ظفرهم .

بعد هذه التهميدات للاحتلال اتجه هولاكو بفيـالقه نحـو مدينـة طوس ، وتجـاوزها مـوغلاً في السيـر بإتجـاه القلاع الإسمـاعيلية ، وفي الـطريق أرسل إلى ركن الـدين خـور شـاه كبيـر الإسمـاعيليين وفـداً مؤلفـاً من مغـولي هـو «بكتيمـورجي» ومسلمين هما ظهيـر الدين سبـلار البيتكجي وشاه أميـر . فأدى الوفد الرسالة وعاد ملتقياً بهولاكو وقد وصل إلى نواحي القـلاع وشرع بهجماته عليها .

وبالرغم من أن النصوص التاريخيـة لا تعرب عن مضمـون الرسـالة فـلا شك أنها كانت دعوة إلى التسليم وأن خـور شاه لم يجب إلى ذلـك بدليـل أن هـولاكو حين تقـدم إلى خراقـان وبسطام في العـاشر من شعبـان سنة ٦٥٤ هـ أرسل وفداً مغولياً آخر إلى خور شاه يحمل رسـالة أخـرى ، وأمر رجلي الـوفد بتخويف خور شاه وتهديده ووعيده .

التسليم

واستشـار ركن الدين خـور شـاه من عنـده من الـرجـال فـأشـاروا بعـدم جدوى المقاومة ومالـوا إلى التسليم . فرأى أن يـرسل أخـاه الأصغر شـاهنشاه وأصيل الدين الزوزني على رأس جماعـة من أعيان مملكتـه إلى هولاكـو دليلاً على التسليم فأكرمهم هولاكو ولكن عاد فأرسل وفداً آخر فيه صـدر الدين وظهيـر الـدين وتوكـل بها دوربخشي ومـازوق بـرسـالـة إلى خـورشـاه تـطلب إليـه أن يخرب القلاع ، إذا كان حقاً قد قبل التسليم ويأتي بنفسه إلى هولاكو .

فهدم خورشاه أقساماً من بعض القلاع كقلعة مامـون دز ولمسر وألمـوت نفسهـا فحـطم الأبـراج ورمى الأبـواب وأخـذ يعمـل في تخـريب أسـوارهـا وحصونها .

أما بشأن قدومه بنفسه إلى هولاكو فطلب إمهاله سنة ليغادر القلعة ويقبل إلى هولاكو ، فلم يرق ذلك لهولاكو فتوجه من بسطام متقدماً نحو القلاع وأمر أن تجتمع الجيوش كلها وسار في قلبها ، ثم أرسل رسلاً إلى خور شاه يقولون : «إذا أتى بنفسه لاستقبالنا فإننا سنعفو عنه رغم جرائمه العديدة» وظل هولاكو على تقدمه حتى تجاوز مدينة «فيروز كوه» وهناك التقى برسله عائدين بتعهد بتخريب القلاع وراجين أن يرضى ببقاء خور شاه عاماً واحداً في القلاع ، على أن يستثنى من التخريب قلعتا ألموت ولمسر لما فيهما من الذكريات الإسماعيلية باعتبارهما قاعدتي الحكم الإسماعيلي ، وعزز خورشاه تسليمه هذا بأن كتب إلى حكام كرده كوه وقهستان بأن يتوجهوا إلى هولاكو .

ولكن هولاكو ظل مصراً على التسليم العام الكامل وحضور خور شاه بنفسه معلناً هذا التسليم ، وظل مستمراً بزحفه ، فتجاوز ولاية (لارودماوند) إلى (فِرَان) ثم حاصر قلعة (شاه دز) الواقعة في طريقه فسلمت في يومين . ثم عاد يرسل الرسل إلى خور شاه ليحرضوه على التسليم . فمشى خور شاه في تسليمه هذه المرة خطوة أوسع حيث أرسل ابنه مع ٢٠٠ من الجنود ورضي بأن يخرب القلاع جميعها دون استثناء .

فتوقف هولاكو في مدينة «عباس آباد الري» منتظراً تنفيذ الوعود. وفي السابع عشر من شهر رمضان سنة ٦٥٤ بدأ خورشاه تطبيق ما وعد بتطبيقه فأرسل ابنه الذي كان لا يتجاوز الثامنة من عمره مع جمع من الأعيان والكبراء ، فأعاد هولاكو الصبي معززاً لصغر سنه ، ورضي بأن يرسل خور شاه أخاه الآخر إذا كان لا يستطيع الحضور . فامتثل ركن الدين لهذا الأمر وأرسل أخاه شروان شاه وأصيل الدين الزوزني مع ثلثمائة من كبار رجال الدولة فالتقوا بهولاكو في ضواحي الري .

ثم أعاد شروانشاه إلى أخيه مصراً على تخريب القلاع وأمر بأن تتجمع جيوشه المنتشرة وتلتقي في معسكر واحد فلم يشعر الإسماعيليون إلا

وقد أحيط بهم وأصبحوا مطوقين من كل الأطراف . فأرسل خور شاه قائلاً : ما دمنا قد خضعنا ونحن نشتغل بتخريب القلاع فعلام أقبلتم علينا .

ثم أحاطت الجيوش بقلعة ميمون دز ولكن عجز المغول عنها لمناعتها ، فهم هولاكو بالرحيل لمداهمة الشتاء له ثم العودة في العام المقبل ولكن مستشاريه وبينهم سيف الدين البيتكجي أصروا على البقاء والاستمرار في حصار القلعة . فأرسل رسالة جديدة إلى خور شاه تجمع بين الترغيب والترهيب فاستشار خور شاه رجال دولته ثم أرسل وفداً من كبار رجاله على اختلاف مناصبهم لمقابلة هولاكو ودراسة الأوضاع والعودة بالرأي الأخير ، فاستقبل المغول الوفد ثم أنزلوهم في أماكن متفرقة كل رجل بمفرده ، ثم استجوبوهم واحداً واحداً . ولا شك أن هذا التصرف كان يراد به شيئين : أولاً استطلاع حقيقة الحال في القلعة وبقية القلاع ، ثم التهويل على الموفدين ، لذلك عاد رجال الوفد إلى خور شاه مقتنعين بوجوب التسليم . وبعد أيام نزل خورشاه من القلعة ومعه نصير الدين الطوسي وأصيل الدين الزوزني ، والوزير مؤيد الدين ، وأبناء رئيس الدولة وهم أطباء ، فكان نزوله توديعاً نهائياً للأرض التي ظلت مقراً لأسرته وحصناً منيعاً لها طيلة قرنين .

وكان استقبال هولاكو لخور شاه استقبالاً حسناً ، إذ كان لا يزال محتاجاً إليه ثم أوفد معه من يتسلم القلاع والحصون في قهستان وردوبار وقومس وكانت تبلغ المائة فاستسلمت جميعها فيما عدا قلعتي كرده كوه ولمسر .

وكانت القلاع تضم الكثير من الخزائن والذخائر والنفائس والآلات مما كان الاسماعيليون يجمعونه ويحتفظون به طيلة قرنين فتسلم المغول ذلك كله ثم خربوا القلاع تخريباً تاماً .

وفي لمسر امتنعت الأسرة الحاكمة ـ إذا صحّ التعبير ـ من أقرباء ركن

الـدين خور شـاه وفريق من أتبـاعه ورفضـوا التسليم وظلوا في المقـاومـة طيلة سنـة ، ولم يزعـزعهم سوى حلول وبـاء فيهم أهلك الكثيرين منهم ممـا حمل الباقين على الإذعان وهكذا استسلمت لمسر .

أمـا كرده كـوه فقد رفضت التسليم رفضـاً قـاطعـاً وظـل الإسمـاعيليـون معتصمين بها يقاومون مستبسلين عشرين سنة فيما يبدو .

ولما تـم الأمر لهولاكو في تلك القلاع تقدم نحـو القلعة الكبـرى «ألموت» مستصحباً معه ركن الدين خور شاه ، فلما بلغها هولاكـو أوفد ركن الـدين إلى القلعـة ليحمـل من فيهـا على التسليم ولكن قـائـد القلعـة رفض ذلـك وصمم على المقاومة وظل يرد هـجمـات المغول بضعـة أيام . فـرأى هولاكـو أن يؤمن من بها على حياتهم ويدعوهم من جـديد إلى التسليم فنجـح هذه المـرة ونزل القـائد مستسلمـاً فـدخـل المغـول القلعـة واعملوا فيهـا النهب والسلب . ولم يخف هولاكو دهشتـه من مناعتهـا وروعة مـوقعها . وكـان فيما قضـوا عليه في القلعـة ، المكتبة الكبـرى التي تعب الإسماعيليـون في جمع نفـائسها : وقـد استطاع الصاحب علاء الدين الجويني أن ينقذ بعض ما فيها[1] .

---

(١) شهـد علاء الـدين الجويني مـع هولاكـو فتح قـلاع الإسماعيلية وعني بوصف مـا جرى هنـاك وصفاً تاريخياً ممتعاً في كتابه الذي ألفه بـالفارسيـة وسماه « جهـان كشا » قـائلاً : كنت أعـرف بأن هناك خـزانة كتب ثمينـة طبقت شهرتهـا الآفاق وقلت يحسن انتهـاز الفرصـة للاطـلاع على هذه الخزانة فوافق هـولاكو فـوراً وزرت الخزانـة وانتقيت أنفس ما فيهـا من المصاحف والكتب وأخرجتها كما « يخرج الحي من الميت » وحملت محتوياتها من آلات الرصـد كذات الكـرسي وذات الحلق إلى أنواع من الأسطرلابـات التامة والمنصفة وذات الشعـاع . وأما الكتب المجـردة في عقائد الإسماعيلية ودعوتهم فذهبت طعمة للنيران .

ثم أشار إلى ما اشتملت عليـه الخزانـة من الذهب وهي مقـادير لا تحصى . هـذا ومن النفائس التي ظفر بها علاء الدين الجويني في الخزانة كتاب في تـاريخ الجيـل والديلم ألف بـاسم فخر الدولة البويهي واستفاد الجويني منه ، ونقل نبذة عنه في تاريخ تلك الأصقاع « الشبيبي ».

مقتل ركن الدين خورشاه

وترك هولاكو عند لمسر من يحاصرها وتقدم في اتجاه قزوين حيث نزل في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٥٤ على بعد سبعة فراسخ منها . ولم يكتف هولاكو من خورشاه بتسليم قلاع إيران ، بل طلب إليه أن يرسل من قبله وفداً مع وفد مغولي إلى إسماعيليي بلاد الشام يدعوهم إلى عدم المقاومة حين تصل جيوش المغول إليهم .

وهكذا ظل المغول على إعزاز خورشاه والإنعام عليه ما داموا محتاجين إليه فلما انقضت حاجتهم أرسله هولاكو إلى بلاط أخيه منكوقا آن ، وقبل أن يصل أرسل منكوقا آن من قتله في الطريق بين أبهر وقزوين كما قتل معه أسرته كلها رجالاً وأطفالاً .

وكان هولاكو قد احتفظ بكل من نصير الدين الطوسي ، وأبناء رئيس الدولة وموفق الدولة أما الأول ففضلا عن كونه فيلسوفاً كان فلكياً عالماً بالنجوم ، وكان هولاكو مغرماً بهذا النوع من العلم . وأما الآخرون فقد كانوا أطباء وكان بحاجة ماسة إلى الأطباء لذلك احتفظ بالجميع في معسكره ونجوا بذلك من القتل ثم ألزمهم صحبته فصحبوه في مراحله كلها .

يطمع بشواطىء المتوسط

بإنهاء الحكم الإسماعيلي على الشكل الذي مر ذكره انتهت المهمة الأولى لهولاكو ، وصفت له تلك القلاع والبلاد ، وإذا كانت رغبة قاضي القضاة شمس الدين القزويني وغيره قد تحققت فإن رغبات هولاكو ومن ورائه منكوقا آن لم تتحقق بعد فشتان بين ما تحقق وبين ما يراد تحقيقه ، وليست بلاد الإسماعيليين إلا رقعة ضيقة من الأرض الواسعة التي تقع بين جيحون والنيل ! .

ويبدو من النص الذي أورده صاحب جامع التواريخ [١] إن نية المغول كانت النفاذ إلى البحر المتوسط وإزاحة الصليبيين والحلول محلهم فيما كانوا لا يزالون يحتلونه من بلاد الشام . وإن فكرة التحالف مع الصليبيين لم تكن واردة آنذاك وإن المغول كانوا من الاعتداد بقواهم ما جعلهم يعتقدون أنهم بغنى عن الصليبيين ، وإن على هؤلاء أن يتخلوا لهم عما بيدهم من بلاد . ولم تكن مسايرتهم لهم أول الأمر إلا من قبيل كسب الوقت .

ذلك أنه ورد في جامع التواريخ أن هولاكو وهو يتهيأ للتقدم استقبل قائداً من قواده يسمى (بايجونويان) قادماً من حدود آذربيجان بعد أن كان قد أرسله لتنفيذ مخطط حربي يقضي حتى بالوصول إلى بغداد . ولكن هذا القائد رأى أن قواه أقل من أن تستطيع تحقيق هذه المهمة فعاد إلى هولاكو فألفاه غاضباً عليه لعجزه عن تنفيذ ما عهد إليه بتنفيذه فاعتذر القائد قائلاً : « إنني لم أقصر وإنما بذلت كل ما في مقدوري . فقد أخضعت الأقاليم الممتدة من باب الري حتى حدود الروم والشام ما عدا بغداد . . . » .

فقال هولاكو : « يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الولاية حتى شاطىء البحر من يد أبناء الفرنج ومن الكفار » .

ومن الطبيعي أن أبناء الفرنج المقصودين هم الصليبيون المستولون على الساحل الشامي فمن هم الكفار ؟! .

وهنا نعود إلى مهزلة الإيمان والكفر بعد أن كنا في مهزلة الإيمان والإلحاد من قبل ! وهكذا نرى هذا الوثني الطاغية مولعاً بتصنيف الناس عقائدياً ، وموزعاً تهمة الإلحاد هنا والكفر هناك ! . . .

وإذا كان الفرنج غير داخلين في زمرة الكفار عنده فمن هم الداخلون بها ؟ ينقل مترجمو جامع التواريخ عن المستشرق الفرنسي « كاترمير » واضع

---

(١) ص ٢٦١ .

مقدمة جامع التواريخ أنه يرى أن المقصود بالكفار هنا الأرمن والأغريق الذين كانوا يحتلون أماكن عديدة من آسيا الصغرى . على أن ما يوضح الأمر هو ما ذكره قبل ذلك في جامع التواريخ نفسه من أن منكوقا آن قد حدد مهمة هولاكو ، وهي فتح غرب إيران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن .

والعجيب هو تمييز هولاكو في العقيدة بين الفرنج من جهة وبين الأرمن والإغريق من جهة ثانية .

على أن أهم ما في هذا النص ما قلناه من أنه يدل على أنه كان من أهداف المغول الوصول إلى شواطىء البحر المتوسط مع ما في ذلك من الاصطدام بالصليبيين . فضلاً عن آسيا الصغرى التي عاد (بايجونويان) فهزم فيها غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين واستصفى بلاده .

ويبدو لنا أن المغول أخروا الصدام بالصليبيين في سواحل الشام إلى ما بعد احتلال مصر وإن عودة هولاكو وفشلهم في احتلال مصر قلب خططهم . ولا يمنع هذا ما كان من تعاطف بين النصارى وبين المغول فيما احتلوه من بلاد ويبدو أن هذه النوايا لم تكن لتخفى على الصليبيين مما جعل بارونات عكا لا يخفون نقمتهم على المغول ناظرين إليهم كبرابرة لا يمكن أن يفضلوا بنظرهم على المسلمين . وحدث أن هاجم أحد هؤلاء البارونات المسمى الكونت جوليان الصيداوي Julien de Sidon جماعة مغولية وقتل ابن أخي القائد كيتوبوقا فسخط المغول لهذا الحادث ومضوا لتخريب صيدا [١] مما جعل العداء صريحاً بين الفريقين . وكذلك حدث أنه عندما هاجم الجيش المصري طلائع جيوش المغول المتقدمة إلى غزة وانتصر عليها ـ كما سيأتي ـ وأراد التقدم وراءها ، فإن الأفرنج في عكا سمحوا للمصريين بأن يعبروا أرضهم ويتزودوا بالمؤن عند أسوار عكا . يقول المقريزي : « ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوماً ، ثم

(١) Grousset : L'empire des steppes P . 437 .

رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج ، فخرجوا إليهم بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر »[1] .

وانتقل هولاكو من ضواحي قزوين ونزل على همذان ثم تقدم إلى الدينور في ٩ ربيع الآخر سنة ٦٥٥هـ متجهاً إلى بغداد ثم بدا له فعاد إلى همذان ومنها أرسل إلى المستعصم رسولاً يحمل منه رسالة وعيد وإنذار فكيف كانت الحال في بغداد ؟

---

(١) السلوك ـ ج١ ق٢ ص٤٣٠ .

الحال في بغداد

كانت بغداد غافلة عما يراد بها ، غارقة في شقاقاتها الشخصية وفتنها المذهبية ، وكانت قد نكبت قبل ذلك آخر صيف سنة ٦٥٤ بفيضان عظيم طغى عليها فأغرقها واستمر خمسين يوماً يعمل عمله ثم أخذ بالتناقص ، ونتج عن ذلك فوضى أدت إلى سيطرة طبقة من الرعاع أخذوا بالاعتداء على الناس والسلب والنهب ، مما زاد في تفكك البلد وتخاذله .

وكان أبرز رجال الدولة في ذلك الوقت شخصان يتوليان منصبين خطيرين هما الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي وقائد الجيش مجاهد الدين الدواتدار (١) . وكانا متنافرين متشاكسين . ولم يكن في شخصية الخليفة من القوة ما يحسم مثل هذه الأمور ، بل لم يكن في شخصيته ما يؤهله لقيادة العالم الإسلامي في معركته الحاسمة . والمسلمون لم يفهموا أن المغول إنما يستهدفون كيانهم ، والذين فهموا كانوا غافلين . لقد كانت القلاع الإسماعيلية المنيعة مستطيعة الصمود طويلاً أمام الموجة المغولية بل لم يكن النصر مستحيلاً لو أن المسلمين عضدوا الإسماعيليين

---

(١) اشتهر في أواخر الدولة العباسية « دواتداران » أولهما : الدواتدار الكبير وهو علاء الدين الطبرسي الظاهري ، كان دواتدار الخليفة الظاهر حظيا عنده . ولما استخلف المستنصر بعد الظاهر ثابر على تقديمه وتقريبه وزوجه ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . كما تزوج اختها بعد ذلك ابنه الدواتدار الصغير مجاهد الدين في خلافة المستنصر .

وأمـدوهم ، ولكن المسلمين كـانـوا بين محـرض على الإسمـاعيليين وبين شـامت وبين متجاهـل ، بل لقـد عمهم السرور للقضـاء على الإسماعيليين . وهـا هو التهـديد المغـولي يصـل إلى بغـداد ويتـردد صـداه في جميـع أنحـاء العالم الإسلامي دون أن يكون لهذا الصدى أية ردة فعـل عملية . وعلى هـذا مضى الأمر وتهيأ هولاكو لمتابعة الخطوات في اتجاه بغداد .

كـانت الخلافـات الشخصية تحـول دون كل تفـاهم بين أولي الأمـر في بغداد وكانت نكبتها بالفيضان قد خلقت رعاعية معتـدية ـ كمـا قدمنـا ـ ويظهـر أن هـذه الطبقـة سيطرت على الشـارع بحيث جعل النـافذين يتسـابقون عليهـا استنصاراً بها ، فكان أن احتضنها مجاهد الدين الدواتـدار واعتضد بهـا ففرض نفسـه على الخليفـة بحيث صـار اسمـه يـذكـر في الخـطبـة بعـد اسم الخليفة [1] .

من هـذا وأشباهـه يمكننا أن نحكم على مـا كان يشغـل أولي الأمـر في بغـداد وعلى مقدار انصـرافهم إلى الأهتمـام بمعـالجـة الخـطر الـداهم . ولم يكن يدري الدواتدار أنه كان بتصرفـاته هـو وغيره من المسؤولين يمهـد إلى أن يطير اسمه واسم الخليفة لا من الخطبة بل من الوجود ! .

مراسلات تهديدية

تركنا هولاكو في الدينور وقد أرسل رسالة التهديد والـوعيد إلى الخليفـة وقد قال فيما قال في تلك الرسالة :. « لقد أرسلنـا إليك رسلنـا وقت فتح قـلاع المـلاحـدة وطلبنـا مـدداً من الجنـد ، ولكنـك أظهـرت الـطاعـة ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيـرنا إلى الـطغاة فلم تـرسل إلينـا الجند والتمست العـذر ومهما تكن أسـرتك عـريقة وبيتـك ذا مجـد تليـد « فـإن لمعـان القمـر قـد يبلغ درجـة يخفي معهـا نـور الشمس

(١) جامع التواريخ ـ ص٢٦٢ .

الساطعة » ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيز خان إلى اليوم ، والذل الذي حاقْ بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة . وذلك بحول الله القديم الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه أية طائفة من تلك الطوائف ، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم . فكيف يغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان ؟ . ولقد نصحناك من قبل . والآن نقول لك : احذر الحقد والخصام ولا تضرب المخصف بقبضة يدك ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب .

ومع هذا فقد مضى ما مضى ، فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا ، وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلا من الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص . فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته . أما إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدال ، فليعبىء الجند وليعين ساحة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفين له على استعداد . وحينما أقود الجيش إلى بغداد مندفعاً بسورة الغضب فإنك لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض « فسوف أنزلك من الفلك الدوار ، وسألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد ، ولن أدع حياً في مملكتك وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار . فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله » . انتهى .

وصلت الرسالة إلى المستعصم في بغداد فكان جوابه عليها من نوعها شدة وعنفاً . وإذا كان الأصل العربي للرسالة قد فقد ، فإن الهمذاني حفظ لنا الأصل المترجم عن العربية إلى الفارسية ، ثم المعادة ترجمته عن الفارسية إلى العربية لذلك فإن ما نورده هنا ليس هو الأصل العربي بل

المترجم مرتين وقد أرسل المستعصم جوابه مع وفد صحب الوفد المغولي العائد . وهذا هو الجواب :

« أيها الشاب الحدث المتمني قصر العمر ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً بيومين من الأقبال ، متوهماً أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم . لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي »

إلى أن يقول :

« ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي . إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في أيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران واضع كل شخص في موضعه . وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب . غير أني لا أريد الحقد والخصام ولا أن اشتري ضرر الناس وإيذاءهم كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح والقدح ، خصوصاً وإنني مع الخاقان قلب واحد ولسان واحد ، وإذا كنت مثلي تزرع المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم . فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان . وإن كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر إذا استقر رأيك على الحرب ، إن لي الوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة وهم متأهبون للقتال . وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان » انتهى .

ومع الرسالة أرسل بعض التحف والهدايا . ولما خرج رسل المغول من بغداد جوبهوا بمظاهرة عنيفة من جموع الرعاع المنتشرة في العراء كانت مادتها السباب والشتائم وتمزيق ثيابهم والبصق في وجوههم . وبلغت أخبار المظاهرة إلى الوزير فخشي العواقب وأسرع فأرسل من خلص الوفد المغولي من أيدي الرعاع . فأثار جواب الخليفة وما لقي الوفد من المهانة حفيظة هولاكو وغضبه .

ونحن حين نتأمل الجواب نرى أنه الكلام الـذي يستحقه هـولاكو ، وأن من يهـدد الناس في أوطـانهم لا يجوز أن يلقى منهم أقـل من هـذا بشـرط أن يقترن القول بالعمل ، فهـل اتخذ الخليفـة من الإجراءات مـا يتفق مع وعيـده ويليق بكرامة موقفه ؟ .

من المؤسف أن نقـول أن شيئاً من ذلـك لم يكن ، وإن الأمـور ظلت في بغـداد على ما كـانت عليـه من استهتـار وعـدم مبـالاة وإن الخليفـة اكتفى بـالكلام الأجـوف وعاد إلى لهـوه ونزعـاته . وإن كـل مظاهـر حماسـة الشعب كـانت غوغـائية رعـاعية اكتفت بـالشتيمـة والبصـاق والاعتـداء في غيـر محـل الاعتداء ! .

لقد كان المستعصم صادقاً كـل الصدق حين قـال في جوابـه : « إنه من الشـرق إلى الغـرب ومن الملوك إلى الشحـاذين ، ومن الشيـوخ إلى الشبـاب ممن يؤمن بـالله ويعملون بـالـدين كلهم عبيـد هـذا البـلاط وجنـود لي . إنني حينما أشير بجمع الشتات سـأبدأ بحسم الأمـور في إيران ثم أتـوجه إلى بـلاد توران . . . » .

ونحن إذ تجـاوزنا كلمـة « عبيد » وفهمنـا منها غيـر معناهـا المادي فـإننا نـرى الحقيقة كـل الحقيقة في هـذا القول ، فـإن عشـرات المـلايين المؤمنين بـالله مستعدون لـلالتفاف حـول مقام الخـلافة وحمـاية الإسـلام إذا أهيب بهم إهابة صادقة . وإن الخليفة حين يشير بجمع الشتات يمكنـه أن يطارد المغـول في أيران وتوران . . .

ولكن الخليفـة الذي لم يستـطع أن يشيـر بجمـع الشتـات بين حـاشيتـه وفي عـاصمته ايستـطيع أن يشيـر بجمع الشتـات في أطراف العـالم الإسلامي الواسعة . والخليفة الذي كان ابنه يقود المذابح المذهبيـة في بغداد أيقـدر أن يقود الملاحم الاسلامية في أيران وتوران ؟! .

مؤتمر وطني

كان هولاكـو سنة ٦٥٥ (١٢٥٧) يعسكـر في حدود مـدينة همـذان حين جـاءه جواب المستعصم مـع رسله ، فرد الـرسل بـرسـالـة شفهيـة فيهـا زيـادة غضب وتهـديد وإنـذار بالسيـر إلى بغداد . ولمـا عـاد الـوفـد إلى المستعصم بالرسالة الجديدة بدأ مشاوراته فتضاربت الآراء بين استرضاء هـولاكو واشغـاله بـالمال وإرسـال التحف والهدايـا إليه وبين رفض هـذا الـرأي دون ابـداء رأي آخـر . وكان للنكـايات الشخصيـة أثر في تضـارب الآراء وبقي الموقف مـائعاً دون تحديد خطة معينة .

ولمـا رأى الوزيـر ابن العلقمي ذلك دعـا إلى مـا يمكن أن نـطلق عليـه في اصطلاحنا الحاضر (مؤتمراً وطنياً) شهده قادة الرأي وأركان الـدولة وكـان أكثـر الحاضـرين من الرجـال العسكـريين ـ للتشاور فيمـا يمكن عمله في درء الخـطر الداهم . وكـانت الدعـوة إلى المؤتمر بعـد أن يئس الوزيـر من حمـل الخليفـة على إقرار خـطة واضحـة ومنهـج صـريـح ، ووجـد ابن العلقمي أن الخليفـة غير متفهم لـدقة المـوقف وحراجـة الظرف إذ أجـاب الوزيـر في آخر حـديث معـه : « لا تخش القضـاء المقبـل ولا تقــل خـرافــة فـإن بيني وبين هـولاكو خـان وأخيه منكـوقا آن صـداقة وألفـة لا عداوة وقـطيعة ، وحيث أنني صـديق لهما فـلا بد أنهمـا أيضاً يكـونان صـديقين وماليين لي ، وإن رسـالـة الرسل غير صحيحة . أمـا إذا أضمر الأخـوان لي خلافـاً وغدراً فـلا ضير على الأسـرة العبـاسيـة . إذ إن ملوك الأرض هم بمثـابـة الجنـود لي وهم منقـادون ومطيعون لأمري ونهيي فادعوهم من كل قـطر . وأسير لـدفعهما ، وأثيـر إيران وتوران عليهما ، فقو قلبك ولا تخافن تهديـد المغول ووعيـدهم ، فإنهم رغم كونهم أرباب دولـة وأصحاب شـوكة ، إلا أنهم لا يملكـون سوى الهـوس في رؤوسهم والريح في أكفهم ».

بهذه الذهنية كان رأس الدولة يعالج الخطر المغولي، وبهذه الأوهام كان يتشبث، لذلك دعا ابن العلقمي إلى المؤتمر الوطني ودعا فيمن دعـا إليه حتى

خصومه مثل مجاهد الدين الدواتدار . وقد حفظ لنا « جامع التواريخ » ما يمكن أن نسميه محضر جلسة المؤتمر [1] . قال :

« وقد اجتمع عند الوزير أمراء بغداد وعظماؤها ، مثل سليمان شاه بن برجم وفتح الدين بن كره ، ومجاهد الدين الدواتدار الصغير ، واطلقوا السنتهم بقدح الخليفة وطعنه قائلين إنه صديق المطربين والمساخرة ، وعدو الجيش والجنود . وإننا أمراء الجيش ، بعنا كل ما ادخرناه في عهد والده ». وقال سليمان شاه : « إذا لم يقدم الخليفة على دفع هذا الخصم القوي ولم يبادر إلى طلب العون والمساعدة ، فسيتغلب جيش المغول عن قريب على بغداد ، وحينئذ لا يرحمون أي مخلوق كما فعلوا ذلك بسائر البلاد والعباد فلا يبقون على أي شخص من الحضر كان أو من البدو ، قوياً كان أم ضعيفاً ، وسيخرجون ربات الخدور من ستر العصمة . ولو أن المغول لم يحدقوا بجميع الجهات لكان من السهل حشد الجنود من الأطراف ، ولحملتُ عليهم بجيش في غارة ليلية وشتت شملهم . ولو جرت الأمور على خلاف ذلك فأولى بالفتى أن يقتل في حومة الوغى في عزة وشرف ».

ويقول الهمذاني : وعندما بلغ الخليفة هذا الكلام أعجب به وقال للوزير : « إن كلام سليمان شاه له الأثر في النفس المنهكة ، فاستعرض الجند حسب تقريره لأغنيهم بالدرهم والدينار وسلم أمرهم إلى سليمان شاه ليحقق خطته ».

ويقول الهمذاني [2] : « على أن الوزير عرف أن الخليفة لن يمنح مالاً » ويستطرد الهمذاني قائلاً :

« أمر (الوزير) العارض بأن يعرض الجنود بالتدريج فوجاً فوجاً ليصل إلى تعبئة الجنود في حضرة الخليفة إلى البعيد والقريب والترك والعرب فتفتر

---

(١) ص٢٧٣ .

(٢) جامع التواريخ ـص٢٧٤ .

عزيمة العـدو . وبعد خمسـة أشهر أبلغ العـارض الوزيـر أن الجند قـد صاروا عدداً وفيراً وجيشاً جراراً ، وإن على الخليفة أن يمنح المـال . فعرض الوزيـر الأمر على المستعصم ولكنه اعتذر . فيئس الوزيـر من مواعيـده كلية ، ورضي بالقضاء ووضع عين الانتظار على نافذة الاصطبار »[1].

وهكـذا نرى أن الـوزير ابن العلقمي قـد بـذل أقصى ما يستـطيع مثله أن يبـذل فـي مثـل هذا المـوقف وإنه حـاول إعداد الجيـوش للدفاع ، وظـل طيلة خمسة **أشهر يعمل في** تهيئة الجند ، ولما احتيـج إلى بذل المـال لإكمال **الأعـداد** وإنجاز التعبئة نكص الخليفة ومنـع المال عن الجيش فكـان السبب في تعطيل كل ذلك .

رسالة ساذجة وجوابها

ثم لجـأ الخليفـة إلى تـدبيـر سخيف يـدل على مـا كـان عليـه الـرجـل المؤمل للموقف العصيب ، من سـذاجة ، وعلى الأسـاليب التافهـة التي يعلل نفسـه بها ويحسب أنهـا ترد عنـه غائلة المغـول فقد أرسـل إلى هولاكـو هديـة صغيرة وبعث إليه يقول :

«لو غاب عن الملك، فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ أن كل ملك ـ حتى هذا العهد ـ قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة . ومهما قصـد ذوو السطوة من الملوك وأصحـاب الشـوكـة من السـلاطين، فـإن بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى إلى يـوم القيامـة . وفي الأيام السـالفة قصـد يعقوب بن الليث الصفـار الخليفـة وتـوجـه بجيش لجب إلى بغـداد فلم يبلغ مـأربه إذ مـات بعلة الزحـار ، والأمر كـذلك مـع أخيـه عمـرو ، إذ قبض عليه إسماعيـل بن أحمد السـاماني وكبله وأرسله إلى بغـداد لكي يجري عليـه

---

(١) ص٢٧٤ .

الخليفة ما حكم به القضاء . وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة ، وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر . وفي النهاية علم طغرلبك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله وأخرج الخليفة من السجن وإعاده إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة . وكذلك قصد السلطان محمد السلجوقي بغداد فعاد منهزماً وهلك في الطريق . وجاء محمد خوارزم شاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة فابتلي في روابي « أسد آباد » بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك أكثر جنده وعاد خائباً خاسراً . ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة آبسكون . فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين . فاحذر عين السوء من الزمان الغادر » .

هذه هي الرسالة التي بعث بها المستعصم إلى هولاكو مع هديته الصغيرة . وهكذا رأيناه من قبل يعتمد على صداقته لهولاكو ومنكوقا آن ومع أنه ليس في أيدينا ما يشير إلى عوامل هذه الصداقة المدعاة فإنه ليخيل إلينا أنها مبنية على تحالف ضمني للقضاء على الإسماعيليين ، وإن هولاكو ربما كان متفاهماً من قبل مع الخليفة حين عول على إنهاء الإسماعيليين وإن المستعصم كان معتمداً على ذلك متوهماً أن رباطاً من الصداقة قد توثق بينه وبين منكوقا آن وهولاكو بعد أن جمعهم ـ لوقت ما ـ هدف واحد . ولهذا رأينا المستعصم يكرر ذكر هذه الصداقة أكثر من مرة ويؤكد اعتماده عليها .

ويبدو أنه أدرك متأخراً أن هذه الصداقة غير مجدية وأن صديقه محطم الإسماعيليين ينوي تحطيم أصدقائه العباسيين لذلك لجأ إلى هذا الأسلوب الساذج المضحك مهدداً ببركة أجداده وأسرارهم الألهية التي ردت عنهم الأعداء ونصرتهم على الخصماء ! . ناسياً أنه إذا صح أن يقول القائل

القديم : « إن للبيت رباً يحميه »، فلا يصح أن يعاد هذا القول مرة ثانية ، وإن رب البيت لا يحميه إذا كان أهله لم يتولوا بأنفسهم حمايته والدفاع عنه . وإن الرب ـ جل وعلا ـ هو القائل : **﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل . . . ﴾**.

فلما وصلت الرسالة إلى هولاكو اغضبته غضباً شديداً فرد الرسل مصحباً إياهم بأبيات من الشعر معناها :

اذهب واصنع من الحديد المدن
والأسوار
وارفع من الفولاذ الأبراج والهياكل
واجمع جيشاً من المردة والشياطين
ثم تقدم نحوي للخصام والنزال
فأنزلك ولو كنت في السماء
وسأدفع بك غصباً إلى أفواه السباع

الزحف إلى بغداد

في الـوقت الذي كـانت تعوز الخليفـة فيه اعتمـاد خـطة معينـة لمقـابلة الزحف المغولي ، كـان هولاكـو يعد خـطته ويحكم أمـرها فقـرر الزحف على أكثر من خط واحد ليحصر بغداد بين مجموعة من الجيوش . وهكذا فقد أمر جيوش «جرماغون» و«بايجونويان» التي أخضعت آسيـا الصغرى أن تسيـر على الميمنـة إلى الموصـل عن طريق إربـل ثم تعبر جسـر المـوصـل وتعسكـر في الجانب الغربي من بغـداد وحدد لهـا الوقت الـذي يجب أن تصل فيـه ، وأمر قوات أخرى بقيـادة «كيتوبـوقانـوبان» و«قـدسون» و«نـرك إيلكا» أن تسيـر على الميسـرة فتزحف من حـدود لرستـان وبيات وتكـريت وخوزستـان حتى شاطىء البحـر ممـا كـان يعـرف بسـاحـل عمـان . وفي أوائـل المحـرم سنـة ٦٥٥ (١٢٥٧ م) سـار هـو في القلب من همـذان عن طـريق كـرمنشـاه وحلوان . وهكذا كانت ثلاثة جيوش ضخمة تتقدم للإحـاطة ببغـداد ومع ذلـك فقد ظلت بغداد تعلل النفس بالأماني الفارغة معتمدة على الأوهام .

ومن الطريف المحزن أن هولاكو حين وصل إلى أسد آبـاد أرسل رسـالة جديدة للخليفة يدعوه للحضور إليه فكان الخليفـة يكتفي بالممـاطلة والتعلل . ثم أرسل إلى هولاكو رسالة مملوءة وعداً ووعيـداً يطلب فيهـا منه أن يعـود من حيث أتى على أن يـدفع لـه الخليفة مـا يشاء من المـال ، فـرد هـولاكـو على الـرسالـة مستهزئـاً : «وكيف نترك زيـارة الخليفة بعـد كل مـا قطعنـاه من هـذا

الطريق . سوف نعود بإذنه بعد الحضور للقائه والتحدث معه» .

وعبر هولاكو جبال الأكراد ووصل كرمانشاه في السابع والعشرين من المحرم فبدأت المذابح والسلب . ويبدو أن الخليفة كان قد تحرك فأرسل طلائع من جيشه بقيادة أيبك الحلبي وسيف الدين قلج لمقابلة الجيوش الجرارة ، ولكن هذه الطلائع كانت من الهزال بحيث لم تلبث أن قبض على قائديها وأحضرا إلى هولاكو فاستنطقهما ويبدو أنهما قصا عليه حقيقة الوضع في بغداد ، فإذا بهما ينضمان إليه ويسيران في طلائع جيشه .

وعندما تقدم هولاكو باتجاه بغداد وأخذ يدنو من حدود العراق ويوغل داخله كان من طلائع جيشه أحد القواد المسلمين من بقايا الخوارزميين اسمه سلطان جوق ، في حين يقود طلائع جيش الخليفة تركي آخر هو قبجان المعروف بقراسنقر ، فكتب الأول إلى الثاني يدعوه إلى الاستسلام والانضمام إلى المغول وكانت رسالته : «إنني وأنت من جنس واحد ، وبعد البحث والتدقيق ، التحقت بخدمة هولاكو بسبب الفقر والاضطرار ودخلت في طاعته . وهو الآن يعاملني معاملة طيبة . فانقذ أنت حياتك وترفق بها واشفق على أولادك ، وقدم الطاعة حتى تأمن على دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم» .

ولكن قراسنقر رفض ذلك وأبى الاستسلام وهو ما يحمد عليه ولكن المؤسف هو تعليل أسباب الرفض التي في رسالته الجوابية . إذ لم تكن مستمدة من روح الدفاع عن الأوطان وحماية الذمار والتنديد بالخيانة ، بل كانت جزءاً من الروح الانهزامية المسيطرة على الخليفة نفسه القانعة بأن الله وحده سيحمي العباسيين ويرد عنهم غائلة المعتدين إذ قال قراسنقر في جوابه : «من يكون هؤلاء المغول حتى يقصدوا أسرة العباسيين . لقد شاهدت هذه الأسرة الكثيرين من أمثال دولة جنكيز خان ، وأن أساسها لأكثر إحكاماً ورسوخاً من أساس أسرة جنكيز خان التي تترنح مع كل ريح عاصف . ثم إن العباسيين قد استمروا حكاماً أكثر من خمسمائة سنة ، وكل

مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان . وإذن فليس من العقل والكياسة أن تدعوني لانضم إلى جانب الغصن الغض لدولة جنكيز وكان الأولى بالود والمسالمة أن لا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة ، وأن يعود إلى خراسان وتركستان ، لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه . فإذا كان هولاكو نادماً على فعلته ، فعليه أن يعيد الجيش إلى همذان لكي نجعل الدواتدار شفيعاً فيتضرع بدوره إلى الخليفة عله يزول ألمه ويقبل الصلح ، فيغلق بذلك باب القتال والجدال» (١) .

إن هذا الجواب يرينا حقيقة الحال المسيطرة على رجال الدولة جميعاً في تلك الساعات الحاسمة فقراسنقر لا يعتد بقوة الجيش المعد ، ولا يقول كلمة ترويع وتخويف بالحشود والزحوف ، بل يهدد ويتوعد بالقوة الغيبية وحدها ، كما فعل سيده وخليفته من قبل ! . . فضلاً عن إعلانه أن ما يمنعه من الانضمام إلى المغول هو أن غصنهم لا يزال غضاً ، والدخول معهم غير مأمون العواقب ، والانضمام إليهم لا يضمن المستقبل! . .

وكما رجحنا وجود اتفاق سابق بين الخليفة والمغول على إبادة الإسماعيليين حين علقنا على الصداقة التي يكرر الخليفة ذكر قيامها بينه وبين منكوقا آن وهولاكو ، نعود الآن فنزداد ترجيحاً لهذا الرأي حين نرى قراسنقر يذكر سلطان جوق بذلك ويشير إلى أن الخليفة كان يعتقد بأن هولاكو سيعود بعد تنفيذ الاتفاق والانتهاء من فتح قلاع «الملاحدة» .

بل إن في هذا الجواب ما يؤكد أكثر من ذلك ، وهو أن من بنود الاتفاق أن يصل هولاكو إلى الري فلا يتجاوزه ، وأن الخليفة يقر الاحتلال المغولي حتى تلك الحدود لقاء القضاء على الإسماعيليين ، وأن الخليفة يرى في تجاوز هولاكو للري وتقدمه نحو بغداد نقضاً للاتفاق ، ومخالفة

(١) جامع التواريخ ـ ص٢٨٢ ـ٢٨٣ .

«للود والمسالمة» على حد تعبير قراسنقر ، وأن احتلال المغول لما يحتلونه من بلاد وما يرتكبون فيها من فظائع لا يخالف الود والمسالمة إذا لم ينقضوا الاتفاق ويتجاوزوا الري ! . .

وعرض سلطان جوق جواب قراسنقر على هولاكو فكان تعليقه عليه الضحك وقبل أن يستأنف المسير أرسل رسولاً جديداً إلى بغداد برسالة تقول : «إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج ، وإلا فليتأهب للقتال ، وليحضر إلينا قبل كل شيء : الوزير وسليمان شاه والدوادتار ليسمعوا ما نقول» .

بين الدفاع والهجوم

وفي اليوم التالي في التاسع من ذي الحجة سنة ٦٥٥ (١٢٥٧ م) استأنف هولاكو زحفه حتى شاطىء نهر حلوان [١] حيث عسكر هناك حتى الثاني والعشرين من الشهر ، فهو الآن على حدود العراق . ومن العجيب أنه لم يظهر أي أثر للمقاومة على طول تلك المسافة من همذان حتى حلوان فيما عدا ما رأيناه من وجود الطلائع التي استسلم قائداها وانضما إلى المغول ، وسنرى أيضاً أن الدفاع سيظل مفقوداً وأن المغول سيصلون ضواحي بغداد دون أن يلقوا مقاومة ، وأن أية هزيمة ستفسح المجال لدخول بغداد بسهولة كما حدث بعد ذلك بالفعل .

وفي التاسع من المحرم سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) عبر بعض القادة المغول نهر دجلة عن طريق نهر دجيل ووصلوا إلى نواحي نهر عيسى [٢] أي ضواحي بغداد غير البعيدة .

---

(١) قال ياقوت : « حلوان : آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد ». أي أنها على الحدود العراقية الإيرانية .

(٢) نهر عيسى كما يقول معجم البلدان : كورة وقرى كثيرة وعمل واسع غربي بغداد ومأخذه من الفرات وتتفرع عنه أنهار تخترق بغداد .

هـذا عن خطط الهجـوم ، أما عن الـدفـاع فـإن قـائـد الجيش مجـاهـد الدين أيبك الدواتدار يعاونه ابن كر كانـا قد عسكـرا بين بعقوبـة وباجسـرى ، على أنهما فوجئا بوصول المغول إلى الضفـة الغربيـة ، لذلـك عبرا نهـر دجلة إلى الغـرب والتقيا بـالمغول على حـدود الأنبـار على بعـد تسعـة فـراسـخ من بغداد . وأقدم المغول على فتح سـد على نهر في سـاحة المعـركة لقـطع خط الـرجعة على جيش بغـداد «فغمرت الميـاه كل الصحـراء الواقعـة خلف جيش بغداد» . وفي فجر العاشر من المحرم وقع الصدام العسكري وقـامت المعركـة فـانتصر المغـول ، وقتل فتـح الدين بن كـر وقراسنقـر قائـدا المعركـة مع اثني عشـر ألف رجل فضـلاً عمن غـرق أو مـات في الـوحـل . أمـا القـائـد العـام الدواتدار فكان أول المنهزمين ونجـا مع قلة وعـاد إلى بغداد . وبـدأت حركـة نزوح من بغداد إلى المدن الداخلية .

وفي منتصف المحرم زحف القائـدان بايجـو وسونجـاق رأساً إلى بغـداد واستوليا على الجانب الغربي منها ونـزلا في أحياء المـدينة على شـاطىء نهر دجلة ، ثم وصل آخرون بجيش جرار .

أمـا هولاكـو فقد كـان معسكراً في خـانقين ثم تقدم بـاتجاه بغـداد حتى وصـل الجانب الشـرقي منها في الحـادي عشر من المحـرم . ثم توالى تـدفق الجيوش المغولية فأحاطوا بأسوار بغداد وأقاموا جداراً يحتمون وراءه .

وفي الثاني والعشرين من المحـرم بدأوا الهجـوم العام من كـل الجهات فأحدثت المجانيق ثغرات في السور . وهنا حاول الخليفة محاولة يـائسة فـراح يعالج الأمر بما لا يعـالج فـانتدب الـوزير لمقـابلة هولاكـو قائـلاً : «إن الملك قد أمر بأن أبعث إليه بالوزير ، فهاأنـذا قد لبيت طلبـه فينبغي أن يكون الملك عند كلمته» .

فرد هولاكو قائـلاً: «إن هذا الشـرط طلبته وأنـا على باب همـذان . أما الآن فنحن على أبـواب بغداد ، وقـد ثار بحـر الاضطراب والفتنـة فكيف أقنع

بـواحـد ؟ ينبغي أن تـرسـل هؤلاء الثـلاثـة ، يعني الـدواتـدار وسليمــان شـاه والوزير» .

ثم اشتدت الحرب واستعرت ستة أيـام متواليـة وفي الخامس والعشـرين من المحـرم استطاع المغـول هدم أحـد الأبراج . وفي الثـامن والعشـرين منـه استـطاع المغـول تسلق السـور حيث يقف هـولاكـو فـأزالـوا منـه الجنـود وفي المساء كانوا يتسلمون جميع الأسوار الشرقية . وأخـذت بغداد الخـالدة تتـرنح تحت الضربات المغولية العـاتية . ثم أمـر هولاكـو أن يقيموا جسـراً في أعلى بغداد وآخر في أسفلها وأن يعدوا السفن وينصبوا المجانيق .

وكـان المغول حين رأوا حـركة النـزوح عن بغـداد ، قـد أقـامـوا عشـرة آلاف جنـدي من جنـودهم بقيـادة بـوقـاتيمـور على طـريق المـدائن والبصـــرة ليحـولوا بين النـاس والهرب بـالسفن . وكان في أول الهـاربين القـائـد العـام للجيش الـدواتدار الـذي ركب سفينة وأراد الفـرار فيها بـأموالـه الكثيرة ولكنـه بعدما اجتـاز قريـة العقاب رأى مـا يجري على سفن الهـاربين التي كان جنـود بوقاتيمور يصبون عليها حجارة المجانيق والسهام وقـوارير النفط ، ثم يقبضـون على بعض السفن ويهلكون من فيها ، عاد مرتداً .

محاولات يائسة

والخليفة الذي رفض أن يبذل المال لتقـوية الجيش عنـدما عـرض عليه الوزير ذلك ، عاد الآن يفكر ببذل المال لعله يردع هولاكو فـأرسل فخـر الدين الـدامغاني وابن درنـوس مع قليـل من التحف إلى هولاكـو فلم يلتفت هولاكـو إلى ذلك .

وفي التـاسع والعشـرين من المحـرم خـرج للقـاء هـولاكـو أبـو الفضـل عبد الرحمن ، الابن الثاني للخليفة مصحـوباً بجمـاعة من كبـراء المدينـة وقد حملوا أموالاً كثيرة فردهم هولاكـو ، وفي اليوم الثـاني خرج ولي عهـد الخليفة مع الوزير ليفاوضا هولاكو فعادا فاشلين .

نهاية ذليله

وفي أول صفر أرسل هولاكو وفداً إلى بغداد يطلب أن يخرج إليه سليمان شاه والدواتدار ، قائلاً إن شاء الخليفة فليأت ، وإذا لم يشأ فليبق ، قائلاً إن جيش المغول سيبقى خلال ذلك على الأسوار ولن يقتحم المدينة .

ويبدو أن هولاكو كان يخشى مقاومة ضارية تليق بشرف بغداد الرفيع إذا هو هاجم المدينة هجومه الأخير فيتكبد الكثير من الضحايا والخسائر ، فأراد أن يدخل بغداد دخولاً هيناً لذلك طلب الدواتدار وسليمان شاه وهما المسؤولان الأولان عن الجيش . وتسامح في عدم حضور الخليفة إتماماً لخطته . فخرج الرجلان إليه ولكنه أعادهما طالباً أن يخرج معهما أتباعهما ليضمهم إلى القوات المعدة للزحف على مصر والشام . وهنا وصل الموقف إلى الهوان الأكبر فقد تسابق جند بغداد للخروج معهما ملقين بأيديهم إلى المغول طمعاً في الخلاص ، وكانوا على حد تعبير جامع التواريخ «خلقاً لا يحصى» فكان نصيب هذا «الخلق الذي لا يحصى» أن قسم إلى ألوف ومئات وعشرات وقتلوا جميعاً . وكان الدواتدار في طليعة من قتل . . [1] .

---

(١) لتعرف كيف كان هؤلاء القوم يعيشون بعد أن عرفت كيف ماتوا ننقل لك صورة واحدة من صور حياتهم، هي كافية لتريك كيف كانت تمضي تلك الحياة ، جاء في « العسجد المسبوك » عن الدواتدار هذا ما يلي :

مجاهد الدين أبو الميامين أيبك الدويدار المستنصري وكان ممن رزق السعادة في دنياه ، ولما رغب بدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل في الوصلة إليه عظم شأنه وارتفع مكانه وملك جزيل الأموال من العين والرقيق والدواب والعقار والبساتين والضياع مما يتعذر ضبطه على الحساب ، وفي ليلة بنائه بزوجته نفذ إلى داره من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر ما يزيد على ثلاثمائة ألف دينار وأنعم عليه في صبيحة تلك الليلة التي دخل بزوجته ستمائة ألف دينار عيناً ، الى غير ذلك مما يطول ذكره ويتعذر وصفه وبلغ من الجاه العريض والحرمة الوافرة حتى أنه كان يترفع على وزير الدولة الذي هو نائب الخلافة وعلى شرف الدين إقبال الشرابي الذي كان مقدم العساكر . ولم يركب إلى أحد سوى الخليفة . وكان في جماعة من أكابر الزعماء وأرباب العمائم وأصحاب الكوسات والأعلام ويقصدونه في داره خدمة وتقرباً إليه وكان يصل إليه من اقطاعه وأملاكه ومزارعاته زيادة على خمسمائة ألف دينار .

وهكذا فقدت بغداد الغالية من كان مفروضاً بهم أن يكونوا حماتها ، فقدتهم فقداناً حزيناً كسيراً ذليلاً ، فبدلاً من أن تسفك تلك الدماء دفاعاً عن الحمى المنيع ، وبدلاً من أن تصمد تلك العشرات من الألوف تحت ظلال السيوف ذوداً عن أعز مدينة ، وصوناً لكرامة أكرم كريمة ، سفكت تلك الدماء صبراً في مواقف الذل ، وغدت بغداد العزيزة وحيدة يستفردها الطغاة ! . .

والدواتدار . . . ما كان أبعده عن اللقب الذي لقب نفسه به (مجاهد الدين)، فما جاهد لا للدين ولا للشرف ، بل مات أحط ميتة وقتل أذل قتلة ، وكان حرياً به أن يجري دمه وبيده السيف تحت الرايات لا أن يجري ذاك المجرى الخسيس ! .

المغول في بغداد

وأخيراً قرر الخليفة الخروج إلى هولاكو ، فخرج في الرابع من صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨) ومعه أبناؤه الثلاثة : أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك ويرافقه حوالي الثلاثة آلاف شخص من كبراء الدولة وشخصيات المدينة وكان هولاكو لا يزال بحاجة إليه فعامله بالحسنى ، إذ كان هولاكو يخشى المقاومة الشعبية داخل بغداد وأن لا يستسلم الناس بسهولة ، لذلك طلب إلى الخليفة أن «يضع سكان المدينة أسلحتهم ويخرجوا لكي نحصيهم» . فأرسل الخليفة من ينادي في الناس بإلقاء السلاح والخروج . وكان الناس قد عادوا اشتاتاً خائفين فلبوا النداء وخرجوا إلى ظاهر المدينة جماعات عزلاً ، فكان المغول يتناولون كل جماعة ويقتلونهم .

وفي السابع من صفر كان القتل والنهب العامين فتدفق المغول إلى داخل بغداد غير مبقين على شيء قتلاً ونهباً وحرقاً ، وكان فيما احترق مشهد الكاظمين وجامع الخليفة .

وبعد يومين دخل هولاكو المدينة وأمر بإحضار الخليفة وكانت قد انتهت حاجته إليه ، فقال له مستهزئاً : « إنك مضيف ونحن الضيوف ، فهيا أحضر ما يليق بنا ! . . » .

وكان الخليفة يرتعد خوفاً فأحضر لهولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار وبعض الجواهر والنفائس فلم يلتفت إليها هولاكو ووزعها على من كان حاضراً ، وقال للخليفة : « إن الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة وهي ملك عبيدنا ، لكن اذكر ما تملكه من الدفائن . ما هي وأين توجد » .

فاعترف الخليفة بوجود حوض من الذهب في ساحة القصر ، فحفروا الأرض حتى وجدوه ، وكان مليئاً بالذهب الأحمر ! . ثم أمر هولاكو بإحصاء نساء الخليفة فعدوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة ! .

حوض من الذهب الأحمر ، وسبعمائة غانية ! . . هذه كانت مشاغل لا هذا الخليفة وحده ، بل مشاغل من سبقوه من الخلفاء والحكام في الأقطار الإسلامية ، إلا من عصم ربك وما أندرهم ! .

حوض من الذهب الوهاج كان هؤلاء الخلفاء يجمعونه من أقوات الشعب ، ويكنزونه من مال الفقراء والمحرومين ويتوارثونه واحداً عن واحد ، وكل واحد يضيف إليه جديداً حتى سلموه يداً بيد إلى الطاغية هولاكو ! .

حوض من الذهب ، ثم يأبى هذا الخليفة أن ينفق على إعداد الجيش وتعبئته ! .

حوض من الذهب وسبعمائة غانية ! . .

وهال المستعصم ما يتعرض له نساؤه فتضرع لهولاكو قائلاً : « مُنَّ عليَّ بأهل حرمي اللائي لم تطّلع عليهن الشمس والقمر» ! .

أجل ! لم تطّلع الشمس والقمر على مئات الجواري في قصره وقصور غيره من الخلفاء والحكام ، ولكن الشمس كان تطّلع كل يوم على ملايين

الكادحات في الحقول والبراري والباحات ، يعملن جاهدات على إحراز القوت ، ثم يأتي زبانية الخلفاء والحكام فيشاطرونهن اللقيمات ، ويقاسمونهن ما حصلن عليه بكد اليمين وعرق الجبين ليزيدوا ذهباً في أحواض الذهب ! . .

لم تطّلع الشمس ولم يطّلع القمر على نسائك السبعمائة أيها الخليفة ، ولكن الشمس اطّلعت كل يوم على ضحاياك وضحايا أسلافك ، وضحايا عُمّالك وعمال أسلافك . والقمر اطّلع كل ليلة على المرضى الذين لا يجدون الدواء والغرثى الذين لا يجدون الغذاء والعرايا الذين لا يجدون الكساء في حكمك وحكم أسلافك ! .

ورق هولاكو للخليفة فأمره بأن يختار مائة من هذه النساء السبعمائة ويترك الباقي ، فأخرج الخليفة مائة من المحببات إليه ومن قريباته . . .

ثم أمر هولاكو بأن تجرد أموال الخليفة وتخرج ، ويقول الهمذاني : « وقصارى القول أن كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون ، وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل » .

وأوفد سكان بغداد وفداً إلى هولاكو يطلب الأمان فأصدر أمره بالتوقف عن القتل والنهب . وفي الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ قتل الخليفة .

مرائي بغداد

كانت فاجعة العالم الإسلامي بسقوط بغداد فاجعة عظمى ، وكانت سيطرة المغول بالشكل الذي سيطروا فيه عليها مثار الأسى العميم . وكان الشعر مظهراً لتلك المشاعر التي ملكت النفوس . وبالرغم مما في ذاك الشعر من عواطف صادقة وشجى مؤثر فلم يكن يوجد في ذلك الوقت الشاعر الملهم الذي يستطيع أن يحلق بشعره التحليق الذي تستحقه بغداد الشهيدة .

قال شمس الدين الكوفي الهاشمي الواعظ من قصيدة مطلعها :

بانوا ولي أدمع في الخد تشتبك ... ولوعة في مجال الصدر تعترك

ومنها :

يا نكبة ما نجا من صرفها أحد ... من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعد عز في أحبتنا ... أيدي الأعادي فما أبقوا وما تركوا
ربع الهداية أضحى بعد عهدهم ... معطلاً ودم الإسلام منسفك
أين الذين على كل الورى حكموا ... أين الذين اقتنوا أين الألى ملكوا
أجابني الطلل البالي وربعهم الخـ ... ـالي نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا

ولهذا الشاعر أكثر من قصيدة في هذا الموضوع ، وقد جاء في مطلع قصيدة أخرى :

عندي لأجل فراقكم آلام ... فعلام أعذل فيكم وألام

وقال أحد الشعراء :

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت ... به المعالم قد عفاه اقفار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثار

كما أن الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي رثى بغداد حين بلغته أخبارها بقصيدة فارسية ، وأخرى عربية قال فيها :

حبست بجفني المدامع لا تجري ... فلما طفى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها ... تمنيت لو كانت تمر على قبري

بقية البلاد

أما بقية أنحاء العراق فلم تكن فيها مقاومة عدا واسط وإربيل ولكن الموصل ثارت بعد ذلك . كما سلّمت البصرة ومنطقتها بدون قتال وكذلك

تستر ومنطقتها خوزستـان . أما أميـر الموصـل بدر الـدين لؤلؤ فقد كـان خضع للمغـول ، وبعد سقـوط بغداد جـاء إلى هولاكـو فأحسن استقبـاله وأقـره على إمـارة الموصـل ، ولكنه لمـا عاد إليهـا مرض أيـاماً ومـات ، فتولى بعـده ولده الملك الصـالح إسمـاعيل ، ولكن هـذا أعلن الثـورة على المغـول سنـة ٦٥٩ (١٢٦٠) فـأرسل إليـه هولاكـو جيشاً حـاصره اثني عشـر شهـراً . وبعـد بـذل أقصى المجهـود استسلم الصالـح إسمـاعيـل ، وبـرغم الأمـان قبض المغـول عليه وعلى ولده فقتل القائد ولده وأرسل الملك الصالح وأخاه الملك الكامل إلى هولاكو فأمر بسلخ وجه الأول وهو حي ثم قتل أخوه وكـان طفلاً . ودخـل الجيش المـوصـل في رمضـان سنـة ٦٦٠ (١٢٦١) فقتـل أكثـر أهلهـا .

ولم يطل هولاكـو إقامتـه في بغداد إذ غـادرها في الثـالث والعشرين من صفـر عائـداً إلى معسكراتـه في خانقين . ومنهـا اتجه إلى إيـران حيث اختـار مدينة مراغة في آذربيجان قاعدة لحكمه .

هولاكو في بلاد الشام

كـان ما جـرى على بغداد كـافيـاً ليشحـذ الهمم في بـلاد الشـام ويؤدي إلى توحيد المواقف وحشد الـطاقات استعـداداً لوصـول المغول إليهـا ، ولكن كـل تلك الفـواجـع والكـوارث لم تستـطع أن تثيـر في أمـراء الشـام نخـواتهم وتقضي على خـلافـاتهم وتجمـع كلمتهم ، بـل ظلوا سـادرين في غفلتهم يتشـاكسون ولا يتحـدون . لـذلـك استـطاع المغـول أن يقضـوا عليهم واحـداً واحداً ويسيطروا على بلدانهم بلداً بلداً .

وكـان الصليبيـون لا يـزالـون يحتلون شـطراً من بـلاد الشـام لا سيمـا السـواحل ، ويبـدو أن تفكير المغـول بإزاحـة الصليبيين والوصـول إلى البحـر المتوسط ، كما حدد خطتـه هولاكـو وقبله منكوقـا آن ـ كما مـر ـ يبدو أن هـذا التفكير قد أجل مؤقتاً إلى مـا بعد استصفـاء الشام ومصـر . ولكن سير الأمـور لم يظل على ما اشتهى المغول ، فقد اضـطر هولاكـو لترك بـلاد الشام عـائداً إلى إيـران . وفشل قـائده وصهـره كيتو بـوقا في احتـلال مصـر وهـزم في عين جالوت وانسحب المغول من الشام مما غير الخطط وبدل المناهج .

وقـد سبق زحف المغول إلى بـلاد الشام إنـذارات وإتصالات فقـد كـان الملك النـاصر صـاحب حلب قد وطـد صلتـه سـراً بـالمغـول فـأرسـل وزيـره الصـاحب زين الـدين الحـافـظي بتحف وهـدايـا ملكيـة إلى القـا آن فقـوبـل بالأنعامات عليه .

ولما صار هولاكو في إيران عائداً من بغداد كان صاحب حلب «يظهر الطاعة والميل إليه في الخفاء» بل لقد طلب إليه إمداده بنجدة يفتح بها مصر . ولكن مثل هذه الصلة لا يمكن أن تخفى إلى النهاية ، فاتهم بممالأة المغول وثار به حكام بلاد الشام فالتجأ إلى هولاكو. فقوى ذلك من عزم هولاكو على الزحف إلى حلب مبتدئاً بها فتح البلاد الشامية .

فكتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل : «أن سنك قد جاوزت التسعين ولذلك أعفيناك من السير معنا . ولكن عليك أن تبعث بإبنك الملك الصالح مع الرايات الغازية لفتح ديار الشام ومصر» فامتثل بدر الدين للأمر وأرسل ولده إلى هولاكو .

وفي الثاني والعشرين من رمضان سنة ٦٥٧ (١٢٥٩) سار هولاكو في قلب جيوشه من آذربيجان ، فكانت طريقه على خلاط وجبال حكار الكردية فقتل كل من لقيه من الأكراد ، ووصل إلى ديار بكر وفتح الجزيرة ووجه ابنه يشموت لحصار ميافارقين . وأرسل الملك الصالح بجيش لفتح آمد . واتجه بنفسه إلى دُنيسر ونصيبين وحران وفتحها فقتل المغول ونهبوا ثم عبر الفرات واصلا إلى حلب ، فأبت حلب التسليم وصممت على القتال وصمدت للمغول تقاتلهم أسبوعاً وأخيراً دخلوا المدينة فأباحوها قتلاً وسلباً سبعة أيام . على أن القلعة صمدت أربعين يوماً ترد المغول عن أسوارها ثم سقطت . وحاصروا قلعة حارم فشغلهم حصارها مدة وطلب أهلها الأمان على أن يقسم لهم فخر الدين الساقي على الأمان ثم سلموا بناء على عهده وإيمانه . فكان أن غضب عليهم هولاكو غضباً شديداً فقتلوا دفعة واحدة مع نسائهم وأطفالهم . وكذلك سقطت حماه والمعرة وحمص .

أما دمشق فقد أدرك أهلها أن لا قبل لهم بمقاومة المغول فأوفدوا وفداً من كبرائهم يحمل الهدايا والتحف وقدم مفاتيح بوابات المدينة إلى هولاكو وأظهروا الطاعة والخضوع . فأوفد إليها قائده كيتوبوقا ليختبر حالها فاستقبله

أهلها وطلبوا الأمان . فأرسل كيتوبوقا وفداً من أعيانهم إلى هولاكو فأحسن استقبالهم وهكذا سلمت دمشق . ولكن القلعة قاومت ثم سقطت .

ثم أتم المغول فتح البلاد الشامية وقتلوا حامية نابلس لأنها قاومت ، ثم انتهوا إلى غزة دون مقاومة تذكر .

تهديد مصر

هكذا تم للمغول الإستيلاء على معظم العالم الإسلامي في ذلك العصر ، وبقي عليهم أن يثبوا إلى مصر ، وتمهيداً لذلك احتلوا مدينة غزة وتوقفوا عندها قليلاً مرسلين إنذاراً رهيباً لحاكم مصر كما سيأتي . ولكن حدث أن تلقى هولاكو نبأ موت أخيه منكوقا آن وتنازع أخويه قوبيلاي وأريق بوكا ولاية العرش ، وقد كان من الممكن أن يشترك هولاكو في هذا النزاع ولكن يبدو أنه آثر أن يكتفي بالاحتفاظ بما كان قد فتحه س بلاد وأن لا يدخل في صراع على عرش المغول من أجل نفسه ، على أن لا يكون بعيداً عن الإنغماس في هذا الصراع انتصاراً لأحد الفريقين المتنازعين ، وكان هواه مع أخيه قوبيلاي لذلك حرص على حضور (القوريلتاي) وهو المجلس المغولي الذي ينظر بهذه الشؤون . فغادر بلاد الشام عائداً إلى إيران وترك لكيتوبوقا أن ينجز فتح مصر .

وقبل سفره أرسل وفداً مغولياً مؤلفاً من واحد وأربعين رجلاً يحمل الرسالة الآتية إلى الملك المظفر سيف الدين قطز حاكم مصر[1] :

«إن الله قد رفع شأن جنكيز خان وأسرته ومنحنا ممالك الأرض برمتها.

---

(١) الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي تسلطن بعد خلع الملك المنصور علي بن الملك المعز أيبك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة٦٥٧ .

وكل من يتمرد علينا ويعصي أمرنا يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه المتصلين به وبلاده ورعاياه ، كما بلغ ذلك أسماع الجميع . أما صيت جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم وأسفنديار . فإذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا فأرسل إلينا الجزية وأقدم بنفسك واطلب الشحنة وإلا فكن مستعداً للقتال» .

هذا هو الإنذار المخيف الذي حمله الواحد والأربعون مغولياً إلى السلطات المصرية وهذا هو التهديد المروع الذي وصل إلى القاهرة .

وكانت كل جملة في هذا الكتاب صحيحة صادقة فقد دانت لهم ممالك الأرض ، وكل من تمرد عليهم قضي عليه وخربت بلاده . وشهرة جيشهم المنتصر كانت أعرف من أن ينوه بها . وكبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغولية .

وهبط الوفد مصر جباراً متكبراً ، يزلزل بروعته العزائم ويوهي الهمم . هبط مصر وهبط معه تاريخ أسود من الانتصارات الكاسحة ، وماض بشع من التسلط المهول ، كانا كافيين للتسليم والخذلان ، لولا أن جابهتهما حمية شماء ورجولة أنوفة وبطولة وفداء .

مؤتمر عسكري

كان الأمر أخطر من أن يقطع فيه إنسان واحد . وكانت مصر آخر معقل فإذا هوت ، لم تقم بعدها قائمة . لذلك لم يجرؤ رجل فرد ، مهما أوتي من سداد الرأي وقوة العزم ، أن يتفرد بالقرار . فجمع الحاكم المصري ، الملك المظفر قطز ، مؤتمراً عسكرياً ، كان في محاوراته ونقاشه في أرفع مستوى عرفه التاريخ من الاجتماعات العسكرية والمؤتمرات الحربية . وجرت المداولة فيه بصراحة كاملة اقتضتها خطورة الموقف .

قال الحاكم المصري للمؤتمرين وكان فيهم عدد من القواد اللاجئين إلى مصر :

«لقد توجه هولاكو من توران إلى إيران بجيش جرار ، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء إلى دمشق ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوقا ، وهو كالأسد الهصور والتنين القوي في الكمين ، وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته . فيجب أن تتدبروا الأمر قبل فوات الفرصة» .

هذا هو البيان الموجز الذي افتتح به الحاكم المصري الملك المظفر قطز مؤتمره العسكري .

أنه يبسط الأمر على حقيقته لا يحاول أن يهول ولا أن يهون ، ومن خير ما فيه هذه الشورى ، أو إذا شئت بلسان العصر الحاضر هذه الديموقراطية السليمة .

فبالرغم من أن المتكلم هو صاحب مصر ، والجيوش جيوشه ، والبلاد بلاده ، والعواقب تعود عليه وعلى بلاده وبالرغم من أنه مستطيع أن يفرض الرأي الذي يريد ، فأما تسليم أو قتال ، فإنه لم يشأ إلا أن يشرك حتى ممثلي البلاد الأخرى في الرأي وأن يستمع إليهم .

أصغى المؤتمرون إلى بيان الحاكم المصري بتفهم واستيعاب ، فكان أول المجيبين ناصر الدين القيمري ، فقال من جملة كلام له :

«إن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر هي الآن كلها في قبضة هولاكو ، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان ، فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل ، أنه ليس بالانسان الذي يطمأن إليه ، وهو لا يفي بعهده وميثاقه ، فإنه قتل فجأة خور شاه ، وحسام الدين عكة ، وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق فإذا سرنا إليه فسيكون مصيرنا مصيرهم» .

فرد الحاكم المصري :

«إن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يبابا ، وقد قضي على جميع من فيها من حرث ونسل ، فلو إننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا ، واحداً من ثلاثة . الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، وذلك لأنه لا يمكن أن نجد مقراً لنا إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة» .

كان يبدو من لهجة الحاكم المصري أنه ميال إلى المسالمة ولكن الحقيقة أن المسالمة لم تكن من رأيه ـ كما تبين فيما بعد ـ لكنه لم يشأ أن يفرض الحرب ، بل فضل أن تكون بقرار جماعي أو أن يفوض الأمر إليه . وعندئذ يقررها اعتماداً على التفويض ، وهكذا كان .

فقد رد ناصر الدين القيمري قائلاً :

«وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم» .

وإذن فقد أصبح الطريق ممهداً لاتخاذ قرار مشرف . إن المسؤول عن مصر يبرهن على إستحالة الجلاء . والقيمري يبرهن على إستحالة المصالحة . ولكن بقي رأي آخر باستطاعته أن يبرهن على عقم المقاومة ، على أنه بعد الرأيين السابقين ، وما فيهما من وضوح ، لم يعد باستطاعة هذا الرأي الأخير إلا أن يلجلج دون أن يفصح . لذلك رأينا بقية الحاضرين ـ وكان فيهم من قد ذاق مرارة الهزيمة أمام هولاكو فخمدت عزائهم وضعفت هممهم ومالوا إلى التسليم ـ يقولون لصاحب مصر قطز :

«ليس لنا قدرة ولا طاقة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك» .

فقال الملك المظفر : « ـ إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال . فإذا ظفرنا فهو المراد وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق .

وكـانت كلمتـه حـاسمـة ، فقـر الـرأي على وجـوب المقـاومـة . ورأى بعضهم أن يفـاجئوا المغـول بـأمـر يـدل على الحـزم والمضي في القتـال دون هـوادة ويقطع الـطريق على أية دعـوة إنهزاميـة فأشـاروا بقتل رسـل المغول . فاستصوب الملك هذا الرأي وأمر بصلب الرسل في الليل .

ولقائل أن يقول :

وما ذنب الرسل ، والرسل في كل الشرائع لا تقتل . .

ولكن الـذي يـطالب بمثـل هـذا ينسى أن المغـول امتهنـوا الشـرائـع ، وغدروا بالرسل ، وخانوا المستأمنين ، ونقضوا العهـود ، وأن كل مـا يمكن أن يـرهب هؤلاء القوم هـو حلال في كـل شريعـة صحيحة ، وأن الأمـر كما قـال علي بن أبي طالب عليه السلام : الوفاء لأهل الغـدر عند الله ، والغـدر بأهـل الغدر وفاء عندالله .

المغول على أبواب مصر

كـانت طلائـع المغول قـد وصلت إلى غـزة ـ كمـا تـقـدم ـ ، وكـان قـد عسكر فيها جيش قوي بقيادة القائد المغولي (بايـدر) ، وكان هـذا القائـد يتهيأ للهجـوم على مصر ، فلمـا أتاه خبـر صلب الـرسـل إرتـاع لـذلـك وتـردد في التقدم ، ورأى أن يراجع قائده الأعلى (كيتوبـوقا) الـذي كان يعسكـر بالقـرب من مـدينة بعلبـك ، فاستشـاط هـذا غيـظاً وأمـر (بـايـدر) بـأن لا يتقـدم قبـل وصوله .

ولكن المصـريين كانـوا قـد تخلوا عن الـدفـاع وعـزمـوا على أن يبـدأو بالهجوم ، فاقتحم جيشهم غزة وطاردوا (بايدر) حتى نهر العـاصي . فزاد هـذا التحدي من غضب كيتوبوقا وأسرع بجيوشه لتأديب المصـريين واثقاً من نفسـه مطمئناً إلى جبروت قواه .

وكان المضريون موقنين أن الشجـاعة وحـدها لا تحسم المـوقف ، وإن

الإستماتة لا تكفي لـرد الأعداء ، فـلا بد من إحكام الرأي لأن الجيش القـادم جيش خطر ، كثير العدد ، واضح الشجاعة ، مـرهوب الجـانب . لهذا تعمـد الملك المظفر إعمال الحيلة فعبأ جيشـه في كمين تعبئة محكمـة ، وخرج هـو ببضعـة آلاف يقابـل المغول وجهـاً لوجـه في (عين جالـوت)[1] فرشقتـه سهام المغـول رشقاً عنيفـاً ، وكروا عليـه كرة زلـزلته عن مـواقفه فـانهزمت جيـوشـه وتـراجـع ، فتعقبـه المغـول وأعملوا السيف في المصـريين المنهـزمين فقتلوا منهم كثيـراً ، ولكن لم تلبث أن طلعت عليهم الكمـائن المصـريـة من ثـلاث جهـات فصدمتهم صـدمـة عنيفـة صمـدوا لهـا من الفجـر إلى منتصف النهـار واستقتل الفريقان ، ولكن المفجأة المصرية أثمرت ثمارهـا في زعزعـة صفوف المغـول ، فلم تلبث بشائـر النصر أن لاحت للمصـريين ، ولم تلبث الجمـوع المغولية أن أخذت بالتصدع ، ولم تلبث الهزيمة أن حاقت بها .

وأبى (كيتـوبوقـا) أن ينهزم ، وآثـر الموت على الفـرار ، وصمد يجـالـد بسيفـه جلاداً عنيفـاً ، ولكنه في النهـايـة سقط أسيـراً وسيق مكبـلاً إلى الملك المـظفر ، فعنفـه مذكـراً إياه بـالدمـاء التي سفكها والعهـود التي نكثها . فعـاد المغولي يهدد ويتـوعد قـائلاً من جملة كـلامه : «ستـطأ سنابـك خيل المغـول من أذربيجان حتى ديار مصـر ، وستحمل رمـال مصر في مخـالي خيولهم إلى هنـاك ، أن لهولاكـو ثلاثمـائة ألف فـارس مثل كيتـوبوقـا ، فافـرض أنه نقص واحد منهم» .

ولكن رأس كيتـوبـوقـا طـاح عن جسـده ومضى المصـريـون يـطاردون المغول في الديار الشامية ويطهرونها منهم حتى بلغوا شاطيء الفرات .

ومضى تهديد كيتوبوقا في الهواء . ولم يكتب لسنابك خيـل هولاكـو أن تعود فتطأ تراب الشام ورمال مصر مرة ثانية .

---

(١) تقع عين جالوت في فلسطين بين بيسـان ونابلس وحـدثت المعركـة في رمضان السنـة٦٥٨هـ- ١٢٦٠م .

سيف الدين قطز ونصير الدين الطوسي

تتعرض الأمم أحياناً إلى مواقف يتزلزل فيها كيانها ويتهشم وجودها ، فتغدوا وكأنها شلو ممزق ، فقد الرأس والأطراف .

هنا تتجلى كوامن العزائم وتبرز مخبآت العبقريات ، فيقيض الله للأمة من لم تكن تحسبهم شيئاً فإذا هم كل شيء .

هـذا ما صار إليه أمر العرب والمسلمين بسبب الغزو المغولي الثاني بقيادة هولاكو حين استطاع تدمير البلاد والعباد ، وقضى على آخر رمز إسلامي قضاءه المبرم وحل ما كان قد بقي من روابط يمكن أن تشد البلاد بعضها إلى بعض ، وأخمد كل صوت يمكن أن يستصرخ مستنجداً ويستثير محمساً . فعادت الأمة قطيعاً سائباً تتعاوره الذؤبان وتعيث فيه السباع ، ونعى الإسلام نعاته ، ورثاه رثاته ، وخيل للناس أن الوثنية سادت وأن لا قائمة تقوم بعد لكلمة التوحيد .

ولكن الإسلام، وقد كان أحيى بعبقريته الشعوب وخلق النور الساطع من الظلام الدامس ، لم يكن ليستسلم بمثل تلك السهولة التي حسبها الضعفاء ، فجذوته التي هزت الكون قبل اليوم ، كان لا يزال منها قبسات في نفوس بنيه ، فمن قلب اليأس برز الأمل في عزم رجلين اثنين قيض لهما أن ينقذا الإسلام من أخطر بلاء أصابه . ومن المؤسف أن الجمهور الإسلامي يجهل كل شيء عنهما ، بل أن الخاصة الإسلامية نفسها لا تكاد

تعـرف إلا لمحات خـاطفة عنهمـا ، في حين أن بعض من احيطت اسمـاؤهم بالتهويل والتطبيل في بعض الأحداث الإسلامية ليسـوا بأهـل لشيء من هذا ، وكـان نصيبهم من العمـل نصيبـاً لا يستحقـون عليـه ذرة من هـذا الأجـر الضخم .

هـذان الرجـلان متناقضـان في كل شيء ، فلقـد جـرى كـل منهمـا في طريق لا صلة لها بـطريق الآخر ، وكـانت وسيلة كل واحـد منهما مختلفـة عن وسيلة الثاني ، بل أن واحـداً منهما لم يتصـل بزميله ولم يتعـرف إليه ولم يـدر عن خططه شيئاً ، بل عمل كل فيما هيىء له وسار في الطريق التي لا يحسن السيـر في غيرهـا . ولو أنـه انحـرف عنهـا قيـد شعـرة لتعسف السبيـل وضـل الدرب وتاه وأتاه معه العروبة والإسلام .

هـذان الرجـلان البطلان همـا الملك المظفـر سيف الـدين قـطز حـاكم مصـر (١٢٥٩ ـ ١٢٦٠ م) والعالم الفيلسـوف نصير الـدين الطوسي (١٢٠١ ـ ١٢٧٤ م) .

وقصـة الأول منهما ذكـرت فيما تقـدم ، فلا أعيـد منها هنـا شيئاً سـوى القـول بأن هـذا الرجـل العـظيم استـطاع أن يبـطل أسـطورة الجيش الـذي لا يغلب فهزم المغول في عين جالوت (١٢٦٠ م) هـزيمة لم يتـوقعها أحـد ، بل خاض في الأصل معركة لم يتوقع خوضها أحد .

لقـد انتصـر في عين جـالـوت على المغـول انتصـاراً يمكن القـول من نـاحية أنـه كان حـاسماً ، هـذا إذا اعتبرنـا النتائـج البعيدة التي أدى إليهـا هذا النصر . فإن الزحـف المغولي منذ تقدم بقيادة هولاكو لم يوقفه شيء وانهارت أمـامه جميـع القوى ، حتى خيـل للناس في كـل مكان أنـه ماض في فتـوحـه حتى النهاية ، وأن مصر هي هدفـه الثاني بعـد الشام، وأن هذا الهـدف كغيره من الأهداف قريب المنال ومتى استصفى المغول مصـر فإنهم سيمضـون حتماً إلى ما هو أبعد ، ولا يعلم إلا الله أين سيقفون .

وفي الواقع لو قدر للمغول الانتصار العسكري في «عين جالوت» لكان الأمر كما ظن الناس ولكن المقاومة الباسلة التي لقوها عند حدود مصر ، والصمود الرائع الذي أعده لهم الملك المظفر ، ثم الهزيمة الكاسحة التي ألحقها بهم المصريون بقيادته: أن ذلك أولاً أثبت أن المغول يمكن أن يهزموا ثم وضع حداً لتقدمهم ، ولم يكتف بردهم عن مصر ، بل ردهم عن الشام أيضاً ، ومن هنا يمكن اعتبار النصر المصري في «عين جالوت» نصراً حاسماً .

نصير الدين الطوسي

كان نصير الدين الطوسي ضحية من ضحايا الغزو المغولي الأول ، حينما اجتاحت جحافل جنكيز خان (١٢١٥ - ١٢٢٧م) البلاد الإسلامية ودمرت ما مرت به منها . وكان من تلك الضحايا مدينة نيسابور التي كانت تعج بالعلماء وتزخر بالمدارس .

ولم يكتف المغول بتدمير المدينة بل أعملوا السيف في الناس ، فقتل من قتل واستطاع الفرار من استطاع ، وكان بين الناجين نصير الدين الطوسي ، فهام على وجهه يطلب الملجأ الأمين فوجده في قلاع الإسماعيلية الحصينة ، تلك القلاع التي صمدت وحدها لجنكيز خان وصدته عن أسوارها ، فظل حقد المغول مضطرماً على الإسماعيليين إلى أن استطاعوا الثأر منهم في عهد هولاكو حفيد جنكيز .

ولم يكن نصير الدين وحده هو الذي احتمى بهذه القلاع ، بل لقد لجأ إليها كثير ممن استطاعوا الفرار والنجاة .

وعندما تقدم المغول في غزوهم الثاني ، وأعاد هولاكو سيرة جده ، كانت الحملة هذه المرة من القوة بحيث هابتها القلاع الإسماعيلية فلم تستطع لها صدا ، ونزل الأمير الإسماعيلي ركن الدين خور شاه على حكم المغول ، فكان حكمهم قتله وقتل أعوانه ومن لجأ إليه ، واستثنوا من ذلك ثلاثة رجال كانت شهرتهم العلمية قد بلغت هولاكو فأمر بالإبقاء عليهم ،

ولم يكن هذا الإبقاء حَباً للعلم وتقديراً لرجاله ، بـل لأن هولاكـو كان بحـاجة إلى مـا اختص به هـؤلاء الـثلاثـة من معارف ، فـاثنان منهم كـانا طبيبين همـا مـوفق الدولـة ورئيس الدولـة ، والثالث كـان مشهوراً باختصاصـه في أكثر من علم واحد هو نصير الدين الطوسي ، وكان مما اختص به علم الفلك ، وكـان هولاكو مقدراً لهذا العلم تقدير حاجة لا محض تقدير مؤمناً بفائدته له . لذلـك رأيناه بعد ذلـك يعنى بإنشـاء مرصـد «مراغـة» ويوفـر له كـل ما يستـدعي نموه وتقدمه . . .

جمـع نصير الـدين الطوسي إلى العلم الـواسع العقـل الكبير ، فتـريك سيـرته رجـلاً من أفذاذ الـرجال لا يمـر مثله كل يـوم . وتشاء الأقـدار أن تعده لمهمـة لا ينهض لها إلا من اجتمعت لـه مثـل صفـاتـه : علم وعقـل وتـدبيـر وبعد نظر ، فكان رجل الساعة في العـالم الإسلامي ، هـذا العالم الـذي كان مثخناً بالجراح .

كـانت مهمة الـطوسي من أشق المهمـات ، وكـانت أزمتـه النفسيـة من أوجع ما يصاب به الـرجال ، فـإنه وهـو العالم الكبيـر ذو الشهرة المـدوية بين المسلمين ، يـرى نفسه فجـأة في قبضة عـدو المسلمين ، ويـرى هـذا العـدو مصـراً على أن يبقيـه في جـانبـه ويسيـره في ركـابــه . وإلى أين يمشي هـذا الركاب ؟ أنـه يمشي لغزو الإسـلام في دياره والقضـاء عليه في معـاقله ، فهل من محنة تعدل هذه المحنة ؟ .

ان أقل تفكير في التمـرد على رغبة القـائد المغـولي سيكون جـزاؤه حد السيف . . وأنني لأتخيـل الـطوسي متـأمـلاً طـويـل التـأمـل ، مـطرقـاً كثيــر الإطـراق ، لقد كـان يعز عليـه أن يذهـب دمـه رخيصاً وأن يكـون ذلك بـإرادته هـو نفسه ، فلو أن سيفـاً من سيوف المغـول الجانيـة أودى به فيمن أودى بهم في رحاب نيسابور وسهول إيـران لكان استـراح . أما الآن فلن يستسلم للقـدر الطاغي وسيثور على حكم الزمن الغاشم .

كان الطوسي ذا فكر منظم يعرف كيف يخطط ويدبر. وهو في ذلك اية من الآيات ، وقد أدرك أن النصر العسكري على المغول ليس ممكناً أبداً ، فقد انحل نظام العالم الإسلامي إنحلالاً تاماً لم يعد معه أمل في تجميع قوة تهاجم المغول وتخرجهم من دياره ، وكانت البلاد المحتلة أضعف من أن تفكر في ثورة ناجحة . على أن الغرب الإسلامي كان لا يزال سليماً ، وكانت مصر هي القوة الوحيدة التي تتجه إليها الأنظار ، وقد استطاعت مصر أن تذيق المغول مرارة الهزيمة وأن تردهم عنها ، ولكنها لم تكن مستطيعة أكثر من ذلك ، فمهاجمة المغول فيما احتلوه من بلاد بعيدة وإخراجهم من تلك البلاد كان فوق طاقة مصر .

وفكر نصير الدين طويلاً فأيقن أنه إذا تم للمغول النصر الفكري ، بعد النصر العسكري ، كان في ذلك القضاء على الإسلام ، وها هو يرى بأم عينيه الكتب تحرق والعلماء يقتلون ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ . .

لقد استغل حاجة هولاكو إليه ، وحرصه على أن يكون في معسكره فلكي عالم بالنجوم ، فعزم على كسب ثقته واحترامه فكان له ما أراد ، وصار له من ذلك سبيل لانقاذ أكبر عدد من الكتب وتجميعها ، كما استطاع أن ينجي من القتل الكثيرين ممن كانوا سيقتلون .

ولما استتب الأمر لهولاكو خطا نصير الدين خطوته الأولى ، وكانت هذه المرة خطوة جبارة فقد أقنعه بأن يعهد إليه بالإشراف على الأوقاف الإسلامية والتصرف بمواردها بما يراه ، فوافق هولاكو . وتطلع نصير الدين فرأى أن المسلمين كانوا قد وصلوا من الإنحلال الفكري إلى حد أصبح العلم عندهم قشوراً لا لباب فيها ، وأنهم حصروا العلم في الفقه والحديث وحدهما ، وحرموا ما عداهما من سائر صنوف المعرفة التي حث عليها الدين العظيم ، وانصرفوا عن العلوم العملية انصرافاً تاماً . فأعلن افتتاح مدارس لكل من الفقه ، والحديث والطب ، والفلسفة ، وأنه سيتولى الإنفاق على طلاب هذه المدارس ، ولكنه سيجعل لكل واحد من دارسي الفلسفة

ثلاثة دراهم يومياً ، ولكل واحد من دارسي الطب درهمين ، ولكل واحد من دارسي الفقه درهماً ، ولكل واحد من دارسي الحديث نصف درهم ، فأقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب ، بعدما كانت من قبل تدرس سراً .

أحرز نصير الدين النصر الأول في معارك الإسلام ، فالعلم لن ينقطع بعد اليوم ولن يجمد المسلمون عن طلبه ، ثم انصرف يخطط للمعركة الكبرى الكاسحة . فإذا كان انشاء المدارس المتفرقة لن يلفت هولاكو إليها ، ولن يدرك أهميتها ، فإن إنشاء الجامعة الكبرى وحشد العلماء فيها وحشر الكتب في خزانتها ، سيكون حتماً منبهاً لهولاكو فكيف العمل ؟ .

هنا تبدو براعة الطوسي ، فهولاكو استبقاه لغاية معينة ، فراح يقنع هولاكو بأنه من أجل استمراره في عمله والإستفادة من مواهبه لا بد من إنشاء مرصد كبير فوافق هولاكو على إنشاء المرصد ، وفوض لنصير الدين المباشرة بالعمل .

لقد كانت هذه الموافقة الحلم الأكبر الذي حققته الأيام لنصير الدين وبات بعدها مستريحاً للمستقبل لا يشغله شيء إلا الإعداد الدقيق والتخطيط السليم الموصل إلى الغاية القصوى .

يقول الدكتور علي أكبر فياض : «كان يعيش عند ذاك رجل يعد من أكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ، ألا وهو نصير الدين الطوسي . قدر لهذا الرجل العظيم أن يقوم بإنقاذ التراث الإسلامي من أيدي المغول» .

ويقول الأستاذ مدرسي : «استطاع الطوسي بتأثيره على مزاج هولاكو أن يستحوذ تدريجياً على عقله وأن يروض شارب الدماء فيوجهه إلى صلاح الأمور الاجتماعية والثقافية» .

ضخم نصير الدين أمر المرصد لهولاكو وأقنعه أنه وحده أعجز من أن يرفع حجراً فوق حجر في ذلك البناء الشامخ ، وأنه لا بد له من مساعدين

أكفاء يستند إليهم في مهمته الشاقة ، وأنه لا مناص من أجل ذلك من أن يجمع عدداً من الناس المختارين ، سواء في البلاد المحتلة أو في خارجها ، فوافق هولاكو على ذلك .

وهنا هب نصير الدين إلى اختيار رسول حكيم هو فخر الدين لقمان بن عبد الله المراغي ، وعهد إليه بالتطواف في البلاد الإسلامية ، وتأمين العلماء النازحين ودعوتهم للعودة إلى بلادهم ، ثم دعوة كل من يراه كفؤاً في عمله وعقله من غير النازحين .

ومضى فخر الدين يؤدي مهمته على أحسن الوجوه ، وقصد إلى إربل والموصل والجزيرة والشام ، فعاد الهاربون ولبى الدعوة غيرهم فجاؤا من كل مكان . جاؤا من دمشق والموصل ، وقزوين وتفليس وغيرها . وتحلقوا حول نصير الدين يعدون العدة لإنشاء أكبر معهد علمي عرفه العالم الإسلامي ، ساترين هدفهم بالمرصد ، مغلفين طريقهم بالأفلاك والنجوم . بل لقد بلغت الدعوة أقاصي المغرب فكان من المغاربة يحيى بن أبي الشكر المغربي الذي كان أحد الستة الذين اختارهم نصير الدين ليكونوا اللجنة العليا المشرفة على العمل .

يقول الدكتور مصطفى جواد : «التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك ، وليأتي بمعجزة القرن السابع وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس أول أكاديمية علمية فيه بالمعنى العلمي الحديث الذي تدل عليه كلمة Academie • وإقامة أعظم مرصد عرف في الشرق وإنشاء أول جامعة حقيقية من النوع المعروف اليوم بالـUniversite .

وكان في طليعة الوافدين إلى مراغة العالم الدمشقي مؤيد الدين العرضي الذي ترك لنا رسالة في وصف مرصد مراغة وإدارته تحدث في مقدمتها عن نصير الدين الطوسي فكان مما قاله : « . . . وذلك كله بإشارة مولانا المعظم والإمام الأعظم العالم الفاضل المحقق الكامل قدوة العلماء

وسيد الحكماء» .

ثم يقول : «فجمع العلماء إليه وضم شملهم بوافر عطائه وكان لهم أرأف من الوالد على ولده فكنا في ظله آمنين وبرؤيته فرحين كما قيل :

نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبينا
ونغضبه لنخبر حالتيه فنلقى منهما كرماً ولينا

وهو المولى نصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي أدام الله أيامه» .

النتائج الخطيرة

مضى العمل منظماً دقيق وانصرف العلماء بإشراف الطوسي منفذين مخططاً مدروساً ، فلم يمض وقت كبير حتى كانت المكتبات تغص بالكتب ، وحتى كانت مكتبة مراغة بالذات تضم مجموعة قل أن اجتمع مثلها في مكتبة أخرى ، وحتى كانت المدارس تقام في كل مكان ، وحتى كانت الثقافة الإسلامية تعود حية سوية وحتى كانت النفوس مشبعة بالأمل والقلوب مليئة بالرجاء ، وحتى كان الدعاة ينطلقون في كل صوب والهداة ينتشرون على كل وجهة . . .

ثم يموت هولاكو ، ولكن الإسلام الذي أراد له هولاكو الموت يظل صحيح البنية ، متوهج الفكر . والعرب الذين عول الطاغية على تحطيمهم يظلون شامخين سالمين ، ثم يموت ابن هولاكو وخليفته (ابقا خان) والإسلام لا يزال بقيادة الطوسي صامداً ، يقاتل ويقاوم ويدعو ويهدي .

ويأتي بعد أبقا خان ، ابن هولاكو الآخر (تكودار) فإذا بالإسلام ينفذ إلى قلبه وعقله ، وإذا به يعلن إسلامه وتسلم الدولة كلها بعد ذلك .

وكان الطوسي قد مات سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٤ م) . مات قرير العين وهو يرى طلائع الظفر مقتحمة الدنيا بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة

بـأرفع صـوت وأعلى نبرة . مـات الطوسي مـودعـاً الأمـر إلى تلميـذه وأقـرب المقـربين إليه قـطب الدين أبـو الثنـاء محمـود بن مسعـود الشيـرازي ، فنهض بـالعبء على ما أراده نصيـر الدين . فلم يجـد (تكودار) الـذي أصبـح اسمـه (أحمد تكودار) خيـراً من الشيرازي خليفـة الطوسي ليكـون رسولـه إلى العالم العربي والإسلامي .

يقـول الأستاذ عبـد المتعال الصعيـدي : «لم يمت نصير الـدين إلا بعد أن جـدد ما بلي في دولـة التتار من العلوم الإسـلامية وأحيـا ما مـات من آمـال المسلمين بها» .

إلى أن يقـول : « . . أن الانتصـار على التتـار لم يكن في الحقيقـة بـردهم عن الشـام في مـوقعـة «عين جـالـوت» وإنمـا كـان بفتـح قلوبهم إلى الإسلام وهدايتهم له» .

هكـذا استطاع نصيـر الدين الـطوسي أن يهـزم بـالعقـل والعلم الـدولـة الـطاغيـة البـاغيـة ، وأن تنجـح خـططه في تحـويـل المغـول من وثنيين إلى مسلمين .

ونختم القول بما أنشأه قاضي القضـاة نظام الـدين الأصفهاني في مـدح الطوسي ووصف مرصد مراغة فقال :

صفا شرب عيشي في هوى في مراغة ... فـظلت كمـا شـاء المنى أتـفـرج
بها الرصد العالي النصيري مقصدي ... إلـى الـفـلك الأعـلى بـه أتـدرج
فـلله بـانـيـه وطـرق أبـانـهـا ... إلى كشف أسرار الغوامض تنهـج
أرى عصب التنجيم أحسـن هيئـة ... بـه يستوي مـا في التقـاويم عـوجـوا
دقـائق عـلم لا يـجـدن تـوانـيـا ... حـوى درجاً منه إلى الغيب يـدرج
تسـامي الهضاب الشم تبلغ جيـدهـا ... عسـاهـا بمـا يبنى عليهـا تتـوج
فغـالت لعمري الخط أرض مـراغـة ... فـمن كـل إقـليم عـليـهـا يـعـرج
فـإن عيـروا بـابن المـراغـة شـاعـراً ... مـديحي على معنى الهجـاء يخـرج

بناء لعمري مثل بانيه معجز ... تقر به الالحاظ والنفس تبهج
سيبلغ أسباب السماء بصرحه ... يناغي كعاب الزهر منها تبرج
أقول وقد شاد البناء لذكره ... وشيد قصراً لم يشيد ، متوج
على الزهر أرصاد طلائع فكره ... إلى الرصد المعهود من أين يحوج
ترصد لقياه هناك وقربه ... فكان منى من دونها الباب مرتج
ورمت سعود الجد في جنباته ... فساعدني سعد بودي ملهج
وجدت اسمه فالا علي مباركاً ... مقدمة منها الميامن تنسج
إلى السدة العلياء شمر ناهضاً ... لتقبيله منه البنان يهيج
فكلفته عرض الدعاء وخدمتي ... وحملته ما في الصحائف يدرج
ورمت على حال وقوف وقوفه ... فهمي أن أنهي إليه يفرج
وأحدرت عن تبرير ما أنا كاتب ... وصحبي زموا العيس والخيل أسرجوا
لعضد جناب الصاحب الأعظم ارتمت ... صلائح أسفار لما ناب تزعج
تكفل دفع الجو عنهم وأنه ... مواعيد صدق صبحها يتبلج
ولولا عوادي الخطب جئت ملبياً ... دواعي أشواق لظاها تأجج

ولاة هولاكو

بعد أن استقر الأمر لهولاكو عين ولاة على البلاد التي أخضعها ، فكان ابنه الأكبر آباقا خان والياً على العراق وخراسان ومازندران حتى جيحون . وكان ابنه الآخر يشموت على آران وآذربيجان . وكان الأمير تودان على ديار بكر وديار ربيعة حتى شاطىء الفرات . ومعين الدين بروانه على آسيا الصغرى . والملك صدر الدين على تبريز . والأمير أنكيانو على فارس .

وفوض منصب صاحب ديوان البلاد كلها لشمس الدين الجويني وأطلق يده في كل الأمور . وفوض حكم بغداد إلى أخيه الصاحب علاء الدين عطا ملك كما سيأتي .

موته

مات هولاكو سنة ٦٦٣ (١٢٦٥) وكان عمره ثماني وأربعين سنة ، عند شاطيء نهر جغاتر في آذربيجان قرب مراغة .

الدولة الإيلخانية

بإنفراد هولاكو في حكم ما فتحه من بلاد نستطيع القول أنـه قامت دولـة مغـوليـة جـديـدة مستقلة عن غيـرهـا من المغـول كـان أول ملوكهـا هـولاكـو وشملت سلطتها جميع البلدان الممتـدة بين نهر جيحـون والمحيط الهندي ، ومن السند إلى الفرات مـع جزء كبيـر من الأناضـول وبعض القوقـاس» عرفت باسم الدولة الايلخانية وكان أهم مقاطعاتها : العراق وإيران .

وقـد انفصلت الدولـة الايلخانيـة تدريجيـاً عن الأمبراطـورية المغـولية ، وبعد أن كان الخاقان المغولي يرأس أمبراطورية عظيمـة في «قراقـورم» ، صار الايلخان أو السلطان يحكم من مدينة تبريز أو السلطانية .

وبعد أن كانت الدولة في أول ظهورها وثنيـة أخذت تـذوب في المدنيـة الفـارسية الإسـلامية حتى انتهى أمـرها إلى أن أسلمت نهـائياً ، وصـارت دولة إسلامية بحتة .

ويعتبر هولاكو مؤسساً لهذه الدولة كما يعتبـر السلطان أبو سعيـد المتوفى عـام ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) آخر ملوكهـا الذين دانت لهم المملكـة كلها ، ذلـك لأن أبـا سعيد لم يتـرك ولـداً يخلفـه في الملك فقـام أمـراء من فـروع أخـرى لـلأسرة ، ولكن لم يستـطع أحد منهم أن يجمـع البلاد كلهـا تحت حكمـه . وكـان لا يزال يـوجـد إلى العـام ٧٥٤ هـ أمـراء عـديـدون وأميـرة واحـدة هي (ساتي بك) أخت أبي سعيد .

علاقة المغول بالنصارى

ولا بد بعد ذلك من التطرق إلى علاقة المغول بالنصارى بوجه عام . فبعد أرغون يلاحظ أن مكانة اليهود والنصارى في الدولة الإيلخانية أخذت بالتدني لأن قبائل المغول اتجهت إلى الإسلام منحرفة عن وثنيتها وذلك منذ أواخر المائة السابعة الهجرية ولم يسبق إلى ذلك الحين أن يغشى سلاطين المغول وأمراؤهم الجوامع والمساجد للصلاة ولكن السلطان غازان بن أرغون ، وهو الذي خلف أباه على سرير المملكة سنة ٦٩٤ كان أول من يؤدي فريضة الصلاة من سلاطين المغول في الجوامع فيحذو حذوه الأمراء والصدور وجمهرة الشعب المغولي الفاتح في الشرق ، وغازان هو أول من يشدد على غير المسلمين ، ويلزمهم الغيار ويسترد منهم ما غصب من الأملاك الجليلة والأموال الطائلة العائدة للخلفاء العباسيين وغيرهم من أعيان الدولة العباسية بعد سقوط بغداد .

ولا يخفى أن فريقاً من نصارى الشرق ونصارى الجزيرة والموصل انتهزوا فرصة زحف المغول على العالم الإسلامي ، وانقراض الخلافة العباسية وزوال سلطانها فتقربوا إلى بعض أمراء الدولة الغالبة بعد سقوط بغداد مباشرة أي في دولة الطاغية هولاكو فاتح البلاد ، فوضعوا اليد بأمر من الطاغية المذكور على جملة من الأملاك والأموال (١) من حين سقطت بغداد

---

(١) عقد مؤلف كتاب الحوادث الجامعة فصلا عني فيه بالإشارة إلى نظام الحكم في بغداد بعد=

إلى أن جلس غازان على سرير المملكة الإيلخانية ، أو نحواً من أربعين سنة ، ومما لا شك فيه أن أمراء الدولة المغولية كانوا يعرفون جيداً أن الذميين في العراق من نصارى ويهود قلة مكثورة بالمسلمين ، ومن شأنهم التظلم والشكوى وطلب الحماية والمساواة من هؤلاء الغالبين ، واعتقد المغول أن في محاسنتهم لهذه الأقليات فائدة سياسية لهم ، فأدنوهم وقربوهم وإن لم يدم ذلك إلا قليلاً ، ومما يدل على أن اتصال رؤساء النصارى بالمغول بدأ مع زحف القبائل المغولية على العالم الإسلامي مبتدئين بالدولة الخوارزمية واجتياحهم حدودها في ما وراء النهر فالبلاد الفارسية ، نقول مما يدل على ذلك أن نصارى العراق سلموا من القتل العام بعد فتح بغداد ، وفي هذا الصدد يقول صاحب الحوادث الجامعة : « إن السيف وضع في أهل بغداد وقتل الرجال والنساء والصبيان والأطفال فلم يبق من أهل البلدة ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل ما عدا النصارى فإنهم عُين لهم شحان حرسوا لهم بيوتهم ، والتجأ إليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا عندهم »(١)، وذكر مؤلف كتاب الحوادث بعد ذلك بعض الدور التي سلمت من الدمار.

هكذا عني المغول الفاتحون بحماية النصارى خاصة داخل بغداد ،

= سقوطها ، والإجراءات التي تمت في هذا الباب ، وتعيين الصدور والنظار والنواب ، وقد سمى هؤلاء واحداً واحداً وذكر المناصب الديوانية والإدارية والمالية التي أسندت إليهم منصباً منصباً ، ولم تفته الإشارة إلى الاستيلاء على منازل كبار رجال الدولة العباسية وأعيانها ، وإحلال أعيان النصارى محلهم فيها ، وفي هذا الفصل يقول صاحب الحوادث الجامعة ما يأتي : «سلمت مفاتيح دار الخليفة إلى مجد الدين محمد بن الأثير ، وجعل أمر الفراشين والبوابين إليه ، وتقدم للجاثليق بسكنى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير التي على شاطىء دجلة فسكنها ، ودق الناقوس على أعلاها ، واستولى على دار الفلك التي كانت رباطاً للنساء تجاه هذه الدار وعلى الرباط المجاور لها ، وهدم الكتابة التي كانت على البابين ، وكتب عوضها بالسرياني» ص (٣٣٢ ـ ٣٣٥) .

(١) كتاب الحوادث (٣٢٩ ـ ٣٣٠) .

ولا يعقل أن ذلك تم مصادفة أو فجأة ، والغالب أنه وقع طبق خطة مرسومة أو حسب اتفاق بين سلاطين المغول وزعماء النصارى قبل وصولهم إلى العراق . كان المغول شعباً ساذجاً بدوياً وثنياً اتصل بهم ولا شك دعاة الإسلام قبل زحفهم المدمر على الشرق ، أو في أثنائه أو من بعد ذلك كما اتصل بهم دعاة النصارى وهم من الغربيين على الأكثر .

في هذه الفترة من تاريخ هذا الصراع انجذب كثير من المغول إلى الإسلام وكان نجاح النصارى دون نجاح المسلمين بكثير ، ولنا أن نقول إن دعاة النصرانية غربيين وشرقيين منوا فيها بفشل ظاهر ومع ذلك انتحل النصرانية عدد غير قليل من أفراد القوم ، وإلى هذا العدد القليل من المغول الذين انتحلوا النصرانية في تلك الفترة يجب أن تعزى تلك المجاملة الوقتية والوجاهة الملحوظة التي نالها نصارى بغداد بعد سقوطها على أيدي المغول مباشرة على ما رأيت ، وقد يكون لبعض الأميرات المغوليات اللواتي انتحلن النصرانية دخل في حماية نصارى العراق ، ونذكر من بين الأميرات المغوليات المتنصرات الأميرة (دوقوز) وهي من زوجات هولاكو اللواتي اصطحبهن معه إلى الشرق ، أثنى عليها ابن العبري ناعتاً إياها بالأميرة المؤمنة المسيحية [١] وقال أيضاً : « كانت عظيمة في رأيها وخبرتها » وفي تاريخ ابن العبري رواية عن دخول السلطان أباقا بن هولاكو في سنة ٦٧٩ إلى بيعة في همذان في يوم عيد النصارى الكبير ، وعيّد مع النصارى ، ويحاول ابن العبري الاستدلال على تنصر هذا السلطان استناداً إلى هذه الرواية ، ولكنها ليست قاطعة في هذا الشأن ، والواقع أن أباقا بن هولاكو ثاني سلاطين المغول في فارس والعراق ، أنشأ صلات قوية مع بعض الدول الصليبية أو مسيحي الغرب ، تجمعهم في ذلك عداوة سلاطين المماليك الذين أوقفوا هولاكو الزاحف إلى الغرب عند حده .

تلك هي رواية مؤرخي المسلمين ومنهم مؤلف كتاب الحوادث بشأن

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ط بيروت (٤٦١).

مجاملة المغول للنصارى فور سقوط بغداد ، وقد سكت ابن العبري وهو من مؤرخي عصر المغول المعاصرين لابن الفوطي ولمؤلف الحوادث الجامعة ولغيرهما من مؤرخي الفترة المذكورة ، نقول سكت عن تسجيل هذه المجاملة المغولية للنصارى مع أنه ـ أي ابن العبري ـ من أشهر المؤلفين والمؤرخين في النصرانية ، ولم ترد إشارة ما في كتابه (تاريخ مختصر الدول) إلى التزام جانب النصارى ورؤسائهم خاصة ومنحهم تلك المنح والهبات الجليلة في بغداد بعد انقراض الدولة العباسية . وفي تاريخ ابن العبري رواية وردت عن ظهور ميل عند جنكيز خان إلى القوم في بدء زحفه على الشرق لحرب خوارزم شاه صاحب بخارى وتركستان ، بناء على رؤيا رآها جنكيز بعد إبادة رسله على حدود المملكة الخوارزمية وجاء في هذه الرواية أنه رأى راهباً عليه المسوح يتكيء على عكازه وهو قائم على باب جنكيز خان يقول له لا تخف ، افعل ما شئت فإنك مؤيد ، وفي الرواية ما يدل على وجود عدد من زعماء النصارى والأساقفة قريبين إلى جنكيز ، ومنهم اسقف يقال له (ماردنحا) [1]، هذا على أن ابن العبري سجل في تاريخه بعد ذلك تفاصيل الصراع الدامي بين المغول واتباعهم من جهة وبين ملوك الموصل واصحابها من أبناء بدر الدين لؤلؤ واتباعهم من جهة ثانية . وقد جرى ذلك في الموصل مشيراً ـ أي ابن العبري ـ إلى أن الملك إسماعيل وأخاه علاء الدين وهما من أبناء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وحاكمها الداهية المشهور فضلوا الذهاب إلى مصر والشام على البقاء في الموصل والعراق ، فضلوا الهجرة من وطنهم مستظلين بظل دولة المماليك البحرية التي تمكنت من وقف زحف المغول ، وتغلبت عليهم في بعض المعارك الطاحنة الفاصلة ، ويلاحظ أن ابن العبري نفسه كان مقيماً في الموصل خلال هذا الصراع ، بل كان شاهد عيان في الوقائع المذكورة ثم فضل الانتقال إلى مراغة بعد انحياز النصارى إلى جانب المغول وسخط

(١) تاريخ مختصر الدول ط : بيروت (٤٠١ ـ ٤٠٢).

المسلمين وأصحاب البلاد وملوكها عليهم مستظلاً ـ أعني ابن العبري المذكور ـ بكنف المغول في أذربيجان .

لم يفت ابن العبري الإشارة إلى بعض من مالأ المغول من حكام الموصل أو تحالف معهم ، وهو حاكم أفشى نبأ استنجاد الموصليين بملوك مصر والشام ، وعزمهم على مناجزة المغول ، ومن يضلع معهم ، فاستولى الذعر والرعب على نصارى الجزيرة والموصل وإربل ، هذا ويعنى ابن العبري بعد ذلك بذكر الوقائع والكوارث التي جرت على الموصل ، وما لحق المتطاحنين من أبنائها مسلمين ونصارى من الخراب والدمار ، ولم يفته أيضاً ذكر ابن يونس الأمير البعشيقي الضالع مع المغول الذي لم ينج من غدرهم فأمروا بقتله بعد ذلك ، ولم يفته أيضاً ذكر قصة الأمير المجاهد ابن زيلاق ، وفي وسعك وانت تتصفح تاريخ مختصر الدول لابن العبري أن تشعر بميله إلى المغول وتقديره لعطفهم البالغ إذ ذاك على النصارى [1]، وإليك ما قاله وهو يسرد أحداث الموصل في ذلك التاريخ : « وعند أواخر الصيف تواترت الأخبار بوصول عساكر المغول ، وقريباً من كانون الأول وصل العسكر وأحاط بالموصل ، وفي رأس العسكر أمير كبير اسمه (سنداغو) محب للنصارى » [2]. ومجمل القول : تتابعت الحوادث أو الوقائع الدامية بعد ذلك فكان هدف عساكر المغول البطش بالمسلمين ، كما كان هدف عسكر الشام من غاراتهم الفتك بالنصارى ، قال مؤلف الحوادث الجامعة : « وفيها أي في سنة ٦٨٤ أغارت طائفة من عساكر الشام على ديار بكر والموصل وإربل وقتلوا كثيراً من النصارى في إربل ، ونهبت الأكراد بلد « البوازيج » و « باصقرا » وقتلوا جماعة من النصارى ونهبوا الأموال »[3] .

---

(١) : مختصر تاريخ الدول (٤٨٢ ـ ٤٩٧).

(٢) : المصدر المذكور (٤٩٥) .

(٣) : الحوادث الجامعة (٤٤٧).

مستند نادر عن علاقات النصارى بالمغول

وما هذا المستند النادر إلا كتاب تاريخي في أخبار رؤساء النصارى في المشرق وكيفية إسناد مناصبهم إليهم والجهة التي تسندها ، ألفه عمرو بن متى الطيرهاتي سمى كتابه المذكور (المجدَّل) والغالب أن ما وصل إلينا من كتاب المجدل إنما هو الملخص وقد وقع في جزأين ، وطبع في رومية سنة(١٨٦٦) ويمتاز الكتاب بطرائف تاريخية غير معروفة في مستند عربي آخر عن سيرة الطبقة الأولى من سلاطين المغول وعن سياستهم مع النصارى في كل من الشرقين القريب والبعيد ولم نجد أثراً لهذه الطرائف التاريخية في مختصر تاريخ الدول لابن العبري وهو من أشهر مؤرخي النصارى كما قلنا ، مع أنه وضع كتابه في الأصل باللغة السريانية . ولا ندري لماذا لم يعن ابن العبري بما عين به الطيرهاني عمرو بن متى في كتاب (المجدَّل) من الإشادة بسياسة المغول في محاسنة نصارى الشرق والعراق وإسداء ضرب من العون لا يستهان به لهم ، ومن ذلك إعزاز رؤسائهم والمبالغة في حرمتهم ، والغالب أن عصر ابن العبري والأحوال التي عاش فيها لم تكن مواتية أو مسعفة له على الجهر بما جاهر به عمرو بن متى الطيرهاني ، فإنه ـ أعني ابن العبري ـ عاش في عصر عصيب وقعت فيه حروب طاحنة بين المغول وملوك الموصل وحدثت فيه مذابح وفتن خطيرة في البلاد المشار إليها وفي الجزيرة وما إلى ذلك من الأصقاع ، أما الطيرهاني فلا شك أنه وضع كتابه في زمان ومكان يختلفان عن ذلك وإن لمْ يتيسر لنا تحقيق ذلك الزمان أو المكان غير أنه من بلاد الجزيرة على الإجمال .

لنا أن نستثني كتاب الحوادث الجامعة من جملة المصادر العربية النادرة التي أغفلت تسجيل مجاملة المغول لنصارى الشرق ، فإن مصنف كتاب « الحوادث » عني إجمالاً بأخبار سقوط بغداد على يد هولاكو وقيام الدولة « الإيلخانية » المغولية ، ومحاسنتها للنصارى ، وبذل العون

والمساعدة لهم حتى وهبوهم تلك الأملاك والقصور الجليلة العائدة للخلفاء ولأمراء الدولة العباسية ، فانتقل زعماء الطائفة المذكورة إليها بيد أنهم غيروا من معالمها وأحدثوا فيها بعض البيع والمعابد وخططوا المقابر والمدافن إلى غير ذلك مما وردت الإشارة إليه في كتاب الحوادث ولو على سبيل الإجمال ، أما عمرو بن متى مصنف كتاب المجدًل فإنه معني بشيء من الإيضاح والتفصيل .

لا يخفى أن ديوان الخلافة العباسية كان يجري على رسوم معينة في تعيين رؤساء النصارى وزعماء اليهود لا يحيدون عنها غالباً خصوصاً في أواخر عصور الدولة المذكورة وذلك بأن يستدعي هؤلاء الرؤساء إلى الديوان حيث يتلو الوزير أو نائبه عليهم نص البراءة الصادرة بتعيينهم ، وقد يتضمن النص المذكورة جملة [1] تعني نسخ تلك الديانة برسالة الإسلام ، ثم يؤمر الرئيس من النصارى أو اليهود بالإنصراف .

هذه خلاصة الرسوم أو العادات التي كانت متبعة بهذا الشأن في غير عصر من عصور الدولة العباسية فلا مواكب ولا احتفالات رسمية ولا خلع ولا إقامات ولا تظاهرات إلى غير ذلك مما حدث فور انحلال الدولة العباسية وظهور الدولة الإيلخانية حيث عني الأول من سلاطين المغول باستقبال وفود النصارى ورؤسائهم في قواعدهم العسكرية الواقعة في فارس وآذربيجان أكثر من مرة وأكرموا وفادتهم وأفاضوا عليهم الخلع والهدايا السنية ، وبالغوا في ذلك وربما بدرت من بعض أولئك السلاطين أو بطانتهم إشارات تدل على تقدير تلك الديانة أو انتحالها في بعض الأحيان كما يحدثنا عنه عمرو بن متى ملياً في كتابه المذكور ، وهو أمر سكت عنه المؤرخون الإسلاميون في أكثر الأحوال ، بل سكت عنه أكثر من ذلك المؤرخون المسيحيون المقيمون في كنف دول إسلامية .

---

(١) تجد نموذجاً من تلك البراءات في كتاب الحوادث .

وتميزت أيام السلاطين الثلاثة هولاكو وآباقا وأرغون بانتهاج سياسة المحاسنة البالغة مع نصارى الشرق والعراق على وجه ينم عن شيء من الدس والكيد المغولي للمسلمين ، ويلاحظ أن ثلاثة من زعماء النصارى عاصروا هؤلاء الثلاثة من سلاطين المغول وحصلوا على ما حصلوا عليه من رعاية وحرمة بالغة وتأييد كبير كما يحدثنا عنه عمرو بن متى ، وهؤلاء البطارقة الثلاثة هم (مارمكيخا ، ماردنحا ، باباالاها الثالث). عني المؤلف المذكور بالترجمة لهم وأشار إلى ما حبوا به من عطف ومعونة وإلى ارتفاع قدر النصارى وجاههم في الفترة المذكورة في الشرق والعراق ، وحيث خفقت أعلام أولئك السلاطين من تلك البلاد .

يعنى عمرو بن متى مضافاً إلى ذلك بوصف الحفلات وتعيين مواقعها وبالإشارة إلى حلية أولئك البطارقة وملامحهم ويصف حللهم الخاصة وارديتهم ، ويقول مثلاً كان على هذا حلة (وردية) وعلى ذلك حلة (كحلية)، ويعني أيضاً بتسمية من يشهد الحفلات من الأساقفة وأكابر رجال الكنيسة ، فلا عجب إذا رأينا كتاب عمرو بن متى هذا طافحاً بالثناء على سلاطين المغول مليئاً بعبارات الحمد والشكر وخاصة لهؤلاء السلاطين الثلاثة .

والبطريق (مليخا) عاش في الفترة الواقعة بين أواخر عصور العباسيين وأوائل عصور المغول فشاهد الخليفة المستعصم وأدرك الطاغية هولاكو . عينه الأول في رياسة أبناء جلدته وأقره الثاني على ذلك وبالغ في إكرامه ورعايته ، وهو على ما يقول صاحب المجدل من بلدة (جوغيار) من أعمال نصيبين ، تم تعيينه في خلافة المستعصم أولاً وبقي على ولايته بعد سقوط بغداد . وفي عهد رياسته زالت الخلافة العباسية واستولى المغول على العراق . وفي هذا الصدد يقول المؤرخ المذكور ما نصه : « ومن بعد نصبه سنة ١٤٦٨ يونانية أو سنة ٦٥٦ انتقلت المملكة إلى (المغول) وانقرضت دولة العباسيين وذلك على يد السلطان الأعظم مالك ملوك العرب والعجم

هولاكو خان وفتح بغداد يوم الأثنين رابع شباط سنة ١٥٦٩ لتاريخ الإسكندر الواقع في الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٥٦ لتاريخ العرب ».

هذا ما جاء في كتاب المجدل ، ويلاحظ أن مصنف كتاب الحوادث سماه (ميخا) مرة ومكيخا تارة وذكر تعيينه أول مرة في أخبار سنة ٦٥٣ أي قبل سقوط بغداد بثلاث سنوات قائلاً : « وتوفي أبو الفضل ابن أبي الخير ابن المسيحي الجاثليقي ببغداد وقد تجاوز التسعين ، وولي بعده مار ميخا النصيبي وكان أديباً فاضلاً » [1]. ثم قال صاحب كتاب المجدل بعدما تقدم ما يأتي : « أنعم هولاكو عليه وأعطاه دار الخلافة المعروفة بدار (الدويدار) التي على دجلة حتى يسكنها وعمّر فيها (البيعة الجديدة) ورزق جاهاً عظيماً »، وقال أيضاً في ختام ترجمته : « توفي يوم السبت ١٨ نيسان سنة ١٥٧٦ يونانية ودفن بالبيعة الجديدة التي بناها بدار الخليفة وكانت مدة رياسته ثمان سنين وخمسة شهور ».

هذا ما قاله عمرو بن متى في كتابه عن المعاملة الحسنة التي عامل بها هولاكو هذا البطريق حتى وهبه داراً هي أعظم دور بغداد في ذلك العصر وأجملها وأشهرها بعد دار الخلافة ، وقد رويت هذه القصة بعينها تقريباً في كتاب الحوادث الجامعة أو الجزء التاريخي الذي اختير له هذا الاسم ، فقال مصنفه في آخر بحثه عن الواقعة وما جرى بعدها ما نصه : « وسُلمت مفاتيح دار الخليفة إلى مجد الدين محمد بن الأثير ، وجعل أمر الفراشين والبوابين إليه ، وتقدم للجاثليق بسكنى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير التي على شاطىء دجلة ليسكنها ، ودق الناقوس على أعلاها واستولى على دار الفلك التي كانت رباطاً للنساء ، تجاه هذه الدار وعلى الرباط المجاور لها ، وهدم الكتابة التي كانت على البابين ، وكتب عوضها بالسرياني » [2] .

---

(١) كتاب الحوادث (٣٠٠) .

(٢) كتاب الحوادث (٢٣٣ ـ ٢٣٤).

ومن رأينا أن هذا الجاثليق جانب الصواب فإنه تصرف تصرفاً أثار شعور مواطنيه المسلمين متكلاً على مجاملة المغول وتأييدهم له ونكايتهم العظمى بأهل العراق ، ومن هذا القبيل ما فعله بدار الدوادار التي وهبت له وبغيرها من الدور والمعاهد الكبيرة ، فكان عليه أن يكتفي بسكناها ، ولكنه حول دار الدوادار إلى بيعة يدق في أعلاها الناقوس ، ومحا الكتابة العربية التي كتبت على واجهتها . وكان أعيان الدولة العباسية يتفننون بمثل هذه الكتابات الجميلة في واجهات المنازل والمعاهد الكبيرة ، ومن الأمثلة على ذلك ما نشاهده إلى اليوم على واجهة « المستنصرية » ولم تكن دار الدويدار بعيدة عنها حيث هدمت كتابتها وكتب عوضها بالسريانية كتابة تشعر بأن هذه الدار بيعة ، وهذا كله خطأ ارتكبه هذا الجاثليق فأثار به شعور مواطنيه من المسلمين ، ولا نحسب أن النصارى كلهم كانوا يؤيدون جاثليقهم في تلك الأعمال ، فإن بيعهم ومعابدهم غير قليلة في بغداد ، وحرية عقيدتهم كانت مكفولة إلى حد عظيم ، ولكنها سياسة الطاغية هولاكو التي تحيز الجاثليق إلى جانبها ووثق بها ثقة مطلقة .

وتألم البغداديون ولا شك من بعض تصرفات « مرمليخا » الجاثليق وكانوا يتحينون الفرص للتعبير عن سخطهم وتذمرهم من تلك التصرفات خلال السنوات السبع التي تولى فيها منصبه المذكور وأظهر فيها شدة متناهية وجنوحاً إلى سياسة المغول . قبض مرة على نصراني من أهل بغداد أعلن إسلامه ، واعتقله بداره المعروفة بالدويدار الكبير وعزم على تغريقه بالنهر ، فهاج البغداديون ونهبوا بعض الأسواق ، والدروب القريبة من أحياء النصارى ، وضربوا حصاراً على دار الجاثليق فاضطر إلى مغادرة داره شاكياً إلى حاكم العراق من قبل المغول لائذاً به ، وهكذا نجا من بطش البغداديين ، ثم إنه توجه من فوره إلى مراغة أو تبريز أي إلى قواعد المغول العسكرية في أذربيجان ، وبعد أن اطمأن هناك مدة عاد إلى بغداد في وقت عصيب بدأ فيه الصراع بين أحزاب المغول أو فرقهم السياسية ، فمن حزب

يميل إلى تعزيز الإسلام والمسلمين ومن حزب يفضل البقاء على الوثنية المغولية .

لم ترد في كتاب عمرو بن متى الطيرهاني المذكور إشارة إلى هذا الهياج ، والمؤرخ الوحيد الذي سجل الحادث هو مصنف كتاب الحوادث الجامعة ، أورده في أخبار سنة ٦٦٤ فقال : « وفيها قبض مارمليخا الجاثليق على نصراني من أهل بغداد قد أسلم فاعتقله بداره المعروفة بالدويدار الكبير على شاطىء دجلة وعزم على تغريقه فبلغ العوام ذلك فاجتمعوا ونهبوا سوق العطارين برأس (درب دينار) وغيره من محال بغداد والنصارى ، وحصروا الجاثليق وأحرقوا باب داره وقاتلوا أصحابه فنزل في سفينة وقصد صاحب الديوان علاء الدين واستجار به ، فأمر بكف العوام وركب (تكال بخشي) شحنة بغداد وأخذ نفراً من العوام ، وقتل منهم وحبس جماعة فسكنت الفتنة . ثم إن الجاثليق توجه إلى (الأوردو) الأشرف وعاد على إربل وبنى بقلعتها بيعة ثم قدم بغداد وأقام فيها إلى أن مات ورتب في منصبه (ماردنحا) الإربلي »[١].

وخلف مار مليخا ، « دنحا » وقد ترجم له مؤلف كتاب المجدَّل وأثنى عليه وعلى معرفته بأصول اللغة السريانية ، وقال : أجمع وجوه النصارى وقساوستهم على اختياره ليخلف « مليخا » ولما انهى ذلك إلى « أبقا خان » خلع عليه ، ويقول المؤلف في هذا المكان شرفه بالخلعة السنية و « الفرمان » و « البايزة » و « الجتر » . هذا ما قاله عمرو بن متى ، ومنه يستفاد مبلغ المجاملة والمحاسنة التي حظي بها هذا الجاثليق . فإن أباقاً أفاض عليه خلعاً سنية . وأصدر بتعيينه مرسوماً خاصاً . ووهبه وساماً رفيعاً ومظلة لا ترفع إلا على رؤوس الأمراء ، ويستفاد أيضاً من كتاب عمرو بن متى أن الطاغية أبقا مُثل في حفلة نصبه التي جرت في بيعة معروفةٍ بثلاثة

---

(١) كتاب الحوادث (٣٥٤) .

من كبار أمراء المغول ، وشهد تلك الحفلة الأمير « يعقوب » والساعور [1] وقد أقيمت هذه الحفلة بالمدائن وكانت فيها بيعة يختاورونها لإقامة تلك الحفلات ، ويلاحظ أن « دنحا » هذا عاد بعد الاحتفال بنصبه في بيعة المدائن إلى بغداد ، وسكن دار الخليفة وقد احدثت فيها بيعة جديدة ، وبلغت مدة رئاسة هذا الجاثليق على ما في كتاب المجدل خمس عشرة سنة ، وفي آخر هذه الترجمة من الكتاب إشارة إلى مصير البيعة الجديدة المحدثة في دار الدويدار ومصير المقبرة كذلك حيث يقول المؤلف : « ولما أخذت المسلمون هذه البيعة من النصارى ـ يعني استردتها ـ أمروا أن تنبش المقابر وتؤخذ الموتى فاجتمع النصارى إلى البيعة المذكورة يوم الخميس ٢٤ ربيع الآخر سنة٦٩٥ الموافق ١٦٠٧ يونانية ونقلوا الذين كانوا في البيعة المار ذكرها . وهما مليخا ودنحا واتوا بهما إلى بيعة « سوق الثلاثاء » ثم أشار عمرو بن متى إلى ما ساور النصارى من الأحزان والآلام في ذلك اليوم وإلى عنايتهم بإقامة حفلات التأبين .

وقال عمرو بن متى : الجاثليق « بابالاها » : هذا الجاثليق هو من الترك من بلاد الخطا ، وورد من بلده في خدمة الخان الأعظم ـ لم يذكر المؤلف اسم هذا الخان ولا شك أنه أحد أحفاد جنكيز ـ وكان سبب مجيئه إلى هذه الأرض ـ يعني العراق ـ لأجل زيارة بيت المقدس ، وكان قد أنفذ معه « القان » ثياباً حتى يعمدها في نهر الأردن ويعبرها على قبر السيد المسيح فحيث وصل الأردو الأشرف وعرض « فرامينه » على السلطان المعظم « أباقا خان » قال له في الجواب : الطريق ما هي آمنة ، وانتم لكم ذكر طائل ـ يعني شهرة واسعة ـ وأخاف عليكم . ومجمل القول حذر «أباقا» (بابالاها) وخوفه من السفر إلى فلسطين ولا شك أن خبرة السلطان بمخاوف الطريق أعظم من خبرة الاسقف المذكور، فلم تقم بعد بين المغول

(١) الساعور لفظة سريانية تعني «الخازن» ، يقال ساعور البيعة يعنون خازنها ، وكانت تطلق أيضاً على خزنة المارستانات يقولون ساعور المارستان .

ودولة المماليك المصرية التي تحكم في الشام وفلسطين علائق حسنة ، ولم يعدل سلاطين المغول عن التفكير بغزو الشام وأخذ ثأر الاندحار الشنيع الذي منوا به في واقعة « عين جالوت » وسلاطين مصر ما زالوا على أتم أهبة للدفاع وقلوبهم عامرة بحب الجهاد .

أذعن بابالاها وامتثل أمر السلطان ، ولكنه لم يعد إلى بلاد الخطا والشاش بل قصد بغداد فإن فيها الجاثليق (ماردنحا) ولا بد من زيارته قبل العودة إلى بلده في الشرق الأقصى وهكذا وصل « بابالاها » إلى بغداد واجتمع بصاحبه ، وأقام عنده مدة غير قصيرة توثقت خلالها أواصر المودة والمحبة بينهما ، ومما يذكر أن كلا من ماردنحا وبابالاها قاما سوية برحلة خاصة إلى « الأردو » ويعني ذلك زيارة السلطان في قاعدته العسكرية المعروفة ، ولهذه الرحلة مغزاها فالغالب إن ماردنحا وقد علت سنه وطال عمره رشح صاحبه ليخلفه في منصبه ، وموافقة السلطان على ذلك مضمونة لا تحتاج إلى جهد لأن بابالاها الداهية مهد السبيل مع الطاغية أباقا ، وهذا الرجل محبوب عند المغول وأصله من بلادهم أو من البلاد القريبة منها وكانت الخطوة الأولى إلى ذلك تعيين « بابالاها » التركي « مطراناً » على « تنكت » [١]. وقام الجاثليق مار دنحا بتجهيزه وإنفاذه إلى تلك البلاد النائية . ثم إن عمرو بن متى تحدث في كتابه بحديث طويل عن مكث بابالاها في العراق وعدوله عن السفر إلى بلاده وما ترتب على ذلك من اختياره لرياسة النصارى . تحدث المؤلف عن هذه القصة كما لو كانت « أعجوبة » وحاول عمرو بن متى أن يردها إلى أسباب غير عادية .

عاد بابالاها إلى بغداد بطريق إربل في المرة الثانية ، واتجه إلى البيعة المحدثة في دار الخليفة ، فوجد المآتم قائمة فيها على الجاثليق مار دنحا

---

(١) تنكت بفتح التاء المثناة وضم الكاف مدينة من مدن الشاش وراء سيحون ، قال ياقوت خرج منها جماعة من أهل العلم ، ثم أورد أسماء جماعة من المحدثين والعلماء المنسوبين إلى هذه المدينة .

ولم يدفن بعد فشاركهم في المأتم بكثير من مظاهر الجزع والنوح والبكاء . ونجد في الكتاب بعد ذلك إشارة إلى غبطة النصارى وفرحهم البالغ بمجيء بابالاها فكأنما جاء على ميعاد ، وكأنما حضر ليخلف صاحبه على منصبه المذكور .

ووقع الاختيار على بابالاها ليخلف مار دنحا وأجمعت على ذلك كلمة النصارى في بغداد ونظموا بذلك محضراً مذيلاً بتواقيعهم وخطوطهم توجه به بابالاها إلى الأوردو بأذربيجان .

دخل الرجل على « أباقا خان » ويلاحظ أنه لا يحجب عنه كلما حضر لزيارته ، فرحب به ترحيباً بالغاً ، وفي هذا الصدد يقول صاحب المجدل : « فرح به وخلع عليه خلعة سنية مثمنة ، وأطلق له إقامات كبيرة بشيء لا يحد من كثرته ، وأنفذه ومعه أمير كبير اسمه « أشمت » من العظم القآني - يعني من صلب الأسرة المالكة - ودخل إلى بغداد وتجهز وانحدر إلى دير المدائن » [1]، ويقول صاحب المجدل كان وصوله يوماً مشهوداً ودخل البيعة يحف به عدد كبير من المطارنة والأساقفة جاؤوا من أقاصي بلاد الترك وفارس والروم ومن بلاد الجزيرة والموصل وفلسطين ومصر ، فكان مطران (المالق) [2] (وتنكت) على حدود الصين ممن شهد هذه التظاهرة ، وهو أمر يدل على وصول بعض المذاهب المسيحية إلى آسيا الوسطى وبعض أنحاء تركستان في ذلك العصر ، حيث كان بعض حكام المغول يحيطونها بشيء من الحماية والرعاية ، ومن النادر أن يشهد تاريخ النصرانية بعد

---

(١) يعرف دير المدائن بدير قنا ولم يبق له من أثر الآن ، ومن رأي بعض الباحثين أنه لا يبعد كثيراً عن موقع الطاق إلى الجنوب ، وهناك عدة تلال ربما قام أحدها على أنقاض الدير المذكور .

(٢) مدينة المالق آخر البلاد التي من عمالة ما وراء النهر ، وأول بلاد الصين ، أقام بها ابن بطوطة وذكر أنها دار الملك ، وورد ذكرها عرضاً بقوله : «بلاد الختن وكاشغر والمالق» تكرر ذكر هذه المدينة في رحلة ابن بطوطة .

الإسلام حفلة أو تظاهرة كبيرة ذات صبغة دينية مثل حفلة المدائن هذه ولنا أن نقول إنها مشوبة بأغراض سياسية رسمتها السلطات المغولية . هذا ويلي ذلك في الكتاب وصف بعض الأزياء والعادات المتبعة في مثل هذه الاحتفالات ، ومن ذلك نثر الذهب والفضة ، ويقول المؤلف ما كان لأحد في الهيكل موضع يقف فيه من كثرة الناس ، ثم أن الجاثليق انحدر بعد انتهاء الأحتفال إلى دير (مارماري) في (السليح) [1]، وبعد ذلك أصعد إلى بغداد .

تحدث المؤلف بعد ذلك بشيء من الفخر والبأو عن العصر الذهبي الذي اجتازته النصرانية في دولة المغول خصوصاً في رياسة هذا الجاثليق قائلاً : « نال ـ يعني بابالاها ـ من العز والجاه والسلطان ما لا ناله أحد من قبله حتى أن ملوك المغول والقاآنية وأولادهم كانوا يكشفون رؤوسهم ويبركون قدامه ، ونفذ حكمه في جميع الممالك بالمشرق وارتفع النصارى في أيامه إلى عز عظيم وجاه كبير ». هذا ما قاله المؤلف ولولا أن هذا الجاثليق تركي أو مغولي يتفانى في خدمة قومه وممالأة أغراضهم السياسية لما حصل له ذلك ، ولكن المؤلف لاحظ في النهاية اختلال الأحوال ، وما مني به القوم من المذلة والهوان في أواخر أيام هذا الجاثليق ، وبالغ بذكر ما حل بساحتهم من هذا القبيل في الفترة المذكورة قائلاً : «هبطوا في أواخر أيامه إلى ذلة ردية ، وتجدد عليهم أخذ الجزية والإهانة واستمر إلى هذا التاريخ ».

هذا ما قاله عمرو بن متى ويستفاد منه أن الجزية اسقطت فلم تؤخذ من اليهود والنصارى في عصور الأول من سلاطين المغول : عصور هولاكو وأباقا وأرغون ثم تجدد استيفاؤها منهم في بعض العصور التالية ويؤيد ذلك ما نراه في تاريخ الحركة الإسلامية التي انبعثت في عصر السلطان غازان .

---

(١) موضع قريب من دير قنا السالف ذكره جنوب طاق كسرى .

وعمر هذا الجاثليق التركي أو المغولي طويلاً وتقلد منصبه مدة لم يسبق أن تقلدها أحد من أسلافه ، ويقول عمرو بن متى : « مات في عصره سبع قاآنية ، وهم : أباقا ، أحمد سلطان ، أرغون خان ، كيخو خان ، بايدو غازان خان ، خربنده خان . وتولى في عصره أبو سعيد خان بن خربنده وجلس على سرير السلطنية » .

هذا ما قاله صاحب المجدل ، وأرخ بعد ذلك وفاة الجاثليق سنة ٧١٧ وذكر دفنه في البيعة الجديدة المحدثة بدار الدويدار ببغداد [١] .

(١) بنصه عن الشبيبي في ابن الفوطي . ص ١٦٣ ـ ١٧٩ .

إدارة الحكم

نعود الآن إلى مصير الحكم في بغداد بعد انهيار الخلافة وسقوط حكمها : لقد عهدوا بالوزارة لمؤيد الدين بن العلقمي وبمنصب صاحب الديوان لفخر الدين الدامغاني ، وكان هذان المنصبات شكليين أكثر مما هما فعليين . وجعلوا علي بهادر شحنة (أي بمثابة مدير الشرطة) ونظام الدين عبد المؤمن البندينجي قاضياً للقضاة ونجم الدين أبو جعفر أحمد بن عمران والياً على الأعمال الشرقية ، أي : أعمال شرقي بغداد ، مثل طريق خراسان والخالص وبندنجين ، وتاج الدين علي بن الدوامي للأعمال الفراتية . وعدا علي بهادر فجميع هؤلاء عراقيون ممن عملوا في عهد الخليفة .

أما الحاكم الفعلي فقد كان عماد الدين عمر القزويني ، وبذلك فهو أول من حكم العراق للمغول بعد سقوط بغداد مباشرة . ويقول عنه ابن الفوطي : « كان من أعيان أهل قزوين المعروفين بمتانة الدين وحسن اليقين ، لما انفذ الله قضاءه وقدره وقتل الخليفة وخربت بغداد وخرب الجامع وعطلت بيوت العبادات تداركهم الله بلطفه فأتاح لهم عناية عماد الدين فقدمها وعمر المساجد والمدارس ورمم الربط والمشاهد وأجرى الجرايات من وقوفها للعلماء والفقهاء والصوفية ، وأعاد رونق الإسلام بمدينة السلام ، وحاز بهذا الفعل الجميل الذي يبقى على جبهات الزمان حسن الأجر والثناء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ». ووُصف في كتاب

(الحوادث الجامعة) بأنه : « فتح المدارس والربط وأثبت الفقهاء والصوفية وأدر عليهم الأخباز والمشاهرات ». وقد تأثر بذلك شمس الدين الكوفي الهاشمي الذي اشتهر رثاؤه لبغداد ، والذي يسميه الشبيبي في كتابه عن ابن الفوطي : (شاعر مأساة بغداد) فمدح عماد الدين في قصيدة يقول فيها :

يا ذا العلى يا عماد الدين يا ملكاً بعدل سيرته يسمو على السير
جمعت عدلاً ومعروفاً ومعرفة والعدل ما زال منسوباً إلى عمر
أحيا المدارس من بعد الدروس با لقاء الدروس حياة العلم والفكر
وعاد كل رباط بعدما هجرت أرجاؤه عامراً بالذكر والسمر
رددت للجامع المعمور رتبته الأولى وأبقيت فيه أحسن الأثر
ألبست مشهد موسى إذ حللت به الحلي بعد لباس البؤس والضرر
فالله يشكر ما أوليت من حسن وسائر الخلق والمبعوث من مضر

ولكن عماد الدين لم يبق كثيراً في منصبه بل اختير علاء الدين الجويني لهذا المنصب سنة٦٥٧ ، وعين عماد الدين معاوناً له . ولكن لم يصف الأمر بينهما فاختلفا ، وربما كان عماد الدين يرى نفسه مهضوماً ، ويرى أنه أحق بالمنصب الأول ، وسنرى بعد ما أدى إليه هذا الخلاف . ويهمنا الآن أن نشير إلى أن الجويني كان على الكثير من الكفاءة واتقان العمل مما أدى إلى بعث حركة عمرانية كبرى في العراق كله ، فهو الذي جدد كثيراً من المدارس المتداعية ومنها « المستنصرية ». وهو الذي أنشأ جملة من المدارس ودور الكتب وغير ذلك . كما انشأ جملة من الرباطات والملاجىء والمستشفيات وأجرى عليها الجرايات ، وعني بتعمير المشاهد في النجف وكربلاء والكاظمين وحفر الأنهار والترع وأجرى الماء من الفرات إلى الكوفة فالمشهد الغروي ، وهو الذي شجع حركة التأليف والمؤلفين وأجزل العطاء والبذل لهم [1] .

---

(١) الشبيبي في ابن الفوطي ص ١٤٦ .

واشتـد الخلاف بين القـزويني والجـويني وأخـذ كـل منهمـا ينسب إلى الآخر تهم الفساد والأثـراء غير المشـروع ، وكان كـل منهما يـدس على الآخر عند اباقا ويحضه على البـطش به . وقبـل ذلك كـان علاء الـدين الجويني قـد نجا من شرك نصبه له عماد الدين القـزويني أيـام هـولاكو كـاد أن يودي بـه ، ولكن آل الجويني استطاعوا تبرئـة أنفسهم فأعيـدت ولاية العـراق لعلاء الـدين وتسلط فيهـا . واستطاع أن يلصق تهمـاً بعماد الـدين وأن يثبتهـا عنـد السلطان فقتـل عماد الـدين ونكل بجمـاعته ، ولكن واحـداً منهم نجا هـو مجـد الـدين اليزدي عاد إلى الاتصال بأباقا حيث أسند إليه منصبـاً رفيعاً ، فقـام يدس على آل الجـويني فأمـر السلطان بالقبض على عـلاء الـدين واتبـاعـه [1] وسلم إلى مجد الدين اليزدي فنكل به وصادر أملاكه ، وكـان على وشك الهـلاك لولا أن أبـاقا مـات في همـذان سنة٦٨٠ عـائـداً من بغـداد وعهـد بـالملك إلى ابنـه (أرغـون). وكـان لآل الجـويني حـزب كبيـر بين الأمـراء والقـواد والنـواب فاستطاعوا خلع أرغون وتنصيب أحد أبناء هـولاكو وهـو (تكدار) الـذي أسلم وسمي أحمـد [2]، وذلـك أنهم قصـدوا خـراسـان من العـراق ونـادوا بـأحمـد سلطاناً سنة٦٨١ فنجا آل الجويني واعتقـل غريمهم مجـد الدين وأنصـاره فقتل قتلة شنيعـة ومثل بـه أفظع تمثيـل . على أن الأمـر لم يـطل كثيـراً فقـد مـات عـلاء الدين بعـد أن ولي العـراق إحـدى وعشـرين سنـة وشهـوراً . واستـطاع أرغون سنة ٦٨٣ أن يثور على عمه فيهـزم أحمد تكـودار ويقتل وسيـطر أرغون

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤١٥ ـ ٤١٦ .

(٢) انفجـر الصراع بين أحمـد وأرغون بتحـرش أرغون بـأهل خـراسان واضـطهادهم ، وسـار كـل منهما إلى صاحبـه وكانت كفـة السلطان أحمد هي الـراجحة ثم تبين أن جيشـه يتآمـر عليه وفي الطليعة أمير يدعى (بوقا) أو (بقا) وهو من أشهـر أمراء الجيش المغـولي وأصبح السـاعد الأيمن لأرغون في تغلبه على عمه أحمد تكودار ، وهو الذي أعلن من قلعة (تـلا) في أذربيجان قـرب مـراغة سلطنـة أرغون وسعى في قتـل السلطان أحمد سنـة ٦٨٣ بحجة خـروجه على دين آبـائه وأجداده . ثم استوزره أرغون وأسند إليـه نيابـة السلطنة . ولكن أرغـون عاد بعـد سنوات فـأمر بقتل بوقا وأولاده ونوابه وأخاه اروق، وذلك سنة ٦٨٨ بحجة تغير نياتهم عليه (الشبيبي) .

من جديد . وكان في ذلك محنة آل الجويني وأنصارهم فقد عذبوا وصودروا وقتلوا حتى الأحداث الصغار منهم .

وفي عهد أرغون انتعشت الوثنية واشتد نفوذ اليهود . وبعد أرغون تولى غازان وكان من أمر إسلامه ما مر ، وظلت الدولة على إسلامها وتغلغل الإسلام في كل شيء فيها .

فرع مغولي

كان جنكيز خان قد حدد لأبنائه الثلاثة الكبار وهم جوجي وجغتاي وأوكداي ثلاث نواح من مملكته الشاسعة ، لكل واحد منهم ناحية ، فكانت ناحية ولده الأكبر جوجي «أراضي السهوب من غربي نهر ايرتش إلى أقصى البقاع التي وطئتها جيوش المغول ، وكذلك الأراضي الزراعية المجاورة مثل خوارزم والأقاليم الفارسية على الشاطيء لبحر قزوين»[1] على أن جوجي توفي قبل وفاة أبيه بستة أشهر سنة ١٢٢٧ م واختير ابنه الثاني (باتو) مكانه وهو الذي فتح روسيا فيما فتح من بلاد وقد توفي سنة ١٢٥٦ م وعندما خلفه أخوه بركه سنة (١٢٥٧ ـ ١٢٦٧) كان بركه قد أسلم وبدأ شعبه في القبجاق يسلم تدريجياً . وقد ناهض هولاكو ابن عمه بركه بن جوجي ، ولم يخف بركه ألمه لما حل بالعالم الإسلامي على يد هولاكو . وقد أعد بركه بالفعل جيشاً لمحاربة هولاكو وسار من القبجاق قاصداً إيران . وكان قد صرح عن هولاكو قائلاً :

«إنه قد دمر جميع مدن المسلمين وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم ولم يميز بين الصديق والعدو وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة ، فلو أمدني الله تعالى لطالبته بدماء الأبرياء»[2] على أنه يبدو مما

---

(١) بارتولد : دائرة المعارف .

(٢) جامع التواريخ ص ٣٣٢ .

ذكره صاحب جامع التواريخ أن الخلاف بين بركه وبين هولاكو كان في واقعه خلافاً شخصياً قبل كل شيء وتنازعاً على النفوذ .

وسار جيش بركه فعبر دربند ونزل بظاهر شروان . ولما علم هولاكو بذلك تحرك في الثاني من شوال سنة ٦٦٠ (١٢٦٢) واستطاع أن ينتصر على جيش بركه في شماخي . ثم أرسل جيشاً مع ابنه آباقا خان إلى مملكة بركه ويصف الهمذاني ما جرى على هذا الشكل : « . . عبروا نهر ترك ، وكانت جميع بيوت الأمراء والأعيان وجنود بركه تلمع في تلك الليلة كالنجوم ، وكانت صحراء القبجاق مليئة بخيامهم وسرادقاتهم . كذلك كانت تلك البقعة محتشدة بالخيول والبغال والإبل والأبقار والأغنام ، بينما لم يكن أحد من جنود جيشهم مقيماً في منزله فقد هربوا جميعاً تاركين أطفالهم وعيالهم» .

ثم يقول : «وعندما اطلع بركه وجنوده على أحوال منازلهم وعيالهم وحاشيتهم وأموالهم ومواشيهم احتشدوا كالنمل والجراد وظهروا في تلك الصحراء الفسيحة وداهموا الأمراء والجنود . وغرة ربيع الأول من السنة المذكورة (٦٦١) استمروا يحاربون على ضفة نهر ترك من ظلوع الصبح إلى صلاة الظهر» .

وانتهت المعركة بهزيمة جيوش هولاكو . ووصلته أخبار الهزيمة وهو في تبريز فتأثر تأثراً شديداً ، وراح يستعد لتغيير الموقف . ووصله في أثناء ذلك نبأ من قبل أخيه قوبيلاي - الذي أختير خانا أعظم للمغول - بتنصيبه حاكماً أو (ملكاً) على حد تعبير صاحب جامع التواريخ على البلاد الواقعة من ضفاف جيحون حتى ديار الشام ومصر ، وأن أخاه قوبيلاي قد أرسل لنجدته جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألف مقاتل . فلما علم بذلك خصومه في القبجاق آثروا عدم الاصطدام به .

واتصل بركه بالمماليك في مصر واتصلوا به لعقد حلف ضد عدوهما

المشترك هولاكو . وبعث بيبرس من القاهرة من يفاوض بركه بذلك سنة ٦٦٠ (١٢٦١) وسنة ٦٦١ (١٢٦٢) . كما وصل إلى القاهرة سنة ١٢٦٣ م وفد من قبل بركه قبل أن ترجع البعثة التي أرسلها بيبرس .

ولم يعقب بركه ذرية فآل العرش إلى منكو تيمور حفيد باتو . ولم يعد بركه في أواخر سني حكمه أول أمير بعد الخان الأكبر في الدولة المغولية كما كان باتو ، بل أضحى أمير دولة مستقلة . ويبدو أن عدداً من أخوته اعتنق الإسلام أيضاً وبالرغم من أن خلفاءه أول الأمر لم يكونوا مسلمين فقد كان للإسلام شأنه ، على أن الإسلام لم يعم المملكة إلا بعد وفاته بنصف قرن .

الباتوئية

قلنا أن باتو قد خلف أباه جوجي فيما خصه به أبوه جنكيز ، ويعتبر باتو هذا رأس ما عرف باسم القبيلة الذهبية أو القطيع الذهبي (١٢٢٧ - ١٢٥٥ م) ، وهو اسم أطلقه عليهم الروس المحكومون منهم ، ثم عرفوا به ، وقيل أن السبب في هذه التسمية هو أن مضارب الحاكم كانت مبلطة بالقرميد الذهبي . واشتهروا بالباتوئية نسبة إلى باتو .

وقد غزا المغول روسيا بين سنتي ١٢٣٧ - ١٢٤٢ م وعبروا نهر الفولغا فوق الثلوج وأغاروا على بولونيا سنة ١٢٤١ - ١٢٤٢ م وعلى المجر ودلماسيا . وفي آخر سنة ١٢٤١ عبر باتو نهر الدانوب المتجمد وأغار على بلغاريا مخترقاً رومانيا إلى الفولغا وتقدم في روسيا فأخضع أجزاء كبيرة منها .

وبعد وفاة الخان الأكبر كيوك اختير مكانه الأمير منكو، وبالرغم من أن منكو كان خاناً أكبر فقد كانت المملكة في الحقيقة مقسمة بينه وبين باتو ، بل يمكن القول أن الأمبراطورية كلها كانت تستغرق اهتمام باتو . وقد توفي سنة ١٢٥٦ على الأرجح . ويرى الجوزجاني أن باتو أعتنق الإسلام سراً . وسنة ١٢٥٧ خلفه أخوه بركه الذي أعلن إسلامه - كما تقدم - وجرى بينه وبين هولاكو ما ذكرنا بعضه قبلاً .

وبعد سقوط الأمبراطورية الإيلخانية (أمبراطورية هولاكو وخلفائه)

سنة ١٣٣٥ م ارتفع شأن القطيع الذهبي في عهد أوزبك خان (١٣١٣ - ١٣٤١) الذي كان مسلماً فوطد الإسلام على نهر الفولغا ، ثم تتابع اعتناق الخانات للإسلام وبذلك ساد الإسلام بين مغول الفولغا .

ولم ينجح جانب بك خان ابن أوزبك (١٣٤١ - ١٣٥٧ م) ولا ابنه بردي بك خان (١٣٥٧ - ١٣٥٩) في غزو آذربيجان والتقدم منها . وبذلك ظل القطيع الذهبي دولة أوروبية شرقية . ومع الزمن صارت تحت رحمة من يجاورها من الدول النامية كبولونيا وليتوانيا وروسيا . وقامت فيها النزاعات الداخلية على العرش منذ سنة ١٣٥٩ ففككت العرى . ومنذ سنة ١٣٨٠ التي أحرزت فيها دولة روسيا الناشئة النصر على القطيع الذهبي ظل الأمر بين مد وجزر حتى سنة ١٤١٩ حيث ازداد التفسخ الداخلي وقامت عدة خانيات في قازان واسترخان والقريم . أما ما بقي فقد ظل موحداً شرقي كييف ، على أنه انتهى الى الهزيمة سنة ١٥٠٢ ، وكذلك انتهت خانيات قازان واستراخان وسيبيريا . وبقيت خانية القريم حتى سنة ١٧٨٣ .

ويعتبر القطيع الذهبي (الباتوئية) الدولة الوحيدة التي أخضعت روسيا وظلت مسيطرة طيلة قرنين ونصف قرن مما كان له أعظم الأثر في تاريخ روسيا وبولونيا وليتوانيا .

الإيلخانيون

بعد وفاة «هولاكو» في ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٦٣ هـ رشحت زوجته النصرانية «دوقوز خاتون» ابنها «أبقا» أو «أباقا» لخلافته، بعد أن استشارت في ذلك الجاثليق الأرمني «ورتان». وكان «أباقا» يومئذ حاكماً على خراسان ومازندران. فبعثت إليه رسولاً مستعجلاً إلى «أران» حيث كان يشتو، تستدعيه إلى معسكر المغول[1] في «جغاتو». وكان أخوه «يشموت» يقيم في نواحي

(١) كان المغول، على عادة جميع البدو، يسكنون الخيام. ويسمون الواحد من مخيماتهم الصيفية والشتوية «يورْت» أو «أُردو». وقد ظلوا، حتى بعد استيلائهم على الممالك المتمدنة وإقامتهم في الحواضر واحتياج ملوكهم إلى الإقامة في العواصم، يصيفون ويشتون في أماكن مناسبة يختارونها لذلك، وينصبون فيها مخيماتهم هذه من الشعر أو اللباد، وينتقل إليها الخان في الصيف وفي الشتاء، مع جيشه وخدمه وخيوله ومواشيه وقطعانه وحاشيته. وينصب رجاله أيضاً لأنفسهم خياماً أو أكواخاً حول خيامه. فإذا ارتحلوا عنها أحرقوا كل ما يصعب نقله من أجزائها كالخشب وغيره.

وكانت مخيمات المغول هذه في حكم المدن الكبيرة، فيها كل ما في المدن من كثرة المنازل ووفرة السكان ومرافقي الخان من كتاب وقضاة ورؤساء عسكر، ومن أهل الصناعات والتجار وغيرهم.

وكانوا يعقدون فيها مجالس الشورى بين أمراء البيت المالك في الأمور المهمة كانتخاب رئيس لأسرتهم وتجهيز الجيوش للحرب وأمثال ذلك.

وقد تطور معنى كلمة «أردو» هذه شيئاً فشيئاً حتى اختصت بمعنى «العسكر» و«المعسكر». فحيثما ذكرت كلمة «معسكر» من هذا البحث يكون المقصود منها ذلك المخيم (أردو)، إلّا إذا دلت القرينة على أن المقصود مخيم العسكر خاصة.

«دربند» فقدم أيضاً إلى المعسكر بعد سبعة أيّام من وفاة «هولاكو».

وبعد القيام بمراسم العزاء عقد القوّاد والرؤساء المغوليّون من رجال «هولاكو» مجلس التهاني، واختاروا رسمياً «أباقا» لخلافته في الثالث من رمضان سنة ٦٦٣ هـ. إلّا أنّ «دوقوز خاتون» توفيت قبل جلوس ابنها بثلاثة أيّام، فحرمت من المشاركة في التّهاني بجلوسه.

إنّ «أباقا» هذا وغيره من خلفاء «هولاكو» الّذين حكموا إيران من تاريخ وفاة «هولاكو» إلى انقراض هذه السلسلة عرفوا بسلسلة سلاطين المغول أو «الإيلخانيّون». وإذ كانت سلسلتهم لا ترتبط ارتباطاً يعتدّ به بخانات «مغولستان» ولا كان لبلاط «قراقروم»(١) سلطان عليهم، فهي تعدّ سلسلة مستقلّة، ومن تاريخ جلوس «أباقا» أخذ نفوذ المغول وسلطان خانات «مغولستان» الأصليّين ينحسر عن إيران شيئاً فشيئاً، وخلفاء «هولاكو» يسلكون مسلك سلاطين إيران ويستنّون بسننهم. حتّى عادوا، في الواقع، يعدّون طبقة من ملوك هذه المملكة.

ملك «أباقا خان»

بعد أن جلس «أباقا خان» على عرش إيلخاني إيران عيّن أخاه «يشموت» حاكماً على «دربند» و «شيروان» و «دشت موقان» و «آلاتاغ». وعهد بقيادة الجيش المغولي في حدود الرّوم وحدود الشام إلى اثنين من قوّاده وعيّن «شيرامون» بن «جورماغون» لكرجستان و «سونجاق نويان» لفارس وبغداد، وهذا أبقى «عطا ملك الجويني» حاكماً على بغداد وكان «هولاكو» قد عيّنه في هذا المنصب سنة ٦٥٧ هـ والمغول في الأصل قبائل بدويّة جافية ولم يكن لحكّامهم بد من الاستعانة في إدارة هذا الملك العظيم الّذي صار إليهم، بطبقة ممتازة من أهل البلاد الإسلامية المغلوبة على أمرها فرساً وأتراكاً وعرباً إلى عناصر أقوام آخرين.

---

(١) أكبر مدن «مغولستان» بناها «جنكيز خان». وأصبحت عاصمة سلاطين المغول.

أمّا وزارة «أباقا خان» فظلّت كما كانت في أواخر أيّام «هولاكـو» من نصيب «صاحب الديوان»[1] «الخواجة شمس الدّين محمّد الجويني». وكان هو في تبريز وابنه «الخواجة بهاء الدّين محمّد» في أصفهان وفي الشطر المهم من العراق العجمي[2] يقومان بتدبير شؤون المملكة. وعهد بشؤون خراسان إلى اثنين من الأمراء المحليّين، و«كرمان» إلى «تركان خاتون»، وفارس إلى الملكـة «آبش خـاتـون»، و«هـرات» و«غـور» و«غـرجستـان» إلى الملك «شمس الدّين كرت». وكان يدير شؤون «لرستان» و«يزد» محـافظون منهمـا (أتابكة). ويـدير شؤون الجـزيرة الأمـراء الأيّوبيّـون المعيّنون من قبـل خان المغول.

وظلّ «علاء الدّين عطا ملك الجويني» حاكماً على بغداد والعراق كلّه مدّة سلطنة «أباقا خان» (٦٦٣ ـ ٦٨٠ هـ). وكانت تبعيّته لـ«سونجـاق» تبعيّة بالاسم، أمّا في الواقع فكان مستقلاً عنه كلّ الاستقلال. وقد بذل كلّ مساعيه في عهده هذا لإعمار العراق وبناء ما خرّبه العهد المغولي. وأنشأ كثيراً من القرى والقصبات الجديدة وأجرى أنهاراً للزراعة، وجعل من الأراضي البائرة مزارع زاهرة. وقد تقدّم في هذه الأعمال حتّى قيل إنّ بغداد عادت في عهده أعمر منها في عهود الخلفاء.

---

(١) صاحب الديوان: اسم أسرة اشتهرت به لأن بعض رجالها تولى هذا المنصب فاشتهر به، ثم اشتهرت به الأسرة كلها. وهذه الأسرة من أشهر الأسر الإيرانية التي تولت مناصب كبيرة منذ أيّام الدولة السلجوقية فالخوارزمية فالمغولية.

وقد كان صاحب الديوان يتولى في الدولة إدارة الشؤون المـالية ومـا يرد إلى المملكـة من واردات، مما يعادل ما اصطلح على تسميته في العصور الأخيرة باسم (وزارة المالية).

(٢) العراق العجمي اسم أطلقه السلاجقة على ما كان يعرف في عهد البويهيين باسم «بلاد الجبل» وأهم مـدنه: كـرمنشاه (قـرميسين) والري وهمـدان وأصفهان. ويقـول حمـد الله المستـوفي (١٢٨١ ـ ١٣٤٩م) في كتـابه «نـزهة القلوب» عن العـراق العجمي أن حدوده: آذربيجـان، كردستان، خوزستان، فارس، المفازة الكبرى، قومس، كيلان. وأن أشهر مدنه: أصفهان، همدان، قم، الري، السلطانية، قزوين، ساوه، الطالقان، كاشان، جرباذقان، نهاوند، يزد، وغيرها. ونزهة القلوب كتاب في الجغرافيا طبع في الهند سنة ١٣١١ وطبع قسم منه في ليدن سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣م).

وقال صاحب (فوات الوفيّات):

«كان علاء الدّين وأخوه فيهما كرم وسؤدد وخبرة في الأمور وعدل ورفق بالرعيّة وعمارة للبلاد، وبالغ بعض الناس فقال: كانت بغداد أيّام الصاحب علاء الدّين أجود مما كانت أيّام الخليفة. وكان الفاضل إذا عمل كتاباً ونسبه إليهما تكون جائزته ألف دينار، وكان لهما إحسان إلى العلماء والفضلاء، ولهما نظر في العلوم الأدبيّة والعقليّة» اهـ.

لقد توسل «عطا ملك» بجميع الوسائل الممكنة لبعث حركة عمرانيّة كبرى في العراق بأسره، وجدّد كثيراً من المدارس المتداعية ومنها «المستنصريّة»، وأنشأ جملة من المدارس ودور الكتب وغير ذلك، كما أنشأ جملة من الرباطات والملاجيء والمستشفيات، وأجرى عليها الجرايات، وعني بتعمير المشاهد في النجف وكربلاء والكاظميّة، وحفر الأنهار والتّرع وأجرى الماء من الفرات إلى الكوفة فالنجف. وهو الّذي شجّع حركة التأليف والمؤلفين وأجزل العطاء والبذل لهم[1]. ومن هذه النّاحية نجد جملة من

---

(١) لم يمتنع المغول من الأخذ بمقومات الحضارة الإسلامية ولم يعترضوا على إنشاء المدارس والمعاهد العلمية، ولذلك أخذت بطانة المغول من المسلمين غالباً بطبع المؤلفين في اللغتين الفارسية والتركية مضافاً إلى العربية. وشاع استعمال لغة المغول نفسها في البلاد التي سيطر عليها المغول واضطر إلى التخاطب بها عدد غير قليل من العراقيين.

عنيت هذه الطبقة من العراقيين بدرس اللغات الثلاث المذكورة التي عرفت في العراق في ذلك العهد درساً واسعاً تناول قواعدها ونحوها وتصريفها فضلاً عن المواد والألفاظ، ووضعوا رسائل وكتباً في فنون اللغات الثلاث وألف آخرون منها بعض المعجمات.

عرف اثنان من علماء العراق في أواخر المائة السابعة بحذق هذه اللغات الشرقية والتأليف فيها، أولّهم: العالم الإخباري المصنف جمال الدين بن مهنا، والثاني الفيلسوف المصنف كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد المعروف بابن الفوطي مؤرخ العراق المشهور.

ومن أشهر مؤلفات الأول: (وزراء الزوراء) و(لطاف المعاني في شعراء زماني) و(المشجر في الأنساب). وله كتاب لغوي طريف سمّاه (حلبة الإنسان وحلبة اللسان) ولم يصلنا من كتبه إلّا هذا الأخير. ويلاحظ أن جمال الدين بن مهنا من جملة أعلام العراق الذين اختلطوا برجال الدولة المغولية الإيلخانية، واتصلوا بمختلف طبقاتها، وتمكن من درس تلك اللغات الأعجمية التي شاعت في العراق على عهده حتّى استطاع أن يؤلف فيها كتاب «الحلبة» المذكور. وفي الكتاب فصول مفيدة عن خصائص اللغات المذكورة ونوادرها وقواعدها، نحوها وصرفها إلى =

أمّهات الأسفار والمصنّفات في شتّى الموضوعات العلمية والأدبيّة والتّاريخية مهداة لخزانته أو خزائن أهله وذويه. ففي الوسع أن نقول أنَّ الجويني بز الجميع في بعث حركة انشائية كبيرة شملت العراق وفارس وآذربيجان.

وقد ناصبه العداوة، في أوائل سلطنة «أباقا خان»، رئيس شحنة[1] بغداد المغولي «قرابوغا» ونائبه الأرمني «إسحاق». فخدعا بدويّاً وعلّماه أن يشهد بأنَّ «عطا ملك» ينوي أن يهرب برجاله وأولاده وأمواله إلى الشام، ويدخل في خدمة ملوكها، وأنّه طلب من هذا البدويّ أن يكون دليله في الطّريق إليها.

ثمَّ حاصر رئيس الشّحنة ونائبه بيت «عطا ملك» واعتقلاه وحملاه مع الأعرابي إلى معسكر «أباقا» ليشهد عنده بذلك. ولكن «أباقا» لم يصدّقهما وربط البدويّ إلى خشبة وأخذ يعذّبه ليحمله على الإقرار بالحقيقة، فاعترف بأنَّ شهادته كاذبة وأنَّ إسحاق الأرمني هو الّذي دفعه إليها. فقتل الخان المغولي البدويّ ومحرّضه إسحاق، وأقرّ «عطا ملك» على عمله في حكومة بغداد[2].

= بحوث مقارنة بين العربية وهذه اللغات من النواحي المذكورة.

ويقول عنه الشبيبي: لا نبالغ إذا قلنا أنّه أوّل عالم عربي عني بهذه الدراسات. لم توجد من هذا الكتاب نسخة في البلاد العربية وإنّما وجدت في استنبول وبعض مكتبات الغرب. وعني بعض المستشرقين الروس بنشر بعض أقسامه سنة ١٩٠٠و١٩٠٣ وعني بعد ذلك بعض علماء الترك باقتناء نسخ خطية منه. ثم نشر الكتاب بإشراف وزارة المعارف التركية.

ويحتوي الكتاب على ثلاثة أقسام: القسم الأوّل في اللغة الفارسية والثاني في التركية والثالث في المغولية.

أما العالم الثاني فهو مؤرخ العراق كمال الدين عبد الرزاق أحمد بن محمد المعروف بابن الفوطي الذي خرج عنه عدد لا يستهان به من أنفس المؤلفات في التاريخ والأدب والفلسفة والفنون الرياضية والعلوم الشرعية خاصة علم الحديث. وأشهر مؤلفاته كتابه الذي سماه (مجمع الآداب).

(١) ما يعرف اليوم بالشرطة «البوليس».

(٢) وعطا ملك هو صاحب كتاب (جهانكشاي) وهو من التواريخ الفارسية التي كتبت أيّام المغول. قال في (كشف الظنون): ذكر فيه سيرة جنكيز وهولاكو مشتملاً على دولة المغول وسلاطينها وملوك الأطراف وزمانهم. وقد أطراه صاحب (تاريخ وصاف) وأثنى عليه كثيراً.

وهذا التاريخ من أقدم ما كتب عن المغول بعد ابن الأثير والمنشىء النسوي، وأهمية الكتاب=

وكان الوزير «شمس الدّين محمّد الجويني» أخـو «عطا ملك» يتـولى جميع عائدات ممالك «أباقا خان» كلها، مع قيامه بالتوجيه السياسي. ولم يكن أحـد فوقـه سوى الملك. وبلغت إيـران في عهده مبلغـاً عظيمـاً من الرقيّ والاعتبار لمقدرته وحسن إدارته، وعلا صيته ونفوذه وكبرت ثروته[1] وخلد ذكر محامده وسجاياه بالثّناء والشكر الشعراء والعلماء والأدباء في دواوينهم وكتبهم. فكانت جهوده وجهود أخيه «عطا ملك» السبب في ازدهار إيران والعراق في عهد «أبقا»[2].

وكان «الخواجة بهاء الدين» حاكم أصفهان ابن الوزير «شمس الدين» هذا على خلاف أبيه. سريع الغضب عنيداً جباراً غليظ القلب. لم يعرف الأصفهانيون في زمانه الهناء يوماً واحداً، وعاشوا في القلق والرعب، مروعين بفقدان الأمن والسرقة وسفك الدماء.

واختار «أباقا» مدينة تبريز عاصمة له. وكـان يشتو في «أرّان» وبغـداد وضفاف نهر «جغاتو» ويصطاف في«آلاتاغ» و«سياه كوه». وقد تقدمت تبريز في عهد سلطنته ووزارة شمس الدين تقدماً عظيماً، وساعد على ذلك أن هذه المدينة ظلت سالمة من ضربات العهد المغولي وغاراته التي أصيب بها غيرها من بلاد إيران وبلاد ما وراء النهر.

= كانت لأنّ المؤلف اتصل بالمغول وتجول في مملكتهم وشاهد العارفين بأحوالهم، كما أنّه كان قد شاهد بنفسه حوادث كثيرة، وحصل على كتب علمية مهمة حين القضاء على الإسماعيلية في ألموت وحكى ذلك. طبع هذا الكتاب في ليدن سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١م) في مجلدين، وفي إيران في مجلد واحد.

(١) وذكروا أنّ عائداته من أملاكه كانت عشرة آلاف دينار يومياً.

(٢) قامت بعض الدسائس على علاء الدين عطا ملك فكتب إليه أخوه شمس الدين محمد يدعوه أن يتنبه للأمور ولا يغفل وكان فيما كتبه إليه هذين البيتين:

كـم لي أنبـه مقـلة مـن نـائـم ... يبـدي سبـاتـاً كـلّمـا نبـّهتـه
فكـأنـك الـطفـل الصغيـر بمهـده ... يـزداد نـومـاً كـلمـا حـركتـه

سياسة أباقا خان

كان «أباقا خان» بوذيّاً. ومع ذلك كان يميل إلى النصرانيّة. وذلك بسبب تربيته، إذ كانت أمه «دوقوز خاتون» نصرانيّة[1] وكان أبوه «هولاكو» قد طلب، وهو في أواخر عمره، من «ميخائيل بوليبولوغوس» أمبراطور الرّوم الشرقي (٦٥٨ ـ ٦٨١ هـ) أن يزوجه بإحدى بناته. فأجابه الأمبراطور إلى طلبه، وبعث إليه من القسطنطينيّة بابنة له اسمها مريم مصحوبة ببضعة أشخاص وشيء من الهدايا. فلمّا وصلوا إلى «قيسارية» من بلاد الأناضول مات «هولاكو». وإذ صعبت عليهم العودة إلى القسطنطينية تابعوا سيرهم إلى إيران، وعقد «أباقا» قرانه عليها. واشتهر أنّه تعمّد قبل الزواج وتنصّر.

وهذان العاملان، تربيته السّابقة ثمَّ زواجه بابنة أمبراطور الرّوم الشرقي، جعلا «أباقا» يزداد ميلاً إلى المسيحيّين يوماً بعد يوم. وغدا رجال الدّين النّصارى موضع العناية والاحترام في بلاطه. وإذ كانت الخصومة والمنافسة على أشدّها بين إيلخاني إيران المغول وبين سلاطين الشام ومصر المسلمين (المماليك) بعد انكسار المغول في معركة «عين جالوت» فقد استغل النّصارى هذا الوضع، ووضعوا أنفسهم في خدمة المغول يعملون على تقدّم الإليخانيّين وإضعاف مسلمي مصر والشام، أعداء الصليبيّين. وكان المغول أيضاً يعدّون

---

(١) مما يذكر أنّ بنت أبقا كانت بعد ذلك مسلمة. قال في (تاريخ العراق بين احتلالين) ص٤٨٠ من المجلد الأول: في هذه السنة ذهبت الملكة بنت أبقا واسمها قطلود في خدمتها عدة كثيرة من التتر إلى الحج ورسم السلطان ورتب لها في الطرقات الإقامات الوافدة. سمّاها صاحب الدرر الكامنة «يلقطو» وهي عمّة غازان. كانت جيدة الإسلام كثيرة المناصحة للمسلمين وكان يقال لزوجها عرب طيء ولما قتل ركبت بنفسها فقتلت قاتله. وخطبها الأفرم وهو نائب دمشق فهرت رسله وامتنعت بعد أن كان بذل لها حمص وبلادها مهراً. وحجت سنة ٧٢٣ هـ في تجمل زائد، فيقال تصدقت في الحرمين بثلاثين ألف دينار، وكانت تركب بالجتر وتتصدق في طول الطريق ودخلت دمشق فتلقاها تنكز وبالغ في إكرامها ورجعت إلى بلادها إلى أن ماتت سنة ٧٢٣ هـ.

أقول: في هذه العبارات غموض لم أهتد إلى حله، منه: عبارة (عرب طيء)، ومنه (الجتر). أما كلمة (هرت) فقد جاء في لسان العرب: هرت عرضه وثوبه مزقه وطعن فيه.

وجود هؤلاء ضرورياً لهم، ورأى «أباقا» أنَّه يستطيع أن يدعم به سياسته في مقابل مسلمي الشام ومصر، وجعلهم أكثر من مرّة واسطته إلى البابا وملوك أوروبا لوضع مشروع إتحّاد بينه وبينهم ضدّ ملوك المسلمين.

وفي سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) تلقّى «أباقا» من البابا «كليمنت الرابع» جواباً على رسالة كان قد بعث بها إليه، يرجوه في هذا الجواب أن يكتب إليه بالحرف اللاتيني ليستطيع فهم ما يكتب، وكانت رسالة «أباقا» مكتوبة بالحرف «الأويغوري»[1]. وفي جواب البابا ذكر له أيضاً ما قام به النّصارى من عمليات مضادّة لخصوم «أباقا»، ووعده بأن يقوّيه بمساعدة ملوك أوروبا له في حربه ضدّ المسلمين.

وبعد سنتين اجتمع مندوبون من قبل «ميخائيل باليوغوس» ومندوبون من قبل «أباقا خان» بملك ولاية «أراغون» في مدينة «بلنسية» من إسبانيا، وطلبوا منه أن يتّفق وسائر ملوك النّصارى فيجهّز عساكره لمحاربة المسلمين، وذلك تحقيقاً للوعد الّذي وعده البابا، فسمع ملك «أراغون» لهم، وعزم ـ على شيخوخته ـ أن ينهض إلى الحرب. ولكن جماعة من منستبصري أمراء إسبانيا صرفوه عن هذا العزم، وذكّروه بخيانة الرّوم الشرقيّين وقساوة قلوب المغول.

وبعد عودة «أباقا» من محاربة «براق» ـ وسيأتي ذكر ذلك ـ عزم إيلخان إيران مرّة ثانية، بتحريض من ملك أرمينيا الصّغرى، على مذاكرة ملوك أوروبا في هذا الموضوع ومحالفتهم، إذ كان الملك الأرمني يريد استخراج بيت المقدس من قبضة المسلمين بأيّ نحو كان.

وأرسل «أباقا» سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) وفداً من ستّة عشر رجلاً إلى بلاد الفرنجة، يوم كان ينعقد في مدينة «ليون» من فرنسا مجمع نصراني بأمر من البابا «غريغوار العاشر». وقد حضر أعضاء هذا الوفد جلسات المجمع.

---

(١) نسبة إلى «أويغور» إحدى قبائل المغول. أنشأوا دولة قوية متمدنة في تركستان الشرقية في منتصف القرن الثاني الهجري. تنصر فريق منهم على يد مبشرين قدموا إليهم من إيران. وكان تنصرهم سبباً في دخول إحدى شعب الخط السرياني إليهم، فأخذ هذا الخط ينتشر شيئاً فشيئاً بين النصارى منهم حتى كتبوا لغتهم التركية به، وعرف بالخط الأويغوري.

وعُمّد اثنان تتريّان منهم بأمر من البابا. وهذا كلّ ما حصل عليه الوفد من هذه المهمة، إذ أنّ نجاح المسلمين المطرد ووهن عزم الصليبيّين في محاربتهم، جعلهم لا يصغون إلى توقع «أباقا» تجييش جيش منهم لغزو الشام ومصر. وأرسلت إلى «إدوارد الأوّل» ملك الإنكليز رسالة كتبها «أباقا» إليه، فلم يحرّك ساكناً واعتذر بأنّه لا يستطيع في هذه الحالة أن يبعث بجيش لاستخلاص بيت المقدس.

وبعد سنتين من ذلك التاريخ، وكان في منصب البابويّة يومئذ البابا «يوحنا الواحد والعشرون»، بعث «أباقا» برسولين إلى مدينة روما يدعوان النّصارى إلى استرداد بيت المقدس وفلسطين من يد المسلمين، ويعدانهم بمساعدة «أباقا» لهم. وكان هذان الرّسولان من نصارى الكرج[1] وقد أبلغا إلى البابا أنّ «أباقا» و «قوبيلاي قاآن» يرغبان في التنصر. فأرسلهما البابا إلى ملوك فرنسا وإنكلترا ليعرضا عليهم هذه المطالب. وقرر أن يرسل إلى الشرق بعثة تتألف من خمسة رجال دين للتبشير بالنصرانيّة.

ولكنه توفي قبل تحقيق قراره في سنة ٦٧٦ هـ. واكتفى خليفته البابا «نيقولا الثالث» بأن أرسل، بعد سنة من ذلك التاريخ، كتاباً إلى «أباقا» و «قوبيلاي»، يظهر فيه سروره بمساعدتهما للنصارى.

وكان «أباقا خان» يحرص على أن يعامل جاثليق نصارى بغداد «يوحنا دنحا» بمنتهى الاحترام والإنعام، ومن ثمّ كان لهذا الجاثليق يومئذ نفوذ فوق العادة.

وفي سنة ٦٧٨ هـ جاء إلى العراق رجلان من نصارى «أويغور» في طريقهما إلى زيارة بيت المقدس. فعين «يوحنا دنحا» أحدهما لخلافته في الصّين وسمّاه «جبلّها». ولكن الجاثليق توفي في ذلك الوقت فنصب «أباقا» «جبلّها» في مكانه جاثليقاً على بغداد، وعين رفيقه، واسمه «برصوما»، خليفة له على مملكة «الإيغوريّين».

---

(١) الكرج: هم سكان البلاد المعروفة اليوم باسم جورجيا.

وكانت نتيجة سياسة «أباقا» هذه أنّه قضى مدّة حكمه في السعي إلى الحصول على مساعدة البابا وملوك أوروبا للقضاء على الإسلام، وطرد ملوك مصر والشام المسلمين منهما، أولئك الملوك الّذين كانوا يسدّون على الصليبيّين وقادة المغول طريق التقدم. ومن جهة أخرى كان «أباقا» يدفع بسياسته هذه مسلمي إيران والعراق إلى النفور منه وتوجيه قلوبهم إلى موالاة سلطان مصر، إذ يرونه المدافع عن الإسلام. وكان لهذا الأمر أثر كبير في خيبة «أباقا» وقصوره عن بلوغ غاياته.

حروب «أباقا»

في أوائل حكم «أباقا خان» بعث «بركاي» بن «جوجو خان» أحد منافسي «هولاكو»، وكان يحكم «دشت قبجاق» بفرقة من عسكره عن طريق دربند القفقاس، وعلى قيادتها قائد اسمه «نوقاي» لمهاجمة «أرّان» وآذربيجان، وكان «أباقا» قد عاد قبل مدّة قليلة من مشتاه في مازندران إلى تبريز فتلقى أخوه يشموت الجيش المهاجم بالحرب وكسره في ٢٠ صفر سنة ٦٦٤ هـ. فلمّا بلغ خبر هذه الهزيمة إلى «بركاي» سار بنفسه بجيش من ثلاثمائة ألف جندي فاجتاز بهم «دربند» إلى ضفاف نهر «كورا». وأسرع «أباقا» إلى ملاقاته. ولكنه، إذ تبين أنّ «بركاي» قوي، انصرف إلى بناء استحكامات في نواحي نهر «أرس» و«كورا»، وتقدم «بركاي» فاحتلّ بلاد «أرّان» و«كرجستان» حتّى بلغ إلى «تفليس». وهناك أصيب بمرض القولنج ومات. وتراجع عسكره بدون حرب. وعمد أهل الحدود هناك إلى سدّها في وجههم خشية أن تتجدد الحملة الّتي حملها سابقاً مغول «دشت قبجاق» على تلك النّواحي، وأقاموا عليها حراساً من عسكر المغول والمسلمين.

وفي سنة ٦٦٦ هـ. كان «مسعود بيك» بن «محمود يلواج» حاكماً على ما وراء النّهر[١] من قبل «براق خان» ملك «اولوس جغتاي». وفي هذه السّنة

(١) كان نهر جيحون يعد الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والناطقة بالتركية. أي: (إيران)

بعث به «براق خان» سفيراً من قبله إلى «أباقا خان»، ليبلغ إليه ما عنده من مشاعر الصّداقة والمودّة نحوه. هذا في الظاهر. وفي الباطن كانت غايته الاطّلاع على مقدار عسكر «أباقا» ومعرفة الطّرق الّتي تصل ما وراء النّهر بخراسان، إذ كان «براق» قد عزم على غزو خراسان وآذربيجان واستخلاص تلك النّواحي من يد «أباقا».

وعبر «مسعود بيك» نهر «جيحون» محترماً كلّ الاحترام ودخل إلى خراسان. وأمر «أباقا» الأمراء والعمال من عسكريّين ومدنيّين باستقباله استقبالاً لائقاً. وترجل الوزير «الخواجة شمس الدّين محمّد» عن حصانه وتقدّم إليه فقبّل ركابه. وقال له «مسعود بيك» مستخفّاً: إن تكن أنت صاحب الدّيوان فإنّ اسمك أحسن من شخصك، وعلى هذا النحو أخذ يحدّث ذلك الرجل العظيم مستكبراً مستعلياً. فلم يجبه «الخواجة شمس الدّين»، وهو ذلك الرجل العالم العاقل المتحفّظ، بشيء وازداد تواضعاً له منتظراً الفرصة المناسبة. وأكرم «أباقا» مثوى «مسعود» وأجلسه على دست فوق جميع الأمراء وألبسه لباس «جنكيز خان» وهيّأ على شرف مقدمه كثيراً من أسباب السرور.

وأدّى «مسعود بيك» رسالته بكلّ مهارة، وجعل «أباقا» ينخدع بصداقة «براق». ولكنه تبيّن أنّ بعض المقرّبين من «أباقا» يسيئون به الظّن، فسارع إلى الاستئذان في العودة، وجد في السير حتّى بلغ ضفّة «جيحون» في مدّة أربعة أيّام.

= و (توران). فما كان في شماله، أي وراءه، من أقاليم، سمّاه العرب (ما وراء النهر) (وهو نهر جيحون).

ويمكن تقسيم هذه البلاد إلى خمسة أقاليم، أجلها شأناً كان (الصُغْد) مع قصبتيه بخارى وسمرقند. وفي غرب الصفد: خوارزم، وهو الإقليم المعروف اليوم بـ(خبوة)، ويشتمل على دلتا جيحون. وفي الجنوب الشرقي: (الصغانيان) ومعه (الختّل) وغيرهما من الكور الكبيرة في أعالي نهر جيحون. وإليه أيضاً تعود (بذخشان) وإن وقعت في ضفته اليسرى أي الجنوبية، فإنّ المنعطف الكبير للنهر فيما وراء (طخارستان) يكاد يطوقها. ثم إقليما نهر سيحون، وهما (فرغانة) في أعلى النهر، واقليم الشاش، (وهو اليوم طشقند مع النواحي التي في الشمال الغربي الممتدة على مصب سيحون في مناقع بحر أرال).

وبعد يوم من رحيل «مسعود بيك» عن خراسان وصل إلى «أباقا» خبر بأنّ «براق» يهيىء حملة إلى خراسان، وأنّ «مسعود بيك» كان جاسوساً له. فبادر «أباقا» إلى إرسال أناس يتعقّبونه ولكنه فاتهم فلم يتمكّنوا من اعتقاله، ووصل إلى «براق» سالماً وروى له مشاهداته.

وكان لـ«براق» أخ في خدمة «أباقا» اسمه «تكودارْ أُغول»، يقيم في نواحي «أرارات» و«أرس» وحدود «نخجوان». فقرر «براق» أن يدعو اخاه هذا إلى محالفته وأن يتعاونا معاً على السعي إلى القضاء على «أباقا» بجيش مشترك بينهما. وقبل أخوه بهذا الاقتراح، وسار عسكر الأخوين من حدود خراسان وآذربيجان يغزو ممتلكات «أباقا»، ووقع هذا في مأزق شديد.

وبعث «أباقا» بأخيه «يشموت» إلى خراسان وسيّر رسلاً إلى كلّ النواحي لجمع العسكر، وسار هو إلى آذربيجان. وحين علم «تكودار» بتحرك «أباقا» تراجع نحو «كرجستان». فسيّر إليه «أباقا» جيشاً يقوده «شيرامون تويان» أحد مشاهير قوّاده، فتغلّب على «تكودار» ولجأ هذا إلى «داود» ملك «كرجستان» وأراد أن يتوسّل إلى محالفته بتزويجه من ابنته. ولكنّه تبيّن أن «داود» ورجاله من الكرجيّين يفكّرون في قتله، فعدل عن اللجوء إليه وبعث برسل من قبله إلى «أباقا» يطلبون منه العذر. وفي شوال سنة ٦٦٧هـ أسره «أباقا» وقتل من أفسده من أمرائه، وبذلك قضى على هذه الفتنة.

وبعد أن استراح «أباقا» من «تكودار» انصرف كليّاً إلى صدّ «براق». وكان هذا قد عبر «جيحون» بجيش عظيم يقوده قوّاد متمرّسون بالحرب، وهاجم خراسان.

واستولى «براق» على خراسان بسهولة، وأصبحت النواحي الممتدة من «بدخشان» إلى «مرو» و«نيسابور» خاضعة لحكمه. ودخل في طاعته الملك «شمس الدّين كرت» ليحفظ نواحي حكمه من أذاه. ووعده «براق» بأن يضمّ حكومة خراسان إلى ما يحكمه ملوك «كرت» من بلاد، إن هو ناصره. فقبل الملك «شمس الدّين» بذلك مضطراً. ولكنه لمّا سمع أنّ «أباقا» يتقدّم نحو

خراسان ذهب إلى قلعة كانت ملجأ له، وأقام فيها حتّى يتبيّن له من هو المنتصر في هذه الحرب.

وسار «براق» في سنة ٦٦٨هـ من آذربيجان متجهاً نحو خراسان. وأقام على حفظ «دربند» القفقاس أربعين ألف جندي من المغول والمسلمين. والتحق به، وهو في طريقه إلى خراسان، السلطان «مظفر الدّين حجّاج» أمير «كرمان». وسار «أباقا»، ومعه أخوه «يشموت» وابنه الأكبر «أرْغون» إلى «باد غيس» سالكاً طريق «باخرز» و«فارياب». فلمّا وصلها بعث إلى «براق» يقترح عليه الصلح. ولكن «براق» توهّم أنّ «أباقا» يريد العودة إلى آذربيجان، فلم يصغ إلى اقتراحه وكرّ على عسكره في ذي الحجّة سنة ٦٦٨هـ، وقامت بين العسكرين حرب شديدة على بعد خمسة فراسخ من «هرات»، انتهت بانهزام «براق» ففرّ إلى ما وراء النّهر. ونجا «أباقا» من شرّ هذا العدو القويّ أيضاً، وعادت خراسان مرة ثانية في أمرته، وعهد بحكومتها إلى أخيه.

وبعد عودة «براق» إلى ما وراء النّهر اعتنق الدّين الإسلامي في مدينة «بخارى» واتخذ لنفسه لقب «السّلطان غياث الدّين». ثم لم يلبث أن فلج لما قاساه من شدائد ومشقّات. ولجأ إلى «قيدو» حفيد «أوكتاي قاآن»، وكان مستولياً على الممالك الواقعة في تلك النّاحية من «سيحون»، ويدّعي لنفسه رياسة المغول، منافساً لـ«قوبيلاي قاآن». وقد ساعد «براق» في محاربته «أباقا». وهناك مات «براق» مسموماً. وبعد هزيمته هذه تركه «مسعود بيك» وفرّ إلى معسكر «قيدو» أيضاً.

حروب «أباقا» والمسلمين

بعد موت «هولاكو» سار ملك مصر «الظاهر بيبرس البندقداري» بجيش عظيم من مصر إلى الشام. وفي سنة ٦٦٤هـ استولى على تلك البلاد ووصل إلى حدود «أرمينيا الصّغرى» (كليكيا والنواحي المجاورة لها)، وهي يومئذ يحكمها الملك «هيتوم» الأرمني. وكان هذا الملك قد سبق أن ساعد خانات المغول واحتلّ بعض أراضي المسلمين الواقعة في أطراف ملكه، واتّخذ مدينة

«سيس» عاصمة له. وذلك يوم كان المسلمون تشغلهم الحروب الداخلية ومجاهدة الصّليبيّين.

فطلب «بيبرس» من «هيتوم» الجلاء عن بلاد المسلمين، وفتح طريق التّجارة بين «أرمينيا الصّغرى» وبلاد الشام في مقابل أداء ضريبة. فرفض «هيتوم» طلبه، إذ كان معتمداً على «أباقا» ويعدّ نفسه تابعاً له. وعندئذ حمل جيش «بيبرس» على أرمينيا. وغادر «هيتوم» أملاكه مسرعاً إلى آسيا الصّغرى حيث كان المغول ليستعين بأمرائهم على دفع «بيبرس» عن مملكته. وتولّى أبناؤه وإخوته وأمراء جيشه محاربة جيش الملك الظاهر.

ولكن أمراء المغول امتنعوا عن مساعدة «هيتوم» بحجة أنهم لم يتلقوا أمراً من «أباقا» بذلك. فاضطر «هيتوم» أن يطلب العون من الإيلخان رأساً. وقبل أن يصل جواب طلبه كان جيش «بيبرس»، وعلى قيادته «الملك المنصور» ملك حماه و «سيف الدّين قلاوون»، قد احتلّ أملاك «هيتوم» بأسرها وأغار على بلاده بالسلب والنهب.

وقتل في هذه المعركة «طوروس» بن «هيتوم» وأخ لـ«هيتوم» وأسر ابن آخر له اسمه «ليون» وقتل أيضاً كثير من رجاله وأبناء أخيه. وهدموا عاصمته «سيس» وظلّوا يعملون في بلاده قتلاً ونهباً مدّة عشرين يوماً عادوا بعدها إلى الشام.

أمّا «هيتوم» فقد جمع جيشاً من المغول والسّلاجقة الرّوميين[1] (وهم مسلمون)، تحمّل في جمعه مشقّة عظيمة، وجاء به إلى «كيليكيا». ولكن هذا الجيش لم يفده بشيء، إذ كان المسلمون قد ذهبوا، وبلاده عادت خراباً ورجاله بين قتيل وأسير. فهدّه العجز واستولى عليه خوف واضطراب شديدان.

---

(١) أي السلاجقة الذين كانوا يحكمون في آسيا الصغرى، وكان المسلمون يعرفونها يومئذ باسم (بلاد الروم). وهؤلاء السلاجقة كانوا قد دخلوا في طاعة المغول، إذ أرسل ملكهم (علاء الدين كيقباد) في سنة ٦٣٠ هـ سفيراً من قبله إلى أحد رؤساء المغول (أوكتاي قاآن) يقول له إنه يضع نفسه في خدمتهم. وذلك ليستعين بهم على محاربة الملك الأشرف الأيوبي. وبالفعل لم يلبث علاء الدين هذا أن قام بعد ذلك بالهجوم على الملك الأيوبي وأخذ منه مدينة (أخلاط).

فلم يجد بداً، وهو على هذا العجز، من أن يتوجّه إلى «بيبرس» ويلتمس منه إطلاق ابنه «ليون» من الأسر. فأجابه «بيبرس» على طلبه برسالة قال فيها إنّ غايتنا من الحرب لم تكن الحصول على المال والنّوال. وقال: لقد أخذ «هولاكو» في حلب أحد أصدقائنا ومريدينا أسيراً، وهو شمس الدّين سنقر الأشقر السمرقندي، فإن كان «هيتوم» يريد أن نطلق نحن ابنه من الأسر، فعليه أن يطلب من المغول إطلاق «سنقر» لنطلق نحن في مقابل ذلك ابنه.

فذهب «هيتوم» بنفسه من أرمينيا إلى معسكر «أباقا خان»، واستخرط على أعتابه بالبكاء والأنين، يلتمس منه بإلحاح أن يسعى إلى الإفراج عن «سنقر». فرحم «أباقا» شيخوخته وقلّة حيلته، وأمره بالعودة إلى مملكته، ووعده بأن يطلب «سنقر» أينما كان ويبعث به إليه.

كانت حكومة ممالك الرّوم، أي بلاد آسيا الصّغرى (الأناضول)، يديرها يومئذ «معين الدّين سليمان بن عليّ بروانه». وهذا كان في أوّل أمره وزيراً للسّلاطين السلجوقيّين الرّوميين. فلمّا قدم المغول دخل في طاعتهم، فنصبه «هولاكو» ثم «أباقا» حاكماً على تلك الممالك.

وقبل أن يغادر «هيتوم» معسكر «أباقا» عائداً إلى بلاده كان رسوله السّابق إلى بلاط «أباقا» قد وصل إلى بلاد «معين الدّين» هذا عائداً من رحلته. وكان «معين الدّين» يرغب في الزوّاج من بنت «هيتوم». فلمّا اجتمع بهذا الرسول باحثه في هذا الأمر. فقال له الرسول إنّ «هيتوم» لن يستنكف عن إجابته إلى طلبه إن هو أحسن استقباله حين يعود من رحلته. فعمل «معين الدّين» برأيه واستقبل «هيتوم» بالتجلة والاحترام وقدّم إليه هدايا، وبالغ في ذلك على نحو جعل «هيتوم» يتعجّب من عظمة هذا الاهتمام وهذه الملاطفة. فلمّا اطلع على ما في نفس «بروانه» أظهر الرضا ولكنه جعل إجراء العقد مرهوناً بإطلاق ابنه «ليون» من الأسر. ثم ذهب إلى أرمينيا.

ولكن بنت «هيتوم» الّتي صارت خطيبة «براونه» في الظاهر لا في الواقع لم تلبث أن ماتت بعد ذلك بقليل. وكان «براونه» قد عرف بتظاهر «هيتوم»

بغير ما يبطنه وأنّه كان يتعلّل بقضيّة ابنه ليمطله. فاستاء من ذلك وحقد على «هيتوم».

وأراد أن يستقلّ بادارة المملكة فقتل الملك السلجوقي «ركن الدّين قيلج ارسلان» ابن الملك «غياث الدّين كنجسرو» في سنة ٦٦٦هـ، وأقام ابنه وهو في الرابعة من عمره في مقامه، وساعده على ذلك أمراء المغول.

وفي سنة ٦٦٩هـ بعث «أباقا» بـ«سنقر الأشقر» وكان في نواحي سمرقند، إلى «هيتوم»، فأرسله هذا إلى «بيبرس» مصحوباً بالاحترام والهدايا النّفيسة. وفي مقابل ذلك بعث «بيبرس» «ليون» إلى أبيه على هذا النحو.

وكان «هيتوم» قد عقد و«بيبرس» معاهدة تقضي بأنّه بعد تسليم «سنقر» وتسلم «ليون» يدخلان في السّلم ويسلم «هيتوم» إلى «بيبرس» بعض القلاع الّتي يستولي عليها، وأن يكون نهر «جيحان» الحد الفاصل بين بلاده وبين ممالك المسلمين. فلما تم تبادل الأسيرين وفى «هيتوم» بما عاهد عليه.

وأمر «هيتوم» ابنه «ليون» بالسفر إلى بغداد ليلقى «أباقا» ويشكر له سعيه في إطلاقه، وأن يذكر له التماساً من أبيه أن يعفيه من الحكم لشيخوخته وينصّب «ليون» في مقامه. وقد أجابه «أباقا» إلى طلبه وأصبح «ليون» خليفة أبيه.

وقد أوقع الملك «الظاهر بيبرس» بالصليبيّين كثيراً من الهزائم في عدّة من الحروب استمرت من سنة ٦٦٦هـ إلى سنة ٦٧١هـ. وأصبح في نتيجة هذه المجاهدات من مشاهير سلاطين الإسلام، وداخلت هيبته وخشيته سلاطين حدوده كلّهم، ومنهم «أباقا» وأمبراطور القسطنطينية و«منكو تيمور» ملك خانات «القبجاق». ويوم كان «بيبرس» في دمشق سنة ٦٦٨هـ أتته رسل من هؤلاء الملوك الثلاثة. وكتب إليه «أباقا» رسالة حذّره فيها من سطوته. فأجابه «بيبرس» برسالة قال فيها إنّ سلطانه قائم بتصديق وإجماع من المسلمين، وأنّه لا يخشى سطوة «أباقا»، وهو حاضر لملاقاته ملاقاة يسترد بها المسلمون من قبضة المغول ما فقدوه.

وكان «أباقا» منذ توليه السلطان يفكر بغزو الشام ومصر، والأخذ بثارات «عين جالوت»، حيث سبق أن انهزم المغول. ولكن هجوم «براق» حال بينه وبين إنفاذ خطّته هذه كما مرّ.

وفي سنة ٦٦٦هـ غزا «بيبرس» أنطاكية، وكانت في حكم أمير طرابلس الشام الصليبي. بجيش جرّار ففتحها وأوقع بأهلها القتل والأسر. وإذ كانت حملة لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في ذلك التاريخ قد انتهت بانكسار الصليبيين أيضاً، فقد قويت عزيمة «بيبرس» على طرد الصليبيّين من الشام، وأصبح الصليبيّون آيسين لا يرون لهم حيلة إلاّ استنجاد «أباقا» وأن يطلبوا من المغول دفع «بيبرس» عنهم.

فأمر «أباقا» بأن يسير القائد المغولي بعسكره في بلاد الرّوم (الأناضول) ومعه «معين الدّين بروانه» بجيش من عشرة آلاف جندي تقريباً إلى الشام. فأغاروا في سنة ٦٦٩هـ على البلاد الواقعة في شمالي حلب. وكان «بيبرس» يومئذ في دمشق.

فاستدعى جيشاً من مصر. ولكن المغول عادوا وتراجعوا حين وصول ذلك الجيش. فبعث «بيبرس» جماعة من عسكره إلى «الرها» و«حران» فاحتلتهما بسهولة. وذهب المغول الّذين كانوا يقيمون في «حران» بين قتيل وأسير. ولكن المغول عادوا فاحتلّوا هذه المدينة بعد سنة من ذلك التاريخ، وأوقعوا بأهلها قتلاً عامّاً، وظلّت خراباً من ذلك اليوم.

وأوقع «بيبرس» هزيمة شديدة بجماعة من عسكر المغول جاءت إلى الشام مدداً للصليبيّين، واشتد في تعقّب الصليبيّين منهم خاصّة. وإذ أصبحت قوّته تزداد يوماً بعد يوم، فقد اضطر «معين الدّين براونه» وقائد الجيش المغولي في بلاد الرّوم إلى طلب الصلح منه. فبعث «بيبرس» إليهما باثنين من أمراء جيشه لعقد معاهدة المصالحة. وهما بعثا بالرسولين إلى «أباقا» للمفاوضة.

وفهم «أباقا» من المذاكرات الّتي جرت بينه وبين الرّسولين أنّ «منكوتيمور» بن «بركاي خان» ملك «دشت قبجاق»، وكان مسلماً كأبيه، قد

وضع يده في يد «بيبرس»، وأنّ هذين الملكين اللّذين يتبعان ملّة واحدة، قد عقدا العزم على مخاصمته. وأن القصد من هذا التحالف هو تعطيل أساس الصّداقة القديمة الّتي عقدها إيلخانيّو إيران بينهم وبين الصليبيّين والأرمن وأمبراطور روما الشرقية، ولا سيّما أنّ «منكوتيمور» كان ينافس الإيلخانيّين وينافس أيضاً أمبراطور روما الشرقي، فرأى أنّ الصّلاح في محالفة «بيبرس»، إذ هو مثله مسلم وعدو الصليبيّين وعدو «أباقا».

وبعث «أباقا» بسفراء من قبله إلى «بيبرس» وطلب منه إرسال «سنقر الأشقر» إلى بلاط «الإيلخان» للمفاوضة. ولكن السفراء غيّروا مضمون هذه الرّسالة وقالوا لـ«بيبرس» إنّ «أباقا» يطلب أن يحضر سلطان مصر بنفسه، أو يبعث بمقدّم أمرائه، إلى بلاطه للمفاوضة في شروط الصّلح. فأجابهم «بيبرس» بأنّ الأنسب أن يحضر «أباقا» أو أحد إخوته إلى الشام لتدبير هذا الأمر، إذ أنّه هو الّذي طلب المصالحة. وفي أثناء ذلك أمر بأن يقوم عسكر المسلمين بإعداد التجهيزات الحربية في خارج دمشق، ويتهيّأوا للحرب.

وقعة «البيرة»

وبعد ذلك بقليل، أي في سنة ٦٧١ هـ أغار عسكر المغول على ضفة الفرات العليا وحاصروا قلعة «البيرة» وقلعة «الرحبة». فبعث أهالي «البيرة» خبراً بذلك مع حمام الزاجل إلى حمص وحماه، وطلبوا منهما نجدة. فبادر «بيبرس» مسرعاً إلى إنجادهم وحمل معه سفناً وسار نحو الفرات، وبعث بعض قواده مع فرق من الجنود المجربين إلى مختلف الجهات لصد المغول عن التقدم. وكان المغول قد قطعوا معابر الفرات، وأقاموا على شاطئه الذي يليهم استحكامات من الخنادق الحربية، فأصبح عبوره صعباً على عسكر «بيبرس». ولما وصل «بيبرس» إلى الفرات ألقى بالسفن في الماء وأركب فيها قسماً من جنوده ليجتازوا النهر إلى الضفة المقابلة. وأخذ المغول يطلقون عليهم السهام من الضفة المقابلة، وشبّت بين العسكرين معركة شديدة، ثم استطاع قائد «بيبرس» المحنك «سيف الدين قلاوون» أن يقطع النهر، فهجم

بجنوده على المغول وهزمهم. وعبر سائر عساكره الماء على ظهور الجياد. وكانوا يطلقون السهام وهم يمسكون بأعنة الخيل، و«بيبرس» في مقدمتهم.

واستولى عسكر المسلمين على معسكر المغول وأنقذوا «البيرة» منهم. ثم صلّوا ركعتين شكراً لله على هذا الفتح الذي يعد من الوقائع المهمة في تاريخ الإسلام، وإيذاناً بنجاة الشام من هجوم المغول. وعادوا إلى الشام بغنائم وافرة. ورجع «بيبرس» إلى مصر بمنتهى الجلال والعز.

إلا أن عساكره في الشام لم يكفوا عن تعقب الأرمن فقاموا بحملة أخرى على بلاد «ليون» وعاودوا استباحة «كليكيا» مرة ثانية، وفرّ «ليون» من وجههم.

وحين كان عسكر «بيبرس» مشغولاً بالحرب في بلاد «ليون» وصل خبر بأنّ «أباقا» عازم على غزو الشام بنفسه. فأوقع ذلك اضطراباً بين أهل الشام وفر كثير من الناس من ضفة الفرات اليمنى إلى دمشق وغيرها. وقدم «بيبرس» إلى الشام في سنة ٦٧٣ هـ، وإذ لم يظهر أثر من المغول، سار إلى مدينة «سيس» عاصمة «ليون» فغنم منها ثم عاد إلى دمشق.

وفي سنة ٦٧٤ هـ، عاود المغول محاصرة «البيرة» مرة اخرى، وأخذوا يضربونها بحجارة المنجنيق. فأسرع «بيبرس» إلى نجدة أهلها. ولكن المغول رجعوا عنها قبل وصوله إليها، فعاد «بيبرس» إلى مصر.

وكان «معين الدين بروانه» رجلاً ذكياً متطلعاً إلى المناصب العالية. وكان يبطن المودة لـ«بيبرس» بما هو مسلم، ويرائي بإظهار الصداقة لـ«ليون» ملك أرمينيا الصغرى و«أباقا» خوفاً من المغول. ومن أجل أن لا يرتاب به المغول جاء بنفسه إلى معسكر «أباقا» وحمل معه بنت السلطان «ركن الدين» السلجوقي زاعماً أنه إنما جاء بها ليزوجها من «أباقا» لكي لا يصار بها إلى «بيبرس»، وطلب جيشاً ليدفع به عن البلاد الرومية أميراً سلجوقياً كان قد عصى وحمل معه ملكها ابن السنوات الأربع، وسار «بروانه» بالجيش بمعية أخي «أباقا» إلى تلك البلاد فتغلب على الأمير العاصي وقتله، وأعاد الملك إلى منصبه، وكان الأمير العاصي ينوي حمله إلى مصر على ما زعم «بروانه». وقد زادت هذه الأمور في اعتبار «براونه» عند المغول.

وقعة «أبلستين»

في سنة ٦٧٥ هـ عزم «بيبرس» على غزو البلاد الرّومية، استجابة لدعوة فريق من الفارّين من تلك البلاد، واطمئناناً منه إلى معونة «بروانه». وسار من مصر بجيش جرار في ٢٠ رمضان من تلك السنة حتى وصل عن طريق حلب إلى حدود قلاع الشام. فبعث «ليون» ملك أرمينيا خبراً بذلك إلى «معين الدين بروانه». إلّا أن هذا صوّر الخبر لأمراء المغول بأنه كاذب وضللهم عن الحقيقة، فظلوا غافلين إلى أن عرفوا بوصول جيش «بيبرس» إلى محلة «أَبُلَسْتَيْن»(١). فسارع أمراء المغول و «بروانه» إلى تجهيز جيش ساروا به إلى ملاقاة «بيبرس»، وعلى قيادته «طوغون» بن «إيلكاي نويان» و «تودون نويان» أخو «سونجاق». وتغلب عسكر «بيبرس» على عسكر المغول يوم الجمعة العاشر من ذي القعدة سنة ٦٧٥ هـ في صحراء «أبلستين» وقتل «طوغون» و «تودون»، ونهبوا معسكر المغول وغنموا كثيراً وأسروا كثيراً. وكان بين الأسرى أحد أبناء «بروانه» وأحد أحفاده.

ثم سار «بيبرس» إلى «قيسارية» وأقام هناك ينتظر لعل «بروانه» يأتيه. ولكن إنتظاره كان عبثاً لأنّ «بروانه» فرّ يوم معركة «أبلستين»، بعد الهزيمة، إلى «قيسارية» ومنها إلى «توقات». وهو يفكر كيف يعتذر إلى «أباقا» من هذه الهزيمة. وعاد «بيبرس» إلى الشام بعد أن أقام في البلاد الرومية شهراً، إذ صعبت عليه وسائل الحصول على الطعام لجنده.

وفي هذا السفر عامل أهل تلك البلاد معاملة حسنة، وتحامى أن ينال أحداً من مسلميها أذى من جنوده. ولامهم، ولا سيما رؤساء العسكر السلجوقي، على مساعدتهم غير المسلمين، وقال أن غايته من غزو هذه البلاد هي تحريرها من أسر المغول، لا تخريبها.

وزاد خبر هزيمة المغول في «أبلستين» «أباقا» غضباً على غضب. فهي ثالث هزيمة يوقعها العسكر المصري والشامي بالمغول في مدة عشرين سنة.

---

(١) أو «أَبُلُسْتان» (البستان). واقعة في شرقي (قيسارية) بين جبال(طوروس) وأعالي نهر (جيحان).

وقد انكسرت شوكتهم بعد أن ظلت مصانة من الأذى إلى ذلك التاريخ.

ومن ثم بادر «أباقا» فوراً، حين وصله نبأ الهزيمة، إلى السير بنفسه نحو بلاد الرّوم حتى دخل ميدان معركة «أبلستين». وبعد أن ناح وتفجع كثيراً أمر بإحصاء قتلى المغول وإذ رأى أن عدد القتلى من عسكر «بيبرس» شيء قليل بالقياس إلى عدد القتلى من المغول ازداد غضباً وقتل جماعة من رؤساء الجيش السلجوقي. وكان «معين الدين بروانه» قد جاء إليه فلامه لوماً شديداً. فاعتذر «بروانه» بأن العسكر الشامي وصل على حين غفلة منا، فلم يتيسر لنا مجال لتهيئة وسائل الحرب.

وعمد الإيلخان إلى الانتقام فنشر عسكره بين قيسارية و«أرزن» الروم وأمرهم بقتل مسلمي تلك البلاد قتلاً عاماً. فأنفذوا أمره وقتلوا في مدة أسبوع مائتي ألف نسمة في رواية وخمسمائة ألف في رواية أخرى، وفيهم الأمراء والقضاة والعلماء، وخرَّبوا كثيراً من البلدان.

وكان «أباقا» ينوي تعقب «بيبرس»، ولكن أمراءه ثنوه ع ِ عزمه إذ رأوا أن لا صلاح في ذلك. فاكتفى الإليخان بإرسال رسالة تهديد إلى «بيبرس»، عد فيها تراجعه عن مقابلته جبناً، ووصفه باللص والثعلب. ووصلت هذه الرسالة إلى دمشق قبيل موت «بيبرس».

أما «بروانه» فقد جعله«أباقا» في أول الأمر موضع الإحترام وكتم غضبه عليه واصطحبه معه إلى معسكر «آلاتاغ». و هناك حاكمه بحضور قواده. فأثبتوا عليه ثلاثة ذنوب هي: أنه فرَّ من وجه العدو، ولم يعلم «أباقا» بزحف «بيبرس» لما بلغ إليه خبر ذلك، ولم يحضر عند «أباقا» بعد هزيمة «أبلستين».

هذا ولم يكن «أباقا» ينوي قتل «براونه». ولكن أبناء «تودون نويان» ونساء المغول المفجوعات ما زالوا به حتى أمر أحد أمرائه بقتله فقتله وقتل معه ستة وثلاثين من رجاله. وقطع المغول جسد «براونه» قطعة قطعة ويقال أنهم طبخوه في قدر وأكل كل منهم قطعة منه وأكل «أباقا» قطعة، شفاء لنفوسهم من الغيظ والغضب.

وأمّا الملك الظاهر «بيبرس» البندقداري فإنّه بعد رجوعه من بلاد الرّوم ما لبث أن توفي في ٢٧ محرّم سنة ٦٧٦ هـ في دمشق، بعد سبع وعشرين سنة من الملك، فاستراح المغول من خصم شديد القوى.

وأخفى أمراؤه موته عن العامّة، وحملوه إلى مصر متظاهرين بأه حيّ. ثم نصّبوا خليفة له ابنه «الملك السعيد بركة». ولكنه عجز عن مقاومة أمراء «بيبرس» المقتدرين، فجاء إلى الشام. وهناك سقط يوماً عن حصانه فمات. ونصّبوا مكانه أخاه وهو في السّابعة من عمره. وأصبح آلة في يد الأمراء، ولاسيّما الأمير «سيف الدّين قلاوون الألفي»، وهو من أشهر قوّاد «بيبرس» المجربين. فلم يمض على تنصيب الملك الطفل غير سبعة أشهر حتّى خلعه هذا الأمير واستولى على الملك في ٢٢ رجب سنة ٦٧٨ هـ واتّخذ لنفسه لقب «الملك المنصور» وأصبح ملكاً على مصر. وكان قد استشار قبل ذلك في هذا الأمر أبا العبّاس أحمد أحد أحفاد المستعصم، وحصل على رضاه.

وأبو العبّاس هذا هو حفيد أبي بكر بن المستعصم بالله العبّاسي آخر الخلفاء العبّاسيين. كان قد جاء إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ. وبعد أن حقق «بيبرس» في نسبه ثبت له صحّة انتسابه إلى المستعصم فنصّبه خليفة سنة ٦٦٠ هـ ولقّبه بالحاكم بأمر الله. ودامت خلافته بمصر إلى سنة ٧٠١ هـ إذ توفي فبويع ابنه.

وأُفتتح عهد «قلاوون» بمخالفة «شمس الدّين سنقر الأشقر» له وخروجه عليه في دمشق، إذ كان هذا يطلب الملك لنفسه، وقد جمع حوله جماعة واتّخذ لنفسه لقب «الملك الكامل» في نفس السنة التي جلس فيها «قلاوون» على تخت الملك.

وهزم «قلاوون» في سنة ٦٧٩ هـ «سنقر» ففرّ إلى البادية. وبعد مدّة قليلة أخذ يكتب إلى «أباقا» رسائل يحرّضه فيها على غزو الشام. وفي أثناء ذلك استطاع أن يتسلّط على بلاد اللاذقيّة وأنطاكية وصهيون من شمالي الشام. وفي سنة ٦٨٠ هـ اعترف «قلاوون» بملكيته على تلك النواحي.

واستجاب «أباقا» إلى دعوة «سنقر» فسار ومعه أخوه «منكو تيمور» بجيش من ثمانين ألف جندي إلى الشام وآسيا الصغرى. وتوجه «منكو تيمور» نحو عينتاب وحماه وحدود بلاد الرّوم، وتوجه «أباقا» نحو حدود الشام. وكان «قلاوون» يومئذ في حمص، فاستنجد بجميع أمراء بلاد الشام ومنهم «سنقر». وقد هبّ المسلمون من كل ناحية إلى نجدته، وجاءه أيضاً «سنقر» يبذل له العون.

ونشبت الحرب بين العسكرين يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠ هـ بالقرب من مدينة حمص. وقد انهزم جناح عسكر المسلمين الأيسر وتعقبّهم المغول إلى قرب حمص، وفرّ فريق منهم إلى دمشق. وثبت جناحهم الأيمن والقلب وأوقعا بـ«منكو تيمور» هزيمة شديدة وفرّ عسكر المغول. وكان «أباقا» مشغولاً بمحاصرة قلعة «الرحبة»، فلمّا بلغ إليه خبر الهزيمة فرّ بجنده أيضاً. وأصبحت وقعة حمص هذه رابع انتصارات المسلمين على المغول، بعد «أبلستين» و «البيرة» و «عين جالوت».

أسرة الجويني ومجد الملك اليزدي

إنّ التقدم الخارق الّذي أحرزه «صاحب الديوان شمس الدّين محمد الجويني» وابناؤه في دولة «أباقا خان»، وأخوه «علاء الدّين عطا ملك»[1] في حكومة بغداد والعراق، وما بلغوا إليه من شهرة وثروة، أغضب جماعة من الأعيان والمتنفّذين وعمال «أباقا»، وبعث في نفوسهم الحسد. فإنّ نفوذ أسرة الجويني قد حال بينهم وبين ما يشتهون من أن يكونوا مطلقي العنان مستقلين بالحل والعقد في شؤون الملك، أو، على الأقل، شركاء فيها. هذي الشؤون التي كان كل الخيار فيها بيد صاحب الديوان الكفيء ورجاله. وقد مرّ ذكر الخطّة التي وضعها «قرابوغا» ونائبه «إسحاق الأرمني» لإسقاط «عطا ملك الجويني». ونشرح الآن قصّة سعاية «مجد الملك اليزدي» لإسقاط هذه الأسرة. فهي من الوقائع الدّاخلية المهمة في ملك «أباقا خان».

وكان «مجد الملك» في أوّل أمره عوناً لأتابكة[1] «يزد». ثم دخل في

---

(١) قال صاحب الحوادث الجامعة عن علاء الدين عطا ملك: كان مولده في عاشر ربيع الأول سنة ٦٢٣ هـ ولي العراق إحدى وعشرين سنة وشهوراً، وكان عاد لأحسن السيرة أديباً فاضلاً جمع تاريخاً للمغول سماه (جهان كشا) وله رسائل جيدة وأشعار حسنة.

(٢) الأصل في كلمة أتابك: الوصي والمؤدب للأمراء الأتراك الذين كان يعهد بأمر الوصاية عليهم وتربيتهم نظراً لصغر سنهم في أيّام السلاجقة إلى كبار الأمراء. ثم توسع معناها فصارت تطلق على الأمراء الأقوياء. وفي عصر المماليك في مصر صار يطلق هذا اللقب على من يعهد إليه =

خدمة «بهاء الدّين محمّد» ابن «صاحب الديوان» وحاكم أصفهان، وتدرّج شيئاً فشيئاً حتّى صار من حاشية «صاحب الديوان» فقام هذا على رعايته وفوّض إليه أعمالاً مهمة، ولكن «مجد الملك»، بدلاً من أن يستقيم في خدمة هذه الأسرة والإخلاص لها شكراً منه على ما أنعمت به عليه، أسر في نفسه السوء لها وأخذ يسعى إلى إفساد أمورها، يربو في قلبه هوس إسقاط أسرة الجويني والحصول على مقام «صاحب الديوان».

وظل يتحين الذريعة إلى ذلك، إلى أن جرى يوماً حديث بينه وبين مجد الدين بن الأثير أخي المؤرخ المعروف عزّ الدّين بن الأثير. وكان مجد الدّين نائب «عطا ملك». وعلم منه «مجد الملك» أن «عطا ملك» يتحدث عن شوكة ملك مصر وسطوته وكثرة جنده[1]. فجعل هذا الأمر ذريعته إلى الإيقاع بـ«عطا ملك» وأخيه. وذهب عند أحد رؤساء المغول وقال له إنّ نائب «عطا ملك» على صلة بالمصريين، وأنّ «عطا ملك» وأخاه ينتظران قدوم العسكر المصري إلى العراق ليسلّما بغداد إلى المصريين. وأبلغ هذا الكلام إلى «أباقا» فأمر بجلد مجد الدّين بن الأثير لحمله على الإقرار. فجلد أكثر من خمسمائة جلدة. ولكن «أباقا» مع ذلك، لم يحصل منه على إقرار بتصديق تلك الدعوى، فسلمّه إلى «صاحب الديوان».

ومن أجل أن يدفع «شمس الدّين» شر «مجد الملك» عنه عمد إلى استمالته فنصبه حاكماً على «سيواس» وزاد في مخصصاته، وأعطاه مالاً ونوالاً كثيراً. ولكن «مجد الملك» دأب على هوسه القديم وما انفك يتحيّن فرصة أخرى ليضرب الأسرة الجوينية ضربة قاضية تستأصلها استئصالاً.

= بإمارة العسكر، ومن هنا لقب أتابك العسكر. ويقول القلقشندي في صبح الأعشى أنّ أتابك: أصله أطابك ومعناه الولد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقب بألقاب منها هذا. وقيل: أطابك معناها أمير أب، والمراد أبو الأمراء وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام.

(١) هذا يدل على ميول عطا ملك واتجاهاته هو واسرته إلى القوى الإسلامية المناوئة للمغول.

وفي أواخر سنة ٦٧٧ هـ كان «أباقا» قادماً من تبريز إلى خراسان. فلمّا وصل إلى قزوين استطاع «مجد الملك» أن يدخل على الأمير «أرغون» بن «أباقا» بتوسط أحد المقربين إليه. وفي هذا اللقاء قال «مجد الملك» للأمير إنّه ما زال منذ سنة يريد أن يحدث الملك بأمر هو عين المصلحة للملك وللدولة وإذ كان هذا الأمر مهماً وصاحب الديوان يحول دون إيصاله إلى مسامع «الإيلخان» فقد ظل غير قادر على إبلاغه إليه. وذلك أنّ «صاحب الديوان» قد اتفق سراً وسلاطين مصر والشام. وهو الّذي أغوى «معين الدّين براونه» فحالف «بيبرس» وتسبب في قتل أمراء المغول. ومع أنّ حاصل أملاكه التي حصل عليها من دولة الإيلخان يساوي حاصل الأملاك الديوانية، فإنّه يكفر النعمة. وأخوه «عطا ملك» مقيم في بغداد إقامة الملوك، ويضع على رأسه التاج المرصع. وقد خرجت ثروتهما وتمكنهما عن حد التعداد. ثم قال: وإذ كان «صاحب الديوان» يعلم أنّي مطلع على هذه الأسرار فقد أمر بإعطائي حكومة «سيواس» ومبلغاً من المال والنوال لكي لا أبوح بشيء من هذا الأمر، ويمضي هو في طريق الخلاف والكفر بالنعمة مطمئناً.

ونقل «أرغون» تقريرات «مجد الملك» هذه إلى أبيه. فأوصاه «أباقا» بكتمانها ووعد بأن يقوم بالتحقيق فيها وتدبيرها حين يفرغ من العمل.

وفي سنة ٦٧٨ هـ كان «أباقا خان» في «السلطانية». وهناك استطاع «مجد الملك» أن يدخل عليه بمساعدة الأمير «تغار» ونائبه «صدر الدّين الزنجاني». فروى له كل ما سبق أن قاله لابنه الأمير «أرغون». فغضب «أباقا» وأمر ببعث رسل إلى الولايات وإحضار وكلاء «صاحب الديوان» مع دفاترهم لفحص حساباتهم والتحقيق في بيانات «مجد الملك».

فلجأ «صاحب الديوان» إلى «أولجاي خاتون» زوجة «هولاكو خان» أم «منكو تيمور» ـ وقد تزوّجها «أباقا» بعد وفاة أبيه عملاً بسنّة المغول ـ يتشفع بها. فقامت بالوساطة لدى «أباقا»، فاستجاب لها وأمر بإرجاع نواب «صاحب الديوان» ورسله إلى مقر أعمالهم وأن لا يتعرّض لهم أحد بشيء، وجعل «صاحب الديوان» موضع العناية والعطف منه.

فلمّا رأى «مجد الملك» أنّ سعيه في هذه المرّة قد خاب أيضاً، التمس الحماية من «الإيلخان» وطلب جعله موضع عناية خاصة، وذلك خوفاً من انتقام «صاحب الديوان». فوضعه «أباقا» في حماية «تغاجار» وأمر بأن يظلّ ملازما للمعسكر الإيلخاني.

ولم يكفّ «مجد الملك» عن الدس على الأسرة الجوينية. وفي هذه المرة وضع يده في يد «صدر الدّين الزنجاني». وأخذ اعتباره يزداد شيئاً فشيئاً في حاشية «أباقا» حتّى بلغ إلى أن أصدر «أباقا» أمراً خاصاً بتعيينه مفتشاً. وبهذا التعيين أصبح شريك «صاحب الديوان» في الإشراف على الأعمال الإداريّة لكل الممتلكات، بل أصبح منافساً ومعارضاً له في عمله، وحمله الغرور مرّة أن أرسل إلى «صاحب الديوان»هذه الرباعية:

سأغوص في بحر غمي منك
فإمّا الغرق وإمّا نوال الجوهر
القصد إليك بالحرب خطر، وأنا مقدم عليه
فإمّا أن أعود بوجه مُورّد أو عنق مُورّد(١)

فأجابه الخواجه «شمس الدّين» بهذه الرباعية:

إذ كان الشاه لا يمكن أن يقاضى
فليتجرّع غصّة الزمان من يتجرّع
وهذا الفعل الّذي أنت فيه ذو قدم
عُدْ منه مُورّد الوجه مُورّد العنق

وبعد مدة إذ رأى أنّه لا يقدر أن يظهر على «صاحب الديوان»، عمد إلى إيذاء أخيه «عطا ملك»، وجاء هذا سنة ٦٨٠ هـ من بغداد إلى تبريز. فأخذ «مجد الملك» يحرّض عليه العمال والأعيان بالتطميع. حتّى نوّابه ومأموره استمالهم بالذهب وأغراهم به أن يواجهوه بغليظ الكلام ويتهموه بالاختلاس ويطالبوه بدفع أموال كثيرة من قبيل ضرائب باقية وبقايا أموال في ذمته.

(١و٢) ترجمة الرباعيتين بتصرف.

وعمل «عطا ملك» بمشورة أخيه فقبل بدفع الأموال المدعى بها وادّعى قسماً منها وسامحه «أباقا» بالباقي، إذ رأى أن لا وجه لمطالبته بما طولب به. وطيّب خاطره وأقرّه على عمله.

وفي أواسط تلك السّنة، سنة ٦٨٠ هـ، يوم كان «أباقا» يجهز جيشه لغزو الشام، عاود «مجد الملك» عنده حديث أموال الضرائب الباقية في ذمة «عطا ملك». وما زال به حتّى أقنعه. وقال له إنّ «عطا ملك» قد أخفى هذه الأموال بدفنها في الأرض. ويومئذ قدم «أباقا» إلى بغداد. وهناك أمر العمال المغول بضبط أموال «عطا ملك» ومصادرتها كلّها، حتّى أموال رجاله وابنائه ضبطت وصودرت.

فلمّا رأى أخوه «الخواجة شمس الدّين» أن الوضع صار إلى هذه الصعوبة جاء بنفسه إلى بغداد لعلّه يستطيع تهيئة مبلغ المال الّذي حدّده المعاندون وإرساله إلى «أباقا» وإنقاذ أخيه من شرّ أعدائه.

وعمد «صاحب الديوان» إلى بيع ما يملك من آنية وأثاث ومقتنيات أخرى، والاقتراض من كلّ من يستطيع الاقتراض منه، وبعث بذلك إلى «أباقا». ولكن ذلك كلّه لم يبلغ إلى عشر المبلغ المحسوب. واتهم الخصوم «شمس الدين» بالنفاق والمخاتلة، وأنّه يرفض أن يظهر أمواله المكنونة. ولذلك استدعي «تغاجار» إلى بغداد مصحوباً بـ«مجد الملك» وآخرين للكشف عن الكنوز المخفية ونبش خزائن الأسرة الجوينية ودفائنها.

وظلّت هذه الجماعة مدّة طويلة توقع بمتعلقي الجوينين الأذى والعذاب والسجن والاعتقال، وتفتش البيوت والموقوفات والمدارس ومنازل القوافل التي شادها«عطا ملك»، وتمعن في مضايقته وأخيه وإهانتهما. ثم بعثوا بكلّ ما حصلوا عليه إلى «أباقا».

وانتهى الأمر بأن تدخّل أمراء المغول وخواتينهم، ممن سلفت للأخوين أياد كثيرة عليهم، وتوسطوا لهما عند «أباقا». وأجاب هذا طلبهم فأطلق «عطا ملك» من السجن وطيّب خاطره. وهكذا خاب سعي «مجد الملك» أيضاً في الوصول إلى نتيجة قاطعة.

وكان الساعون بالأسرة الجوينية يخشون من انتقام الأخوين منهم. وكلّما تكررت خيبتهم في هذا السبيل ازدادت خشيتهم، فأخذوا بتدبير مكيدة جديدة، فيصلون بكسر هذه العائلة إلى مقاصدهم من جهة ويأمنون على أرواحهم من جهة أخرى. يفعلون ذلك بدلاً من أن يصالحوهما بالاعتذار إليهما والكف عن مقاومتهما. وعلى هذا وضعوا خطّة أخرى للقضاء على الأخوين، بعد أن خاب مسعاهم في إقامة الدعاوى الكاذبة عليهما.

وفي تلك الأيام كانت المنافسة بين سلاطين الشام ومصر المسلمين وبين إيلخان المغول على أشدها. فجعلوا خطّتهم الجديدة اتهام الأسرة الجوينية عند الإيلخان بأنّهم على صلة وديّة بمسلمي الشام ومصر، وإنّهم يكاتبونهم لإسقاط دولة «أباقا». وخدعوا جماعة من نصارى بغداد وجماعة من المرتزقة طلاب الشغب والفتنة بتطميعهم بالمال، ليشهدوا معهم بصدق دعواهم. وقرروا أن يقوموا بالوشاية في غيبة «عطا ملك» ليكون التمهيد لهذه المؤامرة أيسر عليهم. وكان «أباقا» قد غادر بغداد عائداً إلى إيران. فبعثوا في أثره جماعة منهم أدركته في «خانقين». وهناك أبلغوا إليه ما قرّروه.

فبعث الإيلخان أحد المقربين إليه إلى بغداد للتحقيق واستدعى «عطا ملك» إلى معسكره. ولكن خصوم «عطا ملك» أخّروا رسول «أباقا» مدة شهر في بغداد، وهم يخدعونه بمختلف الوعود. وأحضروا عنده الشهود الّذين كانوا قد أعدّوهم ليوافقوهم في الشهادة. وكان بينهم بضعة أشخاص من العرب، سبق أن أرسلهم «عطا ملك» إلى الشام للتحقق من أحوال أمرائها، وعادوا إليه بمعلومات في هذا الشأن.

وقد حدثت هذه الوقائع في الزمان الّذي توفي فيه «بيبرس» وتغلب «سيف الدّين قلاوون الألفي» على «سنقر الأشقر» وطرده إلى البادية، كما مرّ ذكره. وقد أرسل «عطا ملك» هؤلاء النفر من العرب إلى «سنقر» وأمير آخر من أمراء الشام العرب في محاولة منه لكسر حدّة العداء بين المماليك والإيلخانيين، وإذ كان «سنقر» وذلك الأمير قد هزمهما «قلاوون» فقد قبلا هذه الدعوة. وقد عرف «أباقا» يومئذ هذه اليد لـ«عطا ملك» وزاد في إعزازه

وتكريمه. ولمّا استدعى هؤلاء النفر من العرب إلى التحقيق لم يشهدوا بغير ذلك، فجاءت شهادتهم على خلاف ما أراده خصوم الجوينيين

ثم توجه رسول «أباقا» عائداً إلى إيران ومعه «عطا ملك» مقيداً في شهر ذي الحجة في سنة ٦٨٠ هـ. فلما قارب همدان وصله خبر وفاة «أباقا». وقد توفي في اليوم العشرين من ذلك الشهر.

وكان «أباقا» قد عهد بالملك إلى ابنه «أرغون»، على أن من يمكن أن نطلق عليهم «الحزب الإسلامي» المكون من آل الجويني وبعض الأمراء والقوّاد والنّواب، أعلنوا خلع «أرغون» من ولاية العهد وتولية «تكودار» بن «هولاكو» ملكاً للدولة الإيلخانيّة، وكانت هذه الجماعة قد مهدت للإسلام في نفس «تكودار»، فلم يلبث بعد توليه الملك أن أعلن إسلامه وتسمى «أحمد تكودار».

وكان من الطبيعي في هذه الحالة أن يفرج عن «عطا ملك» مباشرة، فقد أمر «أحمد تكودار» بإطلاقه وإرساله إلى معسكره. فسار من همدان إلى أرمينيا، ومنها رافق «تكودار» إلى «آلاتاغ»، واشترك في مجلس الشورى الّذي انتخب فيه ملكاً وفي الاحتفال الّذي أقيم لذلك. ويلاحظ أنّ الصراع بدأ منذ ذلك الحين بين الأحزاب المغولية، وكان المسلمون في هذا الصراع إلى جانب آل الجيويني .

وبعد إعلان تملك «أحمد تكودار» أرسل «علاء الدين عطا ملك الجويني» رسالة إلى أهل العراق وبغداد. وفي مستهل الرسالة نوّه الجويني بوفاء أهل بغداد، ووصف الانقلاب الجديد من خلع «أرغون» إلى نصب السلطان «أحمد» ونعت دولته بـ(الدولة القاهرة الإيلخانية الأحمدية التي نشرت ألوية الشريعة المحمّدية وبسطت العدل في الأرضين وكفّت عن البلاد والعباد أكفّ الظالمين والحمد لله ربّ العالمين).

ويقول كتاب «الحوادث الجامعة» الصفحة ٤٣٧ أنّه قامت مظاهرات صاخبة على أثر وصول بعض أولاد «عطا ملك» إليها ومعهم بعض النواب

والحكام، وهي مظاهرات تدل على غبطة أهل بغداد بانتصار آل الجويني. وكلّ ذلك يؤكد مواطئة آل الجويني للمسلمين على الوثنيين وممالئيهم الضالعين معهم من أصحاب الملل والنحل في تلك البلاد.

وكان تنصيب «تكودار» في مكان أخيه في ٢٦ محرم سنة ٦٨١ هـ. وبعد ذلك عهد بحكومة خراسان ومازندران والعراق و «أرّان» وآذربيجان إلى «الخواجة شمس الدّين الجويني» وحده، وعهد إليه أيضاً بأن يشارك السّلاطين السلاجقة في حكومة بلاد الرّوم. وعهد إلى ابنه «الخواجة هرون» بحكومة ديار بكر والموصل وإربل. وأبقى «عطا ملك» في بغداد على ما كان عليه في السابق. وخلع عليهم كثيراً من الخلع. وعاد أمر الأسرة الجوينية إلى الازدهار مرّة ثانية.

سلطنة «أحمد تكودار»
من ٦٨١ إلى ٦٨٣ هـ

كان «أباقا خان» يرغبُ في استخلاف ابنه «أرغون» إيلخاناً من بعده. ولكن، إذ كان هذا الاستخلاف مخالفاً لقانون «جنكيز خان» (ياسا نامه) الّذي يجعل السلطنة من حق الأرشد من الأمراء، فقد رشح رؤساء المغول وأمراؤهم «تكودار» أخا «أباقا» لهذا المنصب، وأقروا سلطنته رسمياً في مجلس شورى عقدوه في «آلاتاغ» في ٢٦ محرم سنة ٦٨١ هـ.

و«تكودار» هو سابع ابناء «هولاكو». ويوم كان أبوه يغزو إيران كان هو في الصين. وفي عهد «أباقا» أرسله «قوبيلاي قاآن» أخو «هولاكو» إلى إيران. وفي شبابه تعمّد حسب الشريعة النصرانيّة. ولكنه، بعد أن عاشر المسلمين، أخذ يميل إلى الإسلام شيئاً فشيئاً، وأحبّ أمراء المسلمين ورجالهم، حتّى دخل في دينهم وسمّوه أحمد.

وفي أواخر عهد «أباقا» انقسم أمراء المغول وخواتينهم إلى ثلاث فرق. فرقة أرادوا لخلافته ابنه الأمير «أرغون». وفرقة أرادوا أخوه «تكودار». وأرادت «أولجاي خاتون» زوجة «هولاكو» وزوجة ابنه «أباقا» من بعده تنصيب ابنها «منكو تيمور» أخا «أباقا». وإذ كان «منكو تيمور» قد توفي قبل «أباقا» بخمسة وعشرين يوماً فقد انحازت إلى أنصار «أرغون». وظلت المنافسة بين أنصار «تكودار» وأنصار «أرغون» تشتد يوماً بعد يوم. فلمّا تولّى «تكودار» خلافة «أباقا» باسم «السلطان أحمد خان» عادت تلك المنافسة عداوة علنية. وجعل

الفريقان يتعارضان، فريق يؤيّد «تكودار» وفريق ينصر «أرغون».

وبعد أن جلس «تكودار» على العرش أطلق يده بالبذل والعطاء ومنح إخوته والأمراء ورؤساء العسكر كثيراً من المال الّذي في خزائن أبيه.

واستدعى إلى خدمته «صاحب الديوان»، وكان في قبضة «أرغون»، فلاطفه واحترمه.

وكان الأمير «أرغون» غائباً يوم انعقاد مجلس الشورى، فلم ينتظروا قدومه، بل عقدوا المجلس وقرروا اختيار «تكودار». فجعل هذا يتألف قلبه ويتودد إليه، وعزم على الخروج عليه.

وافتتح «تكودار» أعماله بإعلان إسلامه وكتب رسائل بذلك إلى علماء بغداد وأعيانها، وعرف نفسه بحامي دين الإسلام ومتّبع دين الرسول الكريم وترك هذا الإعلام أثراً بعيداً من الاغتباط بين المسلمين. واقتدى به جماعة من المغول فدخلوا في دين الإسلام.

مقتل «مجد الملك»

بعد أن ذهب «عطا ملك» و «مجد الملك» من همدان إلى «آلاتاغ» بأمر من السلطان أحمد عمد «مجد الملك» إلى السعي لتجديد دسائسه السابقة وجعْلِ عمل التفتيش في المملكة خاصاً به. وتوسل إلى ذلك بأحد أمراء المغول. ورجا أن يكون الأمير «أرغون» سنداً له. فبعث إليه رسالة قال له فيها إنّ «صاحب الديوان» قد سمّ أباك. وإذ كنت واقفاً على هذا السر فهو يقصدني بالشر. فإن انتهيت إلى عاقبة سوء كان الأمير على علم بحقيقة الأمر.

فاستنجد «الخواجة شمس الدّين» بزوجة السلطان أحمد، وحرّض جماعة على «مجد الملك»، فسعوا به عند «تكودار» ونسبوا إليه أشياء منها الصّادق ومنها الكاذب. وكان ممّا قالوه إنّ «مجد الملك» قد وضع يده في يد «أرغون»، وبعث إليه برسولاً يظهر له إخلاصه وعبوديّته.

فأمر «تكودار» القائد العام لجيشه «سونجاق نويان» وآخر من أمراء المغول بمحاكمة «مجد الملك»، وأن يطالبوه بالأموال التي صادرها من الأسرة الجوينية ولم يحولها إلى خزانة الدولة. فأخذوا منه تلك الأموال وأمر «تكودار» بإرجاعها إلى «عطا ملك». وهذا التمس من الإيلخان أن يوزعها على العبيد، ففعل.

وفي أثناء تفتيش أموال «مجد الملك» عثروا على قصاصات من الورق وجلد أسد نقشت عليها تعاويذ بالزعفران والحبر الأحمر وقد كتبت بالعبرية، وهذا يوهم بأنّها أعمال سحر. وإذ كان السحر يفزع المغول ويعدّون فاعله عدواً، فقد أمروا بغسل تلك الكتابات بالماء وسقي غسالتها لـ«مجد الملك»لإبعاد أثر السحر عن الناس وإيقاعه بفاعله. ولكن «مجد الملك» رفض أن يشرب الغسالة، فزادهم رفضه يقيناً بأنّ تلك التعاويذ والنقوش ما هي إلّا سحر. عندئذ أمر «تكودار» بمعاقبة «مجد الملك».

ولمّا سمع المغول خبر اعتقال «مجد الملك» هبوا من كلّ ناحية يحملون عليه بأحقادهم. وكان «عطا ملك» قد عزم على التماس العفو له من الإيلخان. ولكن جماعة من عمال الديوان والأمراء المغول زجروه ولاموه ومنعوه من ذلك. وجلس القضاة في خيمة «عطا ملك» يحاسبونه. واستمرت محاسبتهم من ظهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ هـ إلى فجر اليوم التالي. وإذ عجز «مجد الملك» عن الإجابة الصحيحة على أسئلة المحققين، فقد عاملوه معاملة قاسية انتقاماً لـ«عطا ملك» وأخيه ممّا لقيا على يده من جفاء وظلم.

وكان أعداؤه يلازمون باب الخيمة التي يحاكم فيها منتظرين الفرصة للتنكيل به. وظلّوا يلازمونها من مساء ذلك اليوم إلى صباح اليوم الثامن من جمادى الأولى، فدخلوا الخيمة وقطّعوه قطعة قطعة، ويقال أنّهم شووا لحمه وأكلوه. وبتروا أعضاء بدنه وبعثوا بكل عضو منها إلى ناحية. رأسه إلى بغداد حيث اشتراه شخص بمائة دينار وأرسله إلى تبريز، ورجله إلى شيراز، ويده إلى العراق. وفي ذلك يقول شاعر:

كان يبغي أن يوصل يده إلى العراق

فما وصلت يده ثم وصلت يده[1]

ويقول شاعر آخر:

أصبحت رئيس ديوان التزوير بضعة أيّام
تتحـرى عن المـالُ والمـلـك والوفر
أعضاؤك كـلّ واحـد منها فتـح إقليمـاً
فإذا بك تصبح فاتح الدنيا في أسبوع واحد[1]

وبعـد مقتل «مجـد الملك» اعتقلوا أتبـاعـه ومسـاعـديـه في مختلف النواحي، وخصوصاً بغداد، وقتلوهم كلّهم، فريقاً طعنـاً بالسكـاكين وفريقـاً رجماً بالحجارة، ثم أحرقوا أجسادهم. وبذلك قضي على فتنة هذا الـرجل المتطلع إلى الجاه والسيطرة. وعاد «عطا ملك» موضع عطف الإيلخان وعيّن في منصبه السابق على حكومة بغداد. ومع أنّه كان يرغب في الاعتزال فقد قبل أن يبقى في عمله استجابة لإصرار السلطان أحمد. وأصبح هو في حكومة بغداد والعراق وأخوه «صاحب الديوان» في إدارة شؤون المملكة كما كانا، مستقلين في عملهما وفي موضع الاحترام.

وأقـام السلطان أحمد الشيـخ كمال الـدّين عبد الـرّحمن الرافعي في منصب مشيخة الإسلام لكلّ ممالك إيران والعراق وولّاه على جميع أوقافها وفوّض إليه أمر إنفاق عائداتها في وجوهها. فكان له في أيّام سلطنة السلطان أحمد القصيرة كل الاختيار في هذا الأمر. وكـان ممّا فعله أن ألغى جميـع المخصصات التي كانت للنصارى واليهود في الدفاتر الإيلخانيّة وأوجد وظيفة تنظر في شؤون حجّاج بيت الله الحرام.

وفـاة «عطـا ملـك»

ولـم يمكث «عطا ملك» بعد مقتل «مجد الملك» إلّا قليـلًا، إذ توفي بعده بستّة أشهر في الرابع من ذي الحجّة سنة ٦٨١ هـ.

---

(١) الترجمة بتصرف.

وكانت وفاته على هذا النحو، وهو أنّ الأمير «أرغون» كان يعد «عطا ملك» وأخاه «صاحب الديوان» أعداء له لاختصاصهما بالسلطان أحمد، وهو خصمه ومنافسه.

وفي سنة ٦٨١ هـ ذهب «أرغون» من خراسان إلى بغداد، وهناك تجنى على عمّال «عطا ملك» وطالبهم ببقايا أموال الضرائب من عهد أبيه «أباقا». وإذ كان «الخواجة شمس الدّين» بمنجى من تجنيه لحماية السلطان أحمد له، فقد تسلط على رجال «عطا ملك» فاعتقلهم ووضعهم في العذاب. وكان نائب «عطا ملك» قد توفي من قريب. فأخرج «أرغون» جسده من القبر وطرحه في الطريق. وكان «عطا ملك» يومئذ في نواحي «أرّان». فلما وصل إليه خبر هذا الفعل أودت به الحسرة والحزن. فحمل نعشه إلى تبريز ودفن فيها، ونصب السلطان أحمد ابن أخيه «الخواجة هرون» في مكانه[1].

خروج «أرغون» على السلطان «أحمد»

بعث إسلام السلطان أحمد وسعيه إلى إدخال المغول في الإسلام وتحويله المعابد الوثنية والكنائس إلى مساجد واحترامه القضاة والعلماء المسلمين كثيراً من أمراء المغول على النفور منه، وأخذوا يشكون من هذا الأمر حتّى أنّهم أوصلوا شكواهم إلى «قوبيلاي قاآن» أخي «هولاكو»، وكانوا

---

(١) يرد أبو الفداء في تاريخه الاضطهاد الذي أصاب عطا ملك الجويني إلى أنّ من اضطهدوه من المغول نقموا عليه تعاطفه مع المسلمين وحمايته لهم. ويقول عنه أبو الفداء: «كان صدراً كبيراً فاضلاً».

ويقول الشيخ محمد رضا الشبيبي في الجزء الثاني من كتابه «ابن الفوطي»: «وفي سيرة صاحب علاء الدين «عطا ملك» الجويني كل ما يدل على التنكر للوثنيين الطغاة من حكام المغول، وإعادة الأمم الإسلامية المغلوبة على أمرها في الشرق إلى العيش في ظل راية إسلامية، ولو كان هؤلاء المسلمون أنفسهم من الشعوب المغولية». أ. هـ.

ونقول: لا شك أن اتصالاته بالمماليك في مصر والشام كانت تنطوي على هذا الاتجاه. وقد شملت المحنة آل الجويني كلهم ـ كما سيأتي ـ لاعتقاد المغول بمشاركتهم كلهم في الدعوة الإسلامية وحماية المسلمين.

يعدونه خاقان المغول الأكبر، وكان إيلخانيو إيران، من عهد «هولاكو» يعتبرونه رئيسهم وكبيرهم. وكان أكثرهم إظهاراً للنقمة في هذا الأمر الأمير «أرغون» ابن «أباقا»، وكان يدعي أن منصب الإيلخان له، ويعد نفسه أليق وأحقّ بخلافة أبيه.

ويوم أرسل السلطان أحمد في أوائل سلطنته يُؤذن مختلف النواحي بإسلامه بعث أيضاً ببضعة نفر رسلاً إلى «سيف الدّين قلاوون» ملك مصر، منهم الشيخ كمال الدّين عبد الرّحمن الرافعي شيخ الإسلام وقطب الدّين الشيرازي قاضي مدينة «سيواس»، ومعهم رسالة مؤرخة بأواخر جمادي الأولى سنة ٦٨١ هـ يعلمه فيها بإسلامه وبما قام به من أعمال في إحياء الشريعة المحمّدية، كإصلاح أمور الأوقاف وإيصال عوائدها إلى المستحقين وتنظيم شؤون الحجّ، ويعلن له قراره بترك الخصومات القديمة والسعي إلى إعمار البلاد، مخالفاً بذلك قراراً كان قد اتخذه رجاله في مجلس الشورى بسوق جيش إلى غزو مصر، وأنّه ينتظر أن يبعث سلطان مصر إليه برسول للبحث والعمل على إزالة ما بين إيلخانيي إيران وسلاطين مصر والشام من منافسة وأحقاد.

فأجابه «قلاوون» برسالة أثنى فيها على أعماله، وعدّ إسلامه خيراً وسعادة.

وبتبادل هذه الرسائل والرسل بدأ عهد من الصداقة بين الملكين واستبعدت الأحقاد السابقة مؤقتاً.

وحصل أعداء السلطان أحمد من هذه المكاتبة ومن مخالفته قرار مجلس الشورى بغزو مصر على ذريعة أخرى، فنهض مخالفوه برئاسة «أرغون» و «قونغرتاي» أخي «تكودار» يعلنون الخروج عليه ويقصدون إلى قتله.

فلمّا علم السلطان أحمد بمخالفة «أرغون» له وخروجه عليه بعث إليه الأمير «بوقا» وكان «أرغون» يومئذ في العراق. وفي تلك الأيّام كان ينكل هناك بعمال «عطا ملك»، قد ضمّ إليه جماعة من المغول من مرابطي الأبراج من أتباع «أباقا» ونصب الأمير «طغاجار» قائداً لهم، ودخل في طاعته كبار الأمراء

من المغول مثل «كيخاتو» ابن «أباقا» و«بايدو» ابن أخيه، وجماعة من أعيان ضباط «أباقا».

وكان السلطان أحمد، بعد جلوسه على العرش، قد بعث بأخيه «قونغرتاي» مع جيشٍ إلى حدود الرّوم لحفظها. فلمّا سمع أنّ أخاه هذا قد حالف «أرغون» أيضاً بعث بجماعة من جنده إلى ديار بكر ليمنعوا إتصال عساكر «قونغرتاي» بعساكر «أرغون». وبعث أيضاً «أليناق»[1] آمر جيشه الكرجي إلى «أرغون» يستدعيه إلى حضور مجلس الشورى، إلاّ أن «أرغون» خدع «أليناق» وأعاده إلى السلطان أحمد. فأخذ يسعى عند الإيلخان إلى تبرئة «أرغون» والتماس الأعذار له، ولكن «الخواجة شمس الدين» عرف أن هوى «أليناق» مع «أرغون» في الباطن، وأن هذا قد خدعه بالمواعيد. فعمد إلى تألف قلبه بأن حمل السلطان على أن يتزوج ابنته وبذلك يجعله محل العناية والعطف منه. فأثر هذا التدبير وعاد «أليناق» مرّة ثانية من معاوني «تكودار» وأتباع سياسة «الخواجة شمس الدّين». فزادت هذه القضية في غضب «أرغون» على «صاحب الديوان».

وبعث «أرغون» بعد إعادة «أليناق»، أحد أمرائه إلى «تكودار»، يستدعي «صاحب الديوان» لضبط حساب عهد «أباقا» كما ذكرنا سابقاً وكان غرضه من هذه الدعوة قتل الخواجة بتهمة سمّ أبيه. ولكن «تكودار» رفض إرساله. فخاب مسعى «أرغون» هذه المرة أيضاً.

وفي أوائل سنة ٦٨٢ هـ كان «أرغون» في طريقه من بغداد عائداً إلى خراسان، حيث كان يحكم. وفي أثناء الطريق عامل عمّال «تكودار» ومعاوني «صاحب الديوان» معاملة قاسية. ومع أنّ أنصاره كانوا يزدادون يوماً بعد يوم فقد وقع في حرج بسبب افتقاره إلى ما يكفيه من المال وحدوث مشاكل مالية له. وقال له جماعة من أصحابه إنّ «وجيه الدّين زنكي فرومدي» وزير خراسان وملحقاتها قد أخذ مبلغاً من أموال الديوان وتصرّف بها فلم يوصلها إلى خزانة

---

(١) أو «أليناخ» أو «علي ناق».

الدولة. فأمر «أرغون» بمحاسبته ومصادرة الأموال التي زعم النمّامون أنه احتفظ بها لنفسه. وكان «الخواجة وجيه الدّين» رجلاً كفؤاً عالماً متكلماً مطمئناً إلى استقامته فلم يلجأ إلى أحد وهو يتلقى هذا الحدث الثقيل واجتنب التوسل بأمراء المغول وخواتينهم، وأرسل رسالة إلى «أرغون» طلب فيها أن يأمر الأمير بإرسال كتّابه ومحاسبيه، فإن ثبت قول أعدائه فإنّه يعطي ألف دينار بكلّ دينار يثبت عليه اختلاسه. فبعث إليه أمراء «أرغون» رسولاً أفهمه أن غاية الأمير ليست المحاسبة بل غايته الحصول على المال. وإنّ صلاحه في أن يجيب الأمير إلى طلبه.

وبعد محاورات وتبادل سفراء قبل «الخواجة وجيه الدّين» بأن يؤدي إلى الخزانة خمسمائة تومان[1]، منها ثلاثمائة تومان نقداً ومائتي تومان تؤدى مواشي وغلات وأقمشة وآلات، ولكن أحد خواص «وجيه الدّين» أرسل إلى الأمير «أرغون» خبراً بأن الخواجة في أثناء هذه المفاوضات بعث إلى أحد معتمديه في «طوس» مقداراً من الجواهر والذخائر النفيسة وأودعها أمانة عنده. فبعث «أرغون» مأموراً يفحص عنها فوقعت في يده وصادرها. فلمّا رأى «أرغون» كثرة مصادر «وجيه الدّين» رفض قبول تلك الأجناس عوضاً عن مائتي تومان، وأصرّ على أن تؤدى إليه نقداً. فاضطرّ «وجيه الدّين» إلى الرضوخ وأدى قسماً من المبلغ نقداً وقسماً جواهر وأقمشة نفيسة منسوجة بالذهب، من خزانة «فيروز كوه» و«مرو» و«هرات». فسر «أرغون» من ذلك وخلع على «وجيه الدّين» وأقره على عمله الّذي هو فيه.

فلمّا اطمأن خاطر «أرغون» من هذه الجهة بعث سفيراً إلى «تكودار» برسالة يقول له فيها: إذ كنت أصبحت مالك تاج أبي وعرشه بحسب أمر مجلس الشورى وبالاستحقاق، فإنّ مقتضى العدالة أن يكون لي أنا أيضاً مملكة تكفي لمعاش جنودي ومؤونتهم. وإذ كانت خراسان لا تكفي لذلك أطلب أن يضم إليها ملك العراق وفارس أيضاً. فإن حصل هذا الطلب ظلت طريق الصداقة بيننا مفتوحة، وإلاّ فلا مكان لغير الخروج والتمرّد.

---

(١) التومان: عشرة آلاف دينار.

فأجاب «تكودار» بقوله: إنّا عهدنا بخراسان إلى «أرغون» رحمة وتعطفاً. أما الأمر له بحكومة العراق وفارس فمرهون برأي مجلس الشورى. وعلى «أرغون» أن يحضر إلى هذا المجلس فإن قر رأي الأعيان والأمراء على إجابته إلى طلبه فلا مانع من ضم تلك النواحي إلى مجال حكمه. أما إن ظل ماضياً في طريق الخلاف عاصياً غير مطيع فسننهض إلى دفعه.

وبعد أن عرف السلطان أحمد بنفاق أخيه «قونغرتاي» وانحرافه إلى «أرغون» استدعاه إلى مجلس الشورى. فواطأ «قونغرتاي» بضعة نفر من الأمراء سراً على أن يقتلوا الإيلخان حين وصولهم إلى المعسكر وينصبوا في مكانه «قونغرتاي». ولكن أحد خواص السلطان أحمد عرف بالمؤامرة وأوصل خبرها إليه. وفي صباح اليوم الّذي عينه المتآمرون موعداً لقتل السلطان قبض هو على «قونغرتاي» بيد «أليناق» وقتله وأوقع العقاب بسائر المتآمرين.

فلمّا وصل الخبر بذلك إلى «أرغون» أخذه غم شديد لمقتل عمه. وإذ كان قتل أمير مغولي بيد رجاله أمراً مخالفاً للقانون الجنكيزي (ياسا) فقد ازداد «أرغون» حقداً على «تكودار»، وأيقن أن السلطان أحمد حين دخل في الإسلام، قد نسف أساس قوانين أجداده كلّها، حتى «الياسا» الجنكيزي أصبح لا يحترمه. ومن ذلك التاريخ أصبح مسلّماً أن الصلح والتصافي بين السلطان أحمد المسلم والأمير «أرغون» المستن بسنة المغول وآدابهم أمر غير ممكن. فلا بد من أن يقضي أحدهما على الآخر ويفرض سياسته وأفكاره على الممالك الإيلخانية.

وأمر السلطان أحمد في أواخر سنة ٦٨٢ هـ العسكر المقيم على حدود ديار بكر باعتقال رؤساء جيش «أرغون» المقيمين حوالي بغداد، وتقييدهم بقيود من الحديد. وكان في جملة هؤلاء الرؤساء الأمير «طغاجار». ففر «كيخاتو» ومعه آخرون من أمراء جيش«أرغون» من بغداد إلى خراسان والتحقوا بعسكر «أرغون». وأمر السلطان أحمد الأتابك «يوسف شاه لُر» أن يجهز جيشه للمحافظة على حدود «لرستان» والعراق ويمكث منتظراً أمر الإيلخان بالحرب.

وكان «الخواجة شمس الدّين صاحب الديوان» أكثر الناس سعياً إلى

تدبير أمور السلطان أحمد وتهيئة وسائل العمل له وتجهيز جيشه، إذ كان يعرف مما سبق من عداء «أرغون» له أن «أرغون» إذا تغلب على السلطان أحمد وأعوانه زالت دولة الأسرة الجوينيّة بيد ذلك الأمير الحاقد، وقضي على حياته، الحياة التي تحمل ما تحمل من متاعب حتى حفظها إلى هذا التاريخ مصونة آمنة، وذهبت بذهابه السياسة التي اتبعها السلطان أحمد بمعونته ومعونة آخرين من متنفذي المسلمين في تقوية الإسلام وإحياء شعائره، وقضت عليها أحقاد «أرغون» وسائر أمراء المغول المتعصبين. ومن ثم بذل «الخواجة شمس الدّين» قصارى جهده في تهيئة جيش لجب متمرس بفنون الحرب. وخرج «أليناق» من «موغان» بجيش من ١٥٠٠٠ جندي قاصداً إلى الري وقزوين وخراسان. وكان هذا الجيش مقدمة.

وفي الري وقزوين، وكانتا تعدان جزءاً من حكم «أرغون»، أخذ عسكر «أليناق» هذا يغير على أعوان «أرغون» ويعترضهم. فلمّا وصل خبر ذلك إلى «أرغون» جمع جيشاً أقبل به إلى ملاقاة «أليناق». ووقعت معركة بينهما قرب قزوين سنة ٦٨٣ هـ، انهزم فيها عسكر «أرغون»، ففر نحو «بسطام»، وتفرق عنه جنده، فتعقبه جند «أليناق»، وأغاروا في أثناء ذلك ما بين قزوين و«دامغان» من بلاد. ولقي أهالي تلك النواحي كثيراً من النكبات في هذه الحرب.

وإذ كان السلطان أحمد يعرف أنّ «أرغون» خصم شديد مستبد ولن ينصرف عن الانتقام، فقد بعث إليه، بعد هذا النصر، رسولاً يحمل رسالة يقول فيها إنّ «أليناق» لم يكن لديه إذن من الإيلخان بالحرب، وأنّه لم يكن مأموراً بغير اصطحاب الأمير إلى البلاط للعمل بحضوره على رفع الاختلاف واستبدال الصّلح والتّصافي بالخصومة. ولذا يجب أن ينصرف أرغون عن الخلاف ويحضر عند الإيلخان.

فأجاب «أرغون» بإرسال رسل إلى السلطان يعتذرون إليه عما ظهر منه من تقصير. ولكن أصحاب الرأي أفهموا السلطان أحمد أنه أن لم يعجل باستئصال «أرغون» فمن الممكن أن يعود مرة ثانية إلى جمع العساكر ويستقوي

حتى يستحيل التغلب عليه. عندئذ سار السلطان أحمد بجيش جرّار متوجهاً إلى خراسان. وفي أثناء الطريق أوقع جنده بالناس كثيراً من الأذى، فنقموا عليه، وكان ذلك أحد الأسباب في خيبة أعماله.

وذهب «أرغون» من «بسطام» إلى قلعة«كلات» واختار الإقامة هناك. وإذ كان «أليناق» قد تعهد للسلطان أحمد بإحضاره إليه، فقد ذهب إلى «كلات»، واجتمع بـ«أرغون» في القلعة. واستطاع ببذل الوعود الكثيرة والكلام المعسول أن يأتي به إلى السلطان أحمد، وكان في «قوشان». فلمّا دخل عليه تلقّاه السلطان بكلّ احترام وعانقه ونصب له فسطاطاً خاصاً به. ووعده بأن يعيده إلى خراسان ويعهد إليه بحكومتها. ولكنه أمر جنده بمراقبة «أرغون»، وأقام على فسطاطه ٤٠٠٠ جندي يحرسونه.

مقتل السلطان أحمد

وعزم السلطان أحمد، بمشورة بعض الأمراء ولا سيّما «أليناق»، على قتل «أرغون». وأمر «أليناق» بقتله. ولكن، قبل انفاذ الأمر، اقنع الأمير «بوقا» بعض الأعيان والأمراء المغول بأن السلطان أحمد و«أليناق» و«صاحب الديوان» قد عزموا على إسقاط الأسرة الجنكيزية وتولية المسلمين والكرجيين أمور الدولة. وكان «بوقا» هذا يتولى عائلة «أرغون» ويعد الكرجيين المأمورين لـ«أليناق» والمسلمين أعداء.

وقد أثّرت بياناته في أولئك الأمراء والأعيان فأجمعوا على إسقاط السلطان أحمد من منصب الإيلخانية وإجلاس الأمير «هولاجو» بن «هولاكو خان» في مكانه، على أن يبدؤوا أولاً بإطلاق «أرغون» من السجن وتنجيته من القتل.

وفي ليلة السبت ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ، والسلطان مشغول باللهو، أقدم الأمراء المتواطئون على إطلاق «أرغون» من الحبس وقتلوا «أليناق» وكثيراً من أمراء السلطان أحمد، وفرّ السلطان ومن بقي من أمرائه من خراسان إلى آذربيجان وفرّ «صاحب الديوان» إلى أصفهان.

ثم نادى الأمراء بـ«أرغون» إيلخاناً. وبادر هذا إلى تعقّب السلطان يريد استئصال حياته بأسرع ما يمكنه. ولكن، قبل أن يصل السلطان إلى آذربيجان، أغار على معسكره جماعة من فرسان المغول كانوا قد دخلوا في طاعة «أرغون» أيّام إقامته في نواحي بغداد، فاعتقلوا السلطان وتقدّموا إلى استقبال «أرغون».

وبدا في أوّل الأمر أنّ «أرغون» لا يفكر بقتل «تكودار». ولكن رجال «قونغرتاي» أصروا على طلب قتله فسلّمه إليهم، فقتلوه بـ«قونغرتاي» ليلة الخميس ٢٦ جمادي الأولى سنة ٦٨٣ هـ.

وبقتله انكسرت شوكة المسلمين والإيرانيين الذين حصلوا في عهد ملكه القصير على قوة فائقة وكفوا يد النصارى والمغول إلى حد بعيد عن النفوذ والتصرف. وعاد «ياسا» جنكيز واداب المغول مرة ثانية إلى السيادة بدلاً من شريعة الإسلام.

سلطنة «أرغـــون خـــان»

بعد مقتل السلطان أحمـد نصبت خواتين المغـول ولا سيما«أولجـاي خاتون»، والأمير «طغاجار» و «بوقا» الأمير «أرغون» ابن «أباقا» إيلخانا، في السابع من جمادى الآخرة سنة ٦٨٣ هـ، في محلة «آب شور» بآذربيجان.

ودامت معالم الفرح مدّة شهر. وأنعم الإيلخان الجديـد على الأمراء ورؤساء العسكر الذّين ثبتوا على الوفاء له. وإذ كانت جماعة من أمراء المغول مثل «هولاجو» و «بايدو» و «كيخاتو» و «الخواجة شمس الدّين صاحب الديوان» لم يحضروا حفلة انتخاب «أرغـون» فقد أراد الإيلخـان الجديـد استمالتهم وتـأليف قلوبهم. فبعث بالأتـابك «يـوسف شـاه لـر» والملك «إمـام الـدّين القزويني» إلى «صاحب الديوان» وأرسل مظلة نفيسـة إلى «هولاجـو»، وقد كـانت جماعـة من المغول راغبين في نصبـه إيلخانـاً. واشترك «هـولاجـو» و «كيخاتو» وأمراء آخرون في مجلس شورى عقد بعد جلوس «أرغون» بثلاثة شهور تقريباً، وأجمع فيه أعيان المغول على قبول إيلخانية «أرغون».

وعهد «أرغون» بحكومة بغداد إلى «بايدو» حفيد «هولاكو خان» وحكومة بلاد الرّوم إلى «هولاجو» و «كيخاتو» وإدارة أمور خراسان والري ومـازندران وقومس إلى ابنه «غازان» وجعل الأمير «نوروز» ابن الحاكم المغولي المعروف «أرغون آقا» نائباً عنه، وجعل زمام الحل والعقد في الأمور الملكيـة في يد الأمير «بوقا».

مقتـل «صاحـــب الديـوان»

أمّا «صاحب الديوان» فكان قد فرّ من خراسـان إلى أصفهان. وهنـاك سمع بمقتل السلطان أحمد وجلوس «أرغون» على العرش. وبقي في أصفهان بضعة أيام فكر بعدها في الذهاب إلى شيراز و هرمز، ومن هناك يمضي إلى الهند ويقضي بقية عمره في تلك الديار. ولكنه لم يكن مطمئناً من جهة عائلته وذويه، ويعلم أنّ «أرغون» سيستأصل حياتهم بعد مغادرته إيران. فعزم على الذهاب عند الإيلخان، والدخول عليـه من باب التـوسل والإلتمـاس، لعلّه يحفظ نفسه وأولاده وذويه من شر سطوة «أرغون»، ويجعل من خدمته وخدمة أقاربه في مدة ثلاثين سنة شفيعاً له عند الإيلخان.

وبهذا العزم سار برفقة الملك «إمام الدّين القزويني» والأتابك «يوسف شاه لر» ـ وهو صهر «الخواجة شمس الدّين» ـ نحو معسكر «أرغون». وخرج إلى استقباله عند «ساوه» أحد أمراء «أرغون» وأراه مرسوماً ملكياً بأنّ «أرغون» قد سامحه على الجرائم الماضية، وأمّله بأن يجعله مشمولاً بعنايته.

وانطلق الخواجه يحدوه أمل عظيم مسرعاً إلى معسكر «أرغون» فوصله يوم الجمعة عاشر رجب سنة ٦٨٣ هـ، ونزل ضيفاً في سراي الأمير «بوقا». ثم أدخله هذا على «أرغون خان» فلاطفه ووعده بأن يقره على ما كان من عمل صاحب الديوان، فيقوم هو و «بوقا» متعاونين بتدبير أمور الممالك الإيلخانية، ويتابع خدمته السابقة.

وكان «أرغون خان» مديوناً بحياته وسلطنته للأمير «بوقا» ومن ثم حصل هذا في هذه الدورة على قدرة فائقة. ثم منحه «قوبيلاي» لقب «شينك سانك» يعني «الأمير الكبير» و «الـوزير». وبهـذه السيطره أخـذ يديـر أمور الممالك الإيلخانية، يساعده نائبه «الخواجه فخر الدين محمد مستوفي القزويني» ابن عم المؤرخ المشهور «حمد الله مستوفي».

وأما «الخواجة شمس الدّين» فقد وطن نفسه، وهو يرى الدنيا تدبر عنه. على البقاء في حاشية الأمير «بوقا» وتحت يده. وكان كـل سعيه أن يقـطع

الطريق على حسد الأمير «بوقا» وغيره من الأعداء وأن يقضي باقي عمره بعيداً عن الخطر، وذلك بإبداء أنواع الملاطفة لهم وإتحافهم بالهدايا.

غير أن الأمير «بوقا» وغيره من أصحاب النوايا السيئة الذين رأوا شوكته في تلك السنين الثلاثين، واطلعوا على قدرته وكفاءته وكثرة أتباعه وأعوانه، كانوا يعتقدون أن وجوده يحول بينهم وبين الاستقلال، ولاسيّما بضعة نفر من عمال الديوان مثل «الخواجة فخر الدّين مستوفي» و«علي تمغاجي» و«حسام الدّين الحاجب»، كانوا يريدون حمل «بوقا» على تقصير يد «شمس الدين» عن العمل، بل كانوا يرجون أن يستطيع قطع حياته وتمزيق الاسرة الجوينية.

ومع أنّ الأمير «بوقا» كانت بينه وبين الخواجة سابقة صداقة، فإنّه أخذ يسعى به عند «أرغون» فقال له إنّ الّذي خان أبا الإيلخان وسمه كيف يمكن أن ترجى صداقته وخدمته، وأشياء أخرى من هذا القبيل افتراها عليه. وما زال بالإيلخان حتّى أمر القضاة لعقد جلسة لمحكامة «الخواجة شمس الـدّين»، فجيىء به مغلول اليدين إلى المحكمة.

وتقدم جماعة من مهيجي الشر، بتحريض من أعدائه، إلى اتهامه بتهم مختلفة. فأجاب بقوله: إنّ كلّ تقصير اتهمني به المفترون أعترف به مائة مرّة، إلّا اتهامي بالقصد إلى وليّ نعمتي بالشر فإني بريء منه.

وانتهت المحاكمة بالحكم على «الخواجة شمس الدّين» بـأن يشتري حياته بفدية. فاستمهلهم ريثما يتدبّر أمر هذه الفدية. ثم باع أملاكه واقترض من أصحـابه وأقـاربه وأصـدقائـه حتّى جمـع مبلغ أربعين تـومـانـاً[1] ذهبـاً قائلاً هذا كلّ ما استطيع تهيئته ولا قدرة لي على غيره.

ولكن «أرغون» لم يقبل ذلك من هذا الوزير المدبر الّذي أدار ممالك المغول مدة تسعة وعشرين عاماً بالحكمة والكمال والمقدرة والكفاءة، وذلك أن «أرغون» ما زال يحمل في نفسه حقداً قديماً عليه، فأمر بقتله. فقتل عصر يوم الاثنين الرابع من شعبان سنة ٦٨٣ هـ في قرب «أَهَرْ» من آذربيجان. وقتل

(١) التومان: عشرة آلاف.

أربعة من أبنائه هم يحيى وفرج الله ومحمود وأتابك في تلك السنة. وقتل ابنه «الخواجة هرون» سنة ٦٨٥ هـ[١]، وقتل حفيده علي ابن «الخواجة بهاء الدِّين محمّد» ومنصور بن «عطا ملك» في سنة ٦٨٨ هـ. وهكذا انقرضت السلالة الجوينية على هذا النحو المؤلم[٢].

كان «الخواجة شمس الدين محمّد صاحب الـديوان» من أكبـر وزراء إيران وعمالها وكتّابها. ولم يكن له في زمانه نظير في الكفاءة والتدبير والشوكة والجاه والجلال والثروة. واشتهر بالحكمة والتواضع وإخلاص الصداقة ورعاية الشعراء. وقد خلّد ذكره وذكر أخيه «علاء الدين عطا ملك» الشـاعر الكبيـر سعدي الشيرازي في قصائده. ومثله آخرون من كبار العلماء والشعراء أشادوا باسمه واسم الأسرة الجوينية في كتبهم وأشعارهم مثل «الخواجة نصير الدين الطوسي» والأستاذ «صفي الدين الأرموي» و«الخواجة همام الدين التبريزي» و«بدر الدِّين الجاجرمي». وما زال ذكر هذه العائلة بالخير يجري على الألسنة ويتناقله الخلف تذكاراً من السلف.

قال في «تاريخ وصاف» ما ملخّصه:

---

(١) هو «الخواجة شرف الدين هرون» ابن «صاحب الديوان». كان فاضلاً شاعراً، من مربي أهل العلم والأدب. تزوج بنت أبي العباس أحمد الخليفة العباسي المصري وحفيد المستعصم آخر خلفاء العباسيين. وكان على حكومة العراق بعد «عطا ملك». وفي عهد «أرغون» كان ينوب عن الأمير «آروق» أخي «بوقا» هناك. وقد حرض هرون هذا الأمير «آروق» على قتل «الخواجة سعد الدين مستوفي القزويني» أخي «الخواجة فخر الدين محمد». وإذ أخذت دولة «صاحب الديوان» تؤذن بالزوال فقد اتهم «الخواجة فخر الدين» «الخواجة هرون» عند «أروق» بأشياء انتقاماً لقتل أخيه. فقتله آروق بسعاية «فخر الدين» وقتل معه «مجد الدين» بن الأثير في جمادى الأخرة سنة ٦٨٥ هـ.

(٢) يروي صاحب (الحوادث الجامعة) عن مقتل شمس الدين ما يلي: «لما أحضر ليقتل سأل المهلة ساعة يوصي بها فأُمهل، فكتب بخطه وصيّة بالفارسية قال في آخرها: «فإن وجد النظار فيها خللاً فلا غرو فإني سطرتها وأنا عريان، والسيف مشهور».

وهذا يدل على ثبات ورباطة جأش في تلك الساعة. وقد قتل المغول من آل الجويني حتى الاطفال، ومنهم صبي اسمه فرج الله، وعنه يقول صاحب (الحوادث الجامعة): وأما فرج الله فإنه كان صبياً في المكتب، فلما أُخرج ليقتـل توهم أنّهم يـريدون تـأديبه لئـلا ينقطع عن المكتب. فجعل يقول بالفارسية : «والله ما بقيت انقطع عن المكتب»، فرقت الناس له.

«جاء جلّاد القهر ذو السيف الناضح بسم الأفعى بصاحب الديوان إلى مكان العقاب. وعلم أنّ لا أمل بالخلاص، فاستمهلهم ريثما اغتسل وتطهّر، وكتب وصيته، وودع أصدقاءه من كبار المشايخ واستمد منهم الدّعاء له بالخير. فلمّا فرغ من التحرير قال مسلّماً أمره لله: كلّ ما يأتي منك خير سواء أكان شفاء أم كان ألماً».

«ثم قتل في وقت صلاة العصر في الرابع من شعبان سنة ٦٨٣ هـ».

«وما وصل خبر هذه الواقعة الهائلة والداهية المشكلة إلى ناحية من نواحي المملكة إلّا أصبح الخاص والعام أليف الأنين وحليف الأنين».

«وصودرت بعد واقعة صاحب الديوان جميع أملاكه، ونقض أساس تلك الخيرات. وألحقوا به أولاده يحيى وفرج الله ومسعود وأتابك، وقد كانوا نجوم سماء المكارم. والغرسة الناضرة في حديقة البسالة والجلالة، ولم يرحموا أولئك الأطفال الأبرياء. وعلى هذه الحال قتل آروق، بعد مدة قليلة، الخواجة هرون، وقتل معه مجد الدّين بن الأثير. وكان من أكابر عصره معروفاً بالنعمة والثروة مشهوراً بالنجدة والشهامة. فسعوا به عند آروق أنّه أخذ مبالغ من المال من أعمال بغداد وتصرّف بها لنفسه. وتوهّم آروق أن مجد الدّين كان على اتفاق سرّي هو والخواجة هرون في هذا الأمر فقتلهما».

«وقبور صاحب الديوان وأولاده في «جرنداب» في تبريز، وقد ذهب ناقل هذه الأخبار (يعني وصاف) إليها سنة ٦٩٢ هـ وزار ذلك المقام، مقام الرَوْح والسعادة، حيث يثوي الأخوان (شمس الدين صاحب الديوان وأخوه علاء الدّين عطا ملك) مع سبعة أولاد، بعضهم جمع درجة الشهادة إلى سعادة الدنيا، وبعضهم صار إلى مجاورة أنس الأبد وحور الفردوس، بعد أن صحب الحياة متحملاً ألوف الحسرات. وقد نقشت أسماؤهم وألقابهم على ألواح القبور بعد أن كانت تنقش على صفحات التوقيعات[1]. وعلى كلّ لوح نقشت آية من التنزيل تناسب صاحب القبر. ومن مشاهدة تلك المشاهد والمراقد

(١) التوقيعات: الأوامر والمراسيم.

أخذه (يعني وصاف) الانكسار والأسف خصوصاً أنّه كان قد حرم في زمان حياتهم من سعادة خدمتهم، فالخاطر يغلي بنيران الحسرة ويعجب من شيمة الأيّام».

«وقد نظم أحد فضلاء العصر قصيدة في شرح وقائعهم وعلقها على الجدار القبلي. أورد بعض أبياتها:

يا جرنداب من مقابر تبـ … ـريز سقاك الحياة الملث الهامي
فلقد أطبقوا ثراك على غـ … ـرّ وجوه على خدود كرام
ضم شمساً مقرونة بعلاء … ونجوماً حكّت بدور التمام
سبعة قد بكت عليهم نجوم … سبعة في ضيئهما والظلام
وأراض سبع وسبع سما … وات طباق وسبعة الأيّام
فرج الله ثم يحيى ومسـ … ـعود وهرون منجد المستضام
وأبوهم محمّد قد تقضوا … وجميع قتلى بحد الحسام
حزنوني وزاد كربي أتابـ … ـك من قبل كالنار ذات ضرام
وشجاني مثوى عطا ملك صا … حب ديوان ملك دار السلام
فعلى تلكم القبور تحايا … مردفات من ربّنا بالسلام»

«لقد خلا بساط خراسان في مدة قليلة من جميع الصناديد والقروم بتقدير قدّره قاضي محكمة الأزل. ثم تغير المزاج الإيلخاني على الخواجة وجيه الدّين فاعتقل. ولم ينفعه ما كتب من كتب إلى الأمراء متضرعاً متشفعاً. وقد بالغ في ذلك حتّى أنّه كتب اسمه في رسالة إلى طوغان رئيس شحنة قهستان هكذا: الضعيف الداعي وجيه العاصي. وانتهى أمره إلى أن أرسلت روحه بالسيف من الحضيض السفلي إلى المأنس العلوي». أ. هـ.

وزارة سعد الدولة اليهودي

بعد مقتل «الخواجة شمس الدّين» واستقلال الأمير «بوقا» ذهب «أرغون خان» إلى مورغان و«أران». وفي أواسط الخريف من تلك السنة عقد مجلس

شورى في ناحية تقع بين «سراب» و«أردبيل» و«صائين»، ثم ذهب إلى تبريز وفي الشتاء عاد إلى مشتى «أران». وهناك حاكم الملكة «آبش خاتون» آخر ملوك فارس من سلسلة الأتابكة السلغوريين[1] وزوجة «منكو تيمور» بن «هولاكو». ومن هذا التاريخ إلى سنة ٦٨٧ هـ لم تحدث في سلطنته واقعة مهمة. وكان يقضي أيّامه مصطافاً أو شاتياً بين «أرّان» ونواحي بغداد.

وفي ربيع الثاني سنة ٦٨٧ هـ وصل خبر بأنّ «نوغاي» خان «دشت قبجاق» قد سار قاصداً غزو ممالك «أرغون» من طريق «دربند» بخمسة آلاف جندي. فهب الإيلخان و«بوقا» وغيرهما من الأمراء إلى صده. فلمّا رأى «نوغاي» أنّ لا طاقة له بهم تراجع. ولكنه أعاد الكرّة بعد سنتين فهزمه أمراء «أرغون»، واحتفل الإيلخان بهذا النصر بإقامة الأفراح في «بيله سوار».

وفي ذلك الحين كان نفوذ الأمير «بوقا» وشهرته وقدرته آخذة بالازدياد يوماً بعد يوم حتّى وصلت إلى حد إلى أن أصدر الإيلخان أمراً بأنّ «بوقا» إن ارتكب ذنباً كبيراً فلا حق لأحد بمحاسبته سوى الإيلخان وحده، وأنّ على العمال والمأمورين أن يطيعوا أوامره من غير مرسوم بها من الإيلخان وأن لا

---

(١) نسبة إلى «سلغور» زعيم تركماني من أنصار طغرل بك السلجوقي. من سلالته «سنقر بن مودود» أقام في اقليم فارس من إيران دولة حكمتها سلالته من سنة ٥٤٣ هـ إلى سنة ٦٦٣ هـ، وعرفوا باسم «أتابكة فارس» أو «الأتابكة السلغوريون». و«آبش خاتون» أميرة من هذه الأسرة تولت منصب الأتابك من سنة ٦٦٢ هـ إلى سنة ٦٦٣ هـ إذ لم يبق من السلغوريين رجل يستطيع تولي هذا المنصب، وكان ذلك في زمن «هولاكو» وفارس في حكم المغول. وقد زوجها «هولاكو» من ابنه «منكوتيمور».

وهي آخر حكام آل سلغور نشأت وترعرعت في بلاط أبيها، وكانت ذات عقل راجح ورأي صائب ودين وصدح وعلم، تجالس العلماء. وقد وقفت جميع ثروتها ليصرف ريعها في سبيل الإسلام ونشر العلم.

توفيت في تبريز سنة ٣٨٥ هـ ودفنت في مقابر «جرنداب»، ثم نقلت ابنتها «كردوجن» رفاتها إلى شيراز ودفنت في مدرستها التي تعرف باسمها «مدرسة آبش خاتون» أو مدرسة خاتون قيامة.

ذكرها أكثر المؤرخين والكتاب، منهم رشيد الدين فضل الله في جامع التواريخ والأبتي في تاريخ الوصاف وحمد الله المستوفي في تاريخ كزبدة وخواندمير في حبيب السير والغسائي في فارسنامه ناصري، ودانشنامه إيران وإسلام ومستدركات أعيان الشيعة.

يقبلوا أوامر المراسيم الإيلخانية إذا كانت غير مختومة بخاتم «بوقا».

وقد جعلت هذه الخيارات والتفويضات استقلال «بوقا» يتحول شيئاً فشيئاً إلى استبداد، حتّى لم يبق للإيلخانيين من السلطان غير الإسم والعنوان. ومن جهة أخرى أخذ الأمراء وأركان الدولة يتحينون فرصة لإسقاط «بوقا» والقضاء على دولته والحلول في محله، إذ عزّ عليهم الخضوع لقدرة شخص واحد واستبداده.

وكان زعيم هذه الجماعة من أعداء «بوقا» أمير مغولي أديب فطن اسمه «طوغان» وكان على شحنة «قهستان». فأخذوا يسعون بـ«بوقا» عند الإيلخان. وروى «طوغان» يوماً لـ«أرغون» قصة خيانة «بوقا» للسلطان أحمد، وخوّفه من استبداد مثل هذا الوزير الّذي له كلّ شيء من القدرة والقوّة. وكان «صدر الدين أحمد الزنجاني» يذكر «بوقا» بالسوء علناً. ويقول أن «بوقا» قد بلغ به الحال إلى أنّه ينفق أموال المملكة على هواه الشخصي، ولا يبالي بأوامر الإيلخان، وعمال الولايات يردون مراسيم الإيلخان إذا لم تحمل ختم «بوقا». وكان «بوقا» قد سبق أن طالب «صدر الدين» هذا ببقايا أموال مملكة فارس يوم كان «صدر الدّين» نائباً لـ«طغاجار نويان» حاكم هذه المملكة يومئذ.

وكان أكثر أعداء «بوقا» فطانة طبيب يهودي من أهل «أبهر» زنجان اسمه «سعد الدولة» بن «صفي الدولة». وكان قد دخل في عهد «أرغون» في عداد أطباء الإيلخان. وكان يقيم في بغداد، وله صلات كثيرة بالناس، ويتقن بضع لغات، وكان على علم تام بأحوال العمال والقيمين على الأحوال في بغداد وسائر العراق.

وأراد الأطباء الآخرون المقيمون في بلاط الإيلخان إدخال «سعد الدولة» في حاشية «أرغون». وتوسلوا إلى ذلك بأن قالوا للإيلخان، على نحو السعاية بسعد الدولة ظاهراً، إنّ «سعد الدولة» يقيم في بغداد خالي البال بلا عمل منصرفاً عن خدمة الدولة، مع أنّه يأخذ راتباً من الديوان. فإن أمر الإيلخان بأن يلازم هو أيضاً الركاب ويحمل، كما نحمل نحن، قسطاً من مشقات السفر والحضر! وقد أثّر هذا التمويه في «أرغون» فاستدعى «سعد الدولة» إليه وجعله

في عداد الأطباء الملازمين. واتفق أن مرض «أرغون» يومئذ فعالجه «سعد الدوله» وشفاه، وبذلك صار مقرباً إليه، وإذ تبين، وهو في خدمته، ما في قلب الإيلخان من حبّ للمال، ذكر له ما يعرفه من إسراف عمال بغداد وتبذيرهم. وقال إنّ «بوقا» وأخاه «آروق» يحتفظان بجميع الأموال الديوانيّة لأنفسهما فلا يوصلان منها شيئاً إلى الخزينة الإيلخانية.

فأمر «أرغون» «سعد الدولة» واثنين من أمراء المغول بالذهاب إلى بغداد وتحصيل بقايا الضرائب والقيام بإصلاح حال الرعية. وفي أواخر سنة ٦٨٦ هـ ذهب «سعد الدولة» إلى بغداد، فجمع في مدة قصيرة أموالاً كثيرة من بقايا السنوات الماضية وأموال السنة الجارية، وأسرع بها إلى الإيلخان. وقد عظمت هذه الخدمة في عين «أرغون» فأقام «سعد الدولة» على حسابات بغداد من جمع وإنفاق. وبعد سنة كان هذا قد جمع من المال أكثر ممّا جمعه أوّل مرّة، فوضعه في سلطانية وقدمه إلى «أرغون» فلمّا رآه اعتقد أنّ «آروق» كان يحصل في كلّ سنة على مثل هذا المقدار من أموال بغداد، ولا يوصل عشره إلى الخزانة. فلو عهد إلى «سعد الدولة» بالقيام على الشؤون المالية في كلّ المملكة الإيلخانيّة لجرى الأمر في كل ولاية من ولاياتها على نحو ما جرى في بغداد والعراق. ومن ثم اختار الإيلخان «سعد الدولة» للوزارة وأمور الحل والعقد في المملكة. فإن عرض أمر مهم رفعه إلى «أرغون» بلا واسطة، ولا حاجة به إلى المشورة من أحد.

وكان استقلال «سعد الدولة» اليهودي بهذا النفوذ علامة على انكسار العمال والموظفين المسلمين انكساراً كاملاً وتأخرهم إلى أدنى درجة. وكان أيضاً، من جهة أخرى إيذاناً بإدبار السعد عن «بوقا» وأخيه «آروق»، ولا سيّما «بوقا» إذ كان أعداؤه كثراً و«أرغون» أصبح يسيء به الظن، لاستبداده وسعاية حاسديه به عند الإيلخان. وقد حدث في هذه الأثناء أنّ «بوقا» وأحد الأمراء تبادلا كلاماً غليظاً في مجلس شراب بحضور «أرغون»، فلم ينكر الإيلخان على معارض «بوقا» فعله. فكان ذلك سبباً في تألّم «بوقا» من «أرغون». وطالب خصوم «بوقا» نائبه في فارس «حسام الدّين القزويني» بتأدية مائة

وخمسين توماناً. وقد اسقطت هذه الأمور «بوقا» من الاعتبار كليّاً. وأمر «أرغون» بعزل عماله عن مناصبهم.

وعزم «بوقا» على الخروج على «أرغون». فبعث رسولاً من قبله إلى «جو شكاب» حفيد «هولاكو»، وكان يقيم على سواحل الفرات، يقترح عليه الخروج على «أرغون». بمعونة «بوقا»، وبعث إليه إلتزاماً خطيّاً بإمضاء أصحابه بأن يكونوا معه. فأسرع «جو شكاب» إلى «أرغون» وأنبأه بمؤامرة «بوقا» وأصحابه.

وبعد إثبات الخيانة على «بوقا» أمر «أرغون» الأمير «جو شكاب» بقتله، فضرب عنقه في أواخر ذي الحجّة سنة ٦٨٧ هـ وقُتل كثير من أصحابه بأمر من «أرغون». وبعد سنة ساء ظن الإيلخان بالأمير «جو شكاب» فقتله.

وبقتل الأمير «بوقا» استتب الأمر لـ«سعد الدولة» وعلا كوكب سعادته. وكان هذا الرجل الطامح إلى الجاه و«أرغون خان» يشتركان في كرههما للمسلمين. فشرعا في كفّ أيديهم عن أعمال الدولة، وتقرر أن يكون تدبير الشؤون كلها في يد النصارى واليهود وحدهم. فأدخل «سعد الدولة» أقاربه في كلّ الوظائف الملكية. وقسم بينهم مناصب العراق والجزيرة وآذربيجان. ولو لم يكن «غازان» بن «أرغون» و«كيخاتو» أخوه على خراسان وبلاد الرّوم لسلم هاتين المملكتين أيضاً إلى أقاربه.

ولكن «سعد الدولة» لذكائه وكفاءته، أمر، في البدء، أن يكون الفصل في الدعاوى طبق الشريعة الإسلامية، وأن لا يتهاون في إحقاق حق المظلومين وإعانة الضعفاء، ليستجلب القلوب إليه.

وأفهم الإيلخان أنّ عمدة السبب في الإسراف وخراب البلاد إنّما هو تردد الرسل ذهاباً وإياباً لجلب أموال الخزانة، فعلى الحكام والأمراء إيصال الأموال الديوانيّة في مواعيدها مع أناس مؤتمنين. فقبل الإيلخان اقتراحه وأصدر مرسوماً باجرائه.

وحصل اليهود في ظلّ اقتداره على اعتبار فائق ومنزلة عالية، ورأوا

أنفسهم، بعد سنين من الذل، جلساء الإيلخان والأمراء وقرناءهم.

وأصبحت الخزانة في عهد «سعد الدولة» عامرة، وصلح الفساد الّذي لازمها بضع سنوات. وتكدّس فيها أكثر من ألف تومان ذهبي. ولذلك أصبح توجه «أرغون» إليه يزداد يوماً فيوماً، وتمادى أمر «سعد الدولة» حتّى بلغ إلى الاستقلال المطلق والاستبداد[1] وهذاكان يزيد شيئاً فشيئاً في تحريك غضب الأمراء من رجال «أرغون» وحسدهم لـ«سعد الدولة». وبلغ ذلك منهم إلى أن صمّمت غالبيّتهم على قتله، بمعونة «طوغـان». وقرروا أن يقـوموا في أوّل فرصة تسنح بكفّ يد اليهود عن النفوذ وتخليص العامة من عار رئاستهم.

كان الإيلخان قد عهد بحكومة خراسان إلى ابنه «غازان»، كما ذكرنا. وكان نائبه الأمير «نوروز» ابن حاكم خراسان المغولي المشهور «أرغون آقا». وهذا الأمير كان قد دخل في دين الإسلام. وكانت بينه وبين «بوقا» صداقة. وإذ كان «سعد الدولة» أحد الّذين حـرضوا على قتـل «بوقـا»، فقد تـظاهر «نوروز» بأنّه يريد تفقد معسكره وإعداد حملة على بلاد ما وراء النهر، فأبقى «غازان» في «مرو» وذهب إلى مشتاه في خراسان.

في ذي الحجّة سنة ٦٨٧ هـ. وهنـاك أخذ يـدعو إلى الخـروج على «غازان»، وضم إليه كثيراً من أمراء تلك النواحي. وسار بجيشه في ٢٧ ربيع

---

(١) أصبح سعد الدولة سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩م) بمثابة الوزير لأرغون، فسـرعان مـا سيطر على الأمور. وفي السنة نفسها عين أخاه فخر الدولة إيليا نائب الوزارة في العراق، أي والياً على العراق يساعده اليهودي نصر بن الماشعيري، وعين أخاه الآخر أمين الدولة قائـداً عامـاً في الموصل وماردين وديار بكر، وأوكل مهمة الأشراف على تبريز إلى ابن عمه مهذب الدولة بن منصور الطبيب، وأرسل إلى كل قطر من أقطار الدولة الإيلخانيّة أقاربه أو معارفه.

وكان أرغون قد أطلق العنان لليهود، ومما عهد به إليهم الإشراف على تركات المسلمين وتنفيذ الخطة التي وضعها المغول بالاستيلاء على تلك التركات وحرمان ذراري المسلمين من حقوقهم فيها، مستغلين كثرة تلك التركات وفقدان العدد العظيم من السكان في العراق بعد فتح بغداد. ويبدو أن ما وصل إليه اليهود من مكانة في عهد أرغون قد بلغ مسامع اليهود في أقطار أخرى، فبدأت لذلك هجرة يهودية إلى العراق.

فقد جاء في كتاب «الحوادث الجامعة» عن حوادث سنة ٦٨٧ هـ ما يلي: «وفيها وصل إلى بغداد جماعة من اليهود من أهل تفليس، وقد رتبوا ولاة على تركات المسلمين».

الأوّل إلى «غازان»، وكان مقيماً في نواحي «كشف رود» فهاجمه. فتراجع «غازان» منهزماً صوب مازندران. وبعد أن جمع جيشاً عاد إلى محاربة «نوروز» في ربيع الآخر من تلك السنة. ولكنه انهزم أيضاً في نواحي «رادكان» وحصل الأمير «نوروز» على كثير من الغنائم وأخذ كثيراً من الأسرى.

ولما بلغ خروج الأمير «نوروز» وهزيمة «غازان» إلى «أرغون»، بعث فريقاً من ضباطه [illegible] أمرائه، وفيهم ابن عمّه الأمير «بايدو» إلى صدّ الأمير «نوروز». ورأى هذا أنّ لا قبل له بهم ففر إلى تركستان. وجاء «غازان» إلى «هرات» ثم استولى على خراسان سنة ٦٩٨ هـ.

واتصل «نوروز» في تركستان بأميرها «قيدو خان» وحرّضه على غزو خراسان والاستيلاء عليها، فأعطاه جيشاً عدته حوالى ثلاثين ألف جندي، فسار به ووصل إلى خراسان سنة ٦٩٠ هـ، فتراجع «غازان» عن لقائه. ولكن جنود «قيدو» أوقعوا بأهل خراسان نكبات كثيرة، فكرهوهم، ونهضوا إلى مقاومتهم بالسرقة والتبييت، وقتلوا كثيراً منهم. فكدر ذلك صفو العلاقات بين «نوروز» ورؤساء ذلك العسكر المغوليين. واتّفق أن توفي «أرغون» في تلك الأيّام، فرأى «نوروز» أنّ الصلاح في مسالمة «غازان» وطلب العفو منه. وهكذا كان. فعفا عنه، ووصل إليه في سنة ٦٩٣ هـ فاستقبله «غازان» بالمسامحة والعطف.

وكان الأمير «طوغان» رئيس شحنة «قهستان» السابق من المقربين إلى بلاط «أرغون»، وكان مخالفاً لـ«سعد الدولة». ويوم فتنة الأمير «نوروز» بعث به الإيلخان إلى خراسان لقمع ذلك الأمير. ولكن اتفق أن وصل «طوغان» إلى خراسان حين فرّ «نوروز» فرجع أدراجه.

واعترض عليه «سعد الدولة»، يسانده في ذلك جماعة من خصوم «طوغان»، بأنّه اتخذ لنفسه من البريديين أكثر ممّا هو مقرر له. وأمر بجلده سبعة عشر سوطاً، حسب القانون الجنكيزي (ياسا). وأنفذ فيه الحكم بحضور جماعة من الأمراء. وقد أغضبت هذه الإهانة «طوغان»، ودفعته أكثر من السابق إلى السعي في إسقاط «سعد الدولة». ولكن الإيلخان كان يثق بوزيره

كلّ الثقة ولا أحد يجرؤ إلى مفاتحته بحديث سوء عنه. ومن ثم لم يكن لمخالفيه بد من الصبر والتربص وتحمّل جفائه إلى أن تسنح الفرصة.

وإذ رأى «سعد الدولة»، في آخر الأمر، أن كثيراً من أمراء المسلمين وعلمائهم ومتنفذيهم قد حزموا أمرهم على قتله وقتل أصحابه من اليهود، قرر أن يستغل تسلّطه على «أرغون»، فيتمكن من استئصال حياتهم، وذلك بأن ينفذ عن طريق الإيلخان خطّة وضعها لذلك.

فقال يوماً لـ«أرغون» إن النبوة وصلت من «جنكيز خان» إلى الإيلخان العادل بالإرث، فهو رسول من قبل الله. وإذ كان قيام دين الرسل منوطاً بالكفاح وقلع المخالفين، فعلى الإيلخان أن يأمر بضرب عنق كلّ من يعاند ديانته ويرفض الدخول في الملة الجديدة. وإذ كان «أرغون» يكره المسلمين فقد أمر بإبعادهم عن المعسكر ومنعهم من التدخل في أمور الدولة. ونظم «سعد الدولة» محضراً في موضوع خطّته يصل به إلى غايته. ووقع على هذا المحضر أيضاً جماعة من علماء المسلمين بالموافقة على خطّته.

وعزم «سعد الدولة» على جعل الكعبة بيتاً للأصنام. وبدأ بمكاتبة يهود الجزيرة العربية. وأخذ يعد العدة لسوق جيش إليها، فأمر بتهيئة مقدمات وبناء سفن له في بغداد. ووجه أحد ابناء ملته اسمه «نجيب الدّين الكحال» إلى خراسان ومعه قائمة بأسماء مائتي رجل، ووجه آخر منهم اسمه «شمس الدولة» إلى شيراز ومعه قائمة بأسامي سبعة عشر رجلاً، وأمرهما بقتل أولئك المذكورة أسماؤهم في القائمتين، ليمهد بذلك الطريق إلى تحقيق خطّته التي يفكر بفرضها على الناس.

غير أنّ «أرغون» مرض في هذه الأثناء، وكان في تبريز. فسافر إلى «موقان» مستشفياً. ولكن مرضه اشتد وعجز الأطباء عن مداواته. وأيقن «سعد الدولة» أنّ الإيلخان، وهو وسيلته إلى تحقيق مقاصده، إذا مات زالت بموته دولته. ولذلك اهتم بتأليف قلوب الناس وجبر ما انكسر على يده، فكتب إلى مختلف النواحي يأمر بدفع الظلم وإصلاح الفساد وإطلاق المحبوسين وإجراء الصدقات والمبرات. وكتب مرّة في يوم واحد سبعين رسالة في هذا

الموضوع، وتصدّق بثلاثين ألف دينار على البغداديين وعشرة آلاف دينار على الشيرازيين. وكان ظاهر هذه الأعمال هو دفع البلاء عن الإيلخان وطلب الشفاء له. وباطنها إستمالة قلوب الناس إليه. ولكن أمله خاب في المسعيين كليهما. فلا «أرغون» شفي من مرضه ولا دولة «سعد الدولة» دامت له، بل قضيا كلاهما معاً!.

كان لـ«أرغون» اعتقاد راسخ بالكيمياء والتنجيم والسحر، شأنه في ذلك كشأن أغلب سلاطين المغول. ومن ثم كان للكهان والسحرة منزلة كبيرة في حاشيته. فصنعوا له معجوناً مركباً من الزئبق والكبريت ومواد أخرى وأطعموه إيّاه. فكان سبباً في مرضه وفلجه ثم موته.

ولمّا اشتد مرض «أرغون» قال له الكهنة إنّ ما يستفاد من النظر في العظم[1] هو أنّ السحر سبب العلة. واتهم «أرغون» إحدى زوجاته بذلك فأوقع بها العذاب. وتفاقم الهرج والمرج، خصوصاً حين تقرر إطلاق المحابيس طلباً لنجاة الإيلخان، فتبين أنّ جماعة من الأمراء كانوا قد قتلوا. فقد قال السحرة إنّ قتل هؤلاء الأمراء كان السبب في مرض الإيلخان. فأمر «أرغون» بقتل من كان السبب في قتلهم. وفي تلك الأثناء لم يكن يسمح لأحد بزيارة «أرغون» ودخول خيمته غير «سعد الدولة» ورجل آخر من الأمراء.

وسارع «سعد الدولة» إلى إرسال رسل من قبله إلى «غازان» يدعوه إلى آذربيجان لعلّه يستطيع أن ينجو بنفسه إذا وصل قبل موت الإيلخان، إذ يكون قد هيّأ من الأمير مدافعاً عنه في مقابل مخالفيه ولكن حدث، قبل وصول «غازان» من خراسان، أن أقام الأمراء مجلس أنس في بيت «طغاجار». وكان في جملة حديثهم أن قالوا أنّ حجب «سعد الدولة» للناس عن الدخول إلى الإيلخان لم يكن منه إلاّ مكراً وحيلة. وقرروا أن يقتلوا كلّ من كان سبباً في ظهور الفتنة. وأنفذوا قرارهم فقتلوهم كلّهم. واعتقلوا «سعد الدولة». وفي

(١) من أهم الوسائل التي كان السحرة المغوليون يستعملونها للتنبؤ وكشف المستقبل ومعرفة الآثار التي سببها السحر أن ينظروا في عظم كتف الغنم. وطريقته أن يوضع عظم الكتف في النار حتى يسودّ. فإن ظل بعد ذلك سليماً كان المآل إلى خير، وإن انصدع أو تكسر كان شراً.

سلخ صفر سنة ٦٩٠ هـ جاؤوا به إلى بيت «طغاجار» وقتلوه فيه. ولم يلبث «أرغون» أن لحق به في السادس من ربيع الأوّل من تلك السنة. فزالت دولة كلّ منهما واحدة بعد الأخرى.

وتلقت بلاد الإسلام خبر مقتل «سعد الدولة» بالسرور والشماتة. وهب الناس إلى قتل اليهود بأبشع أنواع القتل والإغارة على أموالهم في كل البلدان. ما عدا شيراز إذ كان حاكمها اليهودي «شمس الدولة» قد سبق له فيها عدل وحسن سيرة ورفق بالناس، فكافؤوه على ذلك بأن عاملوه معاملة حسنة. وبعد سنة، في عهد «كيخاتو خان» أعيد «شمس الدولة» هذا إلى حكومة شيراز مرّة ثانية(١).

سياسة «أرغون» الخارجية

كانت الروابط بين «أرغون خان» وأمهات الممالك الشرقية والغربية صافية. ولم يحدث أن وقعت حرب مهمّة بينه وبين غيرها من الممالك.

وكان، كمن سبقه من الإيلخانات، يعظم «قوبيلاي» أخا «هولاكو» وعظيم المغول، ويعده سيّداً عليه.

وفي أواخر أيّامه توفيت إحدى زوجاته وكانت حبيبة إليه. وقد أوصته بأن لا يتخذ له زوجة بعدها من غير اسرتها. وكانت اسرتها تقيم في بلاد «الختا».

---

(١) عن طغيان سعد الدولة وسيطرة اليهود يقول شاعر ذلك العصر:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... مرتبة لا ينالها ملك
يا معشر الناس قد نصحت لكم ... تهودوا قد تهود الفلك

لما نال اليهود ما نالهم بعد ذلك بهلاك سعد الدولة قال علي بن صاعد:

نحمد من دار باسمه الفلك ... هذي اليهود القرود قد هلكوا
وقارن النحس سعد دولتهم ... وافتضحوا في البلاد وانهتكوا
وشتت الله شمل ملكهم ... وبالحسام الصقيل قد سبكوا
كم حكموا في البلاد لا حكموا ... وارتكبوا الموبقات وانتهكوا
أبكاهم الله عاجلاً أسفاً ... من بعد ما في زمانهم ضحكوا

وعمل بوصيتها. فبعث بوفد من ثلاثة أمراء من رجاله مرافقين لهم إلى «قوبيلاي قاآن» يطلبون منه اختيار أميرة من تلك الأسرة وإرسالها عروساً إلى بلاط «أرغون». فاختار له صبيّة فائقة الجمال في السابعة عشرة من عمرها. واتفق أن كانت هذه الرحلة أيّام كان الرحالة البنادقة الثلاثة المعروفون «نيكوبولو» و «مافيوبولو» و «ماركوبولو» في تلك الديار. وفي سفر العودة إلى إيران رافقهم هؤلاء الثلاثة. وكان سفرهم بطريق البحر. وقد أعطى «قوبيلاي قاآن» كلاً من موفدي «أرغون» والبنادقة شارة مغولية خاصة هي بمنزلة التوصية بهم لتسهيل وسائل السفر ومعاملاته لهم. وحمّل البنادقة الثلاثة رسائل إلى ملوك فرنسا وإنكلترا وإسبانيا وغيرهم من ملوك أوروبا. وانطلقت قافلتهم، وعدتها ستمائة نسمة، على ثلاث عشرة سفينة إلى إيران، فوصلتها بعد ثمانية عشر شهراً، ولم يبق منها حيّاً سوى سبع عشرة نسمة. وكان بين الّذين قضوا نحبهم اثنان من الأمراء المغول الثلاثة الّذين اوفدهم «أرغون» إلى «قوبيلاي قاآن»!.

وحين وصلوا إلى «هرمز» بلغهم نبأ وفاة «أرغون». فبعثوا إلى الإيلخان الجديد «كيخاتو» يسألونه ماذا يفعلون؟ فأمرهم بالتوجه إلى «غازان». فمضى البنادقة والأمير المغولي الّذي بقي حيّاً إلى «أبهر» زنجان حيث اجتمعوا بـ«غازان» وسلموا إليه الأميرة، فتزوج بها. وفي تلك الأيّام توفي «قوبيلاي قاآن».

ولم تقع حرب بين «أرغون» وسلاطين مصر والشام في كل مدّة حكمه. إذ كان هو يبذل كل مساعيه في سبيل جمع المال، واستخدام النصارى واليهود لنيل الرعاية والعناية منهم، والاشتغال بالكيمياء وما أشبه ذلك. وكان سلاطين المسلمين أيضاً يقاسون في ديارهم مشاكل كثيرة تصرفهم عن التفكير في محاربة «أرغون» ولاسيّما «قلاوون»، كانت تشغله محاربات أنصار الملك الظاهر «بيبرس» أي المماليك الظاهريين ومحاربات «سنقر الأشقر» والصليبيين والدرمن، فلا يستطيع التفرغ لمساعدة المسلمين الّذين يذلهم الخضوع لعبودية النصارى واليهود في بلاد الإيلخان، وقد غلبوا على أمرهم، بعد أن كان

بيدهم زمام أمور الممالك الإيلخانية في عهد السلطان أحمد.

وإذ كان «أرغون»، بخلاف السلطان أحمد، راغباً في التودد إلى النصارى وترميم الكنائس التي هدمها سلفه، وإعادة بيت المقدس إليهم، فقد راسل البابا وملوك أوروبا في هذا الشأن. من ذلك مراسلته للبابا «هنريوس الرابع» والبابا «نيقولا الرابع»، وإطلاعهما على نياته في خدمة العالم المسيحي. وقد شكره هذان على مساعيه وشجّعاه على عمله، وأبلغا رسائله إلى ملك إنكلترا «إدوارد الأوّل» وملك فرنسا «فيليب لوبل». وبعث هو أيضاً بهذا الشأن رسالة إلى «فيليب لوبل». ولكن هذه المكاتبات لم تنته إلى نتيجة عملية في إنفاذ الخطّة التي أرادها البابا و«أرغون»، وهي تسيير حملة عسكرية إلى محاربة المسلمين. وكل ما بلغت إليه هذه المكاتبات هو توثيق الروابط بين بلاط الإيلخان والباباوات وملوك أوروبا. وكانت نتيجة ذلك ازدياد نفوذ رجال الدّين النصارى في الممالك الإيلخانية، ورواج الدّين المسيحي وآدابه في الشرق مرّة خرى.

سلطنة «كيخــاتو خـــان»

بعد وفـاة «أرغون» اختارت أكثرية أمراء المغول أخاه «كيخاتو» لمنصب الإيلخان. وكان هذا حاكماً على بلاد الرّوم. فبعثوا إليه رسولاً يـدعوه إلى آذربيجان ليخلف أخاه، فخف إليها. وكان رأي آخرين من رؤساء المغول أن يخلفه «بايدو» بن «طرغاي» وحفيد «هولاكو». وكان هذا حاكماً على بغداد، فكتبوا إليه يدعونه إلى الحضور لهذه الغاية. ولكنه رفض طلبهم وأعلمهم أنّه لا يتقدم على «كيخاتو».

ولمّا وصل «كيخـاتو» إلى «آلاتـاغ» خف إلى استقبالـه أمراء المغـول ورؤساؤهم وضباطهم. وكان أكثرهـم تحزباً له وسعياً إلى استخـلافه «أوروغ خاتون» زوجة «أرغون خان» وحفيدة «دوقوز خاتون» زوجة «هولاكو» وأم «أباقا خان». وهي من «الكرايتيين»، وكانت أيضاً نصرانية.

وفي يوم الأحد ٢٣ رجب سنـة ٦٩٠ هـ جلس «كيخاتـو» على عرش الإيلخان»، وأقيمت مراسم الاحتفال والفرح المعتادة. بعد ذلك رفع «كيخاتو» يد الأمراء الّذين سلكوا طريق الخلاف في أواخر عهد «أرغون» عن الأعمال الموكولة إليهم وحولها إلى غيرهم من الأمراء. وسلّم من بينهم «طوغان» إلى أولاد أميـر كان قـد قتـل بسعي منـه ليقتلوه بـأبيهم. وبعث «أنبـارجي» بن «منكوتيمور» إلى خراسان ليتولى أمور إدارتها، وعهد إلى «سنكتور نويـان» بنيابة السلطنة وتعهد شؤون الجيش.

واتفق أن كان جلوس «كيخاتو» حين ثارت جماعة من تركمان بلاد الرّوم ويونانييها على جيش المغول المقيم هناك، ولزم إرسال جيش إليها لقمع الثورة. فسار «كيخاتو» في ٤ رمضان سنة ٦٩٠ هـ بجيشه إلى بلاد الرّوم، فكسر المتمردين، وساعده الكرجيون على ذلك، وعاد منصوراً إلى إيران في جمادى الآخرة سنة ٦٩١ هـ.

وقد طالت غيبته في بلاد الروم عشرة أشهر تقريباً. وإذ كان معجلاً لم يتيسر له بعد استقرار، ولا تمكن من استقصاء مخالفيه بإلزام كل واحد منهم حده، فقد أخذ الأمراء المخالفون ينشرون إشاعات كاذبة عن هزيمة الرّوم له. وطمع «أنبارجي» حاكم خراسان الجديد في منصب الملك. وأخذ الفساد يدب في شؤون المملكة بسبب غرارة «سنكتور نويان» وظلم المأمورين والجباة.

ولمّا تبين كذب هذه الإشاعات ووصلت أخبار انتصار «كيخاتو» وعودته إلى إيران، اعتقل «سنكتور» الأمير «طغاجار» وكان أحد الناشرين للإشاعات الكاذبة، واعتقل معه نائبه «الخواجة صدر الدّين أحمد الزنجاني»، وسلّمهما إلى «كيخاتو». ولكن هذا عفا عنهما وأكرمهما، إذ كان متسامحاً سليم النفس.

وكان «كيخاتو» قد وعك في أثناء سفره إلى بلاد الرّوم. واشتد مرضه وهو عائد منها. فاستُدعي العلماء والأئمة المسلمون وأساقفة النصارى وأحبار اليهود للدعاء له بالشفاء والبقاء. ووزعت صدقات كثيرة، إلى أن أبل «الإيلخان» من مرضه ونجا من الموت. فأقام «كيخاتو» احتفالاً عظيماً ابتهاجاً بسلامته وتجديد عافيته وعكف على مجالس الأنس واللهو مدّة شهر كامل. ووزع على أمراء المغول وخواتينهم الذخائر والنفائس التي كان «أرغون خان» و «سعد الدولة» قد جمعاها بتكبد المشقات وإيذاء الناس. وأصدر مراسيم بإطلاق المحابيس وإعفاء العلماء والسادات وأئمة الدين من دفع الضرائب. وهذه الأعمال، وإن تكن في الظاهر بلغت به إلى الكمال في طيبة النفس والكرم والتسامح، إلاّ أنّها في الواقع قد زعزعت أساس دولته، إذ افتقرت الخزانة وقللت العائدات، ومن ثم انتهت بالناس إلى الشقاء.

وزارة «صــدر جهــان»

بعد انتهاء مراسم الفرح والابتهاج اختار «كيخـاتو» الأميـر «آق بوقـا» لمنصب «أمير الأمراء». وأمر بأن يكون «سنكتور نويان» و«طغاجار» مأمورين تحت يده. واختار «الخواجة صدر الدّين أحمد الخالدي الزنجاني» لمنصب «صاحب الديوان» في كل الممـالك ومنصب وزارة الإيلخـان، ومنحه لقب «صدر جهان»، وفوض إليه التصرف في أعماله تفويضاً مطلقاً. وصدر الدّين هذا كان في سنة ٦٧٩ هـ حليف «مجد الملك» ضد الأسرة الجوينية. وبعده كان ينوب دائماً عن الأمير «طغاجار» في حكومة فارس وفي مهمات أخرى. وتلقى الأمراء والرؤساء تعيينه بالارتياح. وأصبح الرجل الأوّل في كل الممالك الإيلخانيّة. واختار الإيلخان «قطب الدين» أخا «صدر الدّين» لمنصب قاضي القضاة لكلّ الممالك الإيلخانيّة. وأصبح، بعد ذلك، يلقب «قطب جهان»، وكان في السابق يعمل في معيّة الأمير «أنبار جي» في خراسان.

وفي شهر ذي القعدة سنـة ٦٩٢ هـ قام جمـاعة من مـوظفي الشؤون المالية بالسعاية بـ«صدر جهان الزنجاني» وأوصلو إلى مسامع الإيلخان أنّـه يأخذ أكثر الأموال الديوانية لنفسه ولا يوصل الرواتب والنفقات الواجبة للعسكر ودوابّهم إلى مستحقيها. وأنّه يقتطع لنفسه ولأداء ديونه أكثر من ثلاثين توماناً من أصل ثمانين توماناً هي ضرائب تبريز وأعمالها. إلاّ أن الإيلخان لم يصغ إلى هذه التقارير، وإن كان بعضهـا، وهو عمـدتها، صحيحـاً. وزاد فأطلع «صدر جهان» على وشاية مأموريه به وسلمهم إليه. ولكن «صدر جهان» عفا عنهم وقبل اعتذارهم.

وبعد هذا أصـدر الإيلخان مـرسومـاً بعزل كـل من الرؤسـاء والحكام والعمال والكتاب من ضفة «جيحون» إلى حد مصر. وأمرهم بأن يسمعوا لأمر «صدر جهان» ويطيعوه. وله أن يعين منهم من يشاء للعمل الّذي يشاء. وحظر على الأمراء أن يمنحوا مالاً أو يقطعوا إقطاعاً بدون إذن من «صدر جهان». وهذه اللفتة من الإيلخان أطلقت يده أكثر مما مضى في التصرف بالأعمـال وزادت في قوّة شوكته واقتداره.

إصدار النقد الورقي

كان «كيخاتو خان» امرءاً من أهل القصف والتبذير. لا يعتني بالمال. ويعد الذهب والفضة والجواهر على درجة رمال الصحراء في الحقارة. ولا يقيم لها وزناً إلّا بما هي زينة للنساء فقط. وكان يتشبه بـ«أوكتاي قاآن» في البذل. ومن ثم لم يلبث أن أفرغ خزانة الدولة. وسلك «صدر جهان» هذا المسلك أيضاً بدلاً من أن يسعى إلى منع إسراف الإيلخان إسرافاً لا مسوغ له. فأفرط في البذل والتبذير خصوصاً ما كان من ذلك مؤلفاً لقلوب الناس، ولا سيّما العباد والزّهاد، فقد منحهم أموالاً وافرة، حتّى بلغت الديون التي عليه حوالي خمسمائة تومان في مدة سنتين من وزارته. وتمادت بهم الحال على هذا النحو من الأعدام. وزاد في الطين بلّة وباء نزل بقطعان المغول، فنفقت أكثر أغنام الحشم، خصوصاً ما كان منها في ديار بكر والموصل وبغداد وخراسان. ولم يبق في الخزانة شيء من المال لمساعدة أمراء المغول وإصلاح حالهم. فزاد ذلك في فقر المغول وفساد معيشة الجيش.

وفي عهد «صدر جهان» و«كيخاتو» قدرت عائدات الخزانة بمبلغ ١٨٠٠ تومان في السنة. منها ٧٠٠ تومان نفقات الديوان ومخصصات الديوانيين. وما بقي منها لم يكن كافياً للقيام بالمهمات الملكية. وبذل الإيلخان وعطاياه. وكانت نفقات مطبخ الأمراء والخواتين في زمان «أباقا» والسلطان أحمد ٤٠ توماناً فقط. وفي عهد «كيخاتو» و«صدر جهان» بلغت نفقات المطبخ الملكي ١٦٥ توماناً، ومع ذلك كانوا كلّهم يتذمّرون ويرون أنّ هذا المبلغ غير كاف. ووصلت الحال من الفقر وفقدان المال إلى أن كانوا أحياناً لا يجدون في الخزانة ثمن خروف لمطبخ الإيلخان.

وقاطع «صدر جهان» أحد اليهود اسمه «رشيد الدولة» على أن يتعهد بتهيئة لوازم المطبخ الإيلخاني، على أن يعاد إليه ما ينفقه من جيبه على المطبخ في آخر كل شهر من الخزانة الملكية. فاشترى اليهودي بماله مقداراً من البقر والغنم واستخدم عدة من الطبّاخين وبدأ عمله. وإذ كانت الخزانة خاوية وأيدي عمال الولايات فارغة من المال فهم عاجزون عن دفع الحوالات

التي كان يكتبها «صدر جهان» للمتعهد، وكان هذا قد أنفق كل ثروته، وأصبح عاجزاً عن القيام بتعهده، فقد فر وتـوارى عن الأنظار. وهكـذا ظل مـطبخ الإيلخان مختلاً.

وفي هذه الأثناء دخل في حاشية «صدر جهان» رجل اسمه «عز الدين محمد بن المظفر بن العميد»، وأصبح مستشاره. وكـان مطّلعـاً على أوضاع الصين. فاقترح عليه إصدار عملة ورقية بدلاً عن العملة الذهبية والفضيـة، على نحو ما يفعلون في الصين. ويسمّونها «شاو». ويكون ذلك منفرجاً للأزمة الواقعة.

وراق هـذا الأقتراح لـ«صـدر جهان» و «كيخـاتو». وخـالفـه «سنكتـور نويـان». واستشار «صدر جهان» «بولاد شينك سانك» سفير «قاآن» في ذلك، ثم صمم على إنفاذ الاقتراح وجعل التعامل بهذه العملة الورقية. وفي جمادى الآخرة سنة ٦٩٣ هـ، أصدر الإيلخان مرسوماً بمنع التعامل بالذهب والفضة، اعتباراً من هذا التاريخ، وكذلك وقّف حياكة الأقمشة التي يدخل الذهب في حياكتها، ما عدا الأقمشة المختصة بالإيلخان وأمراء البيت المالك، ووقّف صياغة الأواني الذهبية والفضية، وكل عمل يقتضي إنفاق الذهب والفضة.

وأرسلوا إلى كل بلد من البلدان أميراً من الأمراء الكبار ليقوم بإعداد الوسائل اللازمة لإصدار العملة الورقية والإسراع في وضعها للتداول. وأقاموا في كل بلد جهازاً لضربها باسم «شاو خانه». وانهمك الأمير «طغاجار» و «آق بوقا» و «صدر جهان» بإقامة جهاز لها في تبريز. ثم طبعوا العملة الورقية، بعد أن أنفقوا على إعدادها المال جزافاً. وأكرهوا الناس بالقوة على التعامل بها. وسموها «الشاو المبارك».

وكان النقد الجديد عبارة عن قطعة من الورق على شكل مستطيل كتبت على طول حواشيهـا الأربع كلمـات بالخط الصيني، وفي طـرفي أعـلاهـا الشهادتان وأدنى قليلاً إلى أسفل كلمة «إيرنجين تورجي» وهي لقب «كيخاتو» بالمغولية. وفي وسطها رسم دائرة. ورقّمت عليهـا قيمتها، وهي من نصف درهم إلى عشرة دنانير. وكتبت عليها هذه العبارة:

«أجرى ملك العالم هذا الشاو المبارك في الممالك في تاريخ»
«سنة ٦٩٣ هـ. من غيّر وبدل فيه قتل هو وزوجته وولده»
«وصودر ماله وحوّل إلى الديوان»

وجاء في «تاريخ وصاف» في هذا الموضوع:

«جاؤوا برسالة الشاو(شاه نامه) إلى شيراز، وكانت مطوّلة جداً. خلاصتها أنّه لما جرى الشاو المبارك. كما تجري دموع المهجورين، بدلاً من الذهب ارتفع الفقر والفاقة والضر والمسكنة من بين الخلائق، ورخصت الغلات والحبوب، وتساوى الغني والفقير. ومدحه شعراء العصر وأفاضله، على ما يهوى الملك وصاحب الديوان. وذكر هذا البيت في الرسالة نموذجاً من ذلك، وهو من مقطوعة لأحد الأفاضل:

لو جرى الشاو في الدنيا
لعاد رونق الملك خالدا

«وإذ كان حكم قد صدر يحظر على أرباب الحرف الذين يستعملون الذهب والفضة في صناعاتهم شراءهما من أحد فعليهم أن يحصلوا عليهما من دار ضرب الشاو المبارك بالتقنين. وأصبحت معاشات الحكام والموظفين ورواتبهم محددة من هذا الشاو كلاً حسب استحقاقه».

«وكلما أوشك الشاو أن يرث فعلى الناس أن يحملوه إلى دار ضرب الشاو ليستبدلوا به جديداً، على أن يأخذوا تسعة دنانير بكلّ عشرة دنانير يعطونها».

وفي شوال سنة ٦٩٣ هـ وضع «الشاو» أوّل مرّة للتداول في تبريز. ولكنه قوبل بمشكلات عظيمة عند أوّل ظهوره. فقد امتنع الناس عن قبوله. ولمّا أجبروا على قبوله هجر فريق منهم المدينة وأغلق الباقون دكاكينهم لكي لا يعطوا بضائعهم هدراً بهذا النقد الذي يعد خالياً من كل قيمة. وبذلك توقفت معاملات البيع والشراء. وتهيّأ الناس للثورة، وأخذوا يلعنون واضعيه، وأرادوا

قتل «عزّ الدّين مظفر» مؤسسه. وحدث في شيراز ما حدث في تبريز أيضاً. وارتفعت شكوى الناس من كل ناحية.

عندئذ أفهم الأمراء و«صدر جهان» الإيلخان «كيخاتو»، أنهم يخشون أن يؤدي الوضع إلى عواقب وخيمة وأن يتحول تذمّر الناس إلى ثورة إن استمرت الحال على هذا النحو. فأصدر «كيخاتو» مرسوماً بإلغاء «الشاو». واطمأن الناس. وأطلقوا على هذا النقد الورقي اسم «الشاو اللامبارك»، لما سببه من مشقة عامّة وما تركه في الخواطر من ذكرى قبيحة، وأطلقوا على «صدر جهان» لقب «الشاوي».

جاء في «جامع التواريخ» للرشيدي:

«في يوم الجمعة السابع والعشرين من شعبان توجه «آق بوقا» و«طغاجار» و«صدر الدين» و«تماجي إيناق» إلى تبريز لوضع الشاو في التداول، فوصلوها في التاسع عشر من رمضان، وأعدوا قدراً كبيراً من الشاو وأصدروا مرسوماً بشأنه. وفي يوم السبت التاسع عشر من شوال سنة ٦٩٣ هـ أبرزوا الشاو ووضعوه في التعامل، وأصدروا بلاغاً بأن كل إنسان لا يقبله يقتل. وقبله الناس في مدة أسبوع واحد خوفاً من السيف ولكنهم لم يكونوا يبيعون به إلّا شيئاً قليلاً بسبب الفرق الكبير بين قيمته الشرائية وقيمته المفروضة. واضطر أكثر أهالي تبريز إلى النزوح عنها وخلا السوق من الأقمشة والأغذية، حتى لم يبق فيه شيء للبيع والشراء. ولجأ الناس إلى البساتين يأكلون فاكهتها. وخلت تلك المدينة المكتظة بالسكان من سكانها. وانطلق العيارون والأوباش في الأزقة يسلبون كلّ من وجدوه فيها، وانقطع ورود القوافل إليها. وأخذ العيارون يكمنون ليلاً في الطرقات، فإن رأوا مسكيناً استطاع بحيلة ما أن يحصل على حمل دابّة أو ملء سلّة من الفاكهة لأهله أخذوه منه، فإن منعهم قالوا له بعنا إيّاه وخذ ثمنه شاواً مباركاً وعرفنا من أين اشتريته. وبالجملة وقع الناس في ضيق من هذا العمل، ورفع المساكين أيديهم بالدعاء. واتفق يوماً أن كان «كيخاتو» ماراً في السوق، فرأى الدكاكين خالية، فسأل عن السبب، فأجابه صدر الدين بقوله إن شرف الدين لاكوشي،

وهو من وجهاء تبريز، قد توفي. وعادة أهل تبريز إغلاق السوق عند وفاة الأعيان.

«وشغب جماعة في المسجد الجامع على قطب الدين (أي قطب جهان أخي صدر جهان) شغباً عظيماً حتّى حصلوا على إذن بأن يبيعوا في السر في الزوايا طعاماً بالذهب. ومع ذلك قتل جماعة لهذا السبب. وتعطلّت المعاملات وأوراقها الرسمية تعطلاً تاماً».

«وكان درويش يوماً ماراً في السوق فرأى صدر جهان، فتقدم إليه وأخذ بعنان فرسه وقال له:

رائحة الأكباد المحترقة لفّت الدنيا

فإن لم تكن قد استنشقتها فليهنك هذا الأنف الذي لك؟

فتأثّر صدر الدين من هذه المقالة، وحصل، بموافقة مستخدميه، على مرسوم بجواز التعامل بالذهب، ولكن بعد خراب البصرة، وتجرّأ الناس على التعامل به علناً، وعادوا إلى المدينة، فلم تلبث أن عمّرت مرة أخرى، وانتهى أمر الشاو إلى العدم، إذ تركه الناس وتخلّصوا من متاعبه». أ. هـ.

مقتل «كيخاتو»

كان «كيخاتو» ضعيف النفس مبذراً. وإلى هذا كان سكيراً فاسقاً من أهل القصف واللهو. وقد آذى الجميع في مدة حكمه القصيرة بتعديه على الأعراض، وضاق به ذرعاً الرؤساء والأمراء، لإطلاق يده بالظلم وانتهاك الحرمات. وكان حاكم بغداد والعراق «بايد وأغول» بن «طرغاي» وحفيد «هولاكو» أكثرهم طلباً لزوال دولته والحلول في منصبه وشجعه على ذلك جماعة من الأمراء.

وفي أواخر حكم «كيخاتو» سكر مرة في مجلس لهو أقيم في «آلاتاغ» وكان «بايدو» حاضراً فيه. ولأمر ما غضب الإيلخان على «بايدو» غضباً شديداً وشتمه. وفي الصباح ندم على ما كان منه وحاول استرضاء «بايدو». ولكن هذا

تظاهر بأنّه غير ساخط. ثم سافر إلى بغداد. ولكنه قبل سفره تواطأ والأمراء على أن يعود بعد سنة إلى المعسكر ويتعاونوا على قتل «كيخاتو» وإخلاء العرش الإيلخاني منه.

وعرف «كيخاتو» بالمؤامرة واعتقل أكثر الأمراء المتواطئين. وحرضه جماعة من خواصه على قتلهم ولكنه لم يصغ إليهم، وعمل برأي الأمير «طغاجار» ـ وكان هواه مع المتآمرين باطناً ـ وهو أن يحبس المتآمرين ويحضر إليه «بايدو» ويحقق في الأمر بحضوره، وبعد التحقيق ينتقم من المتآمرين.

وعهد «كيخاتو» إلى الأمير «طغاجار» بالمحافظة على الأمراء المتواطئين. وبعث هذا سرّاً رسولاً إلى «بايدو» وأعطاه رسالة يدعوه فيها إلى التوجه بجيشه إلى المعسكر للحرب، على أن يلتحق به هؤلاء الأمراء المحبوسون عند وصوله، بعد أن يكونوا قد انتهوا من أمر «كيخاتو».

ولمّا وصل خبر تحرك جيش «بايدو» إلى الإيلخان هيّأ هو و«صدر جهان» جيشاً باقتراض مبلغ من المال أخذاه من هذا وذاك، وبعثا منه خمسة آلاف جندي بعنوان مقدمة، وألحقا به عشرين ألفا بقيادة «آقبوقا» و«طغاجار»، من طريق همدان. وانتقل «كيخاتو» من «آلاتاغ» إلى تبريز.

وتلاقت مقدمة عسكر الإيلخان وعسكر «بايدو» ووقعت الحرب وقتل فريق من جنود «بايدو». ثم توقف جند «كيخاتو» عن المحاربة منتظرين وصول المدد. ولكن «طغاجار» أعلن العصيان وجاهر بأنّه حامي «بايدو»، ويرفض إطاعة أوامر «آقبوقا»، ففر هذا مع قلة من مناصريه إلى الإيلخان. ولمّا ذاع الخبر انفض سائر العسكر عن «كيخاتو». وأمر «طغاجار» بإطلاق الأمراء المحبوسين فأطلقوا. وفر «كيخاتو» إلى «موغان» فاعتقله هناك الأمراء المتمردون، ثم قتل يوم الخميس السادس من جمادى الأولى سنة ٦٩٤ هـ.

سلطنة «بايدوخــان»

وبعد مقتل «كيخاتو» اختـار الأمير «طغـاجار» وسـائر الأمـراء «بايـدو» لمنصب الإيلخانية. وخلف «كيخاتو» على العرش في شهر جمادى الأولى سنة ٦٩٤ هـ في القرب من همدان. ثم قتل جماعة من خواص «كيخاتو»، وأقيمت مراسم الأنس والفرح المعتادة.

وبعد ذلك بعث برسله إلى مختلف نواحي المملكة يحملون مناشيـر تتضمن أن «كيخــاتـو»، إذ كــان قـد سلك مسلك الغفلة في إدارة شؤون المملكة، ولم يراع قانون جنكيز(ياسا)، فقد أبعدناه بموافقة الرؤساء والأمراء والخواتين. وقررنا إيصال الخيرات والمخصصات التي كان آباؤنا قد قرروها إلى مستحقيها. وأعفينا الأوقاف الإسلامية من الضرائب.

ثم عين الامير «طغاجـار» في منصب أمير الأمـراء، وأوكل إليـه تعهد شؤون الجيش. وعين لوزارته «جمال الدين الدستجرداني». وهذا غيّر اسم منصب «صاحب الديوان» باسم «الوزارة». وعهد بالحكومة والإدارة في كل مملكة من الممالك إلى واحد من الرؤساء والامراء، كما كان الوضع في عهد «أباقا»، وجعل حكومة بلاد الرّوم للأمير «طغاجار» وجعل نائبه «صدر الدين أحمد الزنجاني» أي «صدر جهان» الشاوي.

عصيـان «غــازان»

كان الأمير «غازان» يوم جلوس «كيخاتو» سنة ٦٩٠ هـ في «سمنان» بعد أن هزمه الأمير «نوروز» كما ذكرنا سابقاً. فلما سمع بوفاة «أرغون» وجلوس «كيخاتو» جاء إلى «دماوند». ومن هناك بعث أحد أمرائه إلى «كيخاتو» يطلعه على أوضاع خراسان السّيئة، ويطلب منه المساعدة. فأنجده الإيلخان الجديد بالأمير «أنبارجي» وجماعة آخرين من الأمراء. وأدى ذلك إلى توطيد الأمن في خراسان.

وفي سنة ٦٩٢ هـ توجه «غازان» قاصداً آذربيجان للاجتماع بـ«كيخاتو» وإطلاعه على أوضاع خراسان. وإذ كان «كيخاتو» لا يرى صلاحاً في مجيئه إلى معسكره، فقد بعث إليه بجماعة من الأمراء أرجعوه إلى خراسان. وقد ذكرنا سابقاً أنّه في سنة ٦٩٣ هـ تغلب على الأمير «نوروز»، ثم لم يلبث هذا أن ذهب إليه يطلب صفحه فعفا عنه، وعاد إلى ملازمته كما كان.

ولمّا وصل خبر مقتل «كيخاتو» إلى «غازان»، ظهر عليه أنّه لا يعير هذا الحادث اهتماماً كثيراً. وأطلق يد الأمير «نوروز» إطلاقاً كاملاً، كما كان أبوه «أرغون آقا» قبله، في حكومة خراسان، وانصرف هو إلى الاشتغال بالصيد. وفي هـذه الأثناء لجـأ إليه جمـاعة من عسكـر «كيخاتـو» كانـوا يقيمون في مازندران. وبعث رسالة إلى «بايدو»، بعد أن استشار الأمير «نوروز»، ينبأه فيها أنّه متوجه إلى ملاقاته. وسار من خراسان نحو «دامغان».

ولم يكن «غازان» في أوّل الأمر يفكّر في محاربة «بايدو»، ولذلك لم يصحب معه أكثر من ٦٠٠٠ آلاف جندي، ولكن الأمير «نوروز» أفهمه أنّ أمراء «بايدو»، إذ كانوا يخشون سطوة «غازان» وقدرته، فقد اختاروا «بايدو» إيلخاناً لضعفه، وليتمكنوا، من ثم، من إدارة أمور المملكة على هـواهم. واقترح عليه إرسال وفد إلى «بايدو» يلتمس منه السماح له بلقاء خاص ويبلغه حسن نيته وإرادة الخير له، ويذكره بأن قانون «جنكيز» (ياسا) يحرم قتل أحد من أمراء العائلة المالكة بيد أحد من غيرهم، فمن خالف هذه السنّة وجبت عقوبته. وعليه يجب على «بايدو» اعتقال قاتلي «كيخاتو» ومعاقبتهم على هذا

العمل المنكر الّذي ارتكبوه. وسير «غازان» إلى «بايدو» رسلاً لهذه المهمة كما اقترح «نوروز».

والتقى رسل «غازان» في القرب من قزوين برسل بعث بهم «بايدو» إلى «غازان» ليبلغوه أن «بايدو» لم يكن راغباً في منصب الإيلخانيّة. ولكن، إذ كان «غازان» غائباً عن المعسكر حين مقتل «كيخاتو»، فقد اتفق الأمراء والخواتين والرؤساء على اختياره لهذا المنصب منعاً للتشويش وقطعاً للفتنة. ومن ثم فإنّ صلاح «غازان» في أن لا يعرض عسكره للتلف عبثاً، وأن يعود إلى خراسان.

فلما بلغت الرسالة إلى «غازان» عزم على الرجوع، إذ كان مرافقوه من الجند قلة، ولكن الأمير «نوروز» منعه من العودة، وقال له إنّ الموت شيء مقدّر. والأجمل أن يبذل المرء حياته ثمناً للشرف. وأن يختم عمره بالصيت الحسن. فأثر ترغيب «نوروز» في نفس «غازان» ووطن نفسه على المغامرة. وقسم جنده الستة آلاف بين رؤساء عسكره. ووعدهم بأن يمنح كل واحد منهم حكم ولاية إن هم ثبتوا حتى النصر، وانطلق رابط الجأش نحو خراسان.

ووصل خبر تحرك «غازان» إلى «بايدو» وهو في «هشترود» آذربيجان، فلم يجد بداً من الإسراع بإرسال «طغاجار» وأمراء آخرين مع جيش لصدّه.

والتقى الجمعان يوم الخميس ٥ رجب سنة ٦٩٤ هـ في نواحي «قربان شيره» في القرب من نهر قرية «شير كيران» من ولاية «مراغة». ولكن «بايدو» تبين في وجوه رؤساء عسكره دلائل الانكسار. فأرسل إلى «غازان» يحسن له الصلح، وأن لا يقع بينهما، وهما أبناء أسرة واحدة، أكثر مما وقع من الضحايا. فأذعن «غازان» لاقتراحه وتقرر أن يتلاقيا بلا واسطة من أحد غيرهم، ويعرض كل منهما مطالبه على الآخر مباشرة.

وفي الموعد المعين أقبل كل منهما، ومعه جماعة من الجند والأمراء، فتلاقيا وتعانقا. ثم تعاهدا على أن يجتنبا كلاهما من الآن فصاعداً إيقاع حرب فيما بينهما. وجيء بقدح فيه شراب حلّوا فيه شيء من الذهب فشربا منه

وشرب كل الأمراء، على عادة المغول. واعتذر الأمير «نوروز» فلم يشرب لأن إسلامه يحرم عليه ذلك.

وتقرر في هذا الإجتماع أن يعهد «بايدو» بكرمان و العراق و فارس إلى «غازان». وكانت هذه النواحي ملحقة بحكومة «أرغون خان». وتقرر أيضاً أن ترسل عائدات هذه الممالك إلى خزانة «غازان»، وأن يتوج «بايدو» مجدداً في اليوم التالي، ويُعلَن العموم برفع هذه الغائلة بإقامة إحتفال عظيم ونصب معالم الفرح والاستبشار.

ومع ذلك فإن كل من عسكر الفريقين وأمرائه كان غير مطمئن الخاطر إلى هذه المعاهدة، ويتوقع أن يتحين غفلة من خصمه فيوقع به، وينفض يده من هذه الحال التي كان معروفاً، سلفاً، أنها غير منتهية إلى مآل ثابت. وحين كان «غازان» و «بايدو» مشغولين بتقاسم الممالك وصل جماعة من العساكر المقيمين في بغداد و «موغان» جاؤوا لنجدة «بايدو». فرأى أمراؤه أن الوضع أصبح مناسباً للقيام بهجوم على «غازان». ولكنه رفض أن يعمل برأيهم إذ كان ذلك غدراً لا يقدم عليه.

وخاف «غازان» من تكاثر عسكر «بايدو» فعزم على العودة إلى خراسان ليلاً. وبذل «بايدو» جهده ليحمله على قبول ضيافته مرة أخرى، ولكن الأمير «نوروز» أشار عليه بالرفض فاعتذر متعللاً بسبب اخترعه له «نوروز». وسار ليلاً إلى زنجان سالكاً طريق وادي «قزل أوزن»، وأبقى الأمير «نوروز» وآخرين من الرؤساء في معسكر «بايدو» ليأخذوا منه مرسوم تعيينه لحكومة العراق وفارس. وفي أثناء الطريق بعث رسولاً إلى «بايدو» ومعه رسالة يقول فيها إنّه عاد من غير أن يستأذنه لأنّ الأمراء الإيلخانيّين أخذوا يتمردون. وإذ كان هو يرغب في أن يظل السلام قائماً، فعلى الإيلخان أن يسرع، كما تعهد، في إصدار مرسوم ولايته على الولايات التي كانت لـ«أرغون خان»، وإرساله مع الأمير «نوروز». فأجابه «بايدو» برسالة أظهر فيها له تواضعاً، وأمر بأن يرسل حاصل أملاك فارس إلى خزانته. ولكنه لم يأذن للأمير «نوروز» ورفاقه الأمراء الآخرين بالعودة إليه، وحملهم معه إلى ولاية «شروياز» (السلطانية حالياً)،

وحبسهم وهددهم كثيراً، وطمعهم. ولكنه لم بسنطع أن يصرف قلوبهم عن «غازان»، بل على العكس، جلبوا إليهم الأمير «طغاجار» سراً. وما أكثر ما ابتلى به هذا الأمير مخدوميه من امتحانات قاسية بسبب ضعف العهد الذي وجد فيه، وتوطأوا على أن يعملوا معاً على قلع سلطنة «بايدو»وإيصال «غازان» إلى العرش. وقد تقبل «طغاجار» هذه المهمة بسهولة، ومكر الأمير «نوروز» بـ«بايدو» فأقسم له بـأن يحمل إليـه «غازان» مغلول اليـدين إن هو أذن لـه بالرجوع. فقبل «بايدو» وأذن له، ونجا الأمير «نوروز»، وسارع إلى «غازان»، فشرح له الواقعة وأخبره بانضمام «طغاجار» إليهم.

إســلام غـازان

كان «غازان» بوذياً. ولكنه تربى على يدي الأمير «نوروز» بن «أرغون آقا». وكان هذا لا ينفك يرغّبه في الإسلام حتّى صار ميالاً إليه. وزاد في رغبته في الإسلام أنّه كان يريد الغلبة على «بايدو» وأمرائه المقتدرين؛ ومن أجل ذلك كان محتاجاً إلى الأعوان والأنصار. فأفهمه الأمير «نوروز» أنّه حين يسلم سينحاز إلى جانبه جميع المسلمين، وبذلك تتضاعف قدرته.

وكان «غازان» قد عقد مجلساً للشورى بحضور الأمير «نوروز». وفي هذا المجلس قال «نوروز» إنّ المنجمين والعلماء وأهل الزهد والورع تنبأوا بأنّ سلطاناً سيقوم في حوالي سنة ٦٩٠ هـ، يستعيد الإسلام في كنف حمايته رونقه السابق، ويصبح رعاياه ناعمين في الأمن والرفاه، وتقترن دولته بطول البقاء. فلو قبل «غازان» الإسلام لبلغ مقام سلطنة إيران، وتخلص المسلمون في ظل دولته من حال النكبة والمذلة واستراحوا من عار التبعية للتتر الكفار، وجزاه الله على هذه الحسنى بالنصر والظفر لجنده.

وقد أثر هذا البيان في مزاج «غازان» وإذ كان قد وعد قبل ذلك الأمير «نوروز» بأن يدخل في دين الإسلام، فقد صمّم على الوفاء بوعده. وعلى هذه النية اغتسل يوم الرابع من شعبان سنة ٦٩٤ هـ في «لار» دوماند وارتدى ثوباً جديداً وأسلم على يد «الشيخ صدر الدّين إبـراهيم» صهر «عـطا ملك

الجويني» على ابنته[١] وابن العارف المشهور «الشيخ سعد الدين محمّد بن حمُّوَيْه الجويني». واقتدى به ما يقرب من مائة ألف مغولي فدخلوا في دين الإسلام. وأصبح اسم «غازان» من ذلك التاريخ «محمود».

وأراد «محمود غازان» إعلان البشرى والحفاوة بإسلامه فوهب للعلماء وأئمّة الدينِ والشيوخ والسادات مالاً كثيراً، وزار المساجد والأماكن المقدسة، وبعث رسلاً إلى خراسان والعراق يبلغون النبأ إلى الناس. وجمع في معسكره العلماء والسادات يجالسهم ويؤاكلهم وأصبح يصوم أيّام رمضان ويبذل جهداً كبيراً في إقامة شعائر الدّين[٢].

---

(١) وفي هذا ما يدل على أثر عطا ملك القوي في إسلام المغول.

(٢) يثني المؤرخ عبد الله بن فضل المعروف بوصاف الحضرة في كتابه (تجربة الأمصار وتزجية الاعصار)، والمشهور باسم (تاريخ وصاف) ـ يثني في كتابه هذا على «غازان»، وهو معاصر له. فيقول عنه: «إن أيّامه مضت بالعدل الشامل، وعادت المملكة أشبه بجنة الخلد، فرفع منار الإسلام وأزال الكفر والضلال وأقام شعائر الدين الإسلامي، وأسس المساجد والمدارس». أ. هـ.

وقد فرغ من تأليف كتابه في شعبان سنة ٧١١هـ (١٣١٢م). وهو بحث مستفيض عن المغول في إيران وتركستان وجميع ما وراء النهر من الممالك الأخرى، وقد تطرق لغيرها أيضاً.

واشتهر مؤلفه بوصاف الحضرة لأنّه مدح السلطان ألجايتو محمد خدابنده بقصيدة، فلقبه بهذا اللقب فصار يعرف به، والتاريخ أُضيف إليه. ويحتوي على أهم حوادث العراق، وبعض المخابرات السياسية مما لا يخص العراق مباشرة إلاّ قليل، وغالب ما فيه يوضح حكومة المغول.

وقد طبع في بمبي سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٣م) في خمسة أجزاء. وطبع المجلد الأول منه في إيران.

وقال الغياثي في تاريخه عن غازان: ولما شرفه الله بالإسلامية صارت له من العظمة والسطوة ما لا يوصف وأحبه المسلمون ورأوا منه كل خير مما فاق به سائر القدماء وأنسى ذكر السلاطين العادلين. وقال أبو الغازي بهادر خان في كتابه (شجرة الترك) ص١٧٠: هو أول من أسلم من ذرية تولي خان، وقد بذل جهوداً كبرى لنشر الدين الإسلامي وبسعيه واهتمامه أسلم كل المغول في إيران. وسماه صاحب تاريخ كزيدة (سلطان الإسلام).

أما التاريخ الغياثي فهو تأليف عبد الله بن فتح الله البغدادي الملقب بالغياث المتوفى أواخر العصر التاسع. كان حياً سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦م). وأما تاريخ كزيدة فهو لحمد الله المستوفي أتمه سنة ٧٣٠ هـ.

إنّ إسلام «غازان»، وإن كان من بعض الدوافع إليه في أوّل الأمر مراعاة المصلحة ومقتضيات السياسة، إلاّ أنّه أخذ يعود شيئاً فشيئاً بفائدة كبيرة. فقد عاد العمال والموظفون ورجال الدولة المسلمون إلى أعمالهم التي أبعدوا عنها بعد انقضاء عهد السلطان أحمد وزوال دولة الأسرة الجوينية، وتسلط نفوذ التتر المتعصبين والنصارى واليهود على أعمال الإدارة، والمنافسة التي كانت قائمة بين المسلمين من جهة والتتر والنصارى من جهة واتخذت مظاهر كثيرة مختلفة من عهد «هولاكو» إلى ذلك التاريخ، انتهت إلى تغلب العنصر الإسلامي على منافسه. وتدين الإيلخانات بالإسلام من «غازان» إلى من بعده. بل تمذهب خلفاء «غازان» بمذهب التشيع، كما سنذكر فيما بعد، وأصبحوا من مروجي الآداب الإسلامية.

مقتل «بايدو خان»

في أواخر سنة ٦٩٤ هـ علم «غازان» أنّ موظفي فارس امتنعوا عن تأدية العائدات الأميرية إلى جباته، مع أنّ «بايدو» كان قد أمر بتأديتها إليه. فغضب «غازان» وعزم على مهاجمة آذربيجان. وإذ كان عارفاً بفساد أمور «بايدو»، وأنّ أمراءه يبطنون له المخالفة فقد ازداد عزماً على ذلك.

وكان «الخواجة صدر الدّين الزنجاني» لا يفتأ يفكر في الانتقام من «بايدو» لأنّه خلعه من منصب الوزارة وأعطى هذا المنصب «الخواجة جمال الدّين الدستجرداني»، وعين «صدر الدّين» نائباً لـ«طغاجار» في حكومة بلاد الرّوم. وإذ رأى «صدر الدّين» اختلال أحوال الإيلخان وعرف أنّ قلب مخدومه «طغاجار» مع «غازان»، فقد اتفق معه على مساعدة «غازان» وبعث إلى «غازان» رسالة سراً قال له فيها إنّه إن هاجم آذربيجان فإن أكثر الأمراء المقتدرين سينحازون إليه ويقضون على «بايدو». ثم التحق بمعسكر «غازان» في ٧ شوال سنة ٦٩٤ هـ. ووعده هذا بأن يعهد إليه بمنصب الوزارة. ثم بعث بالأمير «نوروز» مع جماعة من الجنود مقدمة لجيشه وتوجهوا يوم الجمعة ١٥ شوال إلى آذربيجان. ثم تبعهم «غازان» أيضاً.

ولمّا وصل الأمير «نوروز» إلى آذربيجان أعلن «طغاجار» وغيره من أمراء «بايدو» الّذين كانوا يبطنون الموافقة لـ«غازان» العصيان. وإذ علم «بايدو» بذلك فرّ من ضفة «قزل أوزن» حيث كان معسكره إلى «أوجان» و«مرند» متجهاً نحو «كرجستان». ولكن الأمير «نوروز» أسرع فأدركه بالقرب من «نخجوان» فاعتقله وأرسله إلى «غازان» وكان يومئذ في «أوجان». ثم قتله «غازان» في ٢٣ ذي القعدة سنة ٦٩٤ هـ.

وكانت مدّة سلطنة «بايدو» ثمانية أشهر، ومع أنّه لم يكن كسلفه «كيخاتو» من أهل الغواية والفسق، إلّا أنّه عجز عن أن يحكم، لضعف نفسه وتسلط الأمراء النفعيين على شؤون الدولة وخيانتهم. وكان نصرانياً، اجتهد في إحياء النصرانية وآدابها وإقامة شعائرها. ولكنه لم يعاد الإسلام. وكان يتألف قلوب المسلمين بإرسال ابنه إلى مساجدهم يصلّي معهم.

سلطنة محمود «غازان خـان»

أصبح الإسلام دين الدولة الرسمي من تاريخ ملك «غازان» إلى انقراض سلسلة الإيلخـانيين، وقامت دولـة هؤلاء على أساس من الشـرع الإسلامي والآداب الإسلامية. وعادوا لا يدينون لـ«قاآن خان باليغ» بما كانوا يدينون به له من طاعة حتّى ذلك التاريخ. وانحل شيئاً فشيئاً ما كان بينه وبين البلاط الإيلخاني من رابطة حتى انقطعت تماماً.

ولما ملك «غازان» أقام في عاصمته تبريز كثيراً من الأبنية الخيرية من قبيل المساجد والرباطات والمدارس. وبلغ من احترامه للمنتسبين لأهل البيت وأهل العلم أنّ عمال الديوان في عهده كانوا يكتبون أحياناً أسماء السادات مقدمة على اسم الإيلخان والأمراء في مراسيم الدولـة. وجعل العمـامة من ألبسة البلاط الرسمية. ودأب خلفاء «غازان» من بعده على الاقتداء بـه في مراعاة هذه المراسم والآداب. وهذا أحد الأمـور التي تميز وضعيـة الحكم ونوعية التمدن والآداب في عهد «غازان» ومن بعده من الإيلخانات عن عهد من كانوا قبله منهم.

دخل «غازان» إلى تبريز يوم ١٠ ذي الحجّة سنة ٦٩٤ هـ بأتم مظهر من الجلال. فخف إلى استقباله «الخواجة صدر الـدّين الزنجـاني»، وكان قـد حصل يومئذ على قدرة خارقة، يتبعه جمع كبير من سادات المدينة وعلمائها

وأئمتها خرجوا إلى ظاهر تبريز لملاقاته. وفي أواخر سنة ٦٩٤ هـ في يوم النوروز جلس «غازان» فى مقام الإيلخانيه، وأصبح وارث تاج «هولاكو» وعرشه ومملكته.

وفي يوم جلوسه هذا أصدر أوّل مرسوم له، يقضي بوجوب دخول المغول في الدين الإسلامي والتأدب بالآداب الدينية ومراعاة العدالة ومنع الأمراء والأكابر من إيقاع الظلم بمأموريهم.

وهدمت بأمر منه الكنائس والمعابد اليهوديّة وبيوت الأصنام البوذيّة وبيوت النار الزردشتية في جميع أنحاء المملكة. وكسرت أصنام الكفار والمشركين في تبريز وألقيت قطعها في الأزقّة.

وأُلزم النصارى بالتمنطق بزنار فوق لباسهم إذا أرادوا الخروج من بيوتهم، كما أُلزم اليهود أيضاًباعتمار قلنسوة مخصوصة لتمييزهم عن المسلمين. وكان مسلمو بغداد وتبريز قد أهينوا كثيراً من قبل النصارى في العهود السابقة ولذلك أوقعوا بالنصارى في هذا العهد كثيراً من الأذى انتقاماً. وإذ كانت عدّة النصارى في بغداد أكثر فقد كان هذا الانتقام فيها أشد وأوسع، حتّى عاد النصارى لا يجرؤ أحدهم على الخروج من بيته. واقتصر الخروج على نسائهم لقضاء حوائجهم وشراء لوازمهم، إذ أنّ لباسهن لا يتميز عن لباس المسلمات فلا يعرفن. فإن عرفهن أحد تناولهن بالأذى والشتم وكذلك كانت حال اليهود والمغول البوذيين. وكان أكثرهم ضيقاً بهذه الحال من كان من المغول في عهود الإيلخانات السابقين من أهل الحل والربط في مهمات الأمور. فقد اشتد سخطهم لما انقلبوا إليه من هذا الهوان. فاضطروا إلى التظاهر بقبول الإسلام مقيمين في الباطن على ما كانوا عليه من العقيدة البوذية دين آبائهم القديم.

بعد قليل أرسل «غازان» أمراً آخر مع رسل مخصوصين إلى مختلف نواحي البلاد بأن يهدم ما فيها من صوامع وكنائس. وقد أتاح هذا الأمر فرصة للطامعين المغرضين بأن جعلوه ذريعة إلى ابتزاز المال من غير المسلمين ونهب نفائس معابدهم. وكان أشد ذلك في إربل والموصل وبغداد ومراغة

وبلاد أرمينيا. وأكثر الأذى كان يقع على النصارى بالخصوص.

وظلّ «غازان» في تبريز مدّة قصيرة، ذهب بعدها إلى «قراباغ» و «أرّان». وهناك عقد مجلس شورى من أمراء المغول ورؤسائهم وخواتينهم أقروا فيه سلطنته، وأعيدت مراسم جلوسه مرة ثانية، واختار لنفسه عنوان «السلطان»، ثم أقام احتفالاً كبيراً على عادة المغول. ثم طلب من الأمير «نوروز» أن يتمنى على الإيلخان شيئاً. فتقدّم «نوروز» وركع ثانياً إحدى ركبتيه على الأرض، والتمس أن يأمر السلطان بأن يكون الخاتم السلطاني من الآن فصاعداً على شكل مستدير بدلاً من شكله الحالي المربع، وتكتب عليه كلمة الشهادتين. فقبل «غازان» اقتراحه وتقرر أن تفتتح المراسيم من الآن فصاعداً بالبسملة. وأن تنقش البسملة أيضاً على النقد المضروب باسم السلطان محمود غازان. وأن يُتّبع رسم الخلفاء العباسيين فتنقش على النقد أيضاً أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة.

وفي مجلس الشورى ذلك عيّن «غازان خان» الخواجة «صدر الدّين أحمد الخالدي الشاوي الزنجاني» للوزارة أي منصب «صاحب الديوان»، و «شرف الدّين السمناني» لرئاسة ديوان «التمغا» (الضرائب والرسوم الجمركية)، والأمير «نوروز» في منصب «أمير الأمراء». ثم، بعد مدة قليلة، أرسل «طغاجار نويان» إلى بلاد الرّوم وعيّنه قائداً للمعسكر المقيم فيها، ليبعده عن معسكره، معسكر الإيلخان، وليحول بينه وبين ما يحتمل من تدخله في شؤون البلاط وغيره، ثم أتبعه رسولاً أمره بقتله. ثم انصرف إلى قمع الأمراء المخالفين من البيت المالك. وكان منهم «آلا فَرَنْج» أكبر ابناء «كيخاتو»، فاعتقله ثم عفا عنه، و «توكان» بن «بايدو»، وكان في «كرجستان» قد حصل على قدرة وأعلن العصيان، فقضى عليه «غازان». وقتل أيضاً الرؤساء الّذين سعوا في قتل «كيخاتو».

وفي شهر صفر سنة ٦٩٥ هـ وصل خبر بأنّ مغول ما وراء النهر الّذين كان يحكمهم يومئذ «أوجاي» بن «براق خان» قد اغتنموا فرصة ما في خراسان من انقلابات وخلوها من القوات الدفاعية، فجهزوا جيشاً لغزوها، وعبروا نهر

«جيحون» وتقدموا حتى مازندران.

فأمر «غازان خان» بأن يسير عسكره من جميع النواحي إلى البلاد الشرقية، وعيّن الأمير «نوروز» قائداً عاماً له. ولكن إذ كان العرش الإيلخاني قد تعرض للتغيير ثلاث مرات في أقل من سنة واحدة، وكانت الجيوش المختلفة لكل عهد من هذه العهود الثلاثة قد أخذت مالاً كثيراً من الناس، فقد كانت الخزانة فارغة لا مال فيها لدفع رواتب العسكر. فهيّأ الأمير «نوروز» بالمشقّة شيئاً من المال اقترضه من هذا وذاك وانطلق إلى محاربة «أوجاي».

وانهزم المغول الطورانيون من وجه جند الأمير «نوروز»، فلحقهم حتّى أدركهم في قرب «هرات»، فقتل منهم جماعة وتعقب بقيتهم إلى شاطىء «جيحون». فلمّا انتهى منهم وأمن على خراسان من شرّهم. أقام في كل قسم نائباً عنه، ثم عاد إلى «غازان» مظفراً منصوراً.

وبعد ذلك عزل «الخواجة صدر الدين الزنجاني» من الوزارة متهماً إيّاه بأنه يتصرف بالأموال الديوانية بدون إجازة وأنّه يصدر من عنده مراسيم وأوامر. وأقام في مكانه «جمال الدين الدستجرداني». وعهد الأمير «نوروز» إلى أخيه «حاجي بيك» بالنظر في أمور الحل والعقد الديوانية وتهيئة العلوفة والمؤن للجيش، وإلى أخيه الآخر «ناصر الدين ساتلمش» بالنظر في صحة الفرمانات وامضائها. وبذلك جمع في يده كل الشؤون المهمة للجيش والدولة.

خروج بعض الأمراء

وإذ كانت أمور خراسان في غياب الأمير «نوروز» عنها لا تستقر فقد أمره «غازان» مرة أخرى بالذهاب إليها مصطحباً معه بعض أمراء العائلة المالكة. منهم الأمير «سوكاي» بن «يشموت» وحفيد «هولاكو»، واثنان من رؤساء العسكر هما «برلا» و«أرسلان أوغول» حفيد «جوجي» بن «جنكيز». وكان «سوكاي» قد اقترح على رفيقيه هذين خطّة عمل تجمع بينهم على غاية واحدة فوافقاه عليها. فقد كانت هذه الجماعة ساخطة على الأمير «نوروز» و«غازان» لدخولهما في الإسلام. فعزموا، متضامنين متكافلين، على نسف الأساس من

دولة «نورور» و«غازان»، وتجديد إقامة المعابد البوذيّة، وكسر شوكة الإسلام والمسلمين.

وسار الأميران «سوكاي» و«برلا» إلى خراسان مقدمة لجيش الأمير «نوروز»، وقد عزما على أن يقطعا الطريق على الأمير «نوروز» ويقتلوه. وقبل أن يقدما على إنفاذ هذا الأمر أرسلا رسولاً إلى الأمير «طايجو» بن «منكوتيمور» يستدعيانه إليهما. فتظاهر «طايجو» بقبول دعوتهما، ولكنه بادر من فوره إلى إخبار الأمير «نوروز» بمؤامرتهما. وكانت خطتهما أن يتولى «سوكاي» و«برلا» قتل الأمير «نوروز» في خراسان، ويتولى «أرسلان» وأحد أبناء «قونغرتاي» الهجوم على «غازان» وقتله.

فلمّا اطّلع الأمير «نوروز» على ما بيته له المخالفون، ترك خيمته سرّاً في الليلة المقررة لذلك وكمن في خارجها. فلمّا هجم المتآمرون على الخيمة، وهم يحسبونه فيها، خرج من مكمنه وهجم عليهم، فقتل «برلا» وفرّ «سوكاي»، ولكن لم يلبث أن وقع في يد «هرقداق» أحد قواد «غازان» فقتله. وأمّا «أرسلان»وأعوانه فكانوا قد جمعوا عسكراً مضوا به إلى مهاجمة «غازان»، ولكنهم سرعان ما منوا بالهزيمة. وتمكن «غازان» والأمير «نوروز» من اعتقال كل المخالفين، فقتلاهم. وبلغ عدد القتلى من أمراء الأسرة المالكة الخارجين على «غازان» خمسة أمراء وسبعة وثلاثين من أعوانهم في مدّة شهر واحد. وبذلك قضي على هذه الثورة التي شبت بعنوان مخالفة الإسلام.

وفي مجرى وقائع تمرد الأمراء هذا قامت جماعة من خصوم «صدر جهان» باتهامه بأنه شريك لهم في تمردهم، وشهدت جماعة أخرى من أعضاء الديوان أيضاً بذلك، فحكم بتوقيفه، وعذب وأوذي كثيراً، ثم صدر حكم بقتله بلا محاكمة. وسلم إلى رجلين أمِرا بحمله مقيداً عارياً إلى دغل وقتله فيه. واتفق أن كان لـ«صدر جهان» على هذين الرجلين يد سابقة من الإنعام والإكرام في عهد «كيخاتو». فأبقيا عليه ولم يقتلاه واحتفظا به إلى الليل. وفي هذه الأثناء عاد الأمير «هرقداق» إلى المعسكر، بعد أن فرغ من قتل «سوكاي»، وسأل عن «صدر جهان». فرووا له تفصيل ما وقع. فأرسل على

الفور فارسين إلى الموكلين بهما ومعهما أمر بالإبقاء عليه إلى الصباح. وفي الصباح حمل «هرقداق» إلى «غازان خان» فهرستاً بأسامي المخالفين وعرضه عليه، فتبين أن الفهرست يخلو من اسم «صدر جهان». فبادر «غازان» إلى العفو عنه، وتقرر أن يلازم مقاماً له قريباً من المعسكر.

ثم عيّن «غازان خان» الأمير «هرقداق» حاكماً على فارس، فوصلها في ٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٥ هـ وانصرف إلى رفع الاختلافات وجمع الضرائب.

وفي السادس من ذي الحجّة سنة ٦٩٥ هـ قتل «غازان» صاحب الديوان «الخواجة جمال الدّين الدستجرداني». وفي أوّل محرّم سنة ٦٩٦ هـ أعاد «الخواجة أحمد الزنجاني صدر جهان» إلى منصب «صاحب الديوان». وكان قتل ذاك وتعيين هذا على غير هوى الأمير «نوروز»، يُفهم منه أنّ قدرة هذا الأمير آخذة بالزوال، وأنّ الإيلخان عازم على أن يتخلص هو ويخلّص الديوان من قبضته وقبضة عماله.

مقتل الأمير «نوروز»

ولمّا استقر «صدر جهان» مرة ثانية في دست الوزارة، شرع يعد العدة للانتقام من الأمير «نوروز» لسعيه السابق في عزله. ومن ثم اتحد هو وخصوم الأمير، وأخذوا يسعون بمختلف الوسائل للقضاء على دولته.

وكان «نوروز» قبل إسلام «غازان»، يرعى هذا الأمير ويسعى إلى إيصاله إلى منصب الإيلخانية وإدخاله في دين الإسلام. وكان أحد تجار بغداد، واسمه «عالم الدّين قيصر»، كثير التردد بين بغداد والشام ومصر. فحمله الأمير «نوروز» يوماً رسالة إلى سلطان مصر يحسن له فيها إيجاد اتحاد فيما بينهما ويطلب منه تأييد «غازان».

واتفق أن عاد «عالم الدين قيصر» من أداء هذه المهمة حين قتل «بايدو» وجلوس «غازان». وإذ كان جواب سلطان مصر على غير ما يهوى الأمير

«نوروز» فقد أخفاه عن «غازان» وأجبر «جمال الدّين الدستجرداني» على تزوير جواب باسم السلطان المصري وأقرأه «غازان».

وإذ عرف خصوم الأمير «نوروز» بأن «قيصراً» قد خاب في مهمته فقد قاموا باتهامه عند «غازان» بأنّ له علاقة سريّة بسلطان مصر. وكان الأمير «نوروز» يومئذ في خراسان وله وكيل يقيم في معسكر «غازان»، فأرسله هذا إلى بغداد. وهناك دعا الوكيل «قيصر» إلى مجلس شراب. فلمّا غلبه السكر اعتقله رسول «غازان» هو ورجاله وقيّدهم.

وزوّر «صدر جهان» وأخوه «قطب جهان» رسائل عن لسان الأمير «نوروز» ولسان أخيه «حاجي بيك» إلى سلطان مصر مضمونها أنّ إسلام «غازان» يتيح فرصة مناسبة للسلطان أن يغزو إيران ويقتلع منها جذور الكفر، إذ أن أمراء «غازان» لم ينالوا بعد هذا الشرف، شرف الدخول في دين الإسلام، وأنّ الأمير «نوروز» وأخويه «حاجي بيك» و«لكزي» حاضران لمساعدة العسكر المصري. وذكروا في هذه الرسائل أيضاً إرسال أقمشة ثمينة من قبل الأمير «نوروز» هدية إلى السلطان. وحين غاب «عالم الدّين قيصر» عن الوعي دسوا هذه الرسائل المزورة مع سبعين قطعة من القماش بين حوائجه وأحماله. فلمّا اعتقل «عالم الدين» ورجاله، استخرجوا هذه الأشياء من بينها، وأثاروا لذلك ضجّة بعيدة.

وأغضب ظهور هذا الأمر «غازان خان»، وكان يومئذ في همدان، فخف منها قاصداً «شهروان». وبلغ من شدّة غضبه وحرصه على الفصل في أحوال «عالم الدين قيصر» أنّه قطع في يوم واحد قريباً من ثلاثين فرسخاً. ووصل إلى «شهروان» في ٢١ جمادى الإولى سنة ٦٩٦ هـ، فأحضر إليه «قيصر» وفتش أحماله وحوائجه. وقالوا إنّ إحدى هذه الرسائل المزورة بخط «حاجي بيك» أخي الأمير «نوروز».

فأمر «غازان»، وقد بلغ غضبه الغاية، بجلد«قيصر» وثلاثة آخرين من صحبته حتى الموت. وأمر بقتل «حاجي» و«لكزي» و«ساتلمش» إخوة الأمير «نوروز» فقتلوا بلا محاكمة. وأمر بمعاقبة رجال «نوروز» وأبنائه وإخوته

الثمانية، أينما كانوا. وبعث أخاه «خدابنده» بجيش إلى خراسان وبعث الأمير «سونتاي» و «هرقداق» بجيش من عشرين ألفاً. واستدعى إليه من نقاط مختلفة الأمير «شوبان» و «بولادقيا» و «قتلغشاه» وأمرهم بالذهاب إلى خراسان واعتقال الأمير «نوروز».

وعلم الأمير «نوروز»، وهو في «نيسابور»، بهذه الوقائع. ففر منها، وقد خالفه رؤساء عسكره وتخلوا عنه، إلى «هرات» ومعه أربعمائة رجل، ليستجير بالملك «فخر الدين كرت» ويطلب منه مدداً، وكان الأمير «نوروز» متزوجاً بابنة أخيه وله عليه منّة. فأنزله الملك «فخر الدّين» في قلعة «اختيار الدّين».

ولكن الأمير «قتلغشاه» جاء إلى «هرات» بعد أربعة أيّام من نزول «نوروز» فيها، ومعه سبعون ألف فارس فضرب عليها الحصار. وإذ كان فتح المدينة أمراً صعباً فقد طلب من الملك «فخر الدّين» تسليم الأمير «نوروز» إليه. فعزم على الغدر به وتسليمه، ووافقه «الغوريون»[1] على ذلك. وبدأ أولاً بإبعاد رجاله عنه، وكانوا يقاتلون عسكر «قتلغشاه» ثابتين صابرين. ففرقهم عنه بحجّة الحاجة إليهم للمحافظة على أبواب المدينة. ثم أرسل جماعة من أمرائه يقبضون على الأمير «نوروز» فقبضوا عليه وبعثوا به إلى «قتلغشاه» مغلول اليدين، فضرب هذا عنقه بيده في يوم ٢٢ ذي القعدة سنة ٦٩٦ هـ، وبعث برأسه إلى «غازان» فأمر بتعليقه بحبل. وهكذا انتهت حياة هذا الأمير الرشيد المخلص.

مقتل «صدر جهان»

بعد مقتل الأمير «نوروز» قتل «غازان خان» الأمير «تايجور»، وهو من الأسرة المالكة خرج عليه يطلب الملك لنفسه منتظراً أن يحتل مكانه بعد أربعين يوماً، خدعه بذلك أحد المتنبئين.

وفي جمادى الآخرة سنة ٦٩٧ هـ اتهم جماعة من عمال الديوان

---

(١) نسبة إلى «غور» إقليم في نواحي «هرات» من افغانستان، يعرف اليوم باسم «هزارستان».

والرؤساء الغازانيين «الخواجة صدر الدّين أحمد الزنجاني صدر جهان» بالتصرف بالأموال تصرفاً غير شرعي، وبهذا سقطت منزلته عند «غازان». وتوهم «صدر جهان» أنّ أحد مرؤوسيه وهو «رشيد الدين فضل الله الطبيب الهمداني» شريك في هذه المؤامرة وأنّه طعن به عند الإيلخان، فشكا الخواجة هذا الأمر إلى الإيلخان ولكن هذا نفى له أن يكون «رشيد الدين» قد قال في حقّه شيئاً عنده.

وفي أثناء ذلك كان الأمير «قتلغشاه» قد ذهب إلى محاربة ملك «كرجستان» الخارج. وفي ناحية «دالان ناور» على شاطىء نهر «كورا» (كر) جاء إلى معسكر «غازان». وهناك سمع أنّ «صدر جهان» قد طعن في رجاله عند الإيلخان ونسب إليهم أعمال القتل والسلب والتعدي. وقد عاتبه «غازان» على ذلك. فذهب «قتلغشاه» إلى «صدر جهان» وسأله ما هو سبب هذا الجفاء الذي رآه من الإيلخان، ومن الذي ذكره بالسوء عند «غازان».

وكان بعض أعضاء الديوان قد أوغر صدر «صدر جهان» على «رشيد الدّين فضل الله»، فهو، من ثم، يعده عدواً له. ولذلك أجاب «قتلغشاه» بأن الذي افترى عليه وذكره بالسوء عند «غازان» هو «رشيد الدّين فضل الله»، فتغير «قتلغشاه» على هذا.

وإذ رأى «رشيد الدّين» نفسه معرض هذه التهم شكا أمره إلى «غازان»، فأحضر هذا «قتلغشاه»، وعرف منه أن الذي اتهم «رشيد الدّين» عنده إنّما هو «صدر جهان». فغضب الإيلخان منه وأمر بتوقيفه، فاعتقل في ١٧ رجب سنة ٦٩٧ هـ وقيد وحوكم، ثم سُلّم إلى «قتلغشاه» ليعاقبه، فقتله في ٢٢ رجب من تلك السنة، بأن قطعه من وسطه إلى قطعتين. وقتل أيضاً أخوه «قطب الدّين» في ٢١ شعبان من تلك السنة في تبريز، وانتهى سائر رجاله ما بين قتيل وفار. وهكذا كانت عاقبة هذا الرجل الذي كان، مع ذكائه وكرمه وأدبه، غاوياً في طلبه المراتب العالية مفسداً دساساً.

وفي أواخر سنة ٦٩٧ هـ، إذ كان «غازان» ذاهباً من تبريز إلى بغداد ليشتو فيها عهد، وهو في «أوجان» بالوزارة ومنصب «صاحب الديوان» إلى

«الخواجة سعد الدّين محمّد مستوفي ساوجي» ونيابة الوزارة إلى «رشيد الدّين فضل الله الطبيب الهمداني». وقام هذان متصاحبين معاً بإدارة أمور الممالك الغازانية.

محـــاربات «غـــازان»

ذكرنا أنّه في عهد السلطان «أحمد تكودار» تبدلت الحال بين مسلمي الشام ومصر وبين المغـول من الحرب إلى الصلح والصفـاء، وذلك بسبب دخول «تكودار» في الإسلام.

واستفـاد «الملك المنصور سيف الـدّين قلاوون» من هـذا الواقـع إذ استطاع التفرغ لإجلاء الصليبيين عن سواحل الشام ودفع أعدائه الداخليين. واستخلص من قبضة الصليبيين شيئاً فشيئـاً قلعة «المـرقب» الحصينة وبـلاد اللاذقية وطرابلس الشام. وظل يتابع خطة «بيبرس» إلى تاريخ ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ، أي نهاية حياته.

وبعد وفاة «سيف الدّين قلاوون» خلفه ابنه «صلاح الدّين خليل» ولقب بـ«الملك الأشرف». فتابع طريق أبيه ولم يلبث أن استخلص مدن عكا وصيدا وصور وبيروت وقلاعها من قبضة الصليبيين، في سنة ٦٩٠ هـ. وبذلك خرج من يد الصليبيين آخر ما كانوا يحتلونه من بلاد، وأصبحت سواحل الشام خالية منهم. وعاد الملك الأشرف إلى مصر.

وبعد مضي سنة قام أبو العباس أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله الذي بويع بالخلافة في مصر كما ذكرنا سابقاً، يدعو المسلمين إلى جهاد المغول، وكانت غايته أن يخرج المسلمون المغول أيضـاً من بغداد بمسـاعدة الملك الأشرف، بعد أن طردوا الصليبيين، ويعيدوا الخلافة العباسية إلى ما كانت عليه.

وأثرت دعوة الخليفه في مصر والشام فجهز الملك الأشرف جيشاً عظيماً سنة ٦٩١ هـ وسار به نحو الفرات فحاصر «قلعة الروم» الواقعة على الشاطىء

الأيمن من النهر قريباً من «البيرة» في شمالها، وكان فيها جماعة من المغول والارمن يحفظونها.

وفتح جيش الأشرف القلعة بعد ثلاثة أيام من المقاومة، في جمادى الآخرة سنة ٦٩١ هـ، وقتل الملك الأشرف كل حاميتها وجماعة من سكانها وسماها «قلعة المسلمين»، وأحرق كنيستها وهي يومئذ مقر الجاثليق الأرمني. ومن ثم اضطر الارمن من ذلك التاريخ إلى ما بعده إلى جعل مدينة «سيس» عاصمة كليكيا مركز جاثليقهم.

وقد وصل خبر محاصرة الملك الأشرف قلعة الروم إلى إيران حين عودة «كيخاتو» من بلاد الروم، وقد شفي حديثاً من المرض، والناس مقيمون على الأنس والأفراح ابتهاجاً بشفائه. فأرسل «كيخاتو» جماعة من المغول لإنجاد حامية القلعة. ولكن جيش الأشرف احتل القلعة قبل وصولهم.

وبعد بضعة أشهر من هذه الواقعة بعث «كيخاتو» سفيراً إلى مصر إلى الملك الأشرف ومعه رسالة يقول فيها أنه يفكر في اتخاذ مدينة حلب، عاصمة له، ويهدده بأنه إن لم يسلمها إليه فسيحتل كل الشام.

فأجابه الملك الأشرف بأنه اتفق له أن كان هو أيضاً يفكر في ذلك الوقت باسترداد بغداد من المغول وإعادتها كما كانت في السابق عاصمة الخلافة الإسلامية. وسنرى من منا سيسبق الآخر إلى إنفاذ فكرته.

هذا وقد صرفت المشاكل الداخلية في عهد «كيخاتو» وقصر المدة التي حكم فيها «بايدو» هذين الإيلخانين من إنفاذ فكرة الانتقام من سلطان مصر لاحتلال جيشه قلعة الروم وقيامهم بأعمال قهر أخرى في نواحي أخرى. وتأخر هذا الأمر إلى عهد «غازان خان».

وفي سنة ٦٩٣ هـ قتل الملك الأشرف. قتله ثلاثة عشر رجلاً من أمرائه ورؤساء مماليك أبيه، أشهرهم ثلاثة: «قراسنقر»، وكان نائباً عن الملك الأشرف ثم عزله، و «بيدرا» و «لاشين»، وكانا كذلك في منصب نيابة الملك الأشرف فعزلهما.

واختار الأمراء القاتلون «بيدرا» سلطاناً ولقبوه بـ«الملك القاهر». الا أن مماليك الملك الأشرف ورئيسهم «زين الدين كتبغا» ثاروا عليه وقتلوه ونصبوا محمداً أخا الملك الأشرف، وهو في التاسعة من عمره، سلطاناً بلقب «الملك الناصر»، وتوارى «لاشين» و «قراسنقر» عن الأنظار.

وعين «كتبغا» لنيابة السلطنة و «علم الدين سجر الشجاعي» أحد أمراء الملك الأشرف للوزارة.

إلا أن الأمراء، وقد صعبت عليهم التبعية لطفل، لم يلبثوا أن اتفقوا على قتل «سنجر شجاعي» فقتله «كتبغا»، وحبسوا الملك الناصر في قلعة. واختاروا «كتبغا» لمنصب السلطان ولقبوه «الملك العادل» في ٩ المحرم سنة ٦٩٤ هـ. وأما «قراسنقر» و «لاشين» فقد ظهرا بعد الإختفاء، والتمسا العفو من «كتبغا» فعفا عنهما وعين «لاشين» نائباً للسلطان.

كان «كتبغا» من أسرى المغول. أسره المسلمون في وقعة حمص. ورباه السلطان «قلاوون» ثم أعتقه من الرق. ودامت سلطنته سنتين، خالفه بعدهما «لاشين» وعزم على قتله، ففر «كتبغا» من وجهه إلى دمشق، واستولى «لاشين» على زمام السلطنة في المحرم سنة ٦٩٦ هـ، وتلقب بـ«الملك المنصور». واختار غلامه «منكو تيمور» لنيابة السلطنة. و «لاشين» هذا من الرقيق الصقلبي.

وفي سنة ٦٩٧ هـ توجه بجيش عظيم من مصر قاصداً حلب، وهو ينوي أن يغزو منها كليكيا وعاصمتها «سيس». وكان في ركابه في هذه الحملة أغلب الرؤساء والأمراء من مسلمي الشام والجزيرة. وهاجم هذا الجيش «سيس» ودخلها المسلمون مرة ثانية وغنموا كثيراً وأسروا كثيراً.

وكانت كليكيا يومئذ كما كانت في السابق بيد الأرمن وملوكهم أبناء «هيتوم». وقد ذكرنا سابقاً أن «ليون» ابن «هيتوم» أسره الملك الظاهر «بيبرس» البندقداري سنة ٦٦٤ هـ ثم تخلص من الأسر وخلف أباه بعد وفاته على نحو ما ذكر سابقاً.

وبعد وفاة «ليون» هذا خلفه في سلطنة كليكيا ابنه «هيتوم» الثاني. وظل في هذا المنصب إلى أول سنة من سلطنة «غازان خان». وفي هذه السنة قام بزيارة لـ«غازان». وبعد عودته إلى عاصمته «سيس» ذهب إلى القسطنطينية لزيارة أخته مريم زوجة ميخائيل أمبراطور روما الشرقية، وصحب معه أخاه «طوروس»، واستخلف أخاه الآخر «سنباد» (سنباط) نائباً عنه في «سيس».

وفي غيابه استمال «سنباد» أعيان المملكة إليه وفي سنة ٦٩٦ هـ نادى بنفسه ملكاً على أرمينيا الصغرى وكليكيا. وحسن له عظيم النصارى في تلك النواحي أن يجعل مملكته في حماية البابا ففعل. وصوب «غازان» أيضاً سلطنته، وزوجه إحدى نسيبات الأسرة الإيلخانية.

ولما عاد «هيتوم» الثاني وأخوه «طوروس» من القسطنطينية ورأيا ما آلت إليه الحال قفلا راجعين إلى القسطنطينية يطلبان المدد من الإمبراطور. ولكنهما لم يحصلا على نتيجة غير مبلغ من المال. فاضطرا إلى التوجه إلى بلاط الإيلخان. وفي هذه الطريق خاب مسعاهما أيضاً، إذ اعتقلهما المأمورون الإيلخانيون في قيسارية الروم. وبعد قليل قتل «طوروس» وأعميت عينا «هيتوم» بأمر من «غازان».

ولكن إحدى عيني «هيتوم» شفيت وعادت مبصرة. وإذ كان أخوه «سنباد» السبب في هذه المصائب كلها فقد عزم على الإنتقام منه. وقد ولدت خلافات الأخوين هذه خلافات ودسائس بين أعيان أرمينيا وأمرائها. وحين هاجم عسكر «الملك المنصور حسام الدين لاشين» كليكيا و أرمينيا الصغرى سنة ٦٩٧ هـ، كانت تلك البلاد على هذه الحال من الخلاف والشقاق.

وأدى هذا الهجوم إلى إحتلال المسلمين مدينة «سيس» وأكثر بلاد «سنباد» وسقوط هذا الملك عن العرش، وتعيين أخيه من قبل «حسام الدين لاشين» ملكاً على أرمينيا. وتقرر جعل نهر «جيحان» حداً بين ممتلكاته وبلاد المسلمين. وجدد «لاشين» عمارة البلاد التي احتلها وسلمها إلى أمرائه، إذ كانت أولى غايته من هذه الحملة إشغال أمرائه والحصول على بلاد جديدة يسلمها إليهم لعله يشغلهم بذلك ويصرفهم عن نصب مملوكه «منكو تيمور» سلطاناً.

وأراد «لاشين» أن يرتاح من شر أمرائه المقتدرين، فأشاع بين الناس أن المغول قادمون إلى غزو الشام. وجعل ذلك ذريعة إلى إرسال «قبشق» أو «قبشاق» حاكم دمشق إلى حلب. وأمر حاكم حلب أن يعتقل فريقاً من أمرائه المقيمين فيها ويسمهم. وعرف هؤلاء قصد الحاكم هذا ففروا والتحقوا بـ«قبشق»، وكان هذا قد تنبه إلى خطة «لاشين».

وسعى «قبشق» إلى حمل «لاشين» على العفو عنهم ولكنه رفض. ومن ثم سار ومعه أولئك الأمراء فعبروا الفرات في أواخر ذي القعدة سنة ٦٩٧ هـ قاصدين إلى «غازان خان» ليستجيروا به. وتلقاهم الحكام المغول في ديار بكر وماردين بالإكرام وبعثوا معهم مرافقين يصحبونهم إلى بغداد. فلما وصلوها خف عمال «غازان» إلى استقبالهم فأنزلوهم منزلاً لائقاً من الاحترام والإكرام. وخرج «غازان» نفسه مع جماعة إلى الترحيب بهم. وبعد تقديم القرى، أنعم عليهم نعماً كثيرةً بلا حساب. ووعده أولئك الأمراء الهاربون من «لاشين» بأن يكونوا في ركابه محاربين معه إن هو غزا الشام ومصر.

تجددت الأحقاد ما بين سلاطين مصر وإيلخانات إيران في عهد «غازان» الملك المقتدر المتطلع إلى السيطرة والجاه. وكان هذا الإيلخان، قبل وقوع هذه الحوادث، يسعى إلى إيجاد سبب يتذرع به إلى مهاجمة الشام ومصر. وقد حدثت وقائع جعلته يحزم أمره على إنفاذ خطته.

ففي سنة ٦٩٥ هـ لجأ نحو من ١٠٠٠٠ مغولي من طائفة «أويرات» برئاسة «طرغاي» إلى المسلمين خوفاً من «غازان». وقد ذكرنا سابقاً أن «طرغاي» هذا كان عوناً لـ«بايدو» في قتل «كيخاتو». ولما وصل «غازان» إلى منصب السلطنة طلبه لينتقص منه. ففر «طرغاي» ومغول «أويرات» إلى الشام عائذين بالملك العادل «كتبغا». فأكرم هذا وفادتهم واحترمهم وبذل لهم الخلع والمال وأسكنهم في بلاده.

وفي سنة ٦٩٧ هـ خرج أحد أمراء المغول واسمه «سلامش» في بلاد الرّوم، فلمّا أرسل «غازان» بعض أمرائه لقمعه استنجد «سلامش» بـ«لاشين» فأنجده بعسكر. ولكن الأمراء الغازانيين قتلوا قائد الجيش المصري وجماعة

من عسكره وتغلبوا على «سلامش». وبعد قليل قبضوا عليه وقتلوه.

وهاتان الواقعتان ثم لجوء أمراء «لاشين» إلى «غازان» وتحريضهم لـه على غزو الشام ومصر، جعلت الإيلخان يصمم على مهاجمة تلك المملكة. وفيما هو مشغول بتهيئة الأمور وصله خبر بأن ٤٠٠٠ آلاف من مسلمي الشام هجموا على ديار بكـر واستولـو على قلعة مـاردين وتقدمـوا إلى حد «رأس العين»، وأنهم ارتكبوا شنائع كثيرة بالإغارة على المسـاجد وقتـل المسلمين ونهبهم. وكان ذلك في سنة ٦٩٨ هـ.

وقد تأثر «غازان» كثيراً من هذه الأخبار. واستفتى العلماء والأئمّة فيما يصنع. فحرضوه كلهم على دفع المعتدين عن البلاد الإسلامية وحمايتها من المهاجمين. ومن ثم لم يبق مانع يمنع «غازان» من الهجوم على ممالك الشام ومصر الإسلامية، وهو أمنية قديمة في نفسه.

وفي ١١ ربيع الآخر سنـة ٦٩٨ هـ قتل «الملك المنصـور لاشين»، قتله جماعة من مماليكه، واعتقلوا مملوكه «منكوتيمور» فحبسوه مدة في بئر، ثم ضربوا عنقه. وأعاد أمراء العسكر «الملك الناصر محمد» ابن «سيف الدولة قلاوون الألفي» إلى منصب السلطنة مرة ثانية، وكان قد خلع قبل مدة قليلة. واختص كل من هؤلاء الأمراء بمهمّة من مهام الملك.

وفي الخريف من سنة ٦٩٩ هـ سار «غازان» من تبريز بجيش من ثلاثين ألف جندي ومعه أمراؤه، قاصـداً بلاد الشـام، وجعل «قتلغشـاه» آمراً على طلائعه. وبلغ الفرات من طريق مراغة وإربل والموصل وماردين. وفي أثناء طريقه هذه كان أمراء العسكر ورؤساؤه يسارعون إلى إمداده من كل ناحية حتّى بلغت عدّة جيشه حين وصل الفرات تسعين ألف جندي.

وقعة مجمـع المـروج

لما وصل خبر مسير «غازان» إلى الملك الناصر وأمرائه جمعوا جيشاً من الشام ومصر وتوجهوا به إلى دمشق حيث أقاموا مقر قيادتهم العسكرية. وكان

ما يرجع إلى الملك الناصر من شؤون الدولة والعسكر كله بيد «بيبرس جوشنكير» و«سيف الدين سلار» نائب السلطنة. ولم يستطع هذان أن يجهزا جيشاً كما يجب أن يكون الجيش، ولا كانا متهيئين لمقابلة عساكر «غازان»، وذلك بسبب سوء التدبير ومطامع الأمراء.

وتقدم الجيش الإيلخاني فعبر الفرات وسلك طريق عينتاب وحلب منحدراً إلى دمشق. وفر الأهالي من البلدان الواقعة على طريقه خوفاً ورعباً، حتى أن «بلبان طباخي» حاكم حلب و«قرا سنقر» حاكم حماه فرّا إلى حمص.

وكان همّ «غازان» قبل كل شيء ضعضعة عسكر الملك الناصر. ومن ثم لم يهتم بمحاصرة قلعة حلب وقلعة حماه، بل خفّ مسرعاً إلى بلدة «سلمية» الواقعة شرقي نهر العاصي، وتبعد عن حمص مسيرة يوم. وهناك وقع أوّل تصادم بين عسكره والعسكر المصري.

ولم يكن جيش الملك الناصر على وضع حسن، بسبب نفاق الأمراء والمماليك. وكان مغول «أويرات»، على الخصوص، ناقمين سيئي الظن بسبب تقدم جماعة من عسكريي المماليك عليهم. ولمّا وصلوا إلى «غزة»، وهم في طريقهم من مصر إلى الشام تواطؤوا على قتل الملك الناصر، وكف يد «بيبرس» و«سلار» عن التصرف في أمور الدولة، وإعادة الأمير «كتبغا» مرة ثانية إلى مكانهما.

وهذه المؤامرة، وإن تكن قد انكشفت، وقتل جماعة من مغول «أويرات» الذين دبروها، عقاباً لهم على خيانتهم لمخدومهم، إلّا أنّها كانت سبباً في وقوع الاختلاف والشقاق في صف مسلمي مصر والشام، وأضعفت نفوسهم في مقاومة العدو. وعلى الضد من ذلك كان وصول تلك الأخبار إلى معسكر «غازان» سبباً في تقويته، وأيقن «غازان» أنّ عسكر مصر والشام تختلف حاله اليوم عنها في أيّام «قدوز» و«بيبرس» و«قلاوون» اختلافاً عظيماً.

وأنّ خصمه ليس على ما كان عليه أولئك الأبطال الكرارون من قدرة في تجهيز الجيوش والضرب بالسيوف.

ووقعت الحرب بين العساكر الإيلخانية وعساكر الملك الناصر عصر الأربعاء ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩ هـ على بعد نصف منزل من حمص إلى المشرق في محلة «مجمع المروج». وكان «غازان» مع ٩٠٠٠٠ من جنده في القلب، وكان معه أيضاً الأمير «شوبان» وأمير آخر من أمراء المغول. و «قتلغشاه» على ميمنته ومعه «مولاي» وآخر من أمراء المغول. وعلى ميسرته «كربوغا بهادر» وأربعة آخرون من رؤساء العسكر.

وكانت عدة العسكر المصري من ٢٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ على خلاف في الرواية. وكان على القلب منه الملك الناصر ومعه «سلار» و «بيبرس». وعلى الميمنة «عيسى بن مهنا» أمير عرب البادية و «بلبان طباخي» حاكم حلب. وعلى الميسرة «بدر الدين بكتاش» وبعض الأمراء الآخرون.

وتزعزعت ميمنة العسكر المصري على أثر حملة رماة السهام المغول، فولوا الأدبار منهزمين. ولكن الميسرة ثبتت وكادت تهزم عسكر «غازان»، إلاّ أنّ «قبشق» ما زال به يثبته ويقوي قلبه، فثبت واستمر في المقاومة، وجمع إليه من كان قد تفرق من جنده، وحمل على القلب من العسكر المصري فضعضعه، وتضعضعت الميسرة أيضاً بعد ثباتها طويلاً، فسارعوا إلى الفرار لا يلوون على شيء. وبلغت سرعتهم مبلغاً عظيماً، حتى ظن «غازان» أن في الأمر خدعة، فاحتاط ولم يتعقبهم. ومن ثم عاد المصريون أدراجهم سالمين.

انهزم الملك الناصر بجنده إلى دمشق. ثم غادرها عائداً إلى القاهرة. وسار العسكر الإيلخاني يتعقب المنهزمين. فاستولى على دمشق وبيت المشرق وغزة، وغنم كثيراً، ثم رجع. وسلمت دمشق من السلب والقتل إذ كان «قبشق» قد حصل من «غازان» على أمان للدمشقيين.

وبعد قليل من هزيمة «مجمع المروج» هيأ الملك الناصر جيشاً آخر. وترك «قبشق» والأمراء الآخرون الذين كانوا قد لجأوا إلى «غازان» عسكر المغول وهربوا من دمشق إلى مصر وعادوا إلى الملك الناصر مرة ثانية. وجدد «سلار» و «بيبرس» في مصر تجهيز عسكرهما وتلافيا خسائره حتّى أصبح مهيئاً للنزال.

وأخافت هذه الحوادث المغول. وزاد في خوفهم أن «غازان» وكان قد عاد إلى إيران لرد حملة الأتراك الجغتائيين على حدود خراسان ولإشتداد الحر، فترك عسكره الشام وعادوا إلى البلاد الشرقية.

وأعاد «سلار» و«بيبرس» الشام إلى الملك الناصر، وعهدا بدمشق وحلب وحماه إلى أمراء مثل «جمال الدين آغوش» و«قراسنقر» و«كتبغا» وغيرهم.

قال في «حبيب السير»:

«بعد رجوع غازان خان حاصر قتلغشاه نويان قلعة دمشق. وادعى أحد الخبراء المنجنيقيين أنه قادر على احتلال هذا الحصن بضربه بالحجر. فأمر قتلغشاه بتهيئه ما يحتاج إليه الخبير».

«وعرف قائد حامية القلعة أن الخبير المنجنيقي إن اتيحت له الفرصة، يستطيع، بماله من مهارة كاملة في فنه، أن ينقض هذا الصرح. ولذلك قال لبعض الشجعان من جماعته: كل من كفانا شر هذا الشخص أعطيه ألف دينار. فتقدم لهذا العمل أحد مشاهير العيارين. فغير لباسه وخرج من القلعة عند انتهاء صلاة العشاء، إذ كان الخبير المنجنيفي غائباً عن بيته، فدخل البيت وجلس في ركن مظلم. فلما عاد الخبير بادره هذا المغامر بطعنة سكين ثم احتزّ رأسه، وانطلق راكضاً من البيت شاهراً السكين، حتى دخل القلعة بسرعة البرق اللامع. وأصبح رافع الرأس بما ناله من أنواع الاعجاب والاستحسان».

«وعلى هذا توقف فتح دمشق. وأخذ «القبشاق» والمصريون، متواطئين هم، وأهالي القلاع، يغيرون، متخفين نهاراً ومتسترين بالظلام ليلاً، على المغول فيسرقون حوائجهم وأموالهم ويقتلون كل من يلقونه منهم. فرأى «قتلغشاه» أن المصلحة في التراجع. فعاد وفي صحبته سائر أمراء الشام وحكامها. وحين عبروا الفرات غرق منهم جماعة كبيرة». ووصلوا إلى ولاية الموصل حيث كان «غازان» في يوم الأحد الخامس من شهر رجب. وعبروا دجلة في غرة شعبان يوم الجمعة».

عاد «غازان» من الشام فوصل إلى مراغة في ١٥ رمضان سنة ٦٩٩ هـ، وزار مرصدها، وأظهر رغبة في بناء مرصد جديد بالقرب من تبريز. ومنها ذهب إلى «أوجان». وهناك عقد مجلس شورى. ودخل تبريز في شهر ذي الحجة.

وكان الاستيلاء مجدداً على الشام غاية نصب عينيه لا يحول عنها. وكان يقضي أوقاته في القيام بإصلاحات داخلية وتنظيم أمور الملك، منتظراً سنوح الوقت المناسب لتحقيق هذا الأمر. ومن ذلك وقفه أوقافاً كثيرة لأجل إقامة الشعائر الدينية والمدارس ودور السيادة. ورمم قلعة تبريز وأنشأ أبنية جديدة وقنوات كثيرة، ووضع قواعد وقوانين لتنظيم أعمال الناس وتحقيق رفاههم، سنذكرها عن قريب.

وفي غرة المحرم سنة ٧٠٠ هـ عزم «غازان» على تجديد الهجوم على الشام. وفي هذه المرة اختار فصل الشتاء للهجوم. وبعث، قبل أن يخرج من تبريز، «قتلغشاه» على مقدمة عساكره إلى الشام. ثم سار هو حتى اجتاز الموصل ودخل حلب، فهرب منها أهلها وفر حاكمها «قراسنقر» إلى حماه. وثبت «كتبغا» مقاوماً في دمشق.

فلما وصل نبأ قدوم المغول إلى الشام للملك الناصر بادر إلى توفير المال وجمع العسكر، وهيأ قواته بعجلة، وسار بها نحو الشام. إلّا أن جيشه لقي صعوبات كثيرة في طريقه من الأمطار المتوالية والوحول، وانسدت الطرق ونفدت العلوفة، فعاد السلطان بعسكره إلى مصر. وابتلي عسكر المغول أيضاً بمثل ذلك فمات كثير منهم ونفق كثير من خيولهم، فاضطر «غازان» إلى الرجوع، ووصل إلى «أوجان» في ٢٤ رمضان.

وبعد ثلاثة أشهر من تراجع «غازان» عن الشام بعث برسالة إلى الملك الناصر مع «نصير الدين التبريزي» والقاضي «قطب الدين الموصلي»، فيها أن مسلمي مصر والشام يكونون آمنين من تعرض المغول لهم إن هم ذكروا اسم «غازان» في الخطبة ونقشوه على نقدهم وأدوا الخراج إليه. وإن خالفوا فسلكوا سبيل العصيان حل بهم ما حل بشاهات خوارزم على يد الجنكيزيين.

وأنعم الملك الناصر على رسولي «غازان» هذين وخلع عليهما. وجعل الجواب على مقترحات الإيلخان متوقفاً على إرسال سفراء من قبله إلى معسكر الإيلخان لبحث هذه المقترحات.

وحين كان «غازان» قاصداً إلى الشام التقى به السفيران وهو في طريقه عند مدينة الحلة. فأبلغاه نتيجة سفارتهما.

وفي جمادى الأولى من تلك السنة حمل رسل من الملك الناصر رسالة جواباً إلى «غازان» وقد كتب اسم الملك الناصر عليها بالذهب، ولم يُراع فيها احترام للإيلخان إلاّ قليلاً. وأخبره فيها أنّ خراج ممالك الشام ومصر وقف على الجهاد وحفظ الثغور والحدود من الممالك الإسلامية، وليس فيه فضلة عن ذلك فيتعهد بدفعها إليه. وأمّا ضرب النقد فلا مانع من أن ينقش على وجه منها اسم الخليفة أمير المؤمنين. واسم السلطان محمود غازان خان. وعلى الوجه الآخر بعد ذكر «لا إله إلاّ الله» اسم الملك الناصر. وبعث الملك الناصر مع الرسالة صندوقاً من الأسلحة إلى «غازان».

واستنبط الإيلخان من هذا الجواب أن سلطان مصر يؤذنه بأنّه حاضر لمقاتلته وصدّه، فغضب غضباً شديداً وأمر بأن يتهيّأ أمراء الجيش ورؤساؤه للهجوم على الشام.

وفي جمادى الآخرة سنة ٧٠٢ هـ عبر «غازان» الفرات من مكان قريب من الحلة. وبعد أن زار مقام الإمام الحسين (ع) في كربلاء وقدم مقداراً من المال نذراً للعتبة الحسينية والعلماء والسادات، انطلق على امتداد شط الفرات نحو «الأنبار» و «سنجار». وفي رجب من تلك السنة نزل «عانة». وهناك قدّم الأديب «عبد الله وصاف الحضرة الشيرازي» مؤلف كتاب «تاريخ وصاف» المعروف كتابه هذا إلى «غازان» بتوسط «الخواجة سعد الدّين ساوجي» و «الخواجة رشيد الدّين فضل الله». فأنعم عليه الإيلخان وأكرمه. وكان عمر «وصاف» يومئذ لا يتجاوز الأربعين عاماً.

ومكث «غازان» معسكراً في «عانة» بضعة أيّام ثم نقل مركز عسكره إلى

نواحي قلعة «الرحبة»، في ساحل الفرات الأيمن بين «عانة» و«الرقة»، وضرب حصاراً على أطراف تلك القلعة.

ودعا الأمراء الإيلخانيّون و«الخواجة سعد الدين» و«الخواجة رشيد الدين» الأمير «علم الدين سنجر» قائد حامية القلعة إلى التسليم والطاعة. فبعث هذا بشيء من العلوفة إلى المعسكر الإيلخاني، وامتنع عن تسليم القلعة معتذراً بأن «الرحبة». حد الشام وتسليمها يفتح ثغرة في قواعد المسلمين، ومن يقدم على تسليمها يعد خائناً ووعد «غازان» بأنّه إذا وفق إلى احتلال الشام فإنّه لن يمتنع عن تسليمها إليه. وقبل «غازان» عذره وانصرف عن «الرحبة». واتجه إلى حلب في ٦ شعبان. وانحدر إليها أيضاً الأمير «شوبان» والأمير «مولاي» و«قتلغشاه» من طريق «الرقة».

فلمّا وصل خبر هجوم المغول على الشام إلى الملك الناصر سارع إلى إرسال «بيبرس جوشنكيز» مع عسكر لنجدة حامياتها. فخفّ هذا إلى ملاقاة «قتلغشاه»، وكان هذا يقود جيشاً عدّته بين ٤٠٠٠٠ و٨٠٠٠٠ جندي على اختلاف في الروايات. وإذ رأى «بيبرس» أنّ قوات المغول تفوق قواته كتب إلى الملك الناصر يطلب منه الحضور بنفسه إلى الشام.

واتخذت القوات الشامية مدينة حماه مركز اجتماعها. فجاءتها حاميات طرابلس وحمص وعسكر دمشق وتجمعوا فيها محيطين بالأمير «كتبغا»، وكان مريضاً.

وأرسل الأمير «كتبغا» جماعة من عسكره بقيادة «أسند مركرجي» لحماية الثغور على ساحل الفرات و«الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء» المؤرخ المشهور، وكان أميراً على حماه، لصد المغول، وكانوا يواصلون تقدّمهم.

وفي العاشر من شعبان تمكن هذا الجيش من كسر المغول. فأسروا جماعة منهم وردّوا طليعة جيشهم على أعقابهم، ثم عادوا إلى معسكرهم. وكان هذا النصر مقدمة للنصر الكبير الذي أعقبه بعد مدّة قصيرة.

وقعة مرج الصفر

وفي الثالث من شهر شعبان سار الملك الناصر بمعية الخليفة «أبي الربيع سليمان المستكفي بالله»، يقود جيشاً جراراً من القاهرة قاصداً إلى الشام. وقد ذكرنا أنّ «جوشنكير» كان قد سبقه إليها يقود مقدمة الجيش.

أمّا المغول فقد رجعوا، بعد انكسارهم ذاك في ١٠ شعبان، قاصدين إلى حماه. وأقام الأمير «زين الدّين كتبغا» أبا الفداء على حماه. وذهب هو إلى دمشق. وكان «كتبغا» في هذه الأثناء لا يزال مريضاً، يُسار به على محمل «التختروان».

وفي ذلك الوقت وقع أهالي دمشق في حيرة كليّة لا يعرفون ماذا يفعلون، وشملهم اضطراب وتشتت هائل، مترددين لا يدرون هل يسارعون إلى صد المغول أم ينتظرون العسكر السلطاني. ولذلك ترك المدينة جماعة من أهاليها من رجال ونساء وأطفال وقد وهنت عزائمهم لا يملكون ثباتاً. واغتنم المغول هذه الفرصة فتقدموا إلى أطراف المدينة وعسكروا في غوطة دمشق بالقرب من «مرج الصفر». واتفق أن كان وصول المغول إلى هذا المكان حين وصول «جوشنكير» ومقدمة عساكر الملك الناصر.

وكانت عدة الجيش الإيلخاني ٥٠٠٠٠ جندي وآمره «قتلغشاه» يرافقه الأمير «شوبان» و«تيتاق» و«مولاي» و«سونتاي» وغيرهم من الأمراء. وهناك صفوا جيشهم للقتال. ويشتهر «مرج الصفر» هذا بأنّه سبق أن أوقع فيه المسلمون هزيمة كبيرة بالعسكر الرومي سنة ١٣ هـ.

وتهيّأ الملك الناصر، وقد وصل إلى الميدان في الوقت المناسب، للحرب ومعه الخليفة و«حسام الدّين» الحاجب سالار و«سيف الدين سلار» و«جمال الدّين آغوش» و«بيبرس جوشنكير» والأمير «قبشق»، وغيرهم من أمراء بلاد الشام المختلفة وحكامها. ونشبت الحرب في الثاني من رمضان سنة ٧٠٢ هـ.

وهالت كثرة المعدات في الجيش المصري والشامي «قتلغشاه» في أوّل

الأمر، فعزم على الأنصراف، ولكن الأمير «شوبان» منعه. وغامر المغول فحملوا على جيش الملك الناصر. وتمكن الأمير «شوبان» و «تيتاق» من كسر الجناح الأيمن من الجيش السلطاني، وقتل آمره «حسام الدّين» وأسر المغول الأمير «قبشق» وجميع عساكر هذا القسم. ولكن القلب والميسرة من جيش الملك الناصر تغلبوا على المغول وأوقعا بهم هزيمة شديدة. وأسر «تيتاق» وفر الأمير «شوبان». واغتنم «قتلغشاه» وغيره من الأمراء فرصة دخول الليل فلجأوا بمن بقي معهم من المغول تحت جنح الظلام إلى جبل مشرف على «مرج الصفر». فأمر الملك الناصر بمحاصرتهم.

ولما طلع الصبح ورأى المغول كثرة العساكر المصرية والشامية بادروا إلى الفرار. واتفق أن مروا في سبخة فعلق كثير منهم في وحلها. وتعقبهم الجيش السلطاني، وأمر الملك الناصر «سيف الدّين سلار» بأن يتبعهم، فتبعهم إلى شاطىء الفرات، وهو في أيّام فيضانه، فصعب عليهم عبوره وغرق جماعة منهم، وسلب الأعراب جماعة آخرين. ووصلت بقية قليلة منهم إلى بغداد والتقت «غازان» خافضة الرأس في ١٩ رمضان.

وجبر انتصار «مرج الصفر» انكسار «مجمع المروج» على أحسن وجه. وأسر العسكر المصري والشامي عشرة آلاف من عسكر «غازان» وغنموا عشرين ألف فرس. وكان من الأسرى الأمير «سونتاي» و «كين جو» و «تيتناق» وجماعة أخرى من الأمراء الغازانيين. وأطلق الحمام الزاجل وسُيّرت الرسل ينشرون البشرى بالنصر في مختلف النواحي. ودخل الملك الناصر دمشق في غاية الجلال وخلع على أمراء العسكر ورؤساؤه. ومكث قليلاً في دمشق ثم عاد إلى القاهرة.

وقد أثر نبأ هذه الهزيمة في «غازان» تأثيراً شديداً وأحزنه وأغضبه حتّى أنّه كان يرعف من شدّة الغضب. ولمّا وصل إلى «أوجان» في العاشر من ذي القعدة عقد مجلس شورى، وأحال «قتلغشاه» والأمير «شوبان» وآخرين من قواد العسكر إلى المحاكمة. واستمرت محاكمتهم يومين. وبعدها قتل اثنين من القواد العسكريين، وجلد «مولاي» مع إهانته بأنواع الإهانة. وجلد أيضاً

«قتلغشاه» و«شوبان». ومنعهم من دخول المعسكر بضعة أيّام، وظلّ زماناً طويلاً لا يكترث ولا يعتني بأحد منهم. وظلت فكرة تلافي هذه الهزيمة تلازمه إلى وفاته.

وفـاة «غـازان خـان»

لمّا جلس «غازان خان» على العرش الإيلخاني كانت خزانة الدولة قد خلت بسبب هدر الذخائر والخزائن التي تركها «هولاكو» وبسبب التبذير وغفلة خلفائه من الإيلخانات، ولا سيّما إسراف «كيخاتو» و«صدر الدين جهان» في البذل والعطاء بلا مسوغ، حتى بلغ الإفلاس أحياناً إلى العجز عن تقديم هدية إلى سفير يأتي من خارج المملكة. فأصبح «غازان» وارثاً لمملكة خربة عاجزة عن أداء شيء من النفقات المالية، كما قال.

ولمّا فرغ «غازان» في السنة الأولى والسنة الثانية من سلطنته من إصلاح حال الجيش وتأديب المخالفين وتأمين الحدود والثغور، انصرف إلى تنظيم أمور المملكة الإدارية وضبط حساباتها. وقد أحسن العمل في هذا السبيل، وإن يكن قد أوقع بالناس تعديات وإجحافات كثيرة. فقد نظم حسابات الدخل والخرج ووفر موارد للخزانة. وقرر مبلغاً ما بين مائتي تومان وثلاثمائة تومان[١] توزع على أقسام المعسكر، فيسرهم بذلك من جهـة، ويفهمهم، من جهة ثانية، مقدار مخصصاتهم فلا يطالبون بأكثر منها.

وبعد تنبيه «غازان» لرؤساء العسكر في مجلس الشورى الذي عقده في «أوجان» بعد هزيمة «مرج الصفر»، أطلق يده بالبـذل والعطاء، فـوهب كلّ واحد من قواد الجيش خلعاً وإنعامات بلا حساب. وجلس خمسة عشر يوماً في فسطاط ينثر بيده الخزانة وحاصل الضرائب من الولايات، الضرائب التي سبق أن وصلت إليه بعنوان مـدد للعسكر، وجبيت بـالتعدي على النـاس. ووهبهم في هذه المدة القليلة ٣٠٠ نومان من الذهـب و ٢٠٠٠٠ دست من

(١) التومان: عشرة آلاف.

الخلع ولباس التشريفات و ٥٠ منطقة مرصعة و ٣٠٠ منطقة من الذهب، وفعل شيئاً لم يفعله أحد قبله من الإيلخانات.

وبعد إتمام مجلس شورى «أوجان» ذهب غازان إلى تبريز ليهيىء جيشاً لغزو الشام والانتقام لهزيمة «مرج الصفر». ولكن رمدت عيناه فجأة. واشتغل الأطباء الصينيون بمعالجتهما. ومكث هناك مدة قليلة عاد بعدها إلى «أوجان». ثم سار قاصداً بغداد ليشتو فيها. ولكنه لم يستطع أن يمضي في سفره إذ منعه من ذلك المطر والثلج، فعزم على تقضية الشتاء على شاطىء «قزل أوزن». وكان ذلك في نهاية ربيع الأخر سنة ٧٠٣ هـ.

وفيما هو مقيم في مشتاه هذا تلقى «صاحب الديوان» «الخواجة سعد الدين ساوجي» خبراً بأن أحد الدجالين من أهل تبريز اسمه «بير يعقوب الداغستاني» قد جمع حوله جماعة من التبريزيين ونادى بـ«آلافرنك» ابن «كيخاتو» الأكبر سلطاناً، وبعث أحد اتباعه المتمردين يندس في معسكر «غازان» ويدعو حاشية الإيلخان إلى موالاة «آلافرنك» والاعتراف بسلطنته.

وأبلغ الخواجة نبأ هذا الحادث إلى «غازان»، فبادر هذا إلى إرسال رجل إلى تبريز، فاعتقل «بير يعقوب» و «آلافرنك» وجماعة آخرين من الوجهاء الذين انضموا إليه، وحملهم إلى معسكر «غازان» وتولى الإيلخان محاكمتهم بنفسه. فتبين له أنّ «بير يعقوب» ومريديه يتبعون بعض العقائد المزدكية. ولهذا قتلهم كلّهم ما عدا «آلافرنك». ومنح «الخواجة سعد الدين» رتبة الإمارة علاوة على منصب الوزارة. وجعله آمراً على ألف فارس من المغول.

ظل «غازان» بعد هزيمة «مرج الصفر» دائم الغم والأسف. ومرض في هذا المشتى مرضاً شديداً. وبذل الأطباء قصارى جهدهم في مداواته فلم يحصل على نتيجة. فاضطر في أوائل فصل الربيع إلى الانتقال من مشتاه عند «قزل أوزن» إلى «ساوة». وهناك نزل ضيفاً على «الخواجة سعد الدين» إذ كانت «ساوة» موطنه. فأضافه ضيافة لائقة.

وبعد قليل من إقامته في «ساوة» تحسنت حالة مزاجه. ولكنه لما خرج منها إلى الري عاد فانتكس، فاضطر إلى المكث بضعة أيام في الري. ثم

خرج منها قاصداً قزوين. فلمّا صار قريباً منها توفي يوم الأحد ١١ شوال سنة ٣٠٧ هـ، بعد أن تملك تسع سنوات وله من العمر ٣٣ سنة. وحملت جنازته من هناك إلى تبريز، ودفن تحت قبة في «شنب غازان» أو «شام غازان» وهو بناء كان قد أقامه قبلاً ليكون قبراً له.

قال في «تاريخ وصاف»:

«أراد غازان أن يتمم أساس العدل الذي مهده ويرشد إلى طريقة تقوية الإسلام الذي أنفق مدة سلطنته في بنائه، فكان واجباً عليه النصيحة والتذكير لأبناء المستقبل، وإهداؤهم وصيّة ثمينة. فأحضر كل الخواتين العظيمات وملكات المملكة وأوانس السلطنة ومحارم حرم الحضرة مع أركان الدولة العظمى والأمير قتلغشاه والأمراء العظام شوبان وبايدو وبولاد وسنتاي وسلطان وملاي ورمضان والغووكورتيمور وتار متار، ومُشيرَيْ سدة الْمُلْك الصاحبَيْنِ الأعظَمَيْنِ الخواجة رشيد الدين والخواجة سعد الدين، وآخرين من مقربي عهد خانيته ومشاهيره»، وقال:

«قد تحقق لنا بنور اليقين وبالنظرة المستبصرة أننا سنُنقل من هذه المرحلة الفانية إلى المنزل الباقي ومصاحبة الحور العين، ونمضي عن هذا الغار، غار الإنسان الذليل إلى جوار الملك الجبار. لقد كان كل الهمة وأقصى الأمنية في هذه الأيّام القليلة التي وضِعَتْ فيها بيد دولتنا مقاليد مُلْكٍ مجازيّ، وحُوّلَتْ الخاطر كل ما لا يتصف بالنصفة والعدل، الدعامتان اللتان لا يقوم نظام العالم بدونهما، وأن نردع كل مبتدع وندفع ظلم المتعدين، الظلم الذي يلزم دفع شرّه شرعاً وعقلاً، وأن نقوم بتقوية دين سيّد المرسلين وخاتم النبيين على نحو يقيم ما انحرف من سننه بمر الدهور، وأن نقطع طريق الخير التي انفتحت على الناس بالسيف، ونؤدب ونشذب ضميراً دَاخلَه نوع من الجسارة بالتهاون بامتثال الأوامر واجتناب النواهي لعدم محرض متدين وزاجر موفق، ونقرر الحق في مصَابّه، وأن نحل برأس أنملة التأمل في أحوال طبقات الخلق، العقدة عن القلوب المقفلة، لتبقى الشجرة الطيبة في هذه الدنيا نامية مروية بماء الإحسان تؤتي أكلها كل حين.

«في هذه المدة القليلة من الزمان، مدة سلطنتنا التي كانت ثماني سنوات وبضعة أشهر، سعينا، بحول الله تعالى وميامن الهمة المحمّدية، حتى حصل لنا شيء من المعاني التي تقدم ذكرها من استئصال الظالمين والمتمردين على الدين والدولة ووضع قوانين العدل والسياسة ورفع أقانيم الظلم والبدعة، على حسب المطلوب. فكُتبتْ مراسيم أُرسلت إلى القاصي والداني. وشنفت أحكامها الأسماع في كل قطر وصلته. وسرى امتثال أحكامها سريان الروح في الأعضاء، وتمكنت من القلوب تمكن الروح، وصارت مدعاة افتخار للماضين وأساس العبرة والخبرة للآتين. وبعضها حين أردنا إنقاذه لم يمهلنا الأجل ولا وفى العمر ولا سمح الزمان، وحملنا هذه النوايا عذراء في زوايا الصدر».

«فعليكم أن لا تسلكوا بعدي طريق الخلاف فيما بينكم. وسارعوا إلى إجلاس أخي بادشاه جهان خداي بنده محمّد على سرير هذه الدولة المطردة النمو. فقد كنت نصبته ولياً لعهد السلطنة، ومازال في هذا المنصب منذ بضع سنوات. وطالما كررت لكم ذكر هذا الأمر. فكونوا منقادين مذعنين لأمره، ولا تتجاوزوا قانوني ورسمي. ولتكن قواعد هذه الأحكام عندكم مطردة متسقة. ولا تشقوا على الرعايا ولا تضعوا رسماً محدثاً بزيادة شيء أو طلب مساعدة أو تكليف خارج عمّا قررته وعينته».

واجتهدوا في جعل الخيرات والصدقات والأوقاف التي عينتها والعمارات التي أقمتها مستقرة مستكملة بحسب شروطها. وأدوا الرواتب التي أمرنا بها في جميع الممالك إلى أصحابها، وكذلك ما بنيناه بفضلات المال يعود إلى من بني لهم إلـخ». أ. هـ.

لا شك بأن «غازان» يعد من كبار ملوك الشرق، بما قام به من إصلاحات وما أقدم عليه من حسنات وما خلفه من قواعد وقوانين، على قصر عمره وقلة أيام سلطنته. وهو، وإن يكن لا تصح مقارنته في تاريخ إيران بأمثال «كوروش» الكبير و«داريوش» الأول والملوك الساسانيين الكبار، إلا أنه أهل لأن يعد من الملوك المقدمين، وخصوصاً إتقانه تدبير شؤون المملكة والإدارة.

فهو من هذه الجهة معدود أعظم ملوك السلسلة الإيلخانية.

ولكن لا بد من التذكير بأن قسماً من عمدة هذه المفاخر والعظمة وبعد الصيت التي أصبحت لازمة لـ «غازان» إنما حصلت له بفضل وجود وزير خبير فاضل هو «رشيد الدين فضل الله الهمداني». فقد كان يدير ممالك «غازان» الوسيعة بحسن التدبير والفن والسياسة من جهة. ومن جهة أخرى تغنى بذكر محامد غازان وأعماله وخلد وقائع أيامه بقلمه البليغ على صفحات الأيّـام. وكذلك اجتمع حول البلاط الإيلخاني جماعة كبيرة من الفضلاء بتشويق ذلك الوزير العالم وتقديره وحبه للأدب والعلم، وكانت لكل منهم قدم مهمة في هـذه المرحلة، حتى أنّـه يمكن القول إنّ عهـد «غازان» وخليفتـه من بعده «أولجايتو» و«أبو سعيد خان» كان من أكثر عهود الأدب الإيراني ازدهاراً في تاريخ إيران، وذلك بفضل «رشيد الدين فضل الله» وأبنائه. بل يمكن القول إن هذا العهد الأدبي لا نظير له في تاريخ تلك البلاد.

علاقـات «غازان» بالخارج

كانت بين غازان وبين خـاقان الصين وملوك أوروبـا مكاتبـات كثيرة، وكذلك سفراء تتردد ذهاباً وإياباً. وفي سنة ٦٩٩ هـ أرسل رسـولين ومعهما هدايا ثمينة إلى «تيمور خاقان» خليفة «قوبيلاي قاآن» في الصين. فتلقاهما الخاقان بالملاطفة التامة وأجاب «غازان» على هذه المعاملة الوديّـة بإظهـار العطف والصداقة، مع أن إيلخان إيران كان قد دخل في دين الإسلام وجعل يجتهد في نشره والدعوة إليه.

وحملت الانتصارات التي حصل عليها «غازان» في أوّل الأمر في الشام وانتصاره في «مجمع المروج» أعداء المسلمين على أن يهنئوه بهذا التقـدم بإرسال السفراء إليه ومراسلته، ولا سيّما صليبيي أوروبا والأرمن، إذ كـانت مجاهدات المماليك والمصريين والشاميين قد أجلتهم عن تلك الديار على بكـرة أبيهم وخابـوا في محاولتهم الاحتفـاظ ببيت المقدس ومـرافىء الشام وسواحلها، وإذ كانت لهم روابط سابقة بإيلخانات إيران على غير ما يهوى

مسلمو مصر والشام، فقد سرتهم انتصارات «غازان» هذه على المماليك وعدوها بمنزلة انتقام لانكساراتهم وصمموا على تشجيع «غازان» في هذا السبيل لعلهم يرفعون يد المماليك وغيرهم من الأمراء عن الشام ومصر ويخرجونها من سلطتهم.

وعلى اثر هذا الارتياح الذي وجده صليبيو أوروبا كتب «جيمس» الأوّل ملك «أراغون» إحدى ممالك إسبانيا رسالة إلى «غازان» بتاريخ رمضان سنة ٧٠٠ هـ وأرسلها إليه مع سفيره. وقد وصف فيها الإيلخان بأنه أقدر وأكبر سلاطين المغول وملك ملوك المشرق، وأخبره بأن رعاياه عموماً، إذ هم راغبون في زيارة أراضي فلسطين المقدسة، حاضرون ليجاهدوا في ركاب الإيلخان. والتمس منه أن يأذن للزوار الأرغوانيين بزيارة بيت المقدس من غير أن يؤدوا ضريبة ما. وأن يضع خمس الأراضي المقدسة التي استخلصها من يد المسلمين في تصرف النصارى.

ويروي بعض المؤرخين النصارى وحدهم، ولم يروه غيرهم: إن غازان وافق على منح النصارى بعض النواحي التي فتحها من فلسطين، فيجدد بذلك ما كان بين الملوك المسيحيين والإيلخانات السابقين من إتحاد. وأرسل لهذه الغاية سفراء إلى أوروبا. ووصل هؤلاء السفراء إلى بلاط إدوارد الأوّل ملك انكلترا، وأجابه هذا برسالة بعثها مع رسول.

ولكن تبادل هذه المراسلات والسفارات لم يؤد إلى نتيجة ولا خرج عن حد المجاملات الرسمية، ولم يقصد به أي شيء عملي من قبل «غازان» وقُضِيَ على تلك الأمنية، أمنية الصليبيين القديمة. وذلك بسبب بعد مسافات الطرق وعدم التوافق بين مقاصد الصليبيين وبين مقاصد «غازان»، إذ كان هذا يتخذ لنفسه عنوان الداعي إلى الإسلام ويعرف بنفسه بهذا العنوان ما يتناقض مع أهداف الصليبيين. وكذلك الهزائم التي مني بها بعد قليل العسكر الإيلخاني في حروبه مع المماليك، واستيلاء جيوش الملك الناصر على الشام وسواحلها استيلاء قاطعاً.

أخلاق «غازان خان» وصفاته

أصبح «محمود غازان خان» بعد قبوله دين الإسلام من المؤمنين الجادين في الدعوة إلى هذه العقيدة. وظل يجتهد في أيّام عمره كلها في رعاية شعائر الدين الحنيف وآدابه. ويسعى إلى أن يدخل من بقي من عسكره مشركاً وثنياً أو بوذياً في دين الإسلام. وكثيراً ما كان يباحثهم هو نفسه في هذا الموضوع. وقد ذكرنا سابقاً شيئاً مما قام به في مجال الدعوة إلى الإسلام وإقامة شعائره. وسنذكر عن قريب أشياء أخرى.

كان «غازان» امرءاً رشيداً متمرساً بالحرب قد عركته تجاربها خصوصاً أيّام كان حاكماً على خراسان قبل وصوله إلى منصب الإيلخانية، وذلك في مقاومته الحملات المتوالية على هذا الإقليم من مغول ما وراء النهر. فقد أتقن فيها فنون القيادة العسكرية ومقابلة العدو، وأصبح واقفاً على أسرارها.

لم يكن يخشى الموت. ولا ينفك يشجع جنده على احتقار الحياة والثبات في وجه العدو بلا خوف منه. وكثيراً ما كان يقتدي بـ«جنكيز خان» فيُحضر قواد جيشه ويلقي إليهم بتعليمات خاصة. ويوصيهم، كما كان يوصيهم ذلك المدبر الفاتح، بأن يعتمدوا في قيادة الجيوش، قبل كل شيء، على معرفة الطرق، والاستعانة بحرسها وأدلائها وأن يسعوا، قبل التحرك، لتهيئة الزاد والعلوفة والاستعانة بالجواسيس لتحصيل المعلومات عن أحوال الخصم وروحيته واستعداداته. وكان عظيم الجهد في رعاية الانضباط والانتظام في عسكره. وكان في هذا المجال يقتدي بـ«جنكيز» أيضاً. وكان يقول إنّ أهم الأسباب في انكسار الجيوش هو فقد الانتظام وإفلات زمام الأفراد حين الحملة على العدو أو حين التغلب عليه.

وكان يعرف قليلاً من اللغة العربية والصينية والتبتية واللاتينية علاوة على معرفته التامة بالمغولية والفارسية. وكان عظيم الرغبة في الاطلاع على تاريخ الملوك وآدابهم وأخلاقهم ولاسيما معاصريه منهم. وما التقى أحداً من الأجانب إلّا استقصى ما عنده من معرفة في هذا الباب. وكان أكثر حبه لمعرفة

تاريخ آبائه وأجداده المغول. ولم يكن أحد من أمراء المغول ورؤسائهم، غير «بولاد آقا»، يدانيه في الاطـلاع على أحوال المغـول وأساميهم ووقـائعهم. وبعض المعلومـات النفيسة التي ذكـرها «رشيـد الدين» في كتـابـه «جـامـع التواريخ» قد سمعها بنفسه من لسان «غازان خان».

وكان «غازان خان»، إلى ذلك، فناناً عـارفاً ببعض الصنـائع اليـدوية كالبناء والرسم والحدادة وعمل الأسلحة. وأنفق أيضاً بعض عمره عبثـاً في طلب الكيمياء والاشتغال بالرمل والتنجيم والحصول على النباتات العجيبة، جرياً على عادة المغول. وكان يفكر في بناء مرصد بالقرب من تبريز. وكان قبل ذلك قد بنى نموذجاً له في الشام.

كان الرؤساء والوزراء، قبل عهد «غازان»، هم الذين يتولون أمور الحل والعقد. أما الإيلخان فيقضي أكثر أيّامه في الصيد وأمثاله من شؤون اللهو. وكان استقبال السفراء الأجانب ومذاكرتهم في عهدة الوزراء. وهذا مما كان يولد خلافاً وحسداً فيما بين الرؤساء والوزراء. وحين تولى الملك «غـازان» جعل كل هذه المهام في عهدته وحمل الموظفين، كبيرهم وصغيرهم، على إطاعة ما يصدر عنه شخصياً من أوامر. وأقام الأعمال على قاعدة المركزية، يعترف الجميع بكفاءته وتعقله وخبرته، ويقدمون، طوعاً أو كرهاً، آراءه في معضلات الأمور على آرائهم. وإذا قـدم رسول من الخارج قادوه تـواً إلى «غازان» فيستقبله ويباحثه بنفسه، بدلاً من أن يوكـل أمر مبـاحثته إلى أحـد الوزراء. وفي أثناء حديثه لهؤلاء السفراء كان يستطرد إلى ذكر أمور من تاريخ بلادهم ووقائعها وسياستها، فيعجبون بفصاحته وسعة اطلاعه.

وكان محباً لأهل الأدب والحكمة والفضل، وكثيراً مـا كان يجـالسهم ويطرح عليهم اسئلة. وكان على اطلاع كاف على الأديان والمذاهب والملل والنحل. وكثيراً ما كان يباحث أهل المذاهب المختلفة ويناظرهم. وكانت له خبرة في تشخيص ميزان اللياقة والكفاءة في الناس. يضـع كل انسـان في موضعه الذي هو أهل له بحسب فضله واستعداده. وقلّما أصغى إلى غرض المغرضين وسعاية النمامين. وعلى العكس من ذلك كان شديداً كل الشدة

قاسياً لا يرحم في معاملته وتنبيهه للخاطئين. ينزل العقاب الشديد بعماله ومأموريه ورؤساء عسكره إذا رأى منهم ظلماً وتجاوزاً عن الحق. وكان مالكاً لنفسه منضبطاً كل الانضباط لم تعهد منه حركة تدل على مزاج شهواني، بل كان يشتد في محاسبة من يشذ عن طريق الحشمة. وإذ كان لا يتهاون في إنفاذ قوانينه وتطبيقها بل يراعيها أتم مراعاة ويأخذ بها أخذاً شديداً فإن عهد حكمه لم يقصر عن غيره من العهود في إراقة الدماء والقساوة.

القواعد والقوانين الغازانية

وضع «غازان خان» قواعد وقوانين غايتها ترقية حال الرعية، وإيصال أموال الدولة بانتظام إلى الخزانة، ورفع الظلم والتعدي وإحسان الإدارة. وألغى كثيراً من الآداب والرسوم التي كان معمولاً بها من قبله، ولم تكن تعجبه ويعدها غير موافقة للعدل والنظام. وهذا إجمال لها:

١ ـ كانت الضرائب قبل عهد «غازان» يعهد بجبايتها مقاطعة الى حكام الولايات. وهؤلاء يقتطعون منها قسما للنفقات الضرورية ومخصصات أرباب العمائم وأصحاب الاقطاعات ويسلّمون ما بقي منها الى مأمورين مرسلين من قبل الديوان أو من يحمل حوالة منه عليهم.

وكان هؤلاء الحكام في الغالب ظلمة طمّاعين. وبلغ بهم الظلم أنّهم كانوا أحياناً يطالبون الناس بأداء الضريبة عشر مرات في السنة الواحدة، وأحياناً عشرين مرة. وكلما جاء مأمور من قبل معسكر الإيلخان ليأخذ منهم أموال الضرائب التي جبوها، أو جاء آخر لعمل آخر جعل الحكام مجيئه ذريعة الى مطالبة الناس بدفع أموال جديدة بدعوى سدّ نفقات سفر هذا المأمور ونفقات إقامته. ومن ثم كان من دواعي سرورهم وسعادتهم ان يقدم عليهم رسول بمهمة من الإيلخان فيرهق الناس بطلب الاموال منهم بعنوان توفير نفقات المرسال أو تهيئة هدايا وتحف للإيلخان. فيختص بالقسم الاكبر لنفسه، ويقسم الباقي بين رجال الشحنة، أي آمر العسكر والكتاب ليغضوا

النظر عن تعدياته، ويهملوا تدوين الأموال التي أخذت من الناس بهذا الشكل في حساب الديوان.

كان الواجب انفاق الحاصل من ضرائب الـولايات في وجـوه الإنفاق المقررة، وتأدية الحوالات المحولة من قبل الديـوان على الولايـات. ولكن الحكام دأبوا على اختراع وجوه للنفقات بلا حساب، والتلاعب بالقسم الاكبر من العائدات. والحوالات التي لا تزال في أيدي الناس لم تؤد بعد تعود الى الخزانة. فيعيدها موظفو الديوان مرة ثانية إلى مكان تأديتها ممهورة بالختم المغولي السلطاني (آلتمغا). وإذ كان الحكام لا يجرؤون على رد هذا الختم فإنهم يجبرون الرعايا على تأدية الضريبة مرة أخرى ويحصّلونها منهم بإيقاع شتى انواع الإكراه والتهديد بهم. ويأخذون منهم، مع ذلك، أضعاف المبلغ المطلوب، فيحتفظون منها لأنفسهم ولمأموريهم بمقدار الثلثين ويعطون حملة الحوالات مقدار الثلث. وهذا المقدار لم يكن كـافياً لسـد نفقات ذهـابهم وإيابهم.

ولم يكن موظفو الديوان قط يقومون بالتفتيش في عائدات الولايات، ولا كانوا على اطلاع على مقدار ما يصل منها. ويحوّلون الحوالات على الحكام من غير ان يحسبوا حساباً لشيء. وكان بين الحكام وبين صاحب الديـوان اتفاق على رموز مخصوصة إن وضعوها على الحوالة أدّاها الحاكم وإن خلت منها لم يؤدها.

ولم يكن حكام الولايات يؤدون مالاً، لا إلى الخزانة الإيلخانيّة ولا إلى أصحاب الرواتب والمخصصات المقررة. بل كانوا في مطلع كل سنة يدفعون أصحاب هذه الحقوق بحجة أن عليهم أولاً أن يؤدوا نفقات الخزانة ونفقات الرّسل المترددين بين الولايات. وهكذا كـانوا يمـطلونهم من سنة إلى سنـة ويتركونهم جياعاً عـاجزين. ومن كـان من هؤلاء الحكام أكثـر ذكاء مـاكس أصحاب الحقوق هؤلاء بمصالحتهم على أن يدفع إليهم نصف ما يستحقون على أن يكتبوا له إيصالاً بكامل المبلغ. وفوق ذلك كان هذا النصف لا يدفع إليهم مالاً بل متـاعاً يحسب بضعف ثمنـه الحقيقي. ومع ذلـك كان هؤلاء

المطالبون الذين لم يحصلوا على أكثر من ربع ما يستحقون يعدّون أنفسهم سعداء ويفخرون على اولئك الذين لم يوفقوا إلى الحصول على شيء، حتى الدينار الواحد.

فإن استطاع أحد من أصحاب الحقوق ومستحقي الرواتب أن يتحمل مشاق السفر ومصاعب الطريق فيصل إلى المعسكر ويشكو الحاكم بأنه لم يوصل إليه حقه، وحقق الموظفون في شكواه وثبتت صحة دعواه وأحيل الحاكم إلى المحاكمة، أجاب الحاكم بأن السبب في ذلك هو عدم وصول كل الضرائب المطلوبة، وجعل تأدية حقوق الشاكي متوقفة على تحصيل بقية الضرائب. وهذه البقايا التي يتعلل بها الحاكم تكون في الواقع بقايا ضرائب غير شرعية فرضها على الناس وطالبهم بها تعدّياً، على خلاف القانون، إذ يكون قد سبق له أن جبى هذه الضريبة أكثر من مرة من الناس، فلا دين له عليهم يعدّه بقايا ضريبة واجبة الأداء.

فكان الناس، من ثم، في عجز يضيقون بالحياة ذرعاً، حتى أخذوا يتركون ديارهم ويجلون عن مواطنهم حتى عمَّ الخراب المدن والقرى. وكان موظفو الديوان على علم تام بهذه الأوضاع. ولكنهم لم يكونوا في صدد رفع تلك المظالم، إذ كانوا متواطئين هم والحكام عليها. وقد اشترك في ايقاع هذا الظلم كل أصحاب ديوان المغول ووزرائهم، وهم مسؤولون عنها على درجات مختلفة كثرة وقلّة. إلا أنَّ «الخواجة صدر الدين الخالدي الزنجاني» كان أكثرهم مسؤولية إذ بلغ بهذا الوضع الكريه إلى حد الافتضاح باستهتاره وإنفاقه المال هدراً. وفي عهده وصلت عملية إصدار الحوالات وبقائها بلا أداء إلى غاية القباحة والوقاحة.

مثلاً، كان كثير الإحسان إلى الدراويش والشيوخ. وقد يهب شيخاً أو درويشاً ٥٠٠ دينار حوالة على رئيس إحدى الولايات. فيفرح بها. ويقترض مثلاً مبلغ مائة دينار مستنداً إلى الحوالة، ليحصل على نفقات السفر للمأمور الذي يتولى قبضها من حاكم الولاية. وقد يرفض الحاكم أداء الحوالة أو تكون خزانته فارغة. فيضطر الدرويش أو الشيخ إلى ترك تكيّته أو منزله ليصبح جابي

ضريبة يركض من باب إلى باب ويذاد من باب إلى باب، ولا تقتصر العاقبة على خيبته بل يضطر أيضاً إلى التواري من وجه الدائن.

كان الناس، وقد عجزوا عن تأدية الضرائب الظالمة، يتركون بيوتهم. ولكن المأمورين الحكوميين كانوا يتعقّبونهم ويؤذونهم ويقطعون عليهم طريق الفرار ويرجعونهم. ومن ظل منهم في بلده كان يسد أبواب بيته بالحجارة ويختبىء في داخله خوفاً من موظفي الديوان. وكان الجباة يستعينون بالأشرار والأوباش للعثور على الفارين من وجههم، فيجرّونهم من مخابئهم بأنواع من السفالة والعنف. فإن لم يعثروا على مطلوب منهم ساقوا نساءه وأطفاله يدورون بهم من زقاق إلى زقاق، ويرفعونهم معلقين بالحبال من أرجلهم. وكان بعض المدن يخلو من سكانه إذا وصل الجباة إليه، فمنهم من يفر ومنهم من يختبىء في داخل السراديب.

وقد استاء «غازان» من هذه الأوضاع وعزم على أن يبدأ بتنظيم جباية الضرائب قبل كل شيء ويكف يد الموظفين والحكام الجائرين ويريح العامة من هذه الجهة. فأمر بإلغاء المقاطعة على ضرائب الولايات وأن لا تؤخذ الضريبة من الناس أكثر من مرة في السنة. وبعث إلى كل ولاية كاتباً مخصوصاً أمره أن يرسل إليه لائحة بعائدات جميع بلدانها مطابقة لآخر بيان عنها. وأن يُعدَّ له لائحة أخرى على حدة بالأملاك الشخصية وأملاك الدولة وأراضي الإيلخان والأوقاف، مع أسامي الأشخاص الذين كانوا يستغلونها في السنوات الثلاثين الاخيرة. أي ترتيب القانون المالي لكل ولاية وتدوينه.

وأرسلت اللوائح المطلوبة إلى الديوان فصححت أخطاؤها. ونسخت عنها خلاصة العائدات التي تجب المطالبة بها في كل سنة وضبطت في الديوان. ووقع كبار موظفي الديوان على كل لائحة من لوائح الضرائب العائدة إلى بلدان الولايات، ومهرت كلها بالمهر الملوكي المحبّر بماء الذهب (آلتون تمغا).

وحرم «غازان» ابتداء من ذلك التاريخ فما بعده أن يكتب الحكام والكتاب لأحد من الرعايا حوالة. فإن خالف أحد هذا الحكم عوقب الحاكم

الذي اعطى الحوالة وقطعت يد الكاتب الذي كتبها.

وأدى هذا الترتيب ورفع التعدي والظلم عن الرعايا وتعيين مقدار الضريبة لكل مدينة وكل قرية على قانون ثابت عادل وقاعدة مستقرة إلى أن أخذت الولايات بعد سنتين أو ثلاث في الازدهار والعمران، واستقرت أموال الخزانة كاملة في الديوان وانكفت يد الحكام والكتاب والمراسيل عن التعدي كلياً.

وأراد «غازان» أن يظل هذا الرسم مرعياً ثابتاً، فلا يقدم أحد بعده على مطالبة الناس بأكثر من مقدار المال الذي فرض على كل ولاية من الولايات، وقيد في قانون كل منها. فأمر بإحضار جميع الدفاتر التي دونت فيها قوانين الولايات إلى مكتبة كان قد بناها في تبريز، فأحضرت وفيها لوائح الضرائب وبيان الأراضي الخاصة وأراضي الدولة والأراضي الإيلخانية والأوقاف وأسامي المستغلين. وعهد بهذه السجلات إلى رجال مخصوصين ينسخون عنها قانون كل قسم من أقسام الممالك الإيلخانية بنقشه على لوحة خشبية أو صفحة حجرية أو صفيحة معدنية، تنصب في مكان من ذلك القسم، ويلعن عليها كل من غير أو بدل فيها.

وأمر بأن يكتب على كل صفحة من هذه الصفحات تنبيه إلى أن في مكتبة تبريز نسخة محفوظة عنها يرجع إليها في حال فقدانها. وأصدر مرسوماً ممهوراً بالمهر الملوكي المحبر بماء الذهب (آلتون تمغا) في هذا الموضوع وأرسل نسخاً عنه إلى جميع الولايات. وذكر في هذا المرسوم أن على الحكام والمخاتير، بمقتضى القانون والمهر الملوكي، أن يوزعوا، بحضور السادات والقضاة والأئمة والعدول والأعيان، على أهالي كل قرية ومزرعة نسخة عن السجل بالمبلغ المطلوب من المكلفين، وأن يلزموهم بنقش هذه النسخة على لوحة وينصبوها في مكان معين لتبقى محفوظة من التغيير والتبديل، وذلك في مدة أقصاها عشرون يوماً.

قال في «جامع التواريخ» و «حبيب السير» ما ملخصه:

«يجب على كل أحد أن يؤدي إلى الديوان الأعلى شيئاً من السلع

والبضائع التي يحصل عليها، بحسب ما هو مقرر وفي الميعاد المعين. وكذلك يجب نقش عائدات الرسوم على لوحة. وكلما جاء جاب إلى مدينة أو قصبة يجب أن تنصب له خيمة في وسطها. وعلى الرعايا أن يوصلوا إليه ابتداء من أول يوم إلى آخر يوم من المدة المعينة الضرائب المقررة. وبعد ذلك لا يعطونه شيئاً باسم علوفة وأمثالها من النفقات، ويمنعونه من إرسال خدمه للجباية، فإن أهمل أحد إيصال الضريبة المفروضة عليه في الوقت المعين عاقبه الجابي بغرامة.

«وحدد القانون بدقة وتفصيل أنواع الضرائب والرسوم من زراعية وصناعية وحيوانية وتجارية، وبين كيفية جبايتها ومواعيد تحصيلها حسب أوقات إنتاجها وطبيعة البلاد التي تنتجها. وأمر بنقش ذلك على ألواح تنصب في أماكن عامة من المدن والقرى، ليكون الناس على بينة من أمرهم في هذا الموضوع».

٢ - كان المرسوم قبل «غازان» أن يقوم بإيصال الأخبار وقضاء المهام الحكومية رسل يترددون بين النواحي لهذه الغاية. وهو رسم متعارف عليه من عهد «جنكيز».

وقد صار هذا الرسم في زمن الإيلخانات إلى شكل سيء جداً. إذ أن جميع أميرات البيت المالك وأمراءه والرؤساء وقواد العسكر ورجال الشحنات والقيمين على بيوت السلاح والموكلين بشؤون الصيد كانوا يرسلون خدمهم إلى الولايات لقضاء حاجات شخصية خاصة، ولكن بعنوان مراسيل ومخبرين رسميين يستعملون خيل البريد الرسمي، وينزلون في سفرهم في منازل البريد الرسمي.

ومع أن كل إسطبل من إسطبلات البريد كان فيه خمسمائة فرس فإن هذا المقدار لم يكن أحياناً يكفي لركوب رسل الدولة، فيصادرون من أي قطيع خيل تصل إليه أيديهم ما شاؤوا من الأفراس، حتى إنهم كانوا لا يرحمون العلماء والسادات المسافرين فيسلبونهم مركوبهم. ووصل تعدي الرسل إلى أن صار قطاع الطرق أيضاً يسمون أنفسهم رسلاً فيصادرون

القطعان من أيدي الناس بهذا الاسم. ثم لا يكتفي الرسل بهذا، بل يسلبون من القرويين كل ما يريدون متعللين بحاجتهم الى العلوفة لدوابهم. وكان كل منهم يصحب معه جماعة كبيرة باسم خدم متعللاً لذلك بأنهم يساعدونه في الإسراع بإتمام أعماله من قبيل تهيئة المركوب وجمع العلوفة.

وقد يبلغ عدد من يصحبه بعضهم من الخدم ثلاثمائة رجل من غير أن يكون مكلفاً بمهمة ذات شأن. وقد تقتضي الحال أحياناً نصب مائتي كرسي في الديوان لجلوس رسل الدولة. وإذ كانت العادة أن يقدم الإيلخان في الحضور لديه من الرسل من كانت مهمته أهم من غيرها فقد كانت تقع بينهم منازعات شديدة على التقدم، فمن كانت له الغلبة تقدم على غيره.

وإذا ورد الرسل على ولاية من الولايات أنزلهم رؤساؤها في بيوت الفلاحين وأهل الصناعات، فيستولون على كل ما يجدونه فيها. وقد تبدر منهم أحياناً بوادر أخرى قبيحة.

وأراد «غازان» إلغاء هذا الرسم الكريه. فأمر ببناء اسطبل لخيل البريد الإيلخاني المكلف القيام بأعمال لازمة للمملكة على رأس كل ثلاثة فراسخ، وأن يربط في كل اسطبل منها خمسة عشر فرساً قوياً. وكل رسول يحمل شارة ممهورة بالختم الملوكي المحبر بماء الذهب (آلتون تمغا) يعطى من الاسطبل فرساً. وجعل كل اسطبل من هذه الاسطبلات في عهدة أحد كبار الرؤساء. وأعطى كل واحد من حكام الحدود ورؤسائها مقداراً من القراطيس البيضاء ممهمورة بالمهر الملوكي المحبر بماء الذهب يعطونها رسلهم عند الحاجة علامة على مهمتهم. وأمر بأن لا يعطى الرسول أكثر من أربعة أفراس. فإن اقتضى الأمر الإسراع بإيصال خبر من الأخبار يمضي الرسول برسالة الحاكم على حصان البريد الى أوّل مركز لخيل البريد، فيسلّمها هناك إلى رسول آخر، وهذا يمضي بها إلى من بعده، وهكذا حتّى تصل الرسالة إلى المعسكر. وعلى هذه الطريقة كان الرسل يقطعون في اليوم ستين فرسخاً. فكانوا مثلاً يطوون المسافة بين خراسان وتبريز في ثلاثة أيّام أو أربعة. أما الرسول الواحد فلم يكن قادراً على أن يسير في اليوم أكثر من أربعين فرسخاً.

وأوجب على كل ساعي بريد أن يوصل بريده في أوقات معينة. وأقام في كل منزل من منازل البريد موظفاً خاصاً يوقع للساعي على ورقة رسمية خاصة بمهر رسمي نقشت عليه علامة خاصة شهادة بأنّه وصل في الوقت المعيّن، وإلاّ عوقب الساعي إن أهمل أو تأخر.

وأمر «غازان» بأن يعطى كل رسول نفقات طريقه وأن تبنى للرسل منازل خاصة لإقامتهم. وجعل حق إرسال الرسل مقتصراً على الإيلخان ونوابه، ولا حقّ لغيرهم به. ووضع في كل مركز لخيل البريد ساعيين، لإبلاغ الأخبار من مركز إلى مركز عند الاقتضاء. وكان أحدهم يسير في اليوم ثلاثين فرسخاً.

٣ ـ في شهر شعبان سنة ٦٩٨ هـ عمم «غازان خان» مرسوماً على جميع البلاد الإيلخانيّة بمنع الربا على القروض، وأمر المخاتير والحكام بمعاقبة المخالفين لهذا الحكم. وقد حمله على إصدار هذا المرسوم أنّ جماعة من التجار جلبوا في عهد «أباقا خان» مقداراً من الأسلحة من سهام وأقواس وسيوف ودروع وجواشن إلى أحد القيمين على السلاح وعرضوها بواسطته على الإيلخان، وأعطاهم الإيلخان ثمناً لها مبلغاً من المال عطاء جزافاً عاد عليهم بنفع عظيم.

ومن ثم قامت جماعة أخرى من المفلسين باقتراض الذهب بالفائدة من هذا وذاك ومعاودة مثل هذه الصفقة. وشيئاً فشيئاً راجت عملية المتاجرة بالأسلحة بشرائها وبيعها لـ«أباقا» بتوسط القيمين على السلاح بهذه الصورة حتّى وصل الأمر إلى أن أمر الإيلخان بأن يحمل كل واحد من هؤلاء التجار إلى الديوان السّند الّذي يكتبه له القيمون على هذا السلاح بتحويل بضاعته هذه إلى الديوان، فيكتب له الموظفون الديوانيون حوالة على الخزانة بنفس المبلغ المعين في سنده.

وأدّى هذا الوضع إلى أن أقدمت جماعات كثيرة من الناس على اقتراض الذهب بالفائدة وحمل الأسلحة إلى القيمين على السلاح ورشوتهم لأخذ سند منهم بتحويلها إلى الديوان. وكان موظفو الديوان على علم بذلك فلا يعطونهم حوالة بثمنها ما لم يرشوهم أيضاً. وجرّ ذلك إلى أن أخذ الكتّاب العارفون

باللسان المغولي يكتبون من عندهم سندات عن لسان القيمين على السلاح ثم يكتبون للتجار حوالات بالمبلغ الذي رقموه على السند، وذلك مقابل رشوة يدفعها إليهم التّجار، حتّى وصل مقدار الحوالات التي بأيدي الناس في مدة قصيرة إلى حد لا تكفي معه جميع عائدات البلاد الإيلخانيّة لأدائها. وفي عهد وزارة «الخواجة شمس الدين الجويني»، إذ أصبحت هذه المسألة سبباً في مشقات كثيرة، لاقى هذا الوزير عناء كبيراً في إقناع حملة الحوالات هذه بمصالحتهم على كل ألف دينار بمائتي دينار، منها أيضاً مائة دينار بدل أتعاب الوزير. وبذلك تمكن من جمع هذه الحوالات من أيدي حامليها.

وفي عهد «كيخاتو» ووزارة «صدر جهان الزنجاني» راج التعامل بالربا رواجاً كلّياً، وذلك بسبب قلّة المال. فقد أبلغ عمال الولايات المقاطَعون على ضرائب أقاليم حكمهم الوزير الزنجاني بأن لا مال لديهم لتأدية ما تعهدوا بأدائه من مال الضرائب. وإذ كانت الخزانة في أشد الحاجة إلى المال فقد اقترحوا أن يقترضوه، دراهم وبضاعة، من الأثرياء والتجار، بشرط أن يتحمل الديوان ما ينتج عن هذه المعاملة من خسارة. فقبل «الخواجه صدر جهان» اقتراحهم، وشرعوا بإنفاذه، ولكنهم كانوا يقترضون البضاعة التي تساوي عشرة دنانير بثلاثين ديناراً ويحسبونها على الديوان بأربعين ديناراً، ثم يبيعها موظفو الديوان بما تساويه من ثمنها الحقيقي، وهو عشرة دنانير، يقتطعون منها لأنفسهم أربعة دنانير، ويدفعون إلى «صدر جهان» ستة دنانير مدعين أنّهم لم يستطيعوا بيعها بأكثر من هذا الثمن. وهكذا يسجّلون في حساباتهم دخل الديوان منها أربعين ديناراً لا يصل إليه منها غير ستة دنانير. وعلى هذا الشكل انجرّت الأحوال المالية في حكم «كيخاتو» إلى الخراب والفساد، وانتهت أيّام ملكه ووزارة «صدر جهان» إلى إصدار «الشاو» والوهن والانحلال.

وقد رفع «غازان» كل هذه المفاسد وأزال هذا النوع من المعاملات التي انتهت إلى الخراب بإصدار المرسوم الآنف الذكر.

٤ ـ قبل تملك «غازان» كان كل من حكّام بلاد الرّوم وآذربيجان وفارس وكرمان و «كرجستان» ومازندران يسك نقوده بعيار مختلف عن الآخر. ومن ثم

لم يكن عيار النقد واحداً في كل البلاد الإيلخانيّة، فسبب هذا الأمر اختلالاً في المعاملات وأضرّ بالتجار وكان مبعث نزاع وجدال في أمور التجارة.

وأصدر «أرغون خان» في أيّام حكمه مرسوماً بجعل عيار الذهب والفضة ١٠/٩ وأقرّ «كيخاتو» هذا المرسوم أيضاً. ولكنه ظل غير نافذ لم يطعه أحد لعجز الإيلخانات. فلم يتجاوز عيار الذهب والفضة ١٠/٨ قط.

وقد أمر «غازان» بجمع النقد المغشوش من كل البلاد ومنع تداول نقد غير النقد الذي أمر بضربه. وكان موظفون مخصوصون يضبطون كل نقد لا يكون على هذه الصفة فيكسرونه ويحولونه إلى دار الضرب لسكّه نقداً صحيح العيار.

فما مضت سنة حتّى كان تداول النقد الغازاني يعم كل البلاد الإيلخانية. واختفت النقود المغشوشة. وكان هذا النقد منقوشاً عليه اسم «غازان» وكلمة التوحيد واسم المدينة التي ضرب فيها. ونتج عن جهوده في هذا المجال وخلوص نقده من الغش توفر الذهب والفضة في المعاملات، بعد أن قلّ وجودهما مدّة طويلة في أيدي الناس والتجار بسبب حملهما إلى الهند أو إنفاقهما في حياكة الأقمشة الغالية.

وضرب «غازان» نقداً آخر خصوصياً غير النقد الشائع، وسمّاه «درست طلا» أي «النقد الإبريز» بوزن مائة مثقال، ونقش عليه اسمه واسم البلدة التي ضرب فيها وبعض الآيات القرآنية وأسامي الأئمة الإثني عشر. وعرف هذا النقد بالجمال والنقاء. وكان «غازان» يخصصه للهبات والإنعام.

٥ ـ قبل «غازان» كان لكل ولاية، بل لكل مدينة وكل قصبة، موازين ومكاييل خاصة بها مختلفة عن غيرها، ومن ثم كان بين المدينة والمدينة وبين القرية والقرية تفاوت كبير في مقادير الوزن والكيل. وسبّب هذا الوضع منازعات بين حملة الحوالات وبين جباة الضرائب وبين هؤلاء وبين المكلفين. وأصبح ذريعة في يد عمال الجور إلى ظلم الناس بمطالبتهم بأكثر ممّا هم مكلفون به. وكثيراً ما كانوا يجلدون الناس ويعذبونهم ليحصلوا منهم أي مبلغ أرادوه متعللين باختلاف الموازين والمكاييل. وسبّب فوق هذا تأخير

أعمال التجارة وإعراض الناس عن حمل بضائعهم إلى الولايات أيضاً إذ كان البائع والمشتري يختلفان في قضية الوزن لاختلافها بين بلد وآخر، وتنتهي المعاملة، في الغالب، بالإضرار بالبائع، واستلزم هذا الأمر ندرة المال في أكثر الولايات.

فأصدر «غازان» مرسوماً بتوحيد الموازين والمكاييل والمقاييس وبعث منه نسخاً إلى جميع الولايات. وعين موظفين اثنين مخصوصين لجعل معايير الذهب والفضة وموازين الحمولة والمكاييل متساوية في كل مكان، وأن يصوغوها من الحديد ويمهروها بمهر رسمي، ومن أجل ذلك أمر بإنفاذ الأوامر التالية:

يجب أن يكون معيار الذهب والفضة موازياً للوزن الرسمي المعمول به في تبريز ويكون مثمن الشكل، وأن يعين اثنان في كل ولاية من الولايات من قبل موظفين أعلى رتبة. ويختاران شخصاً أميناً يأمرانه بصنع المعيار طبق معيار تبريز بحضور المحتسب، ثم يمهر ذانك الموظفان المعيار بالمهر الرسمي. ولا يسمح لأحد آخر بصنع معيار غير هذا الشخص. وعلى هذين الموظفين إثبات إسم من يسلمانه هذه المعايير في دفتر خاص فلا يستطيع غيره صنع معيار مزور لاستعماله. وتجمع كل المعايير مرة في كل شهر فتفحص وتوزن فإن وجد فيها تلاعب عوقب الفاعل.

وتقرر صنع معايير لوزن الأحمال من الحديد مثمنة الشكل مطابقة لمعايير تبريز وتمهر على نحو ما تمهر معايير الذهب والفضة. وتقسم مقاديرها هكذا:

١٠ أمنان[1]، و ٥ أمنان، ومنان، ونصف من، وربع من، وثمن من، و ١٠ دراهم[2]، و ٥ دراهم، ودرهمان، ودرهم واحد. وصنعت قبابين لوزن الأحمال الثقيلة التي يتجاوز وزنها عشرة أمنان، ويمكن أن يوزن بالقبان منها حمل من مائة من.

---

(١) ج «من». وزن يعادل ثلاثة كيلوغرامات تقريباً.
(٢) الدرهم يعادل ٩٦ مثقالاً تقريباً.

وأمر «غازان» بنسخ جميع المكاييل المعمول بها وكانت معروفة باسم «كيل» و«قفيز» و«طغار» وغير ذلك، فلا يبقى منها غير المكيال المطابق لمكيال تبريز فقط، يستعمل في جميع الولايات، وزنته منان اثنان أو ٢٦٠ درهماً، وكل عشرة مكاييل منه تعادل زنتها «خرواراً»[1] واحداً.

وجعل لكل نوع من أنواع الحبوب كالحنطة والشعير والأرز والحمص والفول والسمسم والجاورس مكيالاً خاصاً، يكتب على أربعة أطرافه اسم الغلة المخصص بها، وتمهر كلها على نحو ما ذكر آنفاً، وكذلك تجمع مرة في كل شهر للفحص والتدقيق، فمن خالف سلّم الى الشحنة لمعاقبته بقطع اليد وأداء غرامة. وأمر أيضاً بصنع مكاييل خاصة بالسوائل كاللبن والخل والدهن.

٦ ـ إذ كان أكثر القرى والقصبات قد أصبح خراباً وبار أكثر المزارع بعد استيلاء المغول على البلاد، وبسبب الحروب التي وقعت في عهود الإيلخانات، وظلم عمال الديوان وتعديهم، فقد أراد «غازان» تشجيع الناس على الإعمار وإحياء الأرض، فأصدر أمراً بأن من أحيا أرضاً وعمرها وكانت هذه الأرض متصلة بنهر جار لا مشقة في سقياتها منه يعفى في السنة الأولى من الضريبة المقررة. وفي السنة الثانية يستوفى منه جزء منها. وفي السنة الثالثة يستوفى منه كل الضريبة. فإن كانت الاستفادة من ماء النهر تقتضي مشقة ونفقة يعفى معمر الأرض في السنة الأولى من أداء الضريبة كلها وفي السنة الثانية يؤدي نصف الضريبة وفي السنة الثالثة يؤدي كل الضريبة. وإن كان إحياء الأرض وإعمارها يقتضي مشقة أكبر ونفقة أكثر يعفى في السنة الأولى من أداء الضريبة وفي السنة الثانية يؤدي جزءاً منها، وفي ما بعدها من سنوات يؤدي نصف الضريبة ويبقى له النصف الآخر بدل أتعاب وتصبح المزرعة ملكاً شخصياً له يتصرف بها كما يشاء.

وكانت الأملاك الإيلخانيّة الخاصة قد خربت قبل عهد «غازان» خراباً

---

(١) وزن يعادل ٣٠٠ كيلو غراماً تقريباً.

كلياً، واستولى الحكام على بذارها. فأمر «غازان» بإعطاء الحكام مبلغاً من ضرائب الولايات ثمناً للبذار ونفقات الزراعة على أن يؤخذ منهم الحاصل في السنة التالية. وأراد بعض الحكام في السنة الأولى الامتناع عن تأدية الحاصل متعللين بوقوع آفات في الزرع وتلفه قبل نضجه، فأمر «غازان» بمصادرة أملاكهم ووضعها في تصرف الديوان فصودرت. وبذلك عادت تلك الأراضي البائرة إلى الازدهار وأديت محاصيلها كلها.

٧ ـ كانت طرق التجارة قبل عهد «غازان» مخوفة خطرة. وذلك بسبب غارات قطاع الطرق. ومن ثم كانت أموال المسافرين والقوافل التجارية معرضة للسلب والغارة دائماً. وكان محافظو الطرق متواطئين هم وقطاعها. وكان لهم مخبرون من أهالي المدن والقرى يعلمونهم بمواعيد سفر القوافل. فإذا سارت القافلة وقفوا في طريقها. فأخذوا منها أولاً مبلغاً من المال ضريبة محافظة الطريق. ثم يؤخرون سيرها بحجة وجود اللصوص وقطاع الطرق إلى أن يصل شركاؤهم من اللصوص وينهبوا أموال المسافرين والتجار.

وقد أمن «غازان» الطرق واعتقل قطاعها وعاقبهم، ووضع في المنازل الخطرة محافظين أمناء، وقرر مقداراً معيناً من المال على كل دابة ضريبة المحافظة وجعلهم مسؤولين عن أمان الطرق. فإن وقعت سرقة في طريق ما فعلى المحافظ الذي فيه أن يقبض على السارق، وإلا غرّم مقدارها. وأمر بوضع قواعد من الحجر والجص في أوائل الطرق تنصب فوقها لوحات يكتب عليها عدد الحراس المقرر لها ومقدار الضريبة عن كل دابة.

٨ ـ كان ملازمو الحاشية الإيلخانيّة وجمالوهم ومراسيلهم، قبل أيام «غازان» أينما حلّوا أخذوا من المتمولين مبلغاً من المال لنفقتهم. وكثيراً ما تتكرر طلباتهم في اليوم الواحد ثلاث مرات أو أربع مرات إذ يحضرون جماعة بعد جماعة. وكانوا يستولون على كل شيء أرادوه مما في أيدي الناس بالعنف والجور.

فأمر «غازان» منادين ينادون في أسواق المدن بأن لا يعطى الملازمون والمراسيل والجمالون بعد اليوم شيئاً من المال بوجه من الوجوه. وكان إذا

سمع بأن أحداً أخذ من أحد شيئاً بالتعدي استرده منه وعاقب المعتدي بالضرب بالدبوس. ويشتري ما يحتاج إليه هو ومعسكره من اللوازم بسعر عادل أينما حل. ولا يتعرض أحد من رجاله لأحد من الرعية بسوء.

٩ ـ من إصلاحات «غازان» أيضاً تنظيم إصدار المراسيم والإنعامات الفخرية التي كانت تعطى كما تعطى الأوسمة في أيامنا. فقد كانت قد وصلت قبل عهده إلى حال كريهة من التشويش والتناقض والابتذال والمحسوبية.

فأمر «غازان»:

أولاً ـ لا يعرض على أحد من الرؤساء والوزراء ومقربي الدولة شيء من المهام الملكية في مجلس شراب.

ثانياً ـ يحتفظ بنسخة من كل ما يصدر من الأحكام، وتعرض هذه النسخة على الإيلخان لإصدار مرسوم بالحكم مطابق لها.

وكان «غازان» بخلاف من سبقه من الإيلخانات، يحتفظ معه بمفتاح علبة يضع فيها المهر الكبير (تمغا). فإذا جيء بالمراسيم لختمها أعطى المفتاح الكتّاب المعتمدين فأخرجوا المهر من العلبة ومهروا المراسيم ثم أعادوه إليها وسلّموا المفتاح إلى «غازان».

وأمر بتهيئة سجل تكتب فيه نسخ عن المراسيم مع ذكر اسم الكاتب الذي خطّها وتاريخها ومضمونها واسم الذي جاء بها، وأمر بتجديد هذا الدفتر في كل سنة.

وكانت كيفية ختم الحوالات والمراسيم أن يمهرها «غازان» في ظهرها بالختم الملوكي المحبر بالمداد الأسود (قرا تمغا). وهذا الختم نقش عليه شكل رؤوس أربعة من الجنود المعروفين باسم «قراول»، وهم الحراس المراقبون. ثم يرسلها إلى موظفي الديوان فيمهرونها بختم الديوان أيضاً. وكل مرسوم أو حوالة لا تحضر على هذا الشكل تكون غير معتبرة.

وكان لـ«غازان» أختام متعددة وهي:

المهر الكبير وهو من اليشب، خاص بمراسيم تعيين السلاطين والملوك

على حكوماتهم والأمراء على إماراتهم.

المهر الصغير، وهو من اليشب أيضاً إلّا أنّه أصغر من المهر الأكبر. وتمهر به مراسيم تعيين القضاة والعلماء والمشايخ.

مهر كبير من الذهب (آلتون تمغا) تختم به الأوامر والقضايا المتوسطة الأهمية من شؤون الدولة.

مهر صغير من اليشب تختم به الأوامر والقضايا الجزئية.

مهر من الذهب يختم به ما يتعلق بالجيش من الأمور. وعليه نقشت صورة قوس ودبوس وسيف. ولا يجوز لجنود الجيش إطاعة أحد أو اتباع أمره للتقدم أو التراجع إلّا أن يريهم هذا الختم على مرسوم بيده.

كان كتاب الديوان يسجلون، بأمر من «غازان»، نسخاً عن جميع الأحكام والمراسيم التي صدرت بالأمر الإيلخاني في الدفاتر، لتعرض عليه في الوقت المعين ثم تمهر بالمهر الملوكي المحبر بماء الذهب (آلتون تمغا). وقد تبين «غازان» بعد مدة قليلة أنّ عرض هذه النسخ كلّها عليه أمر غير ممكن، نظراً لكثرة المهمات واختلاف شعب الأعمال، وأنّ ذلك يسبّب عرقلة سير الأمور. فأمر بأن يهيّىء الكتاب نسخة عن كل مشكلة أو مهمة تقتضي التسجيل فتعرض على الوزراء والأمراء لإصلاحها، ثم تعرض عليه، وأمر بجمع هذه النسخ في دفتر خاص رسمي عرف باسم «قانون الأمور» يرجع إليه الكتاب لاستنباط الأحكام عند الحاجة. فإن اقتضت الحال تغييراً لشيء فيه، كتبوا على ورقة على حدة صورة التغيير المراد إحداثه وعرضوه على الإيلخان للموافقة عليه. وبهذا انتظمت صور الأحكام والمراسيم وارتفع تناقضها.

كان الإيلخانات يصوغون سمة خاصة من الذهب أو غيره تعطى لمن يراد تعيينه حاكماً، ويكون إعطاؤه إيّاها في حكم صدور المرسوم بتعيينه. ولا تستعمل لغير هذه الغاية وتعرف باسم «بايزة». وكان الحكام، قبل عهد «غازان» إذا عزل أحدهم من منصبه بقيت هذه السمة معه لا تسترد منه. ومن ثم كان الحكام المعزولون يظلون مدة طويلة يتحكمون بالناس، إذ هم

يحملون هذه السمة ويدعون لأنفسهم منصب الحاكمية به. فأمر «غازان» بجمع هذه السمات كلها وإبطال استعمالها، وصياغة سمات جديدة أكبر منها ينقش عليها شكل رأس أسد وينقش اسم الشخص الذي يعين حاكماً على القطعة التي يعطاها منها. وتسجل أسماء الحكام المعينين في دفتر خاص. فإذا عزل أحدهم استردت منه السمة. وضربوا سمة أخرى أصغر حجماً لمن هم أقل درجة من الحكام. وعهد بصياغة هذه السمات إلى صائغ أمين يقيم في المعسكر وضربوا سمة أخرى للرسل يحملها الرسول ما دام قائماً بمهمة، فإذا عاد من مهمته استردت منه.

١٠ ـ وأصدر «غازان» أمراً بمنع شرب الخمر والعربدة في الشوارع العامة. وجعل جزاء من يعصي هذا الأمر أن يطاف به في الأزقة والشوارع ثم يعلق على شجرة[١].

وأصدر مراسيم متوالية عممها على الولايات بمنع الناس من التجديف والتفوه بكلام الكفر. وأمر بأن لا ينسب أحد إلى كفاءته وخبرته وما يناله هو أو يناله معسكر هو جزء منه من تقدم، بل عليه أن يعتقد بأن كل توفيق هو من الله تعالى. وبخلاف ذلك عليه أن لا ينسب كل شر ينتج منه إلى أحد غير نفسه.

وأمر بتخفيض مهر العرائس، فلا يتجاوز تسعة عشر ديناراً ونصف دينار. لئلا يتعسر الطلاق بسبب غلاء المهر إذا لم يحصل توافق بين الزوجين.

١١ ـ وكان من أهم اصلاحات «غازان» تنظيمه أمور القضاء في المعاملات العرفية والمرافعات والشهادة وانتخاب القضاة. وهي أمور كانت مهملة قبله. فراجت سوق التزوير والتلاعب في انتخاب القضاة، وأقدم هؤلاء على أخذ الرشوة. وقلّما فُصل في مسألة بمقتضى العدل والإنصاف. وكان القضاة يؤجرون مناصبهم، وشاعت تمشية الشهادات الكاذبة وتزوير السندات وإعطاء الرشوة وتقليد الخطوط.

فعزم «غازان» على إصلاح هذه العادات القبيحة وتنظيم المعاملات

---

(١) كان الشيرازيون يسمون هذه الشجرة «عروس السكارى» (تاريخ وصاف).

والمرافعات فأصدر أربعة مراسيم أحدها في موضوع منصب القضاء، وآخر في موضوع مرور الزمان والسكوت عن الأدعاء مدّة ثلاثين سنة، وآخر في إثبات ملكية البائع قبل البيع، وآخر في توكيد هذه المراسيم وإكمالها.

قال في «حبيب السير» في موضوع أحكام «غازان خان».

«لا يجوز لأحد من الحكام والأمراء والوزراء أن يُحضر القاضي إلى منزله للفصل في قضية تتعلق به، بل يجب على كل إنسان أن يحضر بنفسه إلى دار القضاء في هذه الحالة. ولا يجوز للقاضي أن يأخذ شيئاً من أحد بوجه من الوجوه».

«وعلى القاضي إذا كتب سنداً جديداً بدلاً من سند قديم أن يغسل السند القديم في «طاس العدل». وكل سند مرّ على كتابته أكثر من ثلاثين سنة يلغى. وكل من أقدم على تزوير تحلق لحيته ويركب على بقرة ويطاف به في المدينة. وإن جاء المدعى عليه إلى دار القضاء بأحد من المتنفذين ليستقوي بهم فعلى القاضي أن يمتنع عن النظر في قضيته ما لم يخرج هؤلاء».

وعين الحقوق والواجبات في مراسيم القضاء هذه بتفصيل. وحدد صلاحيات القاضي وصفاته، وكيفية المحاكمة والاحتكام. ومن هذه المراسيم مرسوم مفصل في موضوع الملكية والتصرف بالملك على نحو يمنع التزوير والغش وغير ذلك من شؤون القضاء. ومهر هذه المراسيم بالمهر الملكي وأرسل نسخاً عنها إلى جميع القضاة، وأخذ من كل واحد منهم تعهداً خطياً بالتزام حدودها واجتناب كل ما يخل بعدالة القضاء.

ونقل في «حبيب السير» هذا النص من أحد تلك المراسيم:

«إذ كانت همتنا مقصورة دائماً على أن يكون الفصل في أمور الجمهور على نهج العدالة وعلى رفع أسباب النزاع من بين الناس وإقرار الحقوق في مواضعها، فقد سددنا باب التلجئة والتزوير، وأمرنا أكثر من مرّة بحضور القضاة والعلماء، أن يكون الفصل والقطع في قضايا الناس على مقتضى الشريعة الغراء، مبرءاً من شوائب التزوير والمداهنة.

ووقع «غازان» هذا المرسوم في الثالث من رجب سنة تسع وتسعين وستمائة، وأمر بإرسال نسخ منه إلى قضاة جميع الممالك، وأخذت من كل قاض وثيقة بخطه وختمه بأن يتجنب التحيز والمداهنة والتلجئة والتزوير في الفصل في القضايا الشرعية وأن لا يستبيح تجاوز ما تتضمنه المراسيم المطاعة».

وأمر بأن يضع القاضي حين يجلس للقضاء أمامه إناء مملوءاً بالماء. وكل دعوى يفصل فيها يغسل صكوكها القديمة الملغاة في ذلك الإناء، وكان يسمى «طاس العدل».

وقد شاعت قبل أيّامه عملية تزوير هي أن يبيع مالك ملكه أو يرهنه، ثم يبيعه أو يرهنه مرّة ثانية لشخص آخر. فوضع قانوناً حاسماً يقضي على هذا التزوير فإن باع أحد ملكه أو رهنه لا يتمكن من بيعه أو رهنه مرّة ثانية. وإن تبين أنّ أحداً أقدم على مثل هذا الفعل كان عقابه أن تحلق لحيته ويطاف به في أنحاء المدينة.

وجاء في «حبيب السير»:

«كان مضمون المرسوم الثالث أن من جملة معظمات الأمور الواقعة دعاوى باطلة تستند إلى سندات وسجلات قديمة. وبيان ذلك أنّ بعض المزورين كانوا يكتبون عدة سندات بملكيتهم لملك واحد. وأحياناً يكتبون سندات متعددة بملكيته باسم أولادهم. فإذا باعوا هذا الملك أعطوا المشتري سنداً منها واحتفظوا بآخر عندهم. فإذا انتقل هذا الملك بعد ذلك من يد إلى يد، أبرز البائع الأول أو أحد ورثته السند الذي احتفظ به وادعى ملكيته، وأثبت دعواه بشهود زور. وقد أمرنا بأن كل من أراد بيع ملك له عليه أن يذهب أولاً إلى دار القضاء فيسجل إعلاماً بذلك ثم يثبت ملكيته للملك بشهود عدول ثم يتم البيع للمشتري، فإن كان لديه مستند سلّمه إلى دار القضاء ويقرّ عند القاضي بأن كل سند يُبرز بعد هذه المعاملة باطل لا يُسمع. وبعد ذلك يسجل القاضي محضراً بشرح هذه المعاملة».

«ولا يجوز لأحد غير كتاب دار القضاء أن يكتب سنداً. وعلى القضاة

أيضاً أن يحصروا عمل الكتابة في أشخاص معينين يجعلونهم كتاباً لهم، فلا يجيزون لغيرهم تعاطي هذا العمل. وأجرة الكاتب درهم واحد على كتابة كل سند تجاري بمائة دينار. وكل سند زاد عن المائة دينار أجرة كتابته دينار واحد، ولا يجوز للكتاب أن يطلبوا أجرة أكثر».

«وعلى قضاة الممالك، من شاطىء آمويه إلى حدود مصر، أن يهتموا أكثر من المعهود بقضية تعديل الشهود وتزكيتهم. وأن لا يقتنعوا بعدالة أحد بمجرد رؤيتهم له ظاهر العدالة».

«وعليهم أن لا يختموا السجلات والسندات شاهدين بما فيها قبل تدقيق النظر كل التدقيق فيها لتنقيتها من كل شائبة بطلان وتزوير، وإذا كانت في يد كل من شخصين متحاكمين وثيقة تعارض الوثيقة الأخرى فعلى أئمة دار العدل وعلمائها التحقيق في هذه القضية كما ينبغي وغسل السند الباطل منهما في «طاس العدل». وإذا لم يمكن الفصل في هذه القضية في مجلس واحد تودع الوثيقتان عند رجل أمين ولاتعادان إلى صاحبيهما إلى أن يتبين الحق وترتفع الشبهة ويزول الالتباس ويأخذ الحق مجراه».

«ولما مهر المرسوم الذي تضمن هذه الأوامر بالختم الملوكي أمر «غازان» بإرسال نسخ عنه إلى جميع الأمصار والبلدان. وبذلك تحقق الرواج وتم الرونق لشؤون ملّة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، ونقش القيمون على المناصب الشرعية شعار الأمانة والديانة على ألواح قلوبهم». أ. هـ.

١٢ ـ لم تكن مخصصات العساكر وأمراء الجيش من طعام ورواتب منتظمة على وضع صحيح قبل «غازان». وكل ما كان من ذلك هو أن بعض قواد الجيش كان يأخذ مقداراً معيناً من الغلة من الديوان.

فأمر «غازان» بتخصيص مقدار معين من المال راتباً للعساكر الذين يقومون بالخدمات القريبة. ويزاد مبلغ هذا الراتب في كل سنة. وإذ كانوا قبل «غازان» يكتبون استحقاق العساكر من الغلات حوالات على الولايات، وكانت هذه الحوالات لا تؤدى قيمتها غالباً بل تعاد إلى حامليها، ويسبّب هذا الأمر مشقات كثيرة للعسكر وغير العسكر، فقد أمر «غازان» بأن تجمع الغلة

الديوانية في كل ولاية من الولايات حين جني المحاصيل أكواماً في مكان معين بمعرفة رئيس الشحنة، فإن جاءت حوالة أدى رئيس الشحنة قيمتها فوراً من تلك الغلال، وكفى الناس المشقات.

وأصدر في سنة ٧٠٣ هـ مرسوماً يقضي بتعيين إقطاعات محددة لجميع العساكر يتناولون مخصصاتهم من عائداتها. وخلاصة هذا المرسوم:

أولاً - يعمل الفلاحون في الأملاك الإيلخانيّة والديوانية على النمط السابق. والحصة المكلفون بأدائها يعطونها العساكر.

ثانياً - إن كافي محلة أرض بائرة من الأملاك الديوانية فليزرعوها ويأخذوا حاصلها لنفقاتهم.

ثالثاً - لا يجوز التصرف بأملاك الوقف وأراضيه ومياهه بوجه من الوجوه. ولا يطلب منها مال.

رابعاً - إذا أحيا العساكر أرضاً مواتاً ثم ادعى أحد امتلاكها أو وقفها وأثبت مدعاه، فعلى مالكها أو متولي وقفها أن يؤدي إلى الديوان عُشر حاصلها، ويقسم الباقي مناصفة بينه وبين الزارعين.

خامساً - على الإقطاعيين الذين يعمل في أرضهم فلاحون كانت لهم في السابق أرض، وهي اليوم بائرة، أن يعيدوا هؤلاء الفلاحين إلى أراضيهم السابقة ليحيوها. وأن لا يسمحوا لهم بالعمل في إقطاعاتهم. وعليهم أن لا يمدوا يداً إلى ما يجاور إقطاعاتهم من أرض، وأن يمتنعوا عن التصرف بمراعي الماشية.

سادساً - الأراضي التي عينت إقطاعاً للعسكر يتولى تقسيمها بالقرعة جماعة من أهل الخبرة مع أحد الكتاب بين الفرق العسكرية.

ويسجل الكاتب سهم كل فرقة في دفتر مخصوص ويرسل نسخة عنه إلى الديوان، ويسلم الدفاتر إلى أمراء الفرق.

سابعاً - لا يجوز لأحد بيع إقطاعه ولا هبته. فمن فعل ذلك يقتل. فإن مات صاحب الإقطاع انتقل إقطاعه إلى أحد أبنائه أو إخوته. فإن لم يكن له

ولد ولا أخ انتقل إلى غلامه القديم فإن لم يكن له غلام انتقل إلى أحد يستحقه من العسكر.

وبعد إبلاغ هذه المقررات إلى المكلفين قام «غازان خان» باستعراض العسكر وتفتيشهم، فزاد في عددهم. ثم أرسل جماعة منهم إلى حفظ الحدود. وقرر أن يقوم باستعراض الجيش وتفتيش أسلحة أفراده وعتادهم ولوازمهم ولوازم دوابهم مرة في كل ثلاثة أشهر.

١٣ ـ كان لجماعة من صانعي السلاح قبل عهد «غازان» مخصصات سنوية يأخذونها ثمناً لتجهيز الجيش الإيلخاني بالسلاح. ولكنهم لم يكونوا يسلمون المقدار المقرر تسليمه في كل سنة، بسبب الإهمال وفقدان النظام. فأمر «غازان» بقطع هذه المخصصات عنهم، وأمر صانعي الأقواس والسهام والسيوف أن يسلموا في كل سنة ستمائة قطعة من السلاح ويأخذوا ثمنها حسب السعر القائم يوم تسليمها، وعين رجلاً أميناً بتسلمها منهم في كل سنة، وخصص ضرائب إحدى الولايات لأداء ثمنها. وبهذا التدبير أمكن تسليح ١٠٠٠٠ رجل في كل سنة. وكانوا قبل عهده ينفقون على شراء السلاح ضعفي ما أصبحوا ينفقونه في هذا العهد، ثم لا يبلغ عدد المسلحين إلى ألفي رجل.

العمارات الغازانية

كان «غازان خان» من السلاطين البانين العامرين. أقام كثيراً من الأبنية والعمارات. كان رسم ايلخانات المغول قبله أن يدفنوا في مكان خفي بعيد عن العمران والأرض الزراعية. ويحرمون دخول أحد إلى أماكن قبورهم هذه. أما «غازان»، وقد تدين بدين الإسلام، فقد أراد التشبه بالكبار من المتدينين وسلاطين المسلمين. فبنى لنفسه في حياته مقبرة في ناحية «شام تبريز» التي أصبحت تدعى بعد ذلك «شنب غازان» أو «شام غازان»، تقع على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ إلى جنوب تبريز. ووقف للقبر أوقافاً يعيش من ريعها الصلحاء والزهاد والعباد ويذكرونه بعد وفاته بالخير.

وأقام على القبر بناء عليه قبة من عجائب الأبنية الإسلامية. كانت إلى ذلك التاريخ أكبر وأعظم قبة بنيت في الممالك الإسلامية. بدىء ببنائها في السنة الثالثة من سلطنة «غازان» وانتهى بناؤها سنة ٧٠٢ هـ. كانت سماكة الجدران تعادل ثلاثاً وثلاثين لبنة متلاحمة. ووزن كل لبنة منها عشرة أمنان (ثلاثين كيلوغراماً تقريباً). واستخدم في البناء ١٤٠٠٠ عامل، منهم ١٣٠٠٠ عامل مداومون و ١٠٠٠ مساعدون. ويبلغ ارتفاع القبة ١٢٠ «كز»[1] وطول الجدران ٨٠ «كز». وطول الكتيبة على القبة وطول شرفاتها ١٠ «كز» وطاس القبة ٤٠ «كز» ومحيطها ١٥٣٠ «كز» وله شكل مضلع باثني عشر ضلعاً وعلى كل ضلع نقشت صورة برج من الأبراج.

وزينت القبة من الخارج ومن الداخل بكتابات ونقوش وخطوط جميلة جداً. واستعمل في نقش سقفها وحده ثلاثمائة منّ من اللازورد. وعلق فيها ثمانون قنديلاً من الذهب والفضة وزن كل واحد منها خمسة عشر مناً. وأحد هذه القناديل كان وزنه ألف مثقال من الذهب.

وبعد أن انتهى البناء وقف عليه أملاكه الخاصة في إيران والعراق، وولى عليها «الخواجة سعد الدين ساوجي» و «الخواجة رشيد الدين فضل الله». ثم أقام في أطراف القبر أبنية ضمها إلى البناء الذي أقيم عليه. وهي: المسجد الجامع والمدرسة الشافعية والمدرسة الحنفية وخانقاه للدراويش ودار السيادة، وهي خاصة لإقامة السادات فيها، والمرصد ودار الشفاء وبيت الكتب وبيت القانون، وهو بيت تحفظ فيه السجلات والقوانين التي وضعها «غازان»، وبيت المتولي، وهو بيت يقيم فيه رجل يتولى تدبير المنازل وتنظيم مصالح الناس وإسكانهم هناك، وبيت الحكمة، وهو مخصص لإقامة الحكماء وتعليم الحكمة، وبستان العدل وقصر العدل وحوض وحمام.

وعين «غازان» لقبره حفاظاً يتلون عليه القرآن، وعين خدماً لدار السيادة والخانقاه والحوض والحمام، وعين لدار الكتب بعض المتخصصين، وعين

---

(١) مقياس طول يعادل ١٦ عقدة تقريباً.

للمدارس ودار الحكمة والمرصد كثيراً من الأساتذة والمدرسين، وعين لدار الشفاء أطباء وكحالين. وجعل لكل واحد من هؤلاء راتباً، على أن يقوموا بعملهم بصورة دائمة: وشرط، علاوة على ذلك، أن يعطى الفقراء والمساكين في الخانقاه طعاماً في كل صباح وكل مساء، وأن يجتمع الصوفيون مرتين في الشهر ويقيموا حلقات الرقص والسماع.

وكانت عائدات الأملاك التي وقفها «غازان» على هذه المنشآت مائة تومان مغولي (مليون) في السنة. وأنشأ ديواناً خاصاً لضبط حساباتها تحصيلاً وأداء، وعهد بإدارته إلى اثنين من كبار الأمراء هما «قور تيمور» و«ترنغاي».

وهذه هي شروط الوقف كما ذكرها صاحب «حبيب السير»:

● كل من كان من جماعات السادات والعلماء والحكماء أفضل وأكمل أهل العصر يعطى منصباً ووظيفة في تلك البقاع المذكورة ويستوطن فيها، ولا يتغيب عنها لغير ضرورة شرعية.

● كل من يزور قبر الواقف ينزله خدام المقبرة حنيفاً في جوسق[1] العادلية الواقع بالقرب من تلك البقعة. وتصرف نفقة ضيافته من عائدات الوقف.

● في الذكرى السنوية لوفاة الواقف يصنع حساء كثير، ويجتمع علماء تبريز وأعيانها ومجاورو البقاع المذكورة والمستحقون ليختموا القرآن له.

● في ليالي الجمعة تصنع حلواء في المسجد الجامع والمدارس والخانقاه وتوزع على ساكني تلك البقاع، وكذلك تصنع في العيدين وسائر الأيّام المباركة حلواء وأطعمة لذيذة وتعطى المجاورين والمسافرين.

● أمر بتعيين خمسة معلمين وخمسة معيدين يجلسون في الكتاب يعلمون مائة طفل يتيم، لا يقلون عن هذا العدد، القرآن، ويعطى المعلمون والمتعلمون رواتب من الأوقاف. وكلما ختم طفل القرآن أهدي المعلم مبلغاً من المال وأهدي الطفل مبلغاً نفقة ختانه. وأمر بشراء مائة مصحف جديد

---

(١) تعريب كلمة «كوشك» الفارسية. وتطلق على القصر المقام منفرداً وسط الرياض والبساتين.

للكتاب في كل سنة. وإعطاء خمس من ضعيفات النساء رواتب يُعِلْنَ بها أطفالهن.

● شراء ألفي فروة من جلد الغنم في كل سنة وتوزيعها على المستحقين.

● التقاط الأطفال الذين يلقي بهم بعض الضعفاء عند أبواب المعابد والخانقاهات وفي الطرقات واستئجار مربية لهم تتعهد شؤونهم بكل ما يحتاج إليه الطفل إلى أن يبلغوا سنّ الرّشد.

● كل غريب يتوفى في تبريز ولا يترك شيئاً لتجهيزه يجهز ويكفن من مال الوقف.

● في كلّ سنة يشترى بضعة أحمال من الحنطة والدخن وتنثر على أسطحة البقاع المذكورة لتأكلها الطيور، ويستمر نثرها ستة أشهر أيّام البرد. ولا يصطاد أحد هذه الطيور. فمن اصطادها فعليه لعنة الله.

● يوزع في كل سنة ألفا منّ[1] من القطن المحلوج على خمسمائة أرملة من العاجزات، أي أربعة أمنان لكل واحدة منهن.

● قد يخرج مملوك أو أمة بجرّة أو إبريق أو ما شابههما من الأواني لجلب الماء فيكسره ويخشى عقاب سيده. ولذلك يعين رجل أمين في تبريز يشتري للملوك أو الأمة إناء عوضاً عن الإناء المكسور.

● تبلط الشوارع من جميع جوانب تبريز إلى مسافة ثمانية فراسخ بالحجر المصقول. وتعقد على الأنهار الصغيرة جسور ليستطيع الضعفاء عبورها بسهولة.

وكتب سبع وقفيات تشتمل على الشروط الآنفة الذكر، وثبتها بتواقيع القضاة والعلماء، وسلّم واحدة منها إلى متولي الموقوفات، وأرسل أخرى إلى مكة المعظمة زادها الله تعظيماً، وأخرى وضعها في دار القضاة بتبريز وأمر

---

(١) المن: وزن يعادل ٣ كيلوغرام تقريباً.

بالمحافظة عليها، وأخرى إلى قاضي بغداد، وأرسل الثلاث الأخرى إلى أشراف النواحي يحتفظون بها، فإذا ضاعت إحداها أو بليت استعيض عنها بأخرى.

وأمر بأن يجدد قضاة بغداد وتبريز، حيناً بعد حين، الحكم بوقفية تلك الأماكن وصحة شروطها، بالقضاء الشرعي الشريف. وأن يشهد بحكمهم هذا شهود جدد. وأمر أيضاً بأن يكون أوّل عمل يقوم به من يعين في منصب القضاء هو تثبيت هذه الوقفية بتوقيعه. وبعدئذ يتفرغ للفصل في سائر القضايا». أ. هـ.

وجدد «غازان خان» أيضاً بناء مدينة «أوجان» في سنة ٦٩٨ هـ وشاد فيها أسواقاً وحمامات جديدة. وبنى خانقاه في همدان، وسوّر تبريز وشيراز. وعمّر قلعة تبريز سنة ٧٠٢ هـ. وكان طول سور تبريز ٥٤٠٠٠ قدم (قريب من أربعة فراسخ ونصف) وعرضه ١٠ «كز» ونصف، وله خمس بوابات كبار وثمان صغار.

السلطان محمد خدابنده أولجايتو

قلنا سابقاً إنّ «غازان خان» عين في حياته أخاه محمداً ولياً لعهده وخليفة له، ولكن هذا لم يكن في المعسكر حين وفاة «غازان» بل كان في خراسان مشغولاً بإدارة حكومتها. وكان الأمير «مولاي»، وهو من حاشية «غازان»، يطلعه، سراً، على أوضاع المعسكر وتطلعات أمراء البيت المالك والأمراء المخالفين. وحذّره أكثر ما حذره من «آلافرنك» بن «كيخاتوخان» وأفهمه أنّ هذا الأمير يسعى إلى منصب الإيلخان، ويساعده في ذلك «هرقداق» قائد جيش خراسان، وكان هذا زوجاً لبنت «قتلغشاه» ابن أخت «آلافرنك». فإن شاء محمّد أن يجلس على العرش ويتابع إصلاحات أخيه فعليه أن يبدأ بالاستراحة من «آلافرنك» و«قتلغشاه».

وعقد محمّد مجلس شورى. بعد وصول الخبر بوفاة «غازان»، فرأى أن الصلاح في التخلص من «آلافرنك» و«هرقداق» قبل شيوع خبر الوفاة. فعهد بإنفاذ هذا الأمر إلى ثلاثة أمراء من رجاله. فاختلى هؤلاء بـ«آلافرنك» قبل أن يبلغه نبأ وفاة «غازان»، وبادره أحدهم بالسيف فضرب عنقه. وفرّ «هرقداق» ولكنه لم يلبث أن قبض عليه فقتل وقتل معه أخوان له وثلاثة أبناء. وبهذا استهلّ محمد عهده بالخلاص من شر غائلة عظيمة.

ثم توجه من خراسان إلى العاصمة تبريز، وقد تخلص من فتنة عدويه

ودخل عسكرهما في طاعته وأقر الأمور في خراسان. وصحب معه عسكراً كثيراً وعدّة من الرؤساء والأمراء الكبار مثل الأمير «مولاي» و«سونج» و«ايسن قتلغ» و«علي قوشجي» و«حسين بيك».

ووصل في الخامس من ذي الحجة سنة ٧٠٣ هـ إلى مدينة «أوجان». وهناك أقام مجلساً للعزاء بأخيه. وفي ١٥ ذي الحجة من تلك السنة جلس رسمياً على عرش الإيلخان. وجلس إلى يمينه «قتلغشاه» والأمير «شوبان» والأمير «فولادقيا» و«سونج» و«ايسن قتلغ». وجلست إلى يساره أميرات الأسرة «الجنكيزية». ووقف في مقابله أمراء آخرون. واصطف العسكر وراء الفسطاط الإيلخاني الخاص.

واختار محمد لنفسه لقب «السلطان أولجايتو»، ومعناها «السلطان المعفوّ عنه». ولم يكن له من العمر يومئذ أكثر من ثلاث وعشرين سنة. وهو الثالث من أبناء «أرغون خان» وحفيد أخي «دوقوز خاتون».

ولما صار يظهر ميلاً إلى المذهب الشيعي، لقّبه الشيعة بلقب «خدابنده» أي «عبد الله» فلقبه أهل السنة، للنكاية، بلقب «خربنده» أي «الحَمّار». وقد ذكر في كتب القدماء باللقبين.

وأصدر، بعد جلوسه بثلاثة أيام، مرسوماً أمر فيه بإقامة الشعائر الإسلامية ومراعاة القوانين الغازانية. وخلع على أمراء العسكر ورؤسائهم خلعاً كثيرة. وعين الأمير «قتلغشاه» في منصب القيادة العامة للجيش، وجعله صاحب المقام الأول بين رجال المملكة، وأمّره على الأمير «شوبان» و«فولادقيا» و«حسين بيك» و«سونج» و«ايسن قتلغ». وأقر الطبيب «الخواجة رشيد الدين فضل الله الهمداني» في المنصب الذي كان فيه على عهد أخيه «غازان»، منصب الوزارة، يشاركه فيه «الخواجة سعد الدين محمد ساوجي» ويقوم أيضاً بإدارة الأمور الديوانية. وعهد بالأوقاف إلى «قتلغ قيا» و«بهاء الدين يعقوب». وكان سلطان مصر قد أرسل رسولين إلى «غازان» في أواخر عهده فأمر هذا بحبسهما عن العودة واحتفظ بهما عنده. فأطلق «خدابنده» سراحهما وألحقهما بخدمته.

واستقبـل «أولجـايتـو»، بعـد وروده تبـريـز سفـراء «تيمـور قـاآن» (٦٩٤ ـ ٧٠٦ هـ) خليفة «قوبيلاي قاآن» و «أولوس أوكاي» و «جغتاي». ونتج عن هذا اللقاء استحكام علاقـات المودة والإتحـاد بين إيلخان إيـران وبين امبراطور الصين وخلفاء «أوكتاي» و «جغتاي».

وغادر «أولجايتو» بعد قليل من الزمن تبريز إلى «مراغة» فتفقد مرصدها، وعهد بإدارته إلى «أصيل الدين» بن «الخواجة نصير الدين الطوسي».

ثم عاد إلى تبريز، ومنها ذهب إلى «دشت مـوقان» ليشتـو فيها. ومن «موقان» بعث برسولي سلطان مصر اللذين حررهما إلى ديارهما وبعث معهما رسـلاً من قبله إلى السلطان المصري وعهـد إليهم أن يطلبـوا منـه إطـلاق «إيرنجين» أخي «سونج»، وكان أسيراً عنده، أسروه في الحرب الأخيرة التي وقعت بين «غازان» وبين المماليك. وحمل «أولجايتو» رسله أيضاً رسالة وديّة إلى السلطان المصري.

وفي سنـة ٧٠٥ هـ، أي السنـة الثـانيـة من حكم «أولجـايتـو» أقـدم «تاج الدين كورسرخي» نائب الأمير «هرقداق» وآخرون من النمامين على اتهام «الخواجة رشيد الدين» و «الخواجة سعد الدين» باختلاس الأموال الديوانية. فأمر «أولجايتو» الأمير «قتلغ» بالتحقيق في هذه القضية. وإذ ثبت لـه كذب «تاج الدين كورسرخي» ورفاقه وسـوء نيتهم فقد أمـر «أولجايتـو» بمعاقبتهم. وعوقب «تاج الدين» بالقتل.

بناء السلطانية

كان «غازان خان» في أواخر عمره يفكر في بناء مدينة في مرج السلطانية حيث منابع نهري «أبهر» و «زنجان». والأول يجري منه إلى نواحي قـزوين والثاني يتجه إلى «قزل أوزن». وبدأ العمـل فيها بـالفعل. ولكن العمـر لم يمهله. فتابع «أولجايتو» عمل أخيه عازماً على إتمامه.

وكان المغول يسمون ناحية «السلطانية» الحالية «قُنْغُورْ آلانْك». وكان مرجها مرعى لمواشيهم. وكان أيلخاناتهم ورؤساهم ينزلون فيها في تنقلاتهم

بين العراق وآذربيجان. ولم يكن فيها أثر لعمـران. وقد خط فيهـا «غازان» أساس مدينة وشرع «أولجايتو» بإتمام بنائها سنة ٧٠٤ هـ وسماها «السلطانية». واستمر بناؤها عشر سنوات. فما حلت سنة ٧١٣ هـ حتى كان ذلك المرج الخالي من كل بناء المسمى «قنغور آلانك» مدينة من أعاظم البلاد الإسلامية في الشرق، أقيمت فيها أبنية كثيرة ومدارس ومساجـد وحمامـات وأسواق، وسكن فيها خلق كثير من الناس من جميع الطبقات. وتقع على بعد خمسة فراسخ من «زنجان» وتسعة فراسخ من «أبهر».

وأمر «أولجايتو» بتسويرها بسور مربع طولـه ثلاثـون ألف قدم. وبلغت ضخامة جدرانه إلى حد أنه لو سار عليها أربعة فرسان يُجانِبُ كل منهما الآخر لوسعتهم. وبنى في وسطها قلعة كبيرة أشبه بالمدينة منها بـالقلعة لعـظمتها واتساعها. وحفر لنفسه فيها قبراً أقام عليه بناء وقبة، هما من أهم الأبنية ومن النماذج المعمارية الرفيعة في عهد المغول. وهي القبة المعروفة اليوم باسم «قبة الشاه خدابنده».

والقول المشهور أنه مدفون تحتها في القبر الذي أقامه لنفسه في حياته. على أن هناك من يشكك في كونه مدفوناً في ذلك المكان، ويرى أن البناء والقبـة أقيما لغـرض آخر. وقـد أصبحت أنا من هـذا الفريق بعـد زيـارتي للسلطانية ورؤيتي للبناء والقبة، ما فصّلته فيما كتبته عن تلك الزيارة في ملحق المجلد الثالث من «مستدركات أعيان الشيعة».

وأتبع «أولجايتو» في بناء السلطانية خطة «غازان» في بناء «شنب غازان» في تبريز. فبعد أن بنى المدينة وأقام بناء القبر أمر بأن يبنى في أطراف المقبرة سبعة مساجـد، أنفق على بناء أحـدها من مـاله الخـاص وبناه من المـرمر والصيني. وبنى في السلطانية أيضاً أبنية خيرية أخرى كثيرة، منها مستشفى باسم «دار الشفا» وصيدلية و«دار السيادة» وخانقاه، وبنى مدرسـة كبيرة على مثال المدرسة المستنصرية التي في بغداد وأحضر إليها المـدرسين والعلماء وأهل البحث والدرس من كل مكان. وبنى أيضاً قصراً لإقامته.

وشـارك في بنـاء العـاصمـة الجـديـدة الـرؤسـاء والـوزراء من رجـال «أولجايتو»، منهم «الخواجة رشيد الدين»، تبرع من ماله الخاص ببناء محلة

كاملة في السلطانية تشتمل على ألف بيت مع مستشفى ومدرسة وخانقاه.

قال في «نفايس الفنون»:

«بنى أولجايتو لقبره بناء فخماً جداً، رفع في أعلاه ثماني منارات. وأقام حواليه منشآت خيرية من جامع وخانقاه ومدرسة ودار سيادة مما لم يسمع بمثله ولا رأى نظيراً له أحد في الدنيا. ووقف على ذلك أملاكاً كثيرة نفيسة، كان يصل ريعهافي عهد دولته إلى ثلاثمائة تومان. وإذ كانت كل هذه الأعمال بتعليم وإرشاد من الوزير العالم العادل الصاحب الشهيد السعيد الخواجة رشيد الدين طاب ثراه، فقد عهد إليه «أولجايتو» بنيابة توليتها. فأمر بأن يعين لها عشرة مدرسين وعشرين معيداً ومائة من طلبة العلم وعشرين صوفياً واثني عشر حافظاً وثمانية مؤذنين وأربعة معلمين. ورسم لكل مدرسة خمسمائة وألف دينار ولكل معيد خمسين وسبعمائة دينار، ولكل من طلاب العلم والصوفيين والحفّاظ والمؤذنين والمعلمين عشرين ومائة دينار. وخصص لدار الضيافة ثلاثمائة دينار في كل يوم. وخصص أكثر من مائة ألف دينار للرؤساء الملازمين لذلك المكان ولمجاوري الخانقاه وفرّاشيه وخدمه ولنفقات الأيتام ودار السيدة والمستشفى». أ. هـ.

وحمل «أولجايتو» إلى السلطانية جماعة من صناع تبريز وحرفييها وحرضهم على ترويج صناعاتهم وحرفهم. وبذل قصارى جهده في تجميلها وإعمارها حتى عادت بعد مدة قليلة أولى مدن الممالك الإيلخانيّة بعد تبريز ولكن أسفاً أن اعتبارها هذا لم يطل، إذ لم تلبث أن انحط شأنها دفعة واحدة بعد «أولجايتو» و«أبو سعيد خان». وخربت بمثل ما عمرت به من السرعة. وجاء الأمير تيمور أيضاً فساوى ما كان قائماً من السلطانية بالتراب، إذ كان عدو العمران ماهراً في تخريب البلاد على مثال «آتيلا» وغيره من رؤساء التتر. وظلت هذه المدينة من ذلك التاريخ إلى الآن خراباً[1].

(١) إنها اليوم قرية بسيطة لا يزيد عدد سكانها عن ٦٠٠٠ نسمة، وهي قاعدة ما يسمى في الاصطلاح الإداري في سوريا والعراق (ناحية)، وفي الاصطلاح الإيراني (بخشداري). وقد زرتها سنة ١٩٨٩ ووصفت هذه الزيارة بما هو منشور في ملحق المجلد الثالث من (مستدركات أعيان الشيعة).

فتح جيلان

ظلت ولاية «جيلان» الصغيرة، من حدود «أردبيل» و«خلخال» إلى حدود «كلار دشت» و«مازندران»، مستعصية على المغول من عهد «جنكيز» إلى عهد «هولاكو» وخلفائه من الإيلخانات، بسبب وعورة الطرق وكثافة الأدغال. فلم يستطيعوا وضع يدهم عليها في كل زمان استيلائهم على إيران.

وفي سنة ٧٠٥ هـ جاء إلى بلاط «أولجايتو» أحد أبناء الحاكم المغولي المشهور «أرغون آقا» ليبلغه خبر وفاة «خان أولوس جغتاي». وقد استغرب هذا الرسول عند «أولجايتو» أن يظل إيلخانات إيران، وقد تيسرت لهم كل هذه الفتواحات، عاجزين عن احتلال ولاية صغيرة مثل «جيلان» تقوم في جنب مقرهم، قاصرين عن كف يد الأمراء المحليين عنها، ويظل هؤلاء الأمراء إلى اليوم عاصين للمغول!

وقد آثر هذا الكلام في «أولجايتو» حتى صمم على أن يصفي «جيلان» من وجود الأمراء المحليين ويستأثر لنفسه بمفخرة هذا الفتح الذي لم يستطع الحصول عليه أحد من خانات المغول. ومن أجل ذلك جهز في سنة ٧٠٦ هـ أربع فرق عسكرية وأرسلها من أربع جهات نحو طرق «جيلان» الوعرة على هذه الكيفية:

فرقة الأمير «شوبان» من طريق «أردبيل» و«طالش» وفرقة «قتلغشاه» من جهة «خلخال» وفرقة «طوغان» و«مؤمن» من طريق قزوين و«كلار دشت». والفرقة الرابعة وقد تولى قيادتها هو بنفسه، من طريق «لاهيجان» وعلى هذه الخطة قرروا أن يكون الهجوم على «جيلان».

وكانت «جيلان» و«خلخال» إلى ذلك التاريخ في يد الأمراء المحليين، يتقاسمونها فيما بينهم. فـ«خلخال» مثلاً لـ«شرف الدين الخلخالي» و«جيلان» الغربية التي على الساحل الأيسر من نهر «سفيد رود» وتشمل «كشكر» و«فومن» و«بيه بس» لامرأة من أسرة «إسحاق وَنْد» المعروفون باسم «أمراء الدُبّاج» أيضاً. وعرفت هذه المرأة باسم «أميرة الدباج». وذلك أن العلامة

«محمود بن مسعود الشيرازي» (٦٣٤ ـ ٧١٠) ألف كتاب «درة التاج لغرة الدباج» باسمها فاشتهرت بهذا الاسم، وكانت هذه المرأة أوسع أمراء «جيلان» شهرة.

وأرسل «أولجايتو»، قبل أن يقدم على مهاجمة «جيلان» سفراء من قبله إلى أمرائها المحليين يدعونهم إلى الدخول في طاعته. فأرسلت إليه «أميرة الدباج» هدايا وأعلنته دخولها في طاعته، ثم جاءت بنفسها إلى معسكره، وأكرمها «خدابنده» واحترمها، واقتدى بها سائر أمراء «جيلان» فقبلوا بما قبلت به.

ولكن هؤلاء الأمراء لم يلبثوا أن تبينوا أنّ الرؤساء من رجال «أولجايتو» يطمعون في الاستيلاء على هذه الولاية لما فيها من ثروات عظيمة وما كانت توصف به حاصلاتها من نفاسة، ولاسيما حريرها. ومن ثم أخذ هؤلاء الأمراء يتوقعون حصول أحداث لا نهاية لها ويحسبون لها ألف حساب. وترتب على ذلك أن أخذوا يتمردون شيئاً فشيئاً ويتهيّؤون للدفاع عن أملاكهم الموروثة وأموالهم وسمعتهم. وذهبت «أميرة الدباج» إلى مقرها في «فومن» من غير أن تستأذن «أولجايتو». فأغضب هذا العمل «أولجايتو»، وصمم على الاستيلاء على «جيلان» من الحدود الأربعة وقسم جيشه إلى أربع فرق.

وكان فتح هذه الولاية يبدو في أول الأمر شيئاً هيناً بسبب صغرها وقربها وهوان أمرائها المحليين. ولكنه لم يلبث أن بدأ عملاً شديد الصعوبة. فمن جهة كان يعرض عسكر «أولجايتو» للمشقات والأخطار في كل خطوة يخطونها، بسبب وعورة الطرق وعوائق أخرى لا تحصى كالغابات والعقاب والأمطار والوحول. ومن جهة أخرى كانت بطولة أهل الولاية في دفاعهم عن أرواحهم وأموالهم توقع في عسكر «خدابنده» الهزيمة تلو الهزيمة. وإنّه، وإن يكن «أولجايتو» قد انتهى به الأمر إلى فتح «جيلان» وإخضاع أمرائها وإجبارهم على إعطاء الجزية، إلّا أنّ ذلك قد أوقع به خسائر جسيمة في أرواح جنده. وإذ كان بين القتلى «قتلغشاه» القائد العام لجيشه ورجل مملكته الأوّل.

وفي هذا الهجوم على «جيلان» احتل الأمير «شوبان» حدود «كسكر»

بسهولة. ثم التحق بعسكر «أولجايتو» في «لاهيجات» قبل وصول هذا إليه، حاملاً معه بشرى الفتح والنصر. أمّا «قتلغشاه» فقد استسلم إليه «شرف الدين الخلخالي» حاكم «خلخال». وأراد العبور إلى «طالش» فمنعه «شرف الدّين» من ذلك لوعورة الطرق إليها، وهي طرق واقعة في مضائق جبلية صعبة. ولكنه اغتر بقوته وطمع بأموال الناس التي فيها فلم يصغ إليه، وسار إليها وبعث بالأمير «فولادقيا» يتقدمه بطليعة جيشه. والتقى هذا بعسكر «الأميرة دباج» ووقعت معركة انكسر فيها عسكر الأميرة ثلاث مرات. وعندئذ طلب الجيلانيون الصلح. ولكن «قتلغشاه» رفض طلبهم بتحريض من ابنه وواصل تقدمه وبعث بابنه مع الأمير «فولاد» لمواصلة الحرب. إلّا أنّ عسكر الأميرة هزمهما وترك عسكرهما يتمرغ في الطين والوحل. فتقدّم «قتلغشاه» يريد الانتقام فقتله أحد الجيلانيين، وفر عسكره تاركاً وراءه غنائم كثيرة للجيلانيين.

وأمّا الأمير «طغان» والأمير «مؤمن»، وقد سارا إلى «جيلان» من جهة «كلار دشت» و«رستم دار»، فقد استوليا على حدودها الشرقية بسهولة، ثم ذهبا إلى «أولجايتو» في «لاهيجان». وكان هو أيضاً قد أخضع حاكمها وأدخله في طاعته. وأقام «أولجايتو» صلاة شكر على هذا الفتح.

وقد أدخل خبر مقتل «قتلغشاه» السرور على قلوب جميع الأمراء. ولكن «أولجايتو» اغتمّ له غمّاً شديداً. وأمر بأن يسير الأمير «الشيخ بهلول» والأمير «أبو بكر» بثلاثة آلاف جندي إلى «جيلان» الغربية لإخضاع أهاليها. ثم اتبعهما الأمير «حسين بيك» والأمير «سونج». ووقعت بين هؤلاء الأمراء المغوليين وبين أهالي الاقليم حروب طاحنة انتهت بانتصار الأمراء فأغاروا على «رشت» و«فومن» و«تولم» نهباً وسلباً وتخريباً، وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال، وعادوا إلى «أولجايتو».

وبعد أن سيطر «أولجايتو» على «جيلان» وأخضع أمراءها فرض على كلّ واحد منهم إرسال مقدار من الحرير جزية في كلّ سنة إلى المعسكر الإيلخاني، وأن يعدوا أنفسهم ابتداء من هذا التاريخ إلى ما بعده أتباعاً له.

ثم أمر بمعاقبة ابن «قتلغشاه» بالجلد مجازاة له على فراره. ونصب

الأمير «شوبان» في مقام «قتلغشاه» قائداً عاماً للجيش. وعاد إلى «السلطانية» مصطحباً معه جميع أمراء «جيلان»، وقد خضعوا لطاعته.

أولجـايتو والتشيـع

كانت أم «أولجايتو» من قبيلة «كرائيت» النصرانية. وقد عمدته حسب الطقس النصراني باسم «نيكولا». وظل «أولجايتو» على هذا الدّين إلى وفاة أمّه واتخاذه زوجة مسلمة. وقد حسنت له زوجته هذه الدخول في دين الإسلام فقبل منها. واختار المذهب الحنفي من بين المذاهب السنية الأربعة، لما كان لعلماء خراسان الأحناف من نفوذ. وأعلن إسلامه رسمياً. ونقش اسم الخليفة الأول على النقود بتحسين من أولئك العلماء.

وقد جعل تعلق «أولجايتو» بالمذهب الحنفي علماء هذا المذهب يشتدون شيئاً فشيئاً في إظهار التعصب لمذهبهم والطعن في المذاهب الإسلامية الأخرى وإيذاء أهلها، مع أن «أولجايتو» نفسه لم يكن متعصباً. ولذلك قبل أن يعين «نظام الدّين عبد الملك المراغي» الشافعي قاضي القضاة لإيران كلها، إذ حسن له ذلك «الخواجة رشيد الدين فضل الله». وبذلك أصبح جميع الإيرانيين من أهل المذاهب كلها يأتمرون بأمره.

فلمّا اختير «الخواجة نظام الدين» لهذا المنصب الجليل اشتغل بنقض عقائد المذاهب الأخرى وردّ آراء أهلها في الدّين، وراجت سوق المناظرات، بل المخاصمات والمهاترات، المذهبية، خصوصاً يوم جاء ابن «صدر جهان البخاري» الحنفي إلى معسكر «أولجايتو» سنة ٧٠٧ هـ قبيل الزحف على «جيلان»، وأخذ يجادل قاضي القضاة الشافعي بأشد ما يكون من التعصب. فقد ازدادت الخصومة المذهبية يومئذ شدة حتى آل الأمر إلى إهانة الدّين الإسلامي وابتذال هيبته. إذ كانت كل من الفرقتين، الشافعية والحنفية، ترمي الأخرى باتباع القبائح واعتقاد السخافات. وفي رد كل منهما على الأخرى لم يكونوا يتورعون عن ذكر فضائح مذهبية ينسبها بعضهم إلى بعض، وإذ كانت هذه المنكرات التي يترامى بها الطرفان يستنتج منها أنّها هي الإسلام الذي

يدينون به، فقد أدّى ذلك إلى تضايق رؤساء المغول، وخروج «أولجايتو» غاضباً من مجلس مناظرة قاضي القضاة وابن «صدر جهان».

وظل أمراء المغول حيارى حتى خاطبهم «قتلغشاه» بقوله: أي خبط هذا الخبط الذي خبطناه، إذ تركنا دين الأجداد والقانون الجنكيزي وقبلنا دين العرب، فوضعنا في أعناقنا ربقة دين يقوم بين علمائه اختلاف ويصل إلى هذا الحد، فلا يتورعون عن المبادرة إلى كل قباحة وافتضاح. فالخير أن نعود إلى سنة أسلافنا وإحياء القانون الجنكيزي.

وقد انتشر خبر هذه الواقعة في المعسكر شيئاً فشيئاً، وأخذ نفور المغول من الإسلام وقادته يزداد، حتّى أنهم أصبحوا كلما رأوا معمماً سخروا منه وعابوه، وامتنعوا عن إجراء عقود الزواج حسب الشريعة الإسلامية.

واتفق في تلك الأيّام أن كان «أولجايتو» عائداً من «أران» إلى آذربيجان وعندَ وصوله إلى قرية «كلستان» نزل في عمارة صيفية من أبنية «غازان». وهناك هب إعصار شديد، وهلك بضعة رجال من مرافقيه بصاعقة وخاف «أولجايتو» فترك القرية وانطلق إلى «السلطانية». وقال له جماعة من المغول يجب أن يخطو السلطان فوق النار ليسلم من عاقبة وخيمة، حسب سنن المغول. فقبل «أولجايتو» وأحضر جماعة من كهان المغول لإجراء هذا الرسم. وقال له الكهان إن نزول هذا البلاء إنما كان من شؤم المسلمين والإسلام. فإن عاد السلطان عن هذا الدين تبدلت النحوسة بالميمنة.

وظل «أولجايتو» بعد ذلك ثلاثة أشهر متردداً لا يستقر على رأي. فقد قضى مدة عمره مخلصاً في أداء الآداب والأحكام الإسلامية، فهو غير قادر على أن يخالف هوى قلبه ويهمل وصية أخيه دفعة واحدة.

فقال له يوماً أحد الأمراء من رجاله واسمه «طَر مطاز» إنّ «غازان خان»، وقد كان يعد أعقل وأكمل أهل زمانه، قد اختار مذهب التشيع، فالأحسن أن يقتدي خليفته به، وبذلك يتخلص من شر ما سمع من تهم قبيحة متبادلة بين غير الشيعة.

ولكن «أولجايتو»، وقد كان ينفر من مذهب الشيعة أو مذهب «الرفض» حسب اصطلاح المخالفين، متأثراً بتلقينات خصومهم، صاح بـ«طر طماز»: يا مشؤوم، تريد أن تجعلني رافضياً!

وكان «طرطماز» رجلاً ذكياً فصيحاً. فشرح لـ«أولجايتو» مذهب التشيع أحسن الشرح مستعملاً أنواعاً من الكلام العذب الفصيح، وبين له ما يُعترض به على غيرهم من انتقادات.

وقد قربت هذه البيانات قلب «أولجايتو» إلى الشيعة. واتفق أن جاء إلى المعسكر جماعة من السادات العلويي النسب، فانتقدوا بحضور السلطان بعض عقائد أهل السنة. ولكن قاضي القضاة، وكان فاضلاً متكلماً بليغاً، أسكت جماعة الشيعة هؤلاء بأجوبتِه، وأظهرهم في نظر السلطان بمظهر المغرضين، فانصرفوا عن مباحثة قاضي القضاة.

وفي سنة ٧٠٩ هـ سافر «نظام الدّين المراغي» إلى آذربيجان لتنظيم شؤون الأوقاف. فاغتنم أنصار الشيعة فرصة غيابه عن المعسكر، وأخذوا يرغبون السلطان أكثر من السابق في هذا المذهب. وسافر «أولجايتو» في تلك الأيام إلى العراق وزار مشهد النجف الأشرف. وهناك رأى رؤيا دفعته إلى السعي في تقوية الإسلام. وعبر له من كان معه من الأمراء الشيعة الرؤيا بأن عليه أن يختار لنفسه مذهب التشيع. فقبل «أولجايتو» وتشيع وتبعه سائر الأمراء والأعيان فتشيعوا ما عدا الأمير «شوبان» و«ايسن قتلغ» فقد أصرا على البقاء على المذهب السني، ولم يتمكن سادات الشيعة وأئمتهم من صرفهم عنه إلى التشيع.

وفي سنة ٧٠٩ هـ أمر «أولجايتو» بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة من الخطبة ومن النقود. وذكر اسم الإمام علي واسمي الإمامين الثاني والثالث من أئمة الشيعة في الخطبة ونقش اسم الإمام علي بن أبي طالب وحده على النقود وأن يعلن أهالي إيران قبولهم لمذهب الشيعة.

ومن أجل إشاعة عقائد الشيعة أمر «أولجايتو» بإحضار أئمة هذا المذهب من جميع النواحي وتهيئة مدارس خاصة لتعليم أصول المذهب الشيعي

وعقائده. وأعد أيضاً مدرسة إلى جانب قبة السلطانية وعين لها ستين معلماً ومدرساً وأسكن فيها مائتي طالب يتلقون فيها عقائد المذهب الشيعي(١). وأعد مدرسة أخرى سماها «المدرسة السيارة» هي خيمة من الكرباس الغليظ تقوم في المعسكر وتنقل معه دائماً إلى حيث ينتقل ويرافقها في تنقلاتها جماعة من كبار علماء الدين يعلمون طلاب العلم فيها.

وحمل إقبال «أولجايتو» على مذهب الشيعة واهتمامه به علماء هذا المذهب على أن يتقاطروا إلى معسكر الإيلخان من كل جانب، ويزيدوا السلطان ميلاً إلى التشيع يوماً بعد يوم، ويقووا إيمانه بالأدلة الكلامية والشواهد المختلفة، ويقطعوا الطريق على نفوذ أئمة أهل السنة. وقد استدعى «أولجايتو» «العلامة جمال الدّين الحسن بن المطهر الحلي» (٦٤٨ ـ ٧٢٦ هـ)(٢) وابنه «فخر المحققين فخر الدين محمد» (٦٨٢ ـ ٧٧١ هـ)، وهما من أشهر علماء الشيعة إلى السلطانية وصنف العلامة الحلي، كتابين في أصول عقائد الشيعة وأهداهما إلى «أولجايتو»، أحدهما كتاب «نهج الحق وكشف الصدق» في علم الكلام والآخر «منهاج الكرامة». كما ألف رسالة نفي الجبر ورسالة حكمة وقوع النسخ التي سأله عنها «أولجايتو». وأكمل هناك الألف الأول من كتاب الألفين. وقال في آخر الموجود من كتاب (الألفين): «فهذا ما أردنا إيراده في هذا الكتاب. وذلك في غرة رمضان المبارك سنة ٧١٢ هـ وكتب حسن بن مطهر ببلدة جرجان في صحبة السلطان الأعظم غياث الدّين محمد أولجايتو خلد الله ملكه. وصنف في سفره ذاك الرسالة السعدية.

والعلامة الحلي عندما يذكر «أولجايتو» يذكره دائماً بالاحترام والإجلال، فهو يقول مثلاً في الرسالة التي ألفها في جواب سؤالين سئل عنهما الوزير رشيد الدين فضل الله الهمداني، ـ يقول العلامة في مقدمتها: يقول العبد

---

(١) لا تزال بقايا المدرسة قائمة وشاهدناها في رحلتنا إلى السلطانية سنة ١٩٨٩م.

(٢) يبدو أن المدرسة السيارة المتقدم ذكرها أنشأها خدابنده للعلامة الحلي وتلاميذه ليصحبوه في حله وترحاله.

الفقير إلى الله تعالى حسن بن يوسف بن المطهر إنني لما أمرت بالحضور بين يدي الدركاه المعظمة الممجدة الإيلخانيّة أيّد الله سلطانها وشيد أركانها وأعلى على الفرقدين شأنها وأمدها بالدوام والخلود... إلى آخر ما قال..

وكذلك عندما يذكر رشيد الدين فضل الهمداني، فهو يقول في نفس المقدمة المذكورة متابعاً كلامه السابق: وجدت الدولة القاهرية مزينة بالمولى الأعظم والصاحب الكبير المخدوم المعظم مربي العلماء ومقتدى الفضلاء أفضل المحققين رئيس المدققين صاحب النظر الثاقب والحدس الصائب... إلى آخر ما قال...

ويبدو أنّ العلامة كان يتردد على مجلسه، فإنّه يقول متابعاً كلامه: ... وحضرت في بعض الليالي في خدمته للاستفادة من نتائج قريحته فسئل في تلك الليلة سؤالين مشكلين فأجاد في الجواب عنهما... إلى آخر ما قال...

ومن هنا يظهر أن مجلس رشيد الدين كان لا يخلو من المذاكرات العلمية والمباحثات الفكرية.

وأنزل «أولجايتو» العلامة الحلي وابنه منزلاً محترماً فأقاما في المعسكر معززين مكرمين. وجرت بين العلامة الحلي وقاضي القضاة «نظام الدّين المراغي» مناظرات كثيرة، وإذ كانا كلاهما من كبار علماء المعقول فإن مناظراتهما لم تنجر قط إلى المهاترة والتعصب ولا خرجت عن الجدل العلمي.

وكان «أولجايتو» لا ينفك يزداد رغبة ورسوخاً في التشيع متأثراً بمصاحبة العلامة الحلي ونقيب مشهد طوس وغيرهما من علماء الشيعة. وبذل أهل السنة قصارى جهدهم لثنيه عن هذه الطريق والتقليل من نفوذ الشيعة، ولكنهم عجزوا عن ذلك. بل عاد الأمراء إلى الضد، فقد قوي المذهب الشيعي، وتحرك جماعة من علمائه كانوا متوارين في العراق والبحرين وصنفوا كتباً كثيرة في الرد على مخالفيهم، ونشطوا في إقامة مراسم التشيع. ومهدوا مجالاً ثابتاً

محكماً لمن بعدهم من الأجيال. وكان نشاط العلامة الحلي في هذا السبيل أوسع نشاط.

رأي آخر في هذا الموضوع

وعن هذا الموضوع كتب لنا السيد جودت القزويني ما يلي:

ظهر اسم العلامة الحلّي في مجلس السلطان المغولي خدابنده (٧١٦ هـ - ١٣١٦م) عندما ناظر علماء أهل السنة، وتفوق عليهم[١]، واستطاع أن يوجد مبرراً لتبني خدابنده المذهب الإثنا عشري، وإعلانه رسمياً مذهباً للبلاد.

فقد استعصى مشكلٌ فقهيٌّ على السلطان، ولم يستطع الوصول إليه عن طريق الفقهاء الذين كانوا من حوله[٢] عندما طلّق خدابنده زوجته ثلاثاً، وأراد الرجوع إليها، فاحتار أرباب المذاهب السنية في الفتيا التي لم تجوّز رجوع المطلقة ثلاثاً إلّا بزواجٍ آخر خلاف ما يذهب إليه الشيعة من تضييق دائرة الطلاق فلا يقع الطلاقُ بالثلاث إلّا واحدة. ويبدو أنّ هذه المسألة الفقهية كانت ممهّدة لدعوة علماء المذاهب الإسلامية والدخول في مناقشات حرّة مع العلامة الحلّي كما أشار الخونساري إلى «أنّ خدابنده عندما غضب على امرأته قال لها أنت طالقٌ ثلاثاً، ثم ندم، وجمع العلماء فقالوا: لابدّ من المحلل. فلمّا حضر العلامة بعث إلى جميع علماء المذاهب الأربعة، وجمعهم...»[٣].

إنّ مسألة من المسائل الشخصية المتعلقة بالسلطان لا يمكن أن تكون بهذا المستوى من الإهتمام ما لم يكن وراءها هدفٌ سياسي محدد، وإلّا لاستطاع هذا السلطان الشاب أنْ يتكتم على هكذا أمر، ولا يثير ضجيجاً حول موضوع خاص به.

(١) الشيبي: ج٢، ص١٠٠.

(٢)الشهابي، الشيعة في إيران: ص١٤٩.

(٣) الخونساري، روضات الجنات: ج٢ص٢٧٩. والأمين، أعيان الشيعة: ج٥ص٤٠٠.

ويبدو أنّ اتفاقاً مسبقاً كان قائماً بين السلطان والعلاّمة تمّ على موجبه إعلان السلطة السياسيّة عن تشيعها رسميّاً بعدما كانت قد تسترت على صبغتها المذهبيه فترةً من الزمن. وقد تمّ هذا الاتفاق بشكل كان العلاّمة قد أدرك أبعاده بوضوح، ولا يستبعد أنّه هو الذي كان مقترحاً طريقة محاججة خصومه محاججة علنيّة، وكان متأكِّداً من أنّه سيكون الحلقة المفقودة التي تسهم في تقليص حجم هذه المذاهب، وحسرها، وفسح المجال للامتداد السياسي والعقائدي الشيعي.

إلاّ أنّ تقي الدين بن تيمية الحرّاني (٧٢٨ هـ ـ ١٣٢٧ م) الخصم التقليدي للعلاّمة الحلّي ـ الذي كان مستوطناً بلاد الشام وكانت هذه البلاد في خصومة سياسية مع دولِ المغول ـ تنبّه إلى هذه اللعبة السياسية المتّخذة من الخلاف الفقهي مبرراً لتوجّهٍ محدّد، وحاول أن يسقط الورقة من يد العلاّمة الحلّي، ويحرج السلطان في الوقت ذاته فأعلن فتواه في «أنّ الطلاق بالثلاث لا يقع إلاّ واحدة»[1] كما هو مقرّر في المذهب الشيعي، وهو بذلك خالف ما عليه السلف بالإجماع مما أثار مشاعر الفقهاء السنّيين، ودفع بالسلطة المملوكية إلى سجنه بسبب هذه الفتوى كمبرر للتّخلص منه. فقد ذكر ابن الوردي في تاريخه أنّ ابن تيمية، أعان أعداءه على نفسه بدخوله في مسائل كبار لا تحتملها عقول أبناء زماننا... كمسألة أنّ الطلاق بالثلاث لا يقع إلاّ واحدة... وساس نفسه سياسة عجيبة فحُبِس مرات بمصر، ودمشق، والاسكندريّة..»[2]

وذكر الصفدي أنّ الأمير سيف الدين تنكز سنة(٧١٩ هـ/١٣١٩م) جمع الفقهاء والقضاة والحكام، وقرأ عليهم كتاب السلطان وفيه فصل يتعلّق بالشيخ تقيّ الدين بسبب فتياه في مسألة الطلاق، وعُوتب على فتياه.

وفي سنة ٧٢٠ هـ عُقد له مجلس بدار السعادة، وعاودوه في فُتيا

(١) المُنجّد، د. صلاح الدين، شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين: (بيروت، ١٩٧٦) ص٢٢.
(٢) المنجد: ص٢٢ نقلاً عن تاريخ ابن الوردي.

الطلاق، وحاققوه عليها، وعاتبوه لأجلها ثمّ حبس بقلعة دمشق.[1]

وقد ربط مؤرخو الشيعة بداية ظهور التشيّع المغولي بخدابنده دون أن يفرّقوا بين تشيّع هذا السلطان، وإعلانه للتشيع مذهباً رسمياً[2]. فقد كان التشيع قائماً في هذه العائلة الحاكمة قبل خدابنده «تحوّل غازان سنة(٦٩٤ هـ/١٢٩٥م) إلى الإسلام واعتنق المذهب (الشيعي) الإثني عشري[3]» وحاول أن يُعظِّم الشعائر القائمة على هذا المذهب؛ من الإهتمام بآل البيت، وزيارة مراقد الأئمة في النجف وكربلاء، وتبرعه بالأموال. وقد فسّرت زياراته هذه بأنّها محاولة لكسب ثقة الشيعة، وخلق رأي عام يدعم موقفه في صراعه مع المماليك ـ الذين أسقطوا حكم الأيوبيّين في سوريا (٦٤٨ هـ/١٢٥٠م) ـ بعد فشله في كسب تأييد أهل السُّنّة، ولإعطاء زحفه صفة الشرعيّة[4].

ومهما يكن من أمر فإنّ غازان لم يعلن شيعيّته، ولم يحاول أن يجعل هذا المذهب مذهباً رسميّاً للبلاد، وإنّما بقي الأمر مرتهناً بـ"الأحداث حتّى استطاع أخوه (خدابنده) أن يحقّق هذه الرغبات الكامنة بإعلانه التشيع رسميّاً. وقد كانت الإجراءات الجديدة متّخذة من قبل السلطان في تغيير أجهزة الحكم الإيلخانيّة بما يناسب تعاليم المذهب الشيعي فأُسقطت أسماء الخلفاء من الخطبة، واستبدلوا بها أسماء الأئمة الإثني عشر، وشمل التغيير«السكة» أيضاً، فأُضيف إليها «عليٌّ وليُّ الله». كما أمر خدابنده أن تضرب الدراهم بإسمه محاطة بأسماء الأئمة الإثني عشر[5] وفُتحت أبواب القصر الإيلخاني لعلماء الشيعة الذين توافدوا من مختلف أنحاء البلاد حتى أصبحوا يمثلون قوة مؤثرة

---

(١) المنجد، المصدر السابق: ص٥٢ نقلاً عن أعيان العصر للصفدي (مخطوط).
(٢) الخونساري، روضات الجنات: ج٢ص٤٢٣.
(٣) طه بدر، مصطفى، مغول إيران بين المسيحيه والإسلام، (مصر، ١٩٦١م): ص١٦.
(٤) القزّاز، محمد صالح داود، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، (النجف، ١٩٧٠): ص٢٩٧.
(٥) مقدمة إحقاق الحق للمرعشي: ص٧٢.

دعت السلطان (كما يشير ابن بطوطة) إلى حمل النّاس على التشيُّع[1].

وقد بلغ من تنامي قوّة خدابنده أنّه جهّز جيشاً بقيادة أبي طالب الدلقندي، ومعه الأمير حميضة ابن أبي نمي أمير مكةِ ليزحف إلى المدينة المنوّرة ثمّ يعمل على فرض التشيّع في الحجاز[2].

وقد كان هذا السلطان القوي قد أناط في جانب آخر بالعلّامة الحلّي مهمة الدعوة على أساس فكريّ، وإعلاميّ لم يكن معهوداً من قبل حيث أنشئت مدرسة تختلف عن المدارس المتعارفة بأنّها «مدرسة سيّارة» تتوفّر فيها جميع المُعدّات مضافاً إلى بعض الأنواع المتميزة من الخيام التي كانت تُحملُ إلى مختلف المدن والقرى، وكانت هذه المدرسة تنقل من آذربيجان صيفاً إلى (بغداد) شتاءً[4] وكان خدابنده مشاركاً بنفسه في هذا النشاط[3]. وفي مدّة إقامة العلّامة الحلّي في صحبة السلطان المذكور ألّف له كتباً عديدة كان بعضها ـ بالرّغم من أهميّته العلميّة ـ مستمدّا شهرته من أهميّته السياسية؛ من ذلك كتاباه «منهاج الكرامة» الذي ردَّ عليه ابن تيمية، و«كشف الحق». وقد صرّح العلّامة في مقدِّمة «كشف الحقّ» أنّه ألّفه إمتثالاً لطلب السلطان كما ذكر في مقدّمة «منهاج الكرامة» ما يقرب من ذلك.

ومن الأهميّة بمكان أنْ يكون كتاب (الألفين في إمامة أمير المؤمنين) الذي يُعتبر من أغزر بحوث الإمامة استدلالاً قد تمّ تأليفه بصحبة السلطان خدابنده أيضاً؛ مما يدلُّ على أنّ العلّامة حاول أنْ يقدم كل ما يستطيعه من جهدٍ في تثبيت المباحث المذهبية، وإرسائها على أساس عقليّ محض، يقول العلّامة في كتابه «هذا آخر ما أردنا إيراده في هذا الكتاب، وذلك في غرّة رمضان المبارك سنة ٧١٢ هـ. وكتب حسن بن مطهر ببلدة جرجان في صحبة السلطان الأعظم غياث الدين محمد أولجايتو خلّد الله ملكه».

---

(١) القزّاز، الحياة السياسية: ص٣٠٢.

(٢) أيضاً: ص٣٠٢.

(٣) مقدمة محمد مهدي الخرسان على كتاب الألفين للعلّامة الحلّي (النجف،): ص٢٥

(٤) روضات الجنات: ج٢ص٢٨٢

ويعتبر كتاب الألفين من بحوث (الإمامة) التي لم يُسبق التأليف إليها بهذا الشكل الموسّع، فقد ذكر فيه أكثر من ألف دليل على إمامة علي بن أبي طالب، وقد استمدّت أدلّته قوتها من العقل والنقل، وهو بذلك حاول أن يفسّر المأثورات من النصوص بتفسيرات عقلية. فقد ذكر في مقدمته قوله «أوردت من الأدلّة اليقينية، والبراهين العقلية والنقلية ألف دليل على إمامة سيد الوصيين علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وألف دليل على إبطال شُبه الطاعنين، وأوردت فيه من الأدلّة على باقي الأئمّة ما فيه كفاية...[1]»

إلّا أنّ الكتاب لم يستكمل جميع الأدلّة التي ذكرها المؤلف والتي تبلغ الألفين بل أورد ألف وثمان وثلاثين دليلاً فقط. ونُقل عن فخر المحققين ولده أنّه أكمل تأليف هذا الكتاب[2]. (انتهى).

قتل سعد الدين ساوجي

كان «الخواجة سعد الدين محمد ساوجي» يقوم هو و«الخواجة رشيد الدين فضل الله» بإدارة الأمور الملكية وتدبير مهامها، في أهم الأيّام من سلطنة «غازان» و«أولجايتو». ولم يكن «سعد الدين» فقد بعد ذلك مكانته السابقة التي كانت له عند «أولجايتو» وأخذ هذا يهمله شيئاً فشيئاً. وكان الباعث على ذلك ظهور منافس له فطين متطلع إلى المناصب العالية اسمه «تاج الدّين علي شاه جيلان التبريزي». وهو في الأصل دلّال في تجارة الجواهر والأحجار الكريمة. وكان أمياً إلا أنّه كفء ذكي محنّك. وقد اتصل بالحاشية الإيلخانيّة، وكان يتردد على غالب الأعيان والأمراء في معاملاته التجارية، فأصبح معروفاً عندهم. وأخذ يجلب انتباه «أولجايتو» إليه شيئاً فشيئاً، وهكذا عرف بنفسه في بلاط السلطان حتى أصبح موضوع عنايته واهتمامه.

وأخاف نفوذ «علي شاه» في البلاط «الخواجة سعد الدّين» فأخذ يسعى

---

(١) الحلّي، الألفين في إمامة أمير المؤمنين، (بيروت، ١٩٨٢م)، تقديم حسين الأعلمي: ص١١ ـ ١٢.

(٢) البحراني، لؤلؤة البحرين: ص١٩٢.

إلى إبعاده عن «أولجايتو» بكل ما يقدر عليه من وسيلة. ومن أجل ذلك أرسله إلى بغداد ليتولى إدارة مناسجها. فذهب إليها ولم يلبث أن نظم أمور المناسج تنظيماً حسناً، وأخذ يحوك عليها أقمشة نفيسة لم ينسج مثلها أحد قبله. فلمّا حضر السلطان مرة إلى بغداد أتحفه «علي شاه» بهدايا من هذه الأقمشة كان قد أعدها بنفسه في هذه المناسج، وقد بلغت من النفاسة حداً حيّر السلطان. فازداد بذلك اهتمام «أولجايتو» به حتّى أصبح من مرافقي المعسكر.

فلمّا وصل المعسكر إلى «السلطانية» أقام «علي شاه» فيها من ماله الخاص أبنية جميلة وسوقاً لم يكن لها نظير في «السلطانية» حتى ذلك التاريخ. وإذ كان «أولجايتو» يحرص على إعمار «السلطانية» فقد سرّه عمل «علي شاه» وازداد عطفاً عليه واهتماماً به.

وضاق «الخواجة سعد الدين» ذرعاً بهذه الحوادث وصعب عليه أن يرى «علي شاه» يترقى على هذا الشكل. ولذلك كان يحقره ويمتنع عن القيام له من مجلسه إذا حضر. وعلى الضد من ذلك كان «الخواجة رشيد الدّين» يبدى لـ«علي شاه» الاحترام والتعظيم. ومن ثم تكدرت الصلة بين الوزيرين، وأخذت تزداد تكدراً يوماً فيوماً. ووصل الجفاء بينهما إلى أن أخذ «الخواجة سعد الدّين» يسعى لإيذاء «الخواجة رشيد الدّين». من ذلك أنّه حمل جماعة من رجاله على معارضته ومضايقته. وأقام «علي شاه» للسلطان والوزراء مأدبة عامل فيها «سعد الدّين»، وهو سكران، «رشيد الدّين» بفظاظة واحتقار، فسكت هذا ولم يجبه بشيء. وزاد هذا العمل السلطان غضباً على «سعد الدّين».

ثم أخذ «رشيد الدّين» يسعى في تهيئة الوسيلة إلى الانتقام من خصمه. وسهل انصراف السلطان عن «سعد الدّين» وتزايد نفوذ «علي شاه» عنده أمر الانتقام هذا عليه، إذ أصبح السلطان متهيئاً لقبول الوشاية بـ«سعد الدّين». وكان هذا يأخذ من الخزانة لنفسه ولعماله، وهم كثر، مبلغ ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم في كل سنة. وكان «الخواجة رشيد الدّين» على علم بذلك. فقد حدث أن تخاصم، قبل مدة قليلة، اثنان من عمال «الخواجة

سعد الدّين» في «السلطانية»، واتهم كل منهما الآخر بسرقة الأموال الديوانية. وتدخل «الخواجة سعد الدين» فصالحهما، وطلب منهما أن لا يعيدا مثل هذا الكلام مرة ثانية، فتعهدا له بذلك. ومع هذا ذهبا إلى «الخواجة رشيد الدين» وأطلعاه على الواقعة، فأسرّها في نفسه حتّى سافر «خدابنده» مرة إلى بغداد، ومعه «رشيد الدين» فأطلعه هذا على ما وقع.

فأمر «أولجايتو» بمحاكمة كلا الوزيرين ومحاسبتهما. فأمّا «رشيد الدين» فقد برئت ساحته، وأمّا «سعد الدين» فقد ثبت جرمه، فقتل وقتلوا معه جماعة من أعوانه، في قرية «محول» على بعد فرسخ من بغداد في العاشر من شوّال سنة ٧١١ هـ.

وأشار «الخواجة رشيد الدين» على «أولجايتو» بتعيين «تاج الدين علي شاه» وزيراً في مكان الوزير المقتول ففعل. وتقرر أن يتولى أمور المعاملات الديوانية، ويتولى «رشيد الدين» شؤون المشاورة والتدبير في المملكة، ويكون آمراً على «تاج الدين».

وانصرف «رشيد الدين» في هذه المرّة إلى إصلاح ما خرّبه «الخواجة سعد الدين» وأعوانه، وإعداد قوانين جديدة لتحسين الأوضاع، وعهد بكل ولاية من الولايات إلى حاكم أمين. من ذلك تعيينه «حمدالله المستوفي» الكاتب المؤرخ المعروف لقزوين و«أبهر» و«طارم» العليا والسفلى. وتعيين «جلال الدين» بن «رشيد الدين» لأصفهان وابنه الآخر الأمير «عبد اللطيف» لوزارة «أبو سعيد» ولي عهد السلطان، وكان قد عين حاكماً على خراسان في سنة ٧١٣ هـ.

حملة «أولجايتو» على الشام

في مطلع سنة ٧١٢ هـ حدث اختلاف بين الملك الناصر محمد سلطان مصر وجماعة من رجاله من الأمراء و القواد، أشهرهم «قراسنقر» حاكم دمشق و«آغوش أفرم» صاحب حلب ففروا مع فرسانهم إلى «أولجايتو» خوفاً من السلطان. وحسنوا للإيلخان غزو الشام.

وكان «أولجايتو» من قبل فتح «جيلان» يفكر في ذلك. فعزم على الغزو وهيّأ جيشاً سار به من الموصل صوب الفرات حتى بلغ قلعة «الرحبة» وهي عند حدود الشام على شاطىء الفرات، فحاصرها، وصحبه في هذه الحملة «قراسنقر» و «أفرم». وكانت بين «بدر الدين» قائد حامية القلعة و «أفرم» صداقة فطمأن هذا «أولجايتو» إلى أنّه سيحمل القائد على التسليم، ولكن «بدر الدين» رفض أن يسلّم، فاضطر «أولجايتو» إلى استعمال المنجنيقات والنفاطات لفتح القلعة. بيد أن المدافعين عنها أحسنوا الدفاع وعجز «أولجايتو» عن فتحها. وأعوزه الزاد وشقّ عليه العمل، فضجر من مواصلة الحصار. وانتهى الأمر إلى عقد الصلح بوساطة «الخواجة رشيد الدين» وقاضي الرحبة. وعاد «أولجايتو» في ٢٦ رمضان إلى ايران. ولم يفكر بعدها بغزو الشام.

وفي تلك السنة خرج ابن «قونغرتاي» في بلاد الروم (الأناضول) ولكن الأمير «طرمطاز» قبض عليه بسهولة فقتله وقتل معه أبناءه الأربعة. وفي سنة ٧١٤ هـ ثار «محمود بيك» أحد الأمراء المحليين من بلاد الروم واستولى على مدينة «قونيه». وثار أيضاً أبناء «معين الدين براونه». فسيّر إليهم «أولجايتو» الأمير «شوبان» مع ثلاثين ألف جندي فأخضعهم بمساعدة ملك «كرجستان». ومكث في بلاد الروم مدة سنة عاد بعدها إلى إيران بأمر من «أولجايتو».

حكومة «أبو سعيد» بخراسان

في سنة ٧١٣ هـ، بعد رجوع «أولجايتو» من الشام عين ابنه «أبو سعيد» المولود سنة ٧٠٤ هـ حاكماً على خراسان، وله من العمر يومئذ تسع سنوات. وعين الأمير «سونج» وصيّاً عليه. وعين عمدة خراسان و «عبد اللطيف» ابن «الخواجة رشيد الدين» لوزارته وبعث معه جماعة آخرين ليكونوا في صحبته.

وكان مغول «جغتاي»[1]، قبل تعيين «أبو سعيد» لحكومة خراسان، قد

(١) كان «جنكيز» قد استخلف للحكم من بعده أربعة من أبنائه وقسم ممالكه بينهم، وعرفت هذه الممالك باسم «الممالك الجنكيزية الأربع». وأحد خلفائه هؤلاء «جغتاي» ثاني أبنائه، حكم في آسيا الوسطى. وظل رعاياه في مملكته هذه يعرفون برعايا جغتاي، أو «الجغتائية».

هاجموا خراسان أكثر من مرّة وتغلّبوا على الأمير «يساول» والأمير «علي قوشجي». واتفق أن قاموا بهجوم آخر عليها مع وصول «أبو سعيد» إليها. وإذ كان الأمير «يساول» والأمير «علي قوشجي» غير قادرين على مقاومتهم، فقد التحقا بمعسكر «أبو سعيد». هذا وقد ظلّ «أبو سعيد» كل مدة حكمه على خراسان، وهي ثلاث سنوات وبعض السنة، دائم الإنشغال بدفع غائلة أولئك المغول عنها.

وفي سنة ٧١٥ هـ، قبل وفاة «أولجايتو» بسنة واحدة، احتاج «أبو سعيد» إلى المال للإنفاق على جيشه. فأرسل يطلبه من القيمينَ على الخزانة، أي الوزيرين «الخواجة تاج الدين علي شاه» و«الخواجة رشيد الدين»، فلم يبعثا إليه بشيء. وكرر طلبه مراراً فلم يحصل على نتيجة، إذ كان كل منهما يدعي أنّ هذا الأمر ليس في عهدته بل في عهدة الآخر. ومرد ذلك إلى ما كان بينهما من تحاسد وسعي كل منهما إلى أن يستقل بتصريف الأمور وحده. فكان «الخواجة رشيد الدين» يقول إن إجراء المعاملات المالية ليس بيده، ولم يسبق له أن وقع على حوالة مما يعطى من حوالات، فقبض المال بيد غيره لا بيده. وكان «تاج الدين علي شاه» يقول أنا لا أملك شيئاً غير اللباس الذي على بدني وليس في يدي دينار واحد. ولا أدري لماذا أراجع أنا وحدي في هذه الأمور مع أني والخواجة رشيد الدين شريكان في تعهّد أمور المملكة؟!

وكان «رشيدالدين» يرى أنّ «علي شاه» هو وحده المسؤول عن تهيئة المال، بما هو معتمد الإيلخان في كل شيء وحامل مهره الأكبر. فأجاب «علي شاه» على ذلك بأنّه حاضر لجعل «الخواجة رشيد» شريكاً له في هذه الصلاحيات. ولكن «رشيد الدين» رفض وأجاب «علي شاه» بقوله كيف أستطيع أن أشارك رجلاً مثلك في المسؤولية، وأنت لا تنفكّ تظهر العجز والفقر كلما طلب منك الدفع، على حين يستأثر عمالك بالأموال الديوانية لأنفسهم، ويكنزون منها ثروة كبيرة.

وختم «أولجايتو» تنازع الوزيرين بأن قسم ممالكه إلى قسمين، فعهد بعراق العجم وخوزستان وولايات «اللور» وفارس وكرمان إلى «رشيد الدّين»،

وعهد بعراق العرب وديار بكر و «أران» وبلاد الرّوم إلى «علي شاه».

ولكن «علي شاه» التمس من السلطان أن يكونا كلاهما شريكين في إدارة كل الممالك، وأن تذيل المراسم والأحكام بتوقيعهما كليهما.

وفي سنة ٧١٥ هـ جعلهما «أولجايتو» شريكين في أعمال الوزارة، يشرفان كلاهما على شؤون المال وأمور الوزارة. وقد كان «الخواجة رشيد الدّين» إلى ذلك التاريخ بمعزل عن هذه القضايا كما ذكرنا سابقاً. وتقرر أيضاً أن يكون لكل من الوزيرين معاون في أعماله الوزارية.

وبعد أن أصبحت هذه القرارات رسمية لزم «رشيد الدين» منزله كل فصل الشتاء، وبقي فيه لا يغادره أربعة أشهر، بسبب ابتلائه بمرض النقرس. هذا و «أبو سعيد» لا ينفك يوالي إرسال المراسيل والكتب يطلب المال، و «علي شاه» يجيبه بأن الخزانة فارغة وأموال الديوان كلها عند «الخواجة رشيد الدّين».

فأمر «أولجايتو» الأمير «شوبان» بالتحقيق في الموضوع فحوّل هذامأموري الجباية إلى المحاكمة، فتبين أنهم قد تلاعبوا بالأموال الديوانية، وحكم عليهم بتأدية ٣٠٠ تومان (٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ذهباً) إلى الخزانة.

وأفزع هذا الحكم جميع عمال الديوان، فالتجأوا إلى «علي شاه» وقالوا له إن لم يحصل على أمر من «أولجايتو» بإلغاء هذا الحكم وقعوا جميعاً في الشر وحبطت خططهم كلها.

فذهب «علي شاه» إلى قصر «أولجايتو» ليلاً وقال له إنّ مأموري الجباية لم يفرطوا بشيء من المال، بل أوصلوه إلى يدي كله وأُنفق في وجوهه. وما زال به يتوسل ويبكي ويلح حتى حمل «أولجايتو» على الأمر بالتوقف عن متابعة القضية. وفي الصباح استدعى الأمير «إيرنجين»، وكان هو الذي يتولى هذا الأمر، وقال له إنّ «علي شاه» قد تسلم هذه الأموال، ولكنه لا يتذكر وجوه إنفاقها، وإنّي أريد أن تتوقفوا عن تعقبه وتعقب رجاله.

وقد أغضب هذا الكلام «إيرنجين» ولكنه كتم غضبه، وشكى أمره إلى

الأمير «شوبان» وأظهر كراهيته لأنّ يحادث إيراني الإيلخان مباشرة في مثل هذه الأمور متخطياً من فوقه من الأمراء. وغضب الأمير «شوبان» أيضاً لذلك وتأثر كما تأثر «إيرنجين». ولكن «علي شاه» أسكته بالرشوة وتقديم الهدايا إليه.

ثم لم يلبث «علي شاه» أن قال لـ«أولجايتو» بعد مدة قليلة إن «رشيد الدين» ليس مريضاً ولكنه يتمارض ويلزم بيته. ومع ذلك فهو يبذل قصارى جهده سعياً لإسقاطي، ويريد لي مصيراً كمصير «الخواجة سعد الدين». فلو أذن لي الإيلخان أن أحاسبه وأبناءه وأطالبهم ببقايا المال الذي ما زال في ذمتهم. فأذن له الإيلخان بذلك وأخضع «علي شاه» ابني «الخواجة رشيد» للتحقيق. وإذ لم يستطع أن يثبت عليهما شيئاً من التقصير. فقد اتهم الخواجة أباهما بأنه يقتطع لنفسه ربع عائدات الأوقاف وأموال الخزانة ونفقات أميرات البيت المالك. وبمثل هذه الوشايات حمل «أولجايتو» على الانحراف عن الخواجة، وأصبح هو المعزز المكرم في نظر الإيلخان. ولكن «الخواجة رشيد» ظل آمناً شر «علي شاه» بسبب صداقته لبعض الأمراء. وأمر «أولجايتو» بأن يتصافى الوزيران، ويعودا إلى ما كانا عليه من الشركة في تصريف شؤون المملكة.

وفـــاة «أولجايتو»

في رمضان سنة ٧١٦ هـ، إذ كان «أولجايتو» مشغولاً بالصيد في نواحي السلطانية، أخذه وجع شديد في رجله. ثم أخذ مزاجه ينحرف. ودخل الحمام يوماً. وبعد الحمام أفرط في تناول أطعمة لذيذة، وعلى أثر ذلك اشتد مرضه حتى قضى في ٢٨ رمضان من تلك السنة في السلطانية، وسنه لا تتعدى الأربعين، بعد أن ملك اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر.

كان «أولجايتو» على وجه الإجمال، من إلخانات إيران المحمودين، عاش الناس عهده ناعمين. وقلما جرى على يده ظلم. وفي عصره علا شأن المذهب الشيعي. وازدهرت العلوم والآداب. وكان «أولجايتو» محباً للإعمار والبناء. وبنى مدينة أخرى، غير السلطانية وقبتها، في سفح جبل «بيستون»

سماها «سلطان آباد شم شمال» أو «بغداد الصغرى». وبنى مدينة أخرى عند حدود «موقان» على ضفة نهر «أرس» وسماها «سلطان آباد أوليجايتو».

وكانت له اتصالات بالبابا وملوك أوروبا الشرقية. من ذلك إرساله في سنة ٧٠٤ هـ سفراء إلى فرنسا وإنكلترا وإيطاليا، ومعهم رسائل منه كتبت في «أوجان» بالخط الأويغوري، يذكرهم فيها بالروابط التي كانت بين ملوك الفرنجة ومن سبقه من الإيلخانات، ومن تلك الرسائل رسالة إلى ملك فرنسا ورسالة إلى ادوارد الثاني ملك الإنكليز ورسالة إلى البابا «كليمان» الخامس.

سلطنة أبو سعيد بهادر خان

ولد السلطان «أبو سعيد بهادر خان» بن «أولجايتو» وولي عهده وخليفته من بعده سنة ٧٠٤ هـ. وفي اليوم السابع من ولادته عهد به «أولجايتو» إلى الأمير «سونج» لتربيته، أي جعله «أتابكاً» له.

وفي سنة ٧١٣ هـ، إذ كان له من العمر تسع سنوات، عينه «أولجايتو» حاكماً على خراسان برعاية مربيه الأمير «سونج». وظلّ في هذا المنصب ثلاث سنوات وبعض السنة.

ولمّا مرض «أولجايتو» مرض الموت كان «أبو سعيد» في مازندران، فأراد أمراء البلاط الإيلخاني ووزراؤه، وهم جميعاً منقادون للأمير «شوبان» إحضار ولي العهد الحدث إلى السلطانية العاصمة قبل وفاة «أولجايتو» وقبل حضور الأمير «سونج» من طوس ليحيطوا به ويقطعوه عن مربيه، فيكون آلة طيّعة في يدهم، بمعزل عن نفوذ الأمير «سونج». ومن ثم توالت رسلهم إلى «أبو سعيد» يستعجلونه بالحضور إلى العاصمة. ولكنه ظلّ هو وحاشيته على وفائهم للأمير «سونج» ينتظرون تعليماته، فلم يستجيبوا لتلك الدعوة ومكثوا حيث كانوا إلى أن وصلهم خبر وفاة «أولجايتو» وقدم إليهم الأمير «سونج» من خراسان. وحينئذ تحرك ركب ولي العهد وفي معيته مربيه متوجهاً إلى السلطانية، وخرج الأمير «شوبان» وغيره من الأمراء والوزراء إلى استقباله، فدخلها في موكب من الجلالة والعظمة. وفي غرة صفر سنة ٧١٧ هـ أجلسه

الأمير «شوبان» والأمير «سونج» على سرير الإيلخانية، وكل منهما آخذ بعضد من عضديه.

وكان «أبو سعيد» قبل وروده إلى السلطانية يميل إلى تعيين الأمير «سونج» في منصب «أمير الأمراء». ولكن هذا رفض وقال له إنّ إقامته في هذا المنصب تستلزم ابتعاده عن العاصمة والتخلّي عن تعهد حال السلطان بالخدمة والرعاية، وهو يرغب في أن يظل كما كان في السابق في خدمة السلطان. ثم إنّه لا يرضى لنفسه أن ينافس الأمير «شوبان» على هذا المنصب. ومن ثم حمل الأمير «سونج» السلطان على صرف النظر عن هذا الاقتراح. فأقرّ الأمير «شوبان» في منصب «أمير الأمراء» كما كان في عهد أبيه. وعيّن ابنه «تيمور تاش» حاكماً على بلاد الرّوم، واختار هذا «الخواجة جلال الدين» أكبر ابناء «الخواجة رشيد الدين فضل الله» وزيراً له ومحاسباً لخزانة بلاد الرّوم.

وحين وصول «أبو سعيد» إلى السلطانية أناب «الخواجة رشيد الدين» ابنه «غياث الدّين محمّد» عنه لاستقباله. وإذ كانت بين الخواجة والأمير «سونج» سابقة جفاء، فهو يظنه حاقداً عليه، فقد سعى إلى التقرب من الأمير «شوبان» منافس الأمير «سونج» ليجعل منه حامياً قوياً له في مقابل هذا. ومن ثم صالح «تاج الدّين عليّ شاه» وغيره من الرؤساء سراً. وكانت مساعي هؤلاء في جملة العوامل التي ثبتت الأمير «شوبان» في منصب «أمير الأمراء».

وأدى هذا المسعى إلى أن يقر «أبو سعيد» والأمير «شوبان» «الخواجة رشيد الدين» و «الخواجة علي شاه» في منصب الوزارة. ولكن تصريف الأمور العمدة كان في يد «علي شاه». ولم يكن لـ«رشيد الدين» وقد أصبح شيخاً مرهقاً من مشقات العمل الديواني، من هم غير أن يأمن جانب أعدائه ويقضي ما بقي من عمره خالي البال.

ومن أوائل الوقائع التي حدثت في عهد السلطان الشاب اتهام «قتلغشاه خاتون» زوجة «أولجايتو» والأمير «تغماق» بالتآمر على «أبو سعيد». فاعتقل الأمير «شوبان» الأمير «تغماق» وصادر أمواله، ثم عينه نائباً عنه. وبعث بالأمير «ابسن قتلغ» حاكماً على خراسان، يتولى أمر دفع المغول التابعين لـ«جغتاي» عنها.

مقتل الخواجة رشيد الدين

ما زال الأمير «شوبان» يتدرج في مراقي السلطة حتى بلغ منها مبلغاً خارقاً للعادة. فجمع في يده زمام كل الشؤون العسكرية والمدنية، حتى لم يبق لـ«أبو سعيد» شيء من السلطة غير اسم السلطان. وقد ذكرنا سابقاً أنّ هذا الأمير كان يسلك مسلك الموافقة لـ«الخواجة رشيد الدين». فأغضب ذلك «علي شاه» وبعث في نفسه الحسد، فأخذ يسعى بكل وسيلة ممكنة لإسقاط «الخواجة رشيد الدين» من مكانته وجعله موضع سوء الظن عند الأمير، بل القضاء على هذا المنافس الجليل القدر إن استطاع، فيخلو له الجو يجري فيه على هواه.

وقد ذكرنا سابقاً بالتفصيل ما كان بين هذين الوزيرين من منافسة. وقد وصلت هذه المنافسة في هذا الوقت إلى ذروة الشدة. فأوقع ذلك موظفي الديوان في الحرج. فهم إن أحسن أحدهم إلى أحد الوزيرين أغضب الآخر وجلب على نفسه عداوته. وسببت هذه الحال اختلال أمور الديوان.

وجاء يوماً ثلاثة نفر من عمال الديوان إلى «الخواجة رشيد الدّين» واستأذنوه بأن يردوا غائلة «علي شاه» ويفشوا خياناته. ففكر «الخواجة رشيد» في الأمر ثم قال لهم إنّ «علي شاه» رجل معتبر عظيم، ولا يجوز اتهامه وسأوصيه بأن يسترضيكم.

وتشاور الثلاثة فيما بينهم في جواب «الخواجة رشيد» لهم، ثم قرروا أنّه لن يفيدهم بشيء، بل ربما أطلع «علي شاه» على ما قالوه له فناصبهم العداوة. ومن أجل ذلك احتاطوا لأنفسهم فذهبوا إلى «علي شاه» وحرضوه على «الخواجة رشيد الدين». وكان «علي شاه» في ذلك الحين قد استمال إليه أغلب الرؤساء وجماعة من أنصار «الخواجة رشيد» بالرشوة.

وأدت هذه التحريكات إلى عزل «الخواجة رشيد» من الوزارة في أواخر شهر رجب سنة ٧١٧ هـ، فترك السلطانية وذهب إلى تبريز ليستريح.

ولم يرض الأمير «سونج» بعزل الخواجة، مع ما كان بينهما من سابقة

جفاء. وإذ كان في ذلك الحين يقاسي مرضاً شديداً فإنّه لم يستطع أن يتدخل لمنع عزله. ولكنه عزم على السعي إلى إعادته إلى الوزارة بمجرد حصوله على العافية. بيد أنّ «أبو سعيد» سافر يومئذ إلى بغداد ورافقه الأمير «سونج»، وتوفي الأمير على بعد فرسخ منها في شهر ذي القعدة سنة ٧١٧ هـ.

وكان الأمير «شوبان» يومئذ في آذربيجان، فاستدعى إليه «الخواجة رشيد الدين» وقال له إن وجودك في بلاط الإيلخان لازم لزوم الملح للطعام. ولا تستقيم الأعمال بدون رأيك وتدبيرك. فأجابه الخواجة بقوله إن أيام وزارتي طالت أكثر من أيام جميع الوزراء. ولي ثلاثة عشر ولداً في خدمة الدولة. والأحسن أن يظلوا هم في الخدمة وأنصرف أنا إلى العمل لآخرتي. إلاّ أنّ الأمير أصر على اقتراحه وما زال بالخواجة حتى حمله على القبول بالعودة إلى الوزارة. ولكن، أسفاً، أنّ هذا القبول كان منه بمنزلة الحكم على نفسه بالقتل. فإنّ هذا الأمير نفسه الذي أصر إلى هذا الحد على إعادة الخواجة إلى الوزارة وكان يعد وجوده فيها ضرورياً لترميم الخراب الذي نزل بالدولة، أحجم، يوم صارت الغلبة لخصوم الخواجة، عن حمايته منهم، مع أنّه كان قادراً عليها كل القدرة، وتخلى عنه فأراقوا دمه ظلماً.

فقد أفزعت عودة «رشيد الدين» إلى الوزارة بتأييد من الأمير «شوبان» «الخواجة علي شاه» وسائر خصوم هذا الوزير الفاضل. فهبّوا عازمين على استئصاله. وراجعوا أحد أقرباء الأمير «شوبان» واسمه «بكر»، وكان قد شارك «علي شاه» سابقاً في العمل على عزل «الخواجة رشيد الدين»، واستنهضوه إلى مخاصمته. فوعدهم بأن يسعى بكل وسيلة ممكنة لإفساد ما بين الخواجة والأمير «شوبان».

وفي هذه المرة سعوا بالخواجة عند «أبو سعيد» بأنه سمّ «أولجايتو». وأن الذي سمّه هو «عز الدين ابراهيم» ابن «الخواجة رشيد الدّين» وكان ساقي الإيلخان السابق. والعجيب أن الأمير «شوبان» هو الذي أوصل هذه التهمة إلى «أبو سعيد». وشهد معه على صحتها اثنان من الأمراء رشاهما «علي شاه» بالمال. فغضب الإيلخان غضباً شديداً، وأمر بقتل «الخواجة رشيد الدين»

وابنه «عز الدّين ابراهيم» فقتلا في ١٧ جمادى الآخر سنة ٧١٨ هـ في مكان قريب من تبريز. قدموا الابن أولاً فقتلوه أمام عيني أبيه، وعمره لم يتجاوز السادسة عشرة. ثم قتلوا الأب بأن قطعوه إلى نصفين، وهو في الثالثة والسبعين من عمره. وبهذا العمل المنكر ختموا حياة واحد من أكابر حكماء إيران وأطبائها وكتابها ومؤرخيها.

وبعد مقتل «الخواجة رشيد الدّين» صادر خصومه جميع أمواله وأموال أولاده. وأغاروا على محلة له كان قد بناها وسمّاها «الربع الرشيدي» فنهبوها، حتى أنهم استولوا على أملاكه التي وقفها.

ولم يكتفي أهل الشر بذلك، بل تتبعوه وهو في قبره تحت التراب. فقد كان في شبابه يخالط يهود همدان وله اطلاع كامل على مقالتهم ورسومهم وعاداتهم، فاتهم باليهودية. وهذه التهمة كانت السبب في أنهم تتبعوا هذا الرجل الفاضل حتى بعد موته فلم يتركوه مرتاحاً تحت التراب. فبعد انقضاء قرن من الزمان على مقتله أمر «أميرانشاه» ابن الأمير «تيمور»، وكان قد جن على أثر سقوطه عن ظهر جواده، بنبش قبره الواقع في مسجد في «الربع الرشيدي» بتبريز واستخراج عظامه ودفنها في مقبرة اليهود، ففعلوا.

وجاء الأمير «إيسن قتلغ» حاكم خراسان إلى المعسكر بعد ثلاثة أيّام من قتل «الخواجة رشيد الدين». فلما سمع بالخبر أخذه أسف شديد، ووبخ الأمراء بشدة على هذا العمل المنكر. وكان مما قاله لهم: أية فائدة كنتم تتوقعون من قتل رجل بلغ نهاية عمره وأصبح على وشك الرحيل؟!

واتفق أن جميع الذين تآمروا على «الخواجة رشيد الدين»، باستثناء «تاج الدين علي شاه»، صاروا إلى ما صار إليه، فقد ماتوا قتلاً، حتى الأمير «شوبان» لم يسلم من هذا المصير. فمنهم من قتل بعضهم بعضاً ومنهم من قتله «أبو سعيد».

أما «تاج الدين علي شاه» وقد عاد لا تسعه الدنيا فرحاً بالخلاص من منافس قوي مثل «الخواجة رشيد الدين»، فقد أخذ يوزع الهدايا والإنعامات، شكراً على هذا التوفيق. من ذلك إهداؤه في تلك السنة، سنة ٧١٨ هـ،

حلقتين من الذهب إلى حرم الكعبة، وزن كل منهما ألف مثقال، لتعلقا في بيت الله تذكاراً لهذا الفتح الذي حصل عليه.

وبقي «علي شاه»، بعد قتل «الخواجة رشيد الدين» مدة ست سنوات ناعماً بالوزارة لـ«أبو سعيد»، واحترام الإيلخان له يزداد يوماً بعد يوم، حتى بلغ به الأمر إلى أن يحضر الإيلخان بنفسه إلى عيادته إذا مرض، ويوكل إلى أطبائه الخصوصيين أمر معالجته والعناية به، إلى أن توفي هذا الوزير في جمادى الآخرة سنة ٧٢٤ هـ ودفن بين مظاهر الاحترام في تبريز.

إن قتل «الخواجة رشيد الدين» واستقلال «علي شاه» بالوزارة مدة ست سنوات أديا إلى تفكك الأمور الديوانية وانحلال سياسة المملكة. فقد كان «علي شاه»، على ذكائه، امرءاً عامياً لا فضل له. وازداد الاختلال والتشويش في الأمور بعد وفاة «علي شاه» إذ أمر «أبو سعيد» باختيار ابنيه لشؤون الوزارة يعملون فيها متعاونين، رعاية منه لعهد أبيهما، وعندئذ أسف الإيلخان أسفاً شديداً لقتله «الخواجة رشيد الدين» وتبين له أنّه أقدم على عمل أهوج لا روية فيه، إذ سمع لـلأمراء ولـ«علي شـاه» سعايتهم بـه عنده. وحين استدعاء «الخواجة غياث الدين محمد» بن «الخواجة رشيد الدين» لتوليته الوزارة قال: إنّ شؤون الديوان أخذت بالانحلال والخراب من اليوم الذي قتل فيه الخواجة رشيد، ولم يكن أحد من خلفاء الخواجة الشهيد أهلاً لإدارة مهام الدولة. ثم اختار الإيلخان «الخواجة غياث الدين محمد» بن «الخواجة رشيد» للوزارة ليتلافى ما أوقعه بأبيه من ظلم، وسيأتي ذكر ذلك.

الثورات أيام «أبو سعيد»

شغلت «أبو سعيد» في بدء سلطنته مشاكل صعبة. فقد كانت سياسة «غازان» و«أولجايتو» واقتدار قوادهما العسكريين قد قهرت خصوم السلسلة الإيلخانيّة الخارجيين وألزمتهم حدودهم. فلمّا تولى «أبو سعيد» رأى أولئك الخصوم في حداثة سنّه وقلة تجاربه فرصة يجددون فيها الهجوم على ممالكه

وتلافي هزائمهم الماضية. ولولا تيقظ «أبو سعيد» وكفاءة قواده المحنكين لآلت دولته إلى الدمار.

كان الأمير «يسور»، وهو من السلالة الملكية ينتمي إلى مغول «جغتاي»، يحكم في عهد «أولجايتو» من «جيحون» إلى حدود «بادغيس هرات»، وقد سمح الإيلخان السابق بالاستيلاء على عدة من الأراضي. وبعد وفاة «أولجايتو» نوى أن يخرج على «أبو سعيد». وكانت حكومة خراسان يومئذ في عهدة الأمير «يساول» أحد رجال «أبو سعيد». وكان حاكماً ظالماً اغتصب بالجور والتعذيب كثيراً من أموال الأهالي في خراسان وهرات. وفي أواخر سنة ٧١٦ هـ، إذ عجز عن مقاومة أعوان الأمير «يسور»، فر إلى العراق، فقتل في الطريق في محرم سنة ٧١٧ هـ، واستولى «يسور» على خراسان ثم سار إلى مازندران يهاجمها.

وأخافت هذه الأخبار «أبو سعيد» فبادر إلى إرسال الأمير «ايسن قتلغ» إلى خراسان. ولكن هذا، لسذاجته، أخذ يتدبر الأمر باستمالة أعوان «يسور» إليه، فتظاهروا بإطاعته، بل إن «يسور»نفسه تظاهر له بالطاعة، فاكتفى بهذا وعاد إلى السلطانية. وهناك أمره «أبو سعيد» بالذهاب إلى «أران». ولكنه توفي فجأة وهو في الطريق إليها.

أما الأمير «يسور» فقد انصرف، بعد رجوع «ايسن قتلغ» إلى إدخال خراسان وسيستان وهرات في طاعته. ولكن خاب سعيه في هرات، إذ أنّ الملك «غياث الدين كرْت» أبى أن يطيعه وعامله بخشونة وأطلع الأمراء من رجال «أبو سعيد» الذين كانوا في طوس على سوء نواياه.

وترك «يسور» سيستان وهرات وعاد إلى خراسان في أواسط جمادى الأولى سنة ٧١٨ هـ، ثم سار إلى مازندران لمهاجمتها. فتغلب في أول الأمر على الأمراء الذين في طوس من رجال «أبو سعيد». وتقدم حتى بلغ أواسط أرض مازندران، وأوقع في طريقه بالناس كثيراً من القتل والتخريب والنهب.

فلما وصل خبر ثورة «يسور» هذه إلى «أبو سعيد»، أرسل الأمير «حسين كوركان» بن «آق بوقاجلاير»، وهو من مشاهير رجاله، لصد الأمير الثائر. فلما

عرف «يسور» بقدوم الأمير حسين إليه وهنت عزيمته، واضطر إلى الرجوع إلى طوس. وتحرك الملك «غياث الدين كرت» من هرات أيضاً إلى مقاومته، ففر من خراسان. وانتهى أمره إلى أن قتل في هذه الحرب، واستقرت أمور خراسان.

لما خرج المغول الجغتائيون في خراسان وتقدموا نحو مازندران كانوا يبدون وافري العدد. ولذلك عزم الأمير «شوبان» على أن يمضي إلى خراسان ليعزز جيش الأمير حسين. وعلى هذه النية خرج من «قراباغ» إلى «بيلقان». وفي هذه الأثناء وصل خبر بأن «أوزبك خان» سلطان «دشت قبجاق» قد خرج بجيش جرار من جهة «دربند» عازماً على مهاجمة «أران» وآذربيجان. ووصل خبر آخر بأن سلطان مصر أيضاً سار إلى حدود ديار بكر للحرب.

من أجل ذلك عقد مجلس شورى بين رؤساء عسكر «أبو سعيد» تقرر فيه تعيين الأمير «إيرنجين» للدفاع عن ديار بكر، والأمير حسين لقمع «يسور»، وسائر الرؤساء و «أبو سعيد» لصد «أوزبك خان». وإذ كان الأمير «طرمطاز» قد تراجع عن ملاقاة ملك «دشت قبجاق»، وكان عسكر «أبو سعيد» قليلاً، فقد انصرف الأمير «شوبان» عن المضي إلى خراسان، ومضى مسرعاً إلى «أبو سعيد» لتعزيز جيشه وصد «أوزبك خان». ولكن هذا تراجع إلى «دربند» قبل وصول الأمير «شوبان»، فتعقبه الأمير من نهر «كر» حتى لحق به وأسر جماعة من جيشه ثم عاد. وفي عودته أحال بعض الرؤساء والأمراء، وكانوا قد فروا في الحرب، إلى المحاكمة. فعزل جماعة وعاقب آخرين. وكانت هذه القضية أحد الأسباب في حقد أولئك الأمراء والرؤساء العسكريين على الأمير «شوبان».

وبعد دفع غائلة «أوزبك خان» عاد «أبو سعيد» إلى السلطانية. وعهد الأمير «شوبان» برعاية المعسكر إلى ابنه الأمير حسن وانطلق هو إلى «كرجستان» للاصطياف.

وكان أولئك الأمراء الذين حاكمهم الأمير «شوبان» قد بلغ بهم السخط عليه مبلغاً عظيماً، فتواطؤوا على قتله. وكان «قورميشي» بن «أليناق» أهمهم،

وكان أيضاً أشدهم سعياً إلى إهلاك الأمير «شوبان». فتعقبوه مع جماعة من الفرسان. فأبلغ جاسوس خبر حركتهم إلى «شوبان» ولكنه لم يصدق الخبر، وبعث اثنين من كبار خواصه للتحقيق في الأمر فاعتقلهما المتآمرون وقتلوهما. فعاد الأمير «شوبان» مسرعاً إلى ابنه الأمير حسن.

وأغار المتآمرون على معسكر الأمير «شوبـان». ثم انطلقـوا منه نحـو معسكر الأمير حسن. والتقوا بالأمير وابنه بالقرب من بحيرة «كوكشه» فتغلبوا عليهما، ولكن الأميرين نجوا وانطلقا إلى تبريز وكان «علي شاه» فيها، فتلقى مقدم أمير الأمـراء بالاحتـرام. ثم رافقه وابنـه إلى السلطانية. ولكن الأميـر «شوبان» كان متردداً في الذهاب إليها لأنّ المتآمرين أفهموه أنهم مـأمورون بقتله من قبل «أبو سعيـد». إلاّ أنّ «علي شاه» طمـأنه إلى عـطف الإيلخان وإحسانه. وفي السلطانية عرض الأمير «شوبان» على «أبو سعيد» ما رأى من أولئك المخالفين المتآمرين.

مخالفة جماعة من الأمراء لـ«أبو سعيد»

بعد أن هزم الأمراء المتآمرون الأمير «شوبان» سار «قورميشي» والأمير «إيرنجين» حاكم ديار بكر، وقد أصبحا حليفين، مع سائر الأمراء المخالفين من حدود «نخجوان» قاصدين السلطانية، ليحملوا «أبو سعيد» على تأييدهم في قمع الأمير «شوبان». ولكن «أبو سعيد» أقنعته نصائح «علي شاه» وغيره بأن صلاحه في حماية الأمير «شوبان» ومخالفة المتمردين عليه. ولذلك خرج من السلطانية وفي معيته الأمير «شوبان» وغيره من الأمراء لردهم.

فلمـا بلغوا «زنجـان» رجت «قتلغشـاه» بنت الأميـر «أرنجين» وزوجـة «أبو سعيد» الإيلخان أن لا يبدأ الحرب لعلها تستطيع أن تصرف أباهـا عن سفك الدماء برسالة منها إليه. فأجابهـا الإيلخان إلى طلبهـا. إلا أن الأمير «إيرنجن» لم يكترث لرجاء ابنته، وتقدم حتى بلغ «ميانج». وتواترت الرسل من «قتلغشاه» إلى أبيها حتى أجاب في آخر الأمر بقوله: إن كان الإيلخان حقاً في مقام اللطف والعناية بنا فليأمر بنشر الرايات البيضاء على معسكره. فقبل

«أبو سعيد» اقتراحهم ونشر الرايات البيض على المعسكر.

ولكن هذه الحركة من جانبه زادت المخالفين له جرأة وحملوها على محمل الخوف. فهبوا مندفعين بالحملة على معسكر الإيلخان والأمير «شوبان». ووقعت الحرب بين العسكرين بالقرب من «ميانج» في جمادي الأولى سنة ٧١٩ هـ.

وبدأ «أبو سعيد» أولاً بأن أمر بضرب عنق الشيخ علي ابن «ايرنجين»، ورفعوا رأسه على رمح بحيث يراه من في معسكر «ايرنجين». فأغضب ذلك أباه غضباً عظيماً. فحمل على معسكر «أبو سعيد» حملة شديدة، وأوشك أن يضعضعه. ولكن «أبو سعيد» تصرف بكثير من الخبرة والتيقظ. وكذلك أمراء جيشه أيضاً. وظلوا ثابتين في مواقعهم حتى ضعضعوا حملة الخارجين وكسروهم وقتلوا جماعة كبيرة من رؤسائهم، وأسروا الأمير «ايرنجين» و «قورميشي» ثم قتلوهما.

وهكذا قضي على فتنة عظيمة لو أنها نجحت لقوضت أساس سلطنة «أبو سعيد». ومن ذلك التاريخ لقب السلطان بلقب «بهادر»[1]، وأضيفت هذه الكلمة إلى إسمه في المراسيم.

إن انهزام الأمراء المخالفين وقتل رؤسائهم قد زاد الأمير «شوبان» قوة على قوة حتى إن «أبو سعيد» أخذ يدعوه أبي ويعظمه بكلمة «آقا»[2]، وأطلق يده ويد أبنائه في تصريف الأعمال إطلاقاً تاماً. وأصبح ابنه «دمشق خواجة» يلازم العاصمة وينوب عن أبيه في كل أمور المملكة، إذ كان أبوه يقضي أكثر أيامه بعيداً عن العاصمة مشغولاً بتفقد معسكرات الولايات وحفظ الحدود والثغور. ولما توفيت «دولُندي» زوجة الأمير «شوبان»، وهي أخت الإيلخان، يوم كان عائداً من زنجان إلى «أرّان»، زوجه أخته الأخرى «ساتي بيك» في ٢٠ رجب سنة ٧١٩ هـ، وأوصله إلى ذروة الاقتدار والسلطة. وكان الأمير

---

(١) أي البطل.

(٢) كلمة مغولية الأصل. ومعناها: السيد والعظيم.

«شوبان» يرد على هذا الإحسان بإخلاص الخدمة للإيلخان كل الإخلاص.
وخرج الأمير «تيمور تاش» ابن الأمير «شوبان» وحاكم بلاد الروم، على الإيلخان ورسم ذكر اسمه على النقود وفي الخطبة، وذلك في المحرم سنة ٧٢٠ هـ، فسار إليه أبوه بنفسه إلى بلاد الروم، فأخضعه وأعاده إلى طاعة الإيلخان بحسن تدبيره، وجاء به إلى «أبو سعيد». وبعد مدة قليلة رضي عنه الإيلخان وعطف عليه، ثم أعاده إلى منصبه السابق في حكومة بلاد الروم.

قال في «حبيب السير» ما ملخصه:

«في سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة انتهى النزاع على تركة «نازخاتون». والقضية هي أن محمد نامي خطيب همدان حصل في أواخر أيام السلطان السابق «أولجايتو» على سند قديم باسم ناز خاتون بنت أمير كردستان، فجاء به إلى الأمير «شوبان»، لغاية في نفسه، وقال له إن أباك الملك بهادر بن تودان نويان أسر في زمان هولاكو خان ناز خاتون. وصدر مرسوم ملكي بأن تصير جميع أملاكها ومقتنياتها إلى ملك أبيك. وهي اليوم ملك لك بالإرث. ومنها أملاك وعقارات وضياع كثيرة في العراق. فوقع هذا الكلام من الأمير موقعاً ثابتاً، وأخذ يصادر بعض الأملاك في ولايات مختلفة بحجة أنها من أملاك ناز خاتون. وسبب هذا العمل تشويشاً عظيماً. واشتهرت القضية في كل النواحي، وأخذ المتخاصمون أصحاب الأملاك يشي بعضهم ببعض بأن ما في يد الآخر هو من أملاك ناز خاتون. وكذلك كل فلاح حاقد على صاحب الأرض التي يزرعها يشي بصاحب الأرض أن أرضه من أملاك ناز خاتون.

«وفي زمان السلطان أبو سعيد، إذ وصل الأمير «شوبان» إلى الذروة من الإعتبار وانطلاق اليد، جاء القاضي محمد وآخر من رجال الدين يحملان إلى الأمير «شوبان» حقيبة قديمة وقالا انهما عثرا عليها وهما يبنيان بيتاً في أحد الأماكن. وفيها مائتا سند بملكية ناز خاتون لأملاك بضع ولايات. فبعث الأمير «شوبان» رجاله يصادرون المزارع والأملاك في تلك الولايات. وبلغ الأمر إلى أن أخذ المتصرفون بهذه الأملاك يبيع أحدهم الأرض التي تساوي ألفي دينار وثلاثة آلاف دينار بدينارين وثلاثة دنانير للتخلص من المصادرة».

«وانتهت القضية بأن أعطى السلطان الأمير «شوبان» ولاية في بلاد الروم عوضاً عن تركة ناز خاتون، وأعطاه من ماله الخاص عشرين ألف دينار. فرضي وأسقط دعواه وكتب وثيقة بذلك». أ. هـ.

وزارة الخواجة غياث الدين محمد

أصبح «الخواجة تاج الدين عليشاه جيلان التبريزي»، كما ذكرنا سابقاً، مستقلاً كل الاستقلال في تصريف الأمور، بعد قتل «الخواجة رشيد الدين». وتوفي هذا الوزير في أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٦٤ هـ في مدينة «أوجان». وهو وحده من بين جميع الذين وزروا للمغول مات حتف أنفه لا قتلاً.

وقد اختار «أبو سعيد» لوزارته بعد وفاة «علي شاه» إبنه الأكبر الأمير «غياث الدين محمد» رعاية منه لعهد أبيه، وجعل ابنه الآخر «خليفة» شريكاً لأخيه فيها. ولكن هذا أخذ يخالف أخاه في العمل. وبذلك انقسم موظفو الديوان إلى فريقين. وأدى هذا الخلاف إلى اختلال الأعمال وتشويشها. فأضطر «أبو سعيد» الى تنحيتهما وقطع المال عنهما، وعهد بوزارته إلى أحد نواب الأمير «شوبان»، وهو «نصرة الدين عادل النسوي»[1] ويلقب بـ «صاين وزير».

ولكن هذا الرجل لم يكن أيضاً كفوءاً لهذا المنصب. ومع أنه كان صنيعة الأمير «شوبان»، وأبنائه فإنه كان دائم السعاية بهم عند الإيلخان. فلما بلغ ذلك إلى الأمير حمل «أبو سعيد» على عزله، فعزله سنة ٧٢٥ هـ، وعهد بالوزارة إلى «دمشق خواجة» ابن الأمير «شوبان». فاستقرت أمور «أبو سعيد» العسكرية والمدنية كلها في يد الأمير «شوبان» وأبنائه المقتدرين.

وبقي «دمشق خواجة» في الوزارة إلى أن دالت دولة الأمير «شوبان» وأبنائه، وعهد «أبو سعيد» بوزارته إلى «الخواجة غياث الدين محمد» ابن «الخواجة رشيد الدين» جزاء خدمات أبيه. وجعل في أول الأمر «الخواجة

---

(١) هو حفيد «ضياء الملك محمد بن مودود» أمير عسكر السلطان محمد خوارزم شاه.

علاء الدين محمد» شريكاً له في ادارة الأعمال، ثم فوضها بعد ثمانية أشهر إلى «الخواجة غياث الدين» يستقل بها كلها، وأرسل «الخواجة علاء الدين» إلى خراسان يتولى وزارتها. وبقي «غياث الدين» يزر لـ«أبو سعيد» إلى آخر أيام دولته.

تغير حال الأمير «شوبان» وأبنائه

كان للأمير «شوبان» بنت إسمها «بغداد خاتون» اشتهرت بالحسن والجمال شهرة فائقة. وقد تزوج بها في سنة ٧٢٣ هـ الأمير «الشيخ حسن» ابن الأمير «حسين كوركان جلاير»، وقد عرف فيما بعد بـ«الشيخ حسن الكبير» و «الشيخ حسن الايلكاني».

وقد شغفت هذه الفتاة السلطان «أبو سعيد» حباً، وكان له يومئذ من العمر عشرون سنة تقريباً، وأراد أن يتزوجها. وفي تلك الأيام، أيام افتتانه بها، انصرف انصرافاً كلياً عن سياسة المملكة، وصار يقضي أيامه في نظم الشعر متغزلاً بها متحسراً لبعده عنها.

والقانون الجنكيزي (ياسا) يقضي بأن الخان إذا هوي امرأة متزوجة فعلى زوجها أن يطلقها ويرسلها إلى الخان. فبعث «أبو سعيد» سراً رسولاً إلى الأمير «شوبان» أطلعه على سره، متوخياً أن يصل من ذلك إلى مطلوبه. فاستاء الأمير من هذا العمل، وأرسل «بغداد خاتون» وزوجها إلى «قراباغ» لعله يصرف خاطر الإيلخان عن هذا الأمر، بإبعاد الفتاة.

ولكن «أبو سعيد» لم يرجع عن غيه، بل ازداد عشقاً لها وافتتاناً بها، وتغير على الأمير «شوبان» إذ أحس من هذا الصديق رغبة عن إجابته إلى طلبه. وجد «صائن وزير» أيضاً في زيادة نار الخصومة اشتعالاً. وأظهر للإيلخان «دمشق خواجة» في صورة المستبد المنفرد برأيه.

واختلى الأمير «شوبان» بـ«أبو سعيد» وسأله عن سبب تغيره عليه. فشكا لإيلخان من استبداد «دمشق خواجه» وتسلطه، وعدّه مخالفاً لمصالح الدولة.

فعاتب الأمير «شوبان» ابنه وسأله عن سبب تصرفه هذا. فأنكر «دمشق خواجة» أن يكون قد أتى ذنباً يؤاخذ عليه، وقال إن تغير السلطان لا سبب له غير سعاية «صائن وزير».

ثم سافر الأمير «شوبان» إلى خراسان وصحب معه «صائن وزير»، فعادت أزمة الأمور في الوزارة بيد «دمشق خواجة» مباشرة.

وبلغ اقتداره وتمكنه بحيث لم يبق لـ «أبو سعيد» شيء من السلطنة غير الاسم. وضايق هذا الوضع السلطان كما حمل الأمراء الآخرين على الحسد فدأبوا على السعي به عند «أبو سعيد» عازمين على استئصاله.

وواتت الفرصة خصوم «دمشق خواجة»، يوم كان الأمير «شوبان» في خراسان وأبناؤه الآخرون في بلاد الروم وكرجستان وهرات مشغولين بتصريف أمور الحكم أو دفع المخالفين والخارجين. فقد نقل الخصوم إلى «أبو سعيد» أن «دمشق خواجة» له علاقة بخطية من حظايا السلطان تقيم في قلعة السلطانية، وأنّه لا يكترث للسلطان ولا شيء يشغل باله غير التفكير في التمرد والعصيان. فعهد «أبو سعيد» إلى رجاله بالتحقيق في هذه القضية.

وفي إحدى الليالي ذهب «دمشق خواجة» إلى القلعة لزيارة خليلته فأخبروا السلطان بذلك. فأمر السلطان بقتله. وأمر أيضاً بأن يذاع في المدينة أنّ الأمير «شوبان» قد قتل أيضاً. وكانوا قد قتلوا يومئذ جماعة من اللصوص الاكراد وجاؤوا برؤوسهم إلى السلطانية، فأمر «أبو سعيد» بأن يطاف بهذه الرؤوس في المدينة على أنّها رؤوس الأمير «شوبان» وأعوانه.

وكان «دمشق خواجة» شجاعاً جريئاً، فاستطاع الفرار من القلعة. ولكن بعض الأمراء تعقبوه واعتقلوه، وأمر السلطان بقتله، فقتل في الخامس من شوال سنة ٧٢٧ هـ وعلق رأسه متدلياً من القلعة ونهبت أمواله.

فلمّا علم الأمير «شوبان» بقتل ابنه أرسل إلى «أبو سعيد» رسالة جاء فيها: إن يكن ابني قد سلك طريق العصيان والتمرد فقد نال جزاءه. وأمّا العبد (يعني نفسه) فلا يزال مقيماً على عهد الصدق والخدمة.

ولكن الأمراء خوفوا «أبو سعيد» من اقتدار الأمير «شوبان»، وحذروه من أن يكون ناوياً على الانتقام. فبادر وقد أخذه الخوف، إلى استدعائه إلى العاصمة على عجل، وأوعز بالسر إلى من يرافقه من الأمراء باعتقاله. ولكن هؤلاء الأمراء، وكانوا قد عاهدوا الأمير «شوبان» على الوفاء له، رفضوا إنفاذ أمر السلطان، وأطلعوا الأمير عليه.

واستشار الأمير «شوبان» ابنه الأمير حسن وأمراء آخرين في ما يفعل. فقال الأمير حسن: إنّ خراسان بيدنا، وعائدات فارس وكرمان تصل إلينا، وبلاد الرّوم في تصرف أخي «تيمورتاش»، و«كرجستان» في تصرف أخي محمود. والمصلحة في أن نستنجد بالجغتائيين ونثأر لأنفسنا من «أبو سعيد».

ولكن الأمير «شوبان»، وقد اغتر بشجاعته، لم يعجبه هذا الرأي فقال: ليس في العراق من له القدرة على مقاومتي. وسأذهب إلى العاصمة وأتدبر الأمر بنفسي، ثم أمر بقتل «صائن وزير» إذ كان يراه جرثومة هذا الفساد. ثم سار بسبعين ألفاً من عسكره قاصداً إلى العراق.

وكان «أبو سعيد» يرتجف رعباً من سطوة آل «شوبان». فأصدر عدة أوامر بصد أبناء الأمير «شوبان» وقلعهم. وخرج هو بجيش من السلطانية ونزل في قزوين. وجاء إليه أيضاً أمراء الحدود بجيوش لإمداده.

أما الأمير «شوبان» فسار برجاله من مشهد طوس إلى «سمنان». وهناك زار العارف المشهور «الشيخ ركن الدّين علاء الدولة السمناني»، والتمس منه أن يذهب إلى «أبو سعيد» ويسكّن غضبه بالنصيحة ويذكر له ما كان من وفاء الأمير في خدمته، ويطلب منه أن يسلم إليه المحرضين على قتل ابنه «دمشق خواجة» ليعاقبهم ويخمد بذلك هذه الفتنة.

فقبل «علاء الدين» التماس الأمير «شوبان» وذهب إلى «أبو سعيد» واجتهد عنده في أن يحمله على مصالحة أمير الأمراء فلم يجبه إلى طلبه، مع ما أبداه من احترام له. ونكث الأمراء من رجال «شوبان» عهده فتركوه والتحقوا بالمعسكر الإيلخاني.

عندئذ خلى الأمير «شوبان» سبيل زوجته «ساتي بيك» وفرّ سالكاً طريق الصحراء، حتى وصل إلى ساحل نهر «مرغاب» من طريق «طبس». وكان ينوي الذهاب إلى ما وراء النهر وتركستان. ولكنه ندم على ذلك. وذهب إلى الملك «غياث الدين كرت» يريد الالتجاء إليه مستجيراً به. فأكرم هذا وفادته في أوّل الأمر واحتفى به. ولكنه لم يلبث أن غدر به إذ وصل إليه من قبل «أبو سعيد» أمر بقتل الأمير «شوبان». فاعتقله واعتقل معه ابنه «جلاوخان» وهو من زوجته الأولى أخت «أبو سعيد»، وكان لا يزال حدثاً صغير السن، وعزم على قتلهما.

وإذ رأى الأمير «شوبان» أن لا مفرّ له من القتل طلب من «غياث الدّين» ثلاثة أمور:

الأول: أن لا يفصل رأسه عن جسده. فإن أراد إرسال علامة إلى مخيم الإيلخان تثبت أنّه أنفذ الأمر بقتله فليقطع واحدة من أصابعه كانت ذات رأسين ويرسلها إليه علامة على ذلك.

الثاني: أن يبقي على ابنه «جلاوخان» ويرسله إلى «أبو سعيد» لعله يرحم شبابه فلا يقتله.

الثالث: أن يرسل جثمانه إلى المدينة المنورة ليدفن فيها.

فقبل «غياث الدّين» أن يجيبه إلى طلبه. ثمّ قتله وأرسل إصبعه إلى «أبو سعيد» فوصلت إلى معسكره في «قرباغ» في محرم سنة ٧٢٨ هـ فأمر بتعليقها في أعلى المعسكر.

وفي هذه المدة من الاضطراب والتشويش الذي سببته قضايا الأمير «شوبان» وابنائه، لم ينس «أبو سعيد» عشقه لـ«بغداد خاتون». فأرسل قاضي القضاة إلى زوجها الشيخ «حسن جلاير» وأجبره على تطليقها. وبعد انقضاء عدتها تزوجها وحقق أمله القديم. وأصبحت تلقب بلقب «خداوندكار»[١].

---

(١) من معانيها: مالك. ولي النعمة.

أما الملك «غياث الدّين» فإنه، بعد أن تلبس بذلك العار الذي كان يعده يداً له عند السلطان، سار في شتاء سنة ٧٢٨ هـ قاصداً إلى المعسكر الإيلخاني. فلما بلغ الري أرسل إلى «هرات» رجلاً لقتل «جلاو خان»، وكان في خراسان، فقتل. وذهب «غياث الدّين» إلى «قراباغ» وهو يتصور أنّ «أبو سعيد» سيمنحه مكافأة جميلة، ويفي له بما كان قد وعده به وهو أن يزوجه إحدى أميرات البيت الإيلخاني ويضع في تصرفه أملاك أتابكة فارس. ولكن «بغداد خاتون» حملت «أبو سعيد» على رده. وصدر الأمر بحمل جثمان الأمير «شوبان» و «جلاو خان» بكل احترام من خراسان. وبعد وصولها أمرت «بغداد خاتون» بغسلهما مرة ثانية وأقيمت لهما الشعائر الدينية اللازمة، ثم جهزت قافلة خاصة حملت جنازة أبيها وأخيها إلى الحجاز، وأدى «أبو سعيد» نفقات هذه القافلة من جيبه الخاص، وقد بلغت ٤٠٠٠٠ دينار. وفي يوم عيد الأضحى طافوا بالجنازتين حول الكعبة وصلّى عليهما جميع الحجاج. ثم دفنا في المدينة بالقرب من قبر الخليفة الثالث وقبر الإمام الحسن.

كان الأمير «شوبان» مسلماً عادلاً محباً للخير. وقد أقام في طريق مصر والشام أبنية خيرية كثيرة. وقضى أيّامه في خدمة «أولجايتو» و «أبو سعيد» خدمة مخلصة صادقة. وازدهار سلطنة هذين الإيلخانين يعود الفضل في قسم منه إلى كفاءته وكفاءة أبنائه. ولكن كانت السذاجة غالبة على مزاجه. ويتضح هذا الأمر في تصرفه يوم ألصقوا بـ «الخواجة رشيد الدين فضل الله» تلك التهمة.

وكان للأمير «شوبان» تسعة أبناء أكبرهم الأمير حسن. وكان، يوم قتل ابوه، يحكم خراسان ومازندران. ولحسن هذا ثلاثة أبناء أحدهم اسمه «تالش خان» كان حاكماً من قبل أبيه على أصفهان وفارس.

وذهب الأمير حسن و «تالش خان»، بعد أن بلغهما خبر مقتل الأمير «شوبان»، إلى مازندران، ومنها فرّا إلى خوارزم ولجآ إلى «أوزبك خان» ملك «دشت قبجاق». فأكرمهما هذا واحتفى بهما. وبقيا في خدمته إلى أن جرح الأمير حسن في إحدى الحروب ومات متأثراً بجرحه. ولم يلبث «تالش خان»

أيضاً أن مات حتف أنفه. وأمّا ابنا الأمير حسن الآخران فقد قتلهما ابن أخيه الأمير «حسن الصغير».

وكان ابن الأمير «شوبان» الثاني الأمير «تيمور تاش» يحكم بلاد الرّوم، ويقضي أكثر أيّامه في محاربة أرامنة كليكيا وغيرهم من المخالفين. وقد أوصل حدود الدولة الإيلخانيّة إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكان معروفاً بالبطش والقسوة. ولكنه كان يسالم الملك الناصر سلطان مصر ويبدي له المودة والصفاء، ويتردد السفراء بينهما كثيراً.

ولمّا وصل خبر مقتل الأمير «شوبان» إلى «تيمور تاش» تحصن في إحدى قلاع بلاد الرّوم. وبعث من هناك رسولاً إلى مصر إلى الملك الناصر يطلب حمايته والالتجاء إليه. فأجابه الملك الناصر بأن عسكري وخزانتي ومملكتي في تصرف الأمير «تيمور تاش».

وفرض «تيمور تاش» على أهالي بلاد الرّوم ضرائب ثقيلة وأخذها منهم ثم سار قاصداً مصر. ولما دخل أرض الشام كان الحكام على طول الطريق يستقبلونه أينما حل بالإجلال والاحترام، إلى أن دخل مصر في أوّل ربيع الأول سنة ٧٢٨ هـ. ولما دخل على السلطان قبل الأرض بين يديه ثلاث مرات. وخلع عليه السلطان وأجلسه إلى جانبه وبالغ في الاحتفاء به.

ثم أمر السلطان بإحضار رجال «تيمور تاش»، وكانوا متحصنين في إحدى القلاع من بلاد الرّوم، إلى مصر. ولكنهم رفضوا الحضور. وقال بعضهم للسلطان إنّ «تيمور تاش» هو الذي أمرهم بأن لا يحضروا، إذ أنّه ينوي الرجوع إلى بلاد الرّوم والعودة إلى تولي حكمه السابق عليها. وزاد حاكم إحدى قلاع الروم على ذلك إخباره الملك الناصر بأنّ «تيمور تاش» قد قتل أباه وتظلم إلى السلطان منه. فأمر الملك الناصر رجاله من الأمراء بالتحقيق في هذه الأمور. ومع أنّ «تيمور تاش» أنكر ما نسب إليه فإنّ الملك الناصر ظلّ يسيء به الظن.

وبعد شهر من وصول «تيمور تاش» إلى مصر تلقى الملك الناصر رسالة

من «أبو سعيد» فيها تفصيل مقتل الأمير «شوبان». وقال الرسل الذين حملوا هذه الرسالة إلى مصر للملك الناصر إنّهم لم يكونـوا قط على علم بمصير «تيمور تاش» إلى أن وردوا دمشق.

وكان الملك الناصر من ابتداء سلطنة «أبو سعيد» على صلة طيبة بهذا الإيلخان. وقد ارتفعت في هذا العهد كل الأحقاد القديمة من بين إيلخانات إيران وسلاطين مصر والشام بمساعي «الخواجة تاج الدين علي شاه». ويوم لجأ «تيمورتاش» إلى الملك الناصر أرسل هذا رسالة ودية إلى «أبـو سعيد» يخبره بذلك. وبعد تردد السفراء أكثر من مرة بين السلطانين أرسـل الملك الناصر إلى «أبو سعيد» سراً أنه يضع «تيمورتاش» في تصرفـه، وأنه حـاضر لإنفاذ ما يأمر به بحقه. وكان الملك الناصر قد أصبح يخشى ما بـدا على «تيمورتاش» في مصر من عزة وهيبة.

فأرسل «أبو سعيد» رسولاً إلى مصر يعيد «تيمورتاش» إلى إيران. فاعتقله الملك الناصر واعتقـل مرافقيـه، وحبسه. ثم أحضـره إليه، وجعـل يوبخـه بحضور رسول «أبـو سعيد»، وقـال له إنـك لا تصافينـا بسلوكك. فلم يـرد «تيمورتاش» بشيء. وطلب رسول «أبو سعيد» من السلطان أن يرسل معه إلى إيران «تيمورتاش» وحده.

وخشي الملك الناصر أن ينجـو «تيمورتـاش»، إذا وصل إلى إيـران، بوساطة «بغداد خاتون» و«الخواجة غياث الدين محمد»، وهو صـديق قديم لـ«تيمورتاش»، فيعمد إلى الإنتقام منه. ولذلك بعث جماعة من الأكراد سراً في طريق إيران وأمرهم أن يقبضوا عليـه ويقتلوه. فقتلوه في ٤ شوال سنـة ٧٢٨ هـ، وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى «أبو سعيد»، فوصل إليه وهو في معسكره في «أوجان».

وأرسل الملك الناصر بعد قتله رسالة إلى «أبو سعيد» قال فيها: لقـد قتلت «تيمورتاش» إذ ظهر لي خبث طويته وتبين أن وجوده يفسد ما بيننا من صداقة. وطلب مرة من «أبو سعيد» في بعض مكاتبته له بشأن «تيمورتاش» أن يعيـد إليه «قـرا سنقر»، وكـان هذا قـد فر منـه ولجـأ إلى إيـران في عهـد

«أولجايتو»، فرفض الإيلخان إجابته إلى طلبه. ولكنه عاد فقتله في «مراغة» قبل وصول رأس «تيمورتاش» إليه. وظل محافظاً على صداقته لسلطان مصر إلى آخر أيام سلطنته.

والابن الرابع من ابناء الأمير «شوبان» هو الأمير «محمود». وكانت بيده حكومة أرمينيا و«كرجستان». وقد أمر «أبو سعيد» باعتقاله أيضاً، وقتله في تلك السنة، سنة ٧٢٨ هـ في تبريز.

وهؤلاء الأربعة من ابناء «شوبان» لأم واحدة. وابنه الخامس «جلاوخان» لأم أخرى هي «دولُندي خاتون» بنت «أولجايتو». وله ابن آخر من «ساتي بيك» بنت «أولجايتو» التي تزوجها بعد وفاة أختها. وابنه هذا وأبناؤه الثلاثة الآخرون لم يكن لهم شأن يذكر.

أواخر أيام «أبو سعيد»

في سنة ٧٢٩ هـ خرج حاكم خراسان «ناري طغاي» على «أبو سعيد». وكان هذا الرجل أيام حكم «أبو سعيد» لـخراسان مقرباً إليه. ولكنه أبعد بعد ذلك عنه بسعي «دمشق خواجة». فاستنجد بالأمير «شوبان» فأنجده وعاد مرة أخرى إلى حاشية «أبو سعيد». وإذا كان يخشى «دمشق خواجة» فقد جعل يسعى لقتله. وكان من أهم العوامل التي ادت إلى استئصاله. وقد نهب «ناري طغاي» هذا من اموال «دمشق خواجة» بعد قتله ثروة وافرة. وأصبح صاحب اقتدار ونفوذ واسع في معسكر «أبو سعيد»، حتى نفّر الإيلخان منه بتكبره وغطرسته، فأرسله إلى خراسان حاكماً عليها ليبعده عنه. وأراد «ناري طغاي» أن تكون «هرات» أيضاً في تصرفه، وقد كانت حكومتها بيد أسرة «كرت» بالتوارث إلى ذلك الحين. ولكن حاكمها «غياث الدين كرت»، وقد كان يومئذ في معسكر «أبو سعيد»، حصل من الإيلخان على أمر بأن «ناري طغاي» ليس له أن يتصرف في شيء مما يتعلق بأسرة «كرت». فلما سمع «ناري طغاي» بذلك تغير على «غياث الدين» وأرسل رجلاً إلى «هرات» يستدعي إليه الملك «شمس الدين» بن «غياث الدين» الأكبر. فأبى أن يحضر إليه. فبعث إليه

اثنين من الأمراء من رجاله فأبي أيضاً أن يحضر. وكان الملك «غياث الدين» قد عاد في ذلك الحين إلى «هرات» أيضاً. فأيقن «ناري طغاي» أنه لن يبلغ إلى غاية من ملوك «كرت».

ووصلت أخبار ما في خراسان من حركات تمرد إلى «أبو سعيد»، وكان معسكره يومئذ في «أوجان»، ووصله أيضاً خبر باحتمال قيام المغول الجغتائيين بهجوم على خراسان. فأمر خاله «علي بادشاه»، وكان في حامية «إربل»، وبضعة أمراء آخرين بالسير إلى خراسان.

فلما عرف «ناري طغاي» بحركتهم أرسل أكثر من رسول إلى المعسكر الإيلخاني يبلغه أن لا لزوم لمجيء أولئك الأمراء إلى خراسان، إذ لا خوف من خطر هجوم عليها. وعندئذ توقف الأمراء في السلطانية. وامتنع «علي بادشاه» عن الذهاب إلى خراسان معتذراً بأن لا حاجة إلى ذهابه إليها، بناء على معلومات «ناري طغاي».

ووالى «أبو سعيد» رسائله إليهم بطلب المبادرة إلى السير كما أمرهم، ولكنهم كانوا دائماً يعتذرون. ثم ساروا بتحريض من «علي بادشاه»، قاصدين إلى «أوجان» حيث معسكر «أبو سعيد». فأغضبت هذه الحركة «أبو سعيد» غضباً شديداً، وبعث أميراً من رجاله إليهم يأمرهم بالرجوع، وأرسلت «حاجي خاتون» أم «أبو سعيد» أيضاً رسالة إلى أخيها، قالت له فيها إن صلاح أمره في الرجوع إن كان يريد أن يبعد عنه غضب «أبو سعيد».

ولكن الأمراء المتمردين رفضوا الرجوع، وقالوا إنهم إنما يقصدون تقبيل قدم الإيلخان، وأن يعرضوا عليه مطالبهم بأنفسهم. إلا أن جماعة منهم، وقد رأوا أنفسهم محصورين في وسط معسكر «أبو سعيد»، خفوا إلى الإيلخان وباحوا له بأسرار «علي بادشاه» ورفاقه.

وتشفعت أم «أبو سعيد» إلى ابنها بأخيها «علي بادشاه» فعفا عنه وأمره بالذهاب إلى حدود بغداد. وسلم «طاشتيمور»، وهو من أعوانه، إلى الوزير «خواجة غياث الدين» وآخرين من الأمراء لمحاكمته. وكان الخواجة سليم النفس قد صمم على مسامحة جميع أعدائه وأعداء أبيه الشهيد والإحسان

إليهم ولذلك التمس من الإيلخان أن يعفو عن «طاشتيمور»، مع يقينه بأن الباعث لأولئك الأمراء على التمرد هو عداوتهم لـه، فعفا عنـه وأرسله إلى خراسان.

والتقى «طاشتيمور» بـ«ناري طغاي» بالقرب من «أبهر» زنجان، وكـان هذا قادماً إلى المعسكر الإيلخاني من غير إجازة. فاتفق هذان الأميران على التعاون لإسقاط أعدائهما، والسعي إلى قتل «الخواجة غياث الدين»، ذلك الوزير العالم الذي كان قد أصبح هو و«بغداد خاتون» صاحبي المقام الأول في ادارة شؤون المملكة كلها، وكان «طاشتيمور» و«ناري طغـاي» يعدانـه خصمهما الحقيقي. وأرسلا يدعوان، سراً، «علي بادشاه» إلى مشاركتهما في هذا السعي.

وبقي «طاشتيمور» في قزوين ينتظر إنفاذ خطة «ناري طغاي»، وذهب هذا إلى السلطانية يحاول أخذ زمام الأمور بيده بكل وسيلة كائنة ما كانت. ولكن «أبو سعيد» لم يأذن له بالدخول عليه، وأخذت «بغداد خاتون» تزيد في جفاء السلطان له يوماً بعد يوم، إذ كانت تعتقد أنّه هو المسبب الحقيقي لقتل أبيها وأخيها.

فعمد «ناري طغاي» إلى محاولـة استمالـة من يقيم في المعسكر من الأمراء إليه. فأخبرهم بقصة تواطؤ «علي بادشاه» و«طاشتيمور» على مخالفة السلطان. ولكن «أبو سعيد»، وكان ينقم عليه ظلمه واستبداده في خراسان، لم يلتفت إلى كلامه. وبعض الأمراء رفضوا دعوته لهم إلى معاونته. فاضطر إلى نفض يده من محاولة قتل «الخواجة غياث الدين». ثم التمس منه الإذن له بملاقاته. فلما أراد الدخول عليه لم يؤذن له بالدخول مسلحاً، بل نزع عنه سلاحه. وهكذا وقف على باب الوزير ذليلاً ودخل عليه ذليلاً. والتمس من الوزير أن يشفع فيه إلى السلطان ليجعله موضع عنايته.

فقبـل الخواجـة طلبه وعـزم على أن يذهب في الحـال إلى الإيلخان فيقضي حـاجتـه. وذهب إليـه وذكـر لـه ملتمس «نـاري طغـاي». فتعجب «أبو سعيد» من طهارة طينة «الخواجة غياث الدين»، وأطلعه على ما يبطن له

«ناري طغاي» من نية السوء. ثم أمر باعتقال «ناري طغاي». فلمّا علم هذا بأمر الإيلخان فر إلى الري يريد الوصول إلى خراسان. ولكنه اعتقل في تلك النواحي كما اعتقل «طاشتيمور» في نواحي قزوين، وحملا إلى السلطانية فقتلا فيها بأمر «أبو سعيد» يوم عيد الأضحى سنة ٧٢٩ هـ، وعلق رأساهما في مكان رأس «دمشق خواجة» في قلعة السلطانية.

وفي سنة ٧٣٠ هـ أرسل «أبو سعيد» الأمير «الشيخ علي» ابن الأمير «علي قوشجي» إلى خراسان حاكماً عليها. واتهم «الخواجة علاء الدين محمد» بأن له ضلعاً في تمرد «ناري طغاي». ولكن «الخواجة غياث الدين» تشفع فيه عند الإيلخان فعفا عنه، وأعاده إلى خراسان في صحبة الأمير «الشيخ علي».

وفي سنة ٧٣٠ هـ أخبر جماعة من المغرضين «أبو سعيد» أن بين الأمير «الشيخ حسن جلاير» زوج «بغداد خاتون» السابق وبينها مكاتبة سرية، وأنهما يتآمران على قتله. فأمر «أبو سعيد» باعتقال الأمير «الشيخ حسن» وقتله. ولكن عمة «أبو سعيد»، وهي أم «الشيخ حسن» تشفعت له عند السلطان فعفا عنه، ولكنه أمر بأن يغيب عن عينيه، ويحبس في مكان بعيد، فحبس مع أمه في قلعة «كماخ» في بلاد الرّوم، وسقطت «بغداد خاتون» من عين «أبو سعيد». ولكنه لم يلبث أن تبينت له براءتها، فأمر بقتل من وشى بها، وعاد إليها اعتبارها في نظره. وبعد سنتين تزوج «أبو سعيد» من «دلشاد خاتون» بنت «دمشق خواجة».

وفي سنة ٧٣٢ هـ عين الأمير «دولتشاه» حاكماً على بلاد الرّوم، ولكنه توفي في الطريق. فأخرج «أبو سعيد» الأمير «الشيخ حسن جلاير» من الحبس وعينه سنة ٧٣٣ هـ على بلاد الرّوم. وقد بقي على عمله هذا إلى وفاة «أبو سعيد».

وفي سنة ٧٣٤ هـ عزل «أبو سعيد» الأمير «شرف الدين محمود شاه إينجو» عن حكومة فارس، بعد أن قضى فيها مدة طويلة، وكان يجمع إليها كرمان والبحرين وكيش وأصفهان. وكان هذا الحاكم ممّن نشأوا في دولة الأمير

«شوبان»، وقد حصل على ثروة وافرة وقدرة خارقة. وكان على صلة بـ«الخواجة غياث الدين» فأصبح، من ثم، من رجال عهده الكبار. ونصب «أبو سعيد» في مكانه أميراً آخر اسمه «مسافر إيناق».

وكان «محمود شاه» يعد نفسه أليق الناس بتولي هذه الحكومة. فاتفق وبضعة نفر من الأمراء وقاموا بهجوم على «مسافر». فلجأ هذا إلى القصر السلطاني فتعقبوه وطلبوا من السلطان تسليمه إليهم. واتفق أن وصل في ذلك الوقت الأمير «سيور غان» ابن الأمير «شوبان» السادس ومعه أمير آخر وفرسانهما، فردوا الأمراء المتمردين وفرقوهم. وأمر «أبو سعيد» بقتلهم. ولكن «الخواجة غياث الدين» تدخل أيضاً والتمس من السلطان الاكتفاء بحبسهم وإبعادهم، فأجاب ملتمسه.

وفاة «أبو سعيد»

في آخر سنة ٧٣٥ هـ سار «أوزبك خان» عاهل «دشت قبجاق» قاصداً الهجوم على «أرّان» وآذربيجان من طريق «دربند». وكان «أبو سعيد» عازماً على السفر إلى بغداد، فاضطر إلى العدول عن هذا السفر ليسير إليه بنفسه، إذ لم يكن أحد من الأمراء الكبار حاضراً يومئذ. وسير إليه «الخواجة غياث الدين»، ثم لحق به بجيش عظيم.

وبينا هو في «أرّان» سنة ٧٣٦ هـ أصابته وعكة بسبب الحر ووخامة المناخ. ثم توفي في ١٣ ربيع الآخر من تلك السنة، وهو في حدود «شروان»، وحمل إلى السلطانية ودفن في قبْر بناه لنفسه في حياته، بالقرب من العاصمة.

وقد تبين أطباؤه، وهو في حال الاحتضار، آثار السمّ في جسمه. ويرى غالب المؤرخين أنّ زوجته «بغداد خاتون» قد سمّته لأنّه جفاها بعد أن تزوج «دلشاد خاتون»، ولأنها كانت تحقد عليه لقتله أباها وأخاها.

وكان أحد خصيان «أبو سعيد» على علم بذلك، فأمره خليفة

«أبو سعيد»، بعد قليل من وفاته، بقتل «بغداد خاتون» فقتلها في الحمام.

كان «أبو سعيد» آخر الإيلخانات المقتدرين في أسرته، كان ملكاً كريماً رشيداً محباً للعلم، ازدهرت في عهده العلوم والآداب، ونبغ مؤرخون وشعراء كثيرون. ولكن قسماً مهماً من هذا التقدم إنما تحقق بوجود وزيره ربيب الفضل «الخواجة غياث الدين محمد». وكان الإيلخان نفسه شاعراً مطبوعاً حسن الخط، ويحسن العزف الموسيقي. ومع أنه لم يكن متعصباً فقد أمر بإغلاق بعض الكنائس المسيحية، إذ أشار عليه بذلك بعض مستشاريه. وفي سنة ٧١٩ هـ اجتاحت الأعاصير غالب بلاده ووقع فيها القحط. فقال المتدينون إن هذا البلاء نتيجة للأعمال القبيحة التي يرتكبها الناس. فأمر بإراقة دنان الخمور في كل مكان وإغلاق الخمارات وتخريب المواخير، فلا يبقى غير خمارة واحدة في كل ولاية للأجانب فقط.

علاقات «أبو سعيد» الخارجية

بعد أن جلس «أبو سعيد» على تخت السلطنة أرسل إلى سلطان مصر يعلنه بحسن نيته وعزمه على حفظ روابط الصداقة بينهما. فأجابه السلطان بمثل ذلك.

وقد ذكرنا سابقاً أن «قراسنقر» أحد الأمراء المتمردين على الملك الناصر لجأ إلى إيران في عهد «أولجايتو» وأقام فيها في حماية الإيلخانات. وكان الملك الناصر يسعى بكل وسيلة ممكنة إلى اعتقاله أو قتله.

من ذلك أنه أرسل في سنة ٧٢٠ هـ بالسر بعض الفدائيين الإسماعيليين من الشام إلى تبريز لاغتيال «قراسنقر». ولكنهم خابوا في مسعاهم واعتقل أكثرهم وقتلوا. وقد تركت هذه الحادثة أثراً سيئاً في إيران، إذ اشتهر أن أولئك الفدائيين لم تكن غايتهم قتل «قراسنقر» وحده، بل كانوا ينوون اغتيال «أبو سعيد» والأمير «شوبان» و«الخواجة علي شاه» وكبار الأمراء الإيلخانيين.

وغضب الأمير «شوبان» غضباً شديداً، وأراد الانتقام بقتل رسول كان

سلطان مصر قد أرسله إلى معسكر الإيلخان لاقامة الصلح بين الدولتين، ولكن «الخواجة علي شاه» منع الأمير «شوبان» من ذلك. وتقرر إرسال سفير من إيران إلى مصر للمفاوضة في عقد معاهدة بينهما.

واستقبل عمال السلطان المصري في حلب ودمشق سفير الإيلخان بالاحترام والحفاوة. ووصل السفير إلى مصر يحمل مقترحات الصلح، وعقدت معاهدة صداقة بين الدولتين في سنة ٧٢١ هـ. وهذا أهم ما جاء فيها:

١ ـ يتعهد سلطان مصر بالتوقف بعد الآن عن إرسال الفدائيين الإسماعيليين إلى الممالك الإيلخانية.

٢ ـ يتعهد الطرفان بأن لا يطلب كل منهما من الآخر أن يسلم إليه اللاجئين إلى أرضه من رعايا الآخر.

٣ ـ يتعهد سلطان مصر بأن لا يحرض أعراب البادية والتركمان على مهاجمة الممالك الإيلخانية.

٤ ـ تتعهد الدولتان بالمحافظة على روابط الصداقة فيما بينهما، وتمكين تجارهما من التردد والمتاجرة بينهما بحرية.

٥ ـ تسير قافلة الحاج كل عام من العراق إلى مكة بحرية، وترفع رايتين إحداهما باسم سلطان مصر والأخرى باسم إيلخان إيران.

٦ ـ يصرف سلطان مصر النظر عن المطالبة بقراسنقر.

وكان الملك الناصر مسلماً متعصباً قد منع بيع الخمور وشراءها وأغلق المواخير. ولذلك سرته التدابير التي اتخذها «أبو سعيد» في هذا المجال، وحرص على توكيد الصداقة بينهما، وظلت هذه الصداقة قائمة إلى آخر أيام «أبو سعيد»، وكان السفراء لا ينفكون يترددون بين الملكين، وتبادل الهدايا والنفائس لا ينقطع بينهما.

وفي سنة ٧٢٠ هـ أمر الملك الناصر جماعة من قواده بمهاجمة أرمينيا

الصغرى والإغارة على «سيس» عاصمة كليكيا. فبدأوا الهجوم في منتصف ربيع الآخر من تلك السنة، فأغاروا على «سيس» وقطعوا نهر «جيحان» وأغاروا على عموم أرمينيا. وكان ملكها «ليون» الخامس لا يتجاوز العاشرة من عمره، ويقوم على رعاية أموره وصي أرمني. فلم يجدا وسيلة غير الاستنجاد بالبابا «جان» الثاني والعشرين واستنهاض العالم المسيحي إلى إغاثتهما.

فأجاب البابا بأن ملوك أوروبا مشغولون بمحاربة بعضهم بعضاً فهم لا قدرة لهم على إنجاد أرمينيا. ولكنه سيرسل هو جيشاً لإغاثة أرمينيا. وأغضب هذا الملك الناصر وأمر بتجديد الغارة على أرمينيا. وحرض الأمير «تيمورتاش» أيضاً على اختراق حدود البلاد النصرانية. فأغار هذا علىء مدينة «سيس» وتقدم حتّى بلغ ساحل البحر وغنم وأسر كثيراً. وفعل مثله أمير آخر من أمراء الترك بالإغارة على البلدان المسيحية. وأحرق المصريون مدينة «أدنة» وأسروا قريباً من ٢٠٠٠٠ من الإرمن.

فلما بلغت أخبار هذه الوقائع إلى البابا بـادر إلى إمداد ملك أرمينيـا بمعونة أخرى. وبعث أيضاً من «أفينيون» رسالة إلى «أبو سعيـد» مؤرخة في ١٣ تموز سنة ١٣٢٢م (٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٢٢ هـ) ذكره فيها بسياسـة إيلخانات إيران السابقة ودعاه إلى إغاثة أرمينيـا. وأرسل إليـه رسالـة أخرى يدعوه فيها إلى الدخول في دين المسيح.

وكـان البابـا قد أمـر في سنة ٧١٨ هـ، بعـد بضع سنـوات من بنـاء السلطانية، بإقامة كنيسة فيها، ونصب «فرانسوا دوبيروز» بطريركاً على نصارى إيران وما جاورها من ممالك. وظل هذا البطريرك في هذا المنصب إلى سنة ٧٢٤ هـ، إذ خلفه بطريرك آخر. وبعد أن دخل إيلخانات إيران في الإسلام نقص نفوذ النصارى واقتدارهم عما كـان عليه في أيّـام «هولاكـو» و«أباقـا» و «أرغون».

وطلب «ليون» ملك أرمينيا أيضاً مدداً من «أبو سعيد»، فأجابه إلى طلبه، مع وجود تلك المعاهدة بينه وبين سلطان مصر، وأنجده مقتفياً أثـر سياسـة أجداده في رعاية الأرمن. وأرسل «أبو سعيد» رسالة إلى سلطان مصر يدعوه

فيها إلى مصالحة الملك الأرمني.

ولكن الجيش المصري كان قد فتك بالأرمن قبل أن تصل نجدة «أبو سعيد». وبلغ الأمر بالأرمن إلى طلب الصلح من الملك الناصر وعقد معاهدة تعهد فيها الملك الناصر بمهادنة أرمينيا مدة خمسة عشر عاماً. وفي سنة ٧٢٩ هـ قبل «ليون» رسمياً التبعية للملك الناصر، وألبسه هذا خلعة تشريف. ونجا الأرمن بهذا من فتكات الجيش المصري.

وازدادت في عهد «أولجايتو» و«أبو سعيد» العلاقات التجارية وحركات السفر بين إيران وأوروبا. من ذلك قدوم أحد رجال الدين النصارى، واسمه «أودوريك»، بين سنة ٧١٦و٧١٨ هـ، إلى إيران لتفتيش الكنائس. ومن إيران سافر إلى الهند والصين. وكتب رحلته في رسالة تعد من المصادر المهمة لمعرفة أوضاع إيران في تلك الأيام. واتصل تجار البندقية بـ«أولجايتو» في أواخر عهده. وكانت في أيديهم تجارة الممالك الشرقية الواقعة في نواحي البحر الأبيض المتوسط كلها. وفي سنة ١٣٠٥م (٧٠٥ هـ) عقد مندوب بندقي و«أولجايتو» معاهدة تجارية، وحصل التجار البنادقة على امتيازات. وأرسل مجلس أعيان البندقية في سنة ٧٢٠ هـ إلى «أبو سعيد» سفيراً وحصل منه على امتيازات أخرى لتجار البندقية.

وأرسل البنادقة إلى مدن إيران المهمة عدة قناصل للفصل في الخلافات التي تقع بين التجار البنادقة والإيرانيين. وكان قنصلهم في تبريز أول قنصل وصل منهم، وذلك حوالي سنة ٧٢٤ هـ. وظلت هذه العلاقات تزداد يوماً بعد يوم.

إيلخانات آخرون

كان «أبو سعيد» آخر الإيلخانات الكبار من هذه السلسلة. فقد انحطت سلسلتهم بسرعة بعد موته الفجائي، وأصبح مقام الإيلخان موضوع نزاع وتحارب بين عدة من أمراء الأسرة الجنكيزية لا يليقون به، وكذلك ثار النزاع بين الرؤساء المتخاصمين المتحاسدين من رجال الحاشية. وأخذت المملكة

الإيلخانيّة تنقسم شيئاً فشيئاً إلى عدة أجزاء. فتمهد بذلك الطريق لاستيلاء الأمير «تيمور كوركان» عليها بعد حين قصير. ذلك الأمير الذي قضت التقادير بأن تكون ولادته في نفس السنة التي توفي فيها «أبو سعيد».

ولم يكن لـ«أبو سعيد» ابناء ذكور. وكان «غازان خان» قد أسقط الأمراء من أسرة «هولاكو» إما بالقتل وإما بالإغفال والإخمال. ومن ثم لم يكن هناك أحد يستطيع القبض على زمام الأمور.

واستشار «الخواجة غياث الدين محمد» الأمراء والخواتين، ثم اختار أحد أحفاد «أريق بوقا» أخي «هولاكو»، واسمه «أرْبا كاوُن» ليكون إيلخاناً. وكان «أبو سعيد» قد رشحه أيضاً لخلافته. فبادر كبار المغول على الفور إلى تنصيبه، بعد إقامة مراسم التشييع لجنازة «أبو سعيد».

وكانت «بغداد خاتون» قد عارضت تنصيبه. وإذ كانت قد اتهمت بسم «أبو سعيد» واتهمت بتحريض «أوزبك خان» على غزو إيران، فقد قتلها «أربا كاون»، كما ذكرنا سابقاً، بأن أمر أحد خصيان البلاط بقتلها في الحمام. وأخاف الوضع «دلشاد خاتون» ففرت، وهي حامل، إلى العراق العربي ولجأت إلى حاكمه «علي بادشاه».

سلطنة «أربـا كـاون»

وبعـد أن جلس «أربا كـاون» على العرش في ١٣ ربيـع الثاني سنـة ٧٣٦ هـ ساق جيشاً إلى «دربند» ليدفع عاهل «دشت قبجاق»، وكان قد وصل في زحفه إلى حدود نهر «كورا». فتغلب عليه «أربا كاون» بعد مناوشة قصيرة، وعاد إلى تبريز منتصراً. ثم تزوج «ساتي بيك» أخت «أبو سعيد» وأرملة الأمير «شوبان».

وقتل في منتصف رجب الأمير «شرف الدين محمود شاه إينجو» بتهمة إخفائه أحد أبناء «هولاكو» في بيته، ناوياً تنصيبه في مقام السلطنة. وفر ابنا «محمود شاه» الأمير «جلال الدين مسعود شاه» والأمير «الشيخ أبو إسحاق» من تبريز، فذهب الأول إلى بلاد الرّوم لاجئاً إلى الأمير «الشيخ حسن»، وذهب الثاني إلى ديار بكر لاجئاً إلى «علي بادشاه».

وفي تلك الأيام، وسلطنة «أربـا كاون» لا تـزال مترجـرحة لم تستقم أمورها، تجمعت «لشاد خاتون» و«حاجي خاتون» أم «أبو سعيد» وعدة أمراء من رجال «أبو سعيد» من طالبي الفتنة، حول الأمير «علي بادشاه»، وحرضوه على الخروج على «أربا كاون». فنادى «علي بادشاه» بـ«موسى خان» حفيد «بايدو» إيلخاناً، وسار بجيش من ديار بكر قاصداً آذربيجان. ووقعت معركة بينه وبين الإيلخان عند ساحل نهر «جغاتو» في ١٧ رمضان سنة ٧٣٦ هـ تغلب

فيها «علي بادشاه» على الإيلخان وقبض عليه وعلى وزيره «الخواجة غياث الدين محمد» وقتلهما.

مقتل الخواجة غياث الدين

كان «الخواجة غياث الدين محمد» بن «الخواجة رشيد الدين فضل الله» امرءاً محسناً سليم النفس خيراً ساعياً إلى الفضائل. اجتهد في أيّام وزارته أن يحسن إلى جميع أعداء أبيه ومن كانوا يريدون به شراً. وكان عالماً يعد، بعد أبيه، من كبار مربي أهل العلم والأدب، ومن أهل المروءة والكرم. وقد ترك، كأبيه، من بعده صيتاً طيباً في تاريخ إيران. وكان من الكتاب البلغاء معدوداً من فضلاء عصره، علاوة على كفاءته وخبرته في العمل الذي يتولاه ومهارته في الحرب. وكان يكبر أهل الأدب والمعرفة ويعظمهم ويوفيهم حقهم من الاحترام. ينعم على الناس بالصلات الكبيرة. وقد ألف جماعة من كبار العلماء والأدباء كتباً باسمه ومدحوه بشعر كثير.

اعتقل في إحدى قرى مراغة. ولم يكن «علي بادشاه» راضياً بقتله. ولكن بقية الأمراء المخالفين اضطروه إلى قتله فقتله في ٢١ رمضان سنة ٧٣٦ هـ.

واعتقل في تلك الأيام «أربا كاون» أيضاً في «سُجاس زنجان»، فسلمه «علي بادشاه» إلى رجال «محمود شاه إينجو» فقتلوه في الثالث من شوال من تلك السنة، ثأراً لـ«محمود شاه».

وأغار أعداء «الخواجة غياث الدين» وأراذل تبريز بعد قتله على منازله ومنازل اتباعه وملازميه، فنبهوها ونبهوا «الربع الرشيدي» مرة أخرى، وأخذوا في هذه الغارة مخطوطات نفيسة ومالاً ومتاعاً غالياً كثيراً.

سلطنة «موسى خان»

بعد مقتل «الخواجة غياث الدين» و «أربا كاون» أجلس «علي بادشاه» على العرش الإيلخاني «موسى خان» حفيد «بايدو» في مدينة «أوجان» وعهد بالوزارة إلى «تاج الدين علي شرواني».

ولكنهما كانا كلاهما، الإيلخان والوزير، عاجزين عن تطويع الأمراء الكبار. وكانت بين «علي بادشاه» وأنصار قبيلة «أويرات» من جهة، وسائر الأمراء من جهة، أحقاد قديمة قوية. ولذلك ذر قرن الفتنة بسرعة في بعض الولايات، ولاسيما فتنة اثنين من كبار الأمراء في حاشية «أبو سعيد». أحدهما الأمير «الشيخ حسن الكبير الإيلكاني» ابن الأمير «حسين كوركان» وحاكم بلاد الرّوم وزوج «بغداد خاتون» الأول، وأمه بنت «أرغون خان» ولذلك لقب أبوه «الأمير حسين» بـ«كوركان» أي «الصهر»، إذ هو صهر «أرغون». والآخر «حاجي طغاي» ابن الأمير «سونتاي»، وكان حاكماً على أرمينيا وديار بكر، تولى حكومتها سنة ٧٣٢ هـ بعد أبيه. وكان يعادي «علي بادشاه» وقبيلة «أويرات». فقد أبى هذان الأميران الاعتراف بسلطنة «موسى خان» والانقياد لسلطة «علي بادشاه». وأرسل «حاجي طغاي» رسولاً إلى بلاد الرّوم إلى الأمير «الشيخ حسن الإيلكاني» يدعوه إلى تسلم زمام الأمور. وكان هذا أميراً كفيئاً متطلباً للجاه والمناصب العالية. فرشح لمنصب الإيلخان أحد أحفاد «منكو تيمور» بن «هولاكو»، واسمه «محمد خان»، واختار لوزارته «الخواجة محمد

زكريا» ابن أخت «الخواجة رشيد الدين فضل الله» الهمداني. وسار الأميران المقتدران قاصدين آذربيجان.

واقترح الأمير «الشيخ حسن» قبل وصوله إلى إيران على «علي بادشاه» أن يختاروا لعرش الإيلخان من يرونه صالحاً بالتشاور، ثم يعود كل منهما إلى ولايته، فقبل اقتراحه. ولكن الأمراء الآخرين أجبروه على رده. وانتهى الأمر بالطرفين إلى الحرب.

والتقى الجمعان في ١٤ ذي الحجة سنة ٧٣٦ هـ في نواحي «آلاتاغ»، ودارت رحى الحرب. وتغلب «موسى خان» على «محمد خان». وأراد هذا أن يفر إلّا أن الأمير «الشيخ حسن» كر فجأة على الأمير «علي بادشاه» فقتله. وفر «موسى خان» من المعركة قاصداً بغداد. وعاد الأمير «الشيخ حسن» مع «محمد خان» منتصرين إلى تبريز. وانقرضت دولة الأمير «علي بادشاه» و «موسى خان» على هذه السرعة.

سلطنة «محمد خان»

وأجلس الأمير «الشيخ حسن الإيلكاني» في ذي الحجة سنة ٧٣٦ هـ «محمد خان» على العرش رسمياً بعد وصولهم إلى تبريز. وتزوج «دلشاد خاتون» انتقاماً من زوجها «أبو سعيد» لما سبق منه بحقه إذا اغتصب منه «بغداد خاتون».

وعطف الأمير «الشيخ حسن» على من بقي من أسرة «الخواجة رشيد الدين»، فعهد بالوزارة إلى صهره الأمير «جلال الدين مسعود شاه إينجو» وابن أخته «الخواجة محمد زكريا». وقتل قتلة «بغداد خاتون». وأرسل «ساتي بيك» التي تزوجها «أربا كاون» بعد مقتل زوجها الأول الأمير «شوبان» إلى «دشت موقان» وأرسل معها «سيور غان» ابنها من الأمير «شوبان».

سلطنة «طغاتيمور»

بعد استيلاء الأمير «الشيخ حسن الإيلكاني» على آذربيجان نصب له العداوة جماعة من الأمراء من رجال «أبو سعيد». وفروا من آذربيجان والعراق إلى خراسان. وهناك حملوا حاكمها الأمير «الشيخ علي قوشجي» على مخالفة الأمير «الشيخ حسن». وكان أهم هؤلاء الأمراء الأمير «بير حسين» ابن الأمير محمود ابن الأمير «شوبان»، والأمير «أرغون شاه» ابن الأمير «نوروز» المشهور، والأمير «عبد الله» ابن الأمير «مولاي»، والأمير «علي جعفر».

واختاروا لمنصب الإيلخان «طغاتيمور»، وكان يقيم في مازندران. وهو من أحفاد إخوة جنكيز. وجعلوا منه آلة لإنفاذ مقاصدهم في مقابل «محمد خان» والأمير «الشيخ حسن».

وسار الأمراء العاصون بـ«طغاتيمور» قاصدين آذربيجان. وعند حدودها التحق بهم أيضاً «موسى خان» وأنصاره، وكان قد أفلت من قبضة الأمير «الشيخ حسن» وفر بعد أن هزمه «محمد خان» في «آلاتاغ».

وقرر أنصار «طغاتيمور» وأنصار «موسى خان» أنّه، بعد غلبتهم على الأمير «الشيخ حسن» تكون خراسان لـ«طغاتيمور» والعراق وآذربيجان لـ«موسى خان».

ووقعت الحرب بين المعسكرين المتحدين وعسكر الأمير «الشيخ حسن

الإيلكاني» في منتصف ذي القعدة سنة ٧٣٧ هـ بالقرب من «مراغـة». وفرّ «طغاتيمور» ووقـع «موسى خـان» في قبضة الأميـر «الشيخ حسن» فقتله في العاشر من ذي الحجة من تلك السنة. واتفق أن قتل أيضاً في هذا اليوم نفسه الأمير «الشيخ علي» حاكم خراسان، قتله هناك الأمير «أرغون شـاه» وهكذا قضي في يوم واحد على عدوي الأمير «الشيخ حسن» هذين. واستولى هذا الأميـر على آذربيجان والعـراق. وذهب «طغاتيمـور» إلى خراسـان، وتـولى منصب الإيلخان فيها بمساعدة أنصاره من الأمراء.

خروج أمير آخـر

بقي، بعـد مقتل «مـوسى خان» اثنـان من المتنـازعين على المملكـة الإيلخانيّة، أحدهما «طغاتيمور خان»، وفي طاعته جرجان وخراسان والآخر «محمد خان»، وهو آلة لإنفاذ مقاصد الأمير «الشيـخ حسن الكبير». وبعـد مضي بضعة أشهر على مقتل «موسى خان» ظهر منازع آخر من بلاد الرّوم هو «الشيخ حسن» أحد أبناء الأمير «تيمورتاش» ابن الأمير «شوبان سلدوز». وبعد ان اشتهر هـذا عرف بـاسم «الشيخ حسن الصغيـر» أو «الشيخ حسن الشوباني» تمييزاً له عن «الشيخ حسن الكبير الإيلكاني» الذي سبق ذكره.

وكان هذا الأمير قد توارى في بعض بلاد الروم بعد ما قتل رجال الملك الناصر أباه «تيمورتاش». وظل متوارياً إلى سنة ٧٣٨ هـ، إذ حدثته نفسه بطلب الملك لنفسه. وظهر من مخبأه. وكان له عبد يدعى «قراجري» يشبه أباه بعض الشبه. فأعلن للناس أنّ أباه «تيمورتاش» لم يقتل، بل فرّ من سجن القاهرة وتوارى إلى هذا التاريخ، ونصب هذا العبد على أنه أباه. ومن أجل إتقان هذا المخـطط زوج أمّه بـذلك العبـد. وصار يسيـر في ركابـه راجلاً في أغلب الأحيان.

وأدى انتشار الخبر بظهور «تيمورتاش» إلى تحرك خصوم «الشيخ حسن الكبير» للخروج عليه. فالتحق بمعسكـر «تيمورتـاش» الكاذب رؤسـاء قبيلة «أويرات» وأصحاب الأمير «علي بادشاه» ومؤيدو الأسرة الشوبانية. هذا من

جهة. ومن جهة أخرى أوقع الخبر الرعب في قلب الملك الناصر. فقد خيل إليه أن «تيمورتاش» لم يقتل، وأن الذين عهد إليهم بقتله قد خدعوه. وأيقن أن «تيمورتاش» سيصبح في المستقبل أكبر أعدائه متى تيسرت له أسباب القدرة.

ولذلك أرسل الملك الناصر رسولاً إلى «حاجي طغاي» حاكم ديار بكر يخطب إليه إحدى بناته لابنه، ويقترح عليه الاتحاد لقمع مؤيدي «تيمورتاش». فأجابه «حاجي طغاي» برسالة قال فيها إن ظهور «تيمورتاش» ليس حقيقياً. ومهما يكن من أمر فقد سبق له أن اتفق هو والأمير «الشيخ حسن الكبير» على صد كل منازع يظهر.

وفي تلك الليلة نفسها، إذ كان رسول الملك الناصر عند «حاجي طغاي» وصل إليهم عسكر الأمير «الشيخ حسن الصغير» أو «الشوباني»، ففر «حاجي طغاي» إلى بغداد وفر رسول الملك الناصر في طريق حلب. ثم أوصل إلى السلطان المصري أخبار الوقائع التي جرت على حدود آذربيجان.

وعاود سلطان مصر، بعد مدة قليلة، إرسال ذلك الرسول نفسه إلى «حاجي طغاي»، يكرر اقتراحاته السابقة. فأجابه «حاجي طغابي» برسالة قال فيها إن الوقت الحاضر ليس مناسباً للزواج المقترح. وكان الملك الناصر لا ينفك يحرض «حاجي طغاي» على معاداة الشوبانيين ومؤازرة «الشيخ حسن الإيلكاني»، إذ كان دائم الخوف من ظهور «تيمورتاش»، وظل إلى آخر حياته لا يفارقه هذا الخوف.

وتلاقى الشيخان الحسنان، الكبير والصغير، في ٢٠ ذي الحجة سنة٧٣٨ هـ في نواحي «آلاتاغ نخجوان». وقبل وقوع الحرب بينهما فر الأمير «بير حسين» أحد قواد «الشيخ حسن الإيلكاني» الكبير من معسكره والتحق بعسكر الأمير «الشيخ حسن الشوباني» الصغير. وهذا الأمير الفار هو ابن الأمير محمود ابن الأمير «شوبان»، فهو ابن عم «الشيخ حسن الصغير الشوباني».

فاضطر «الشيخ حسن الكبير» إلى الفرار وسار إلى تبريز مع «محمد

خــان» . ولكن هذا وقــع في يد «الشيــخ حسن الصغيـر» فقتله. وأصبحت أذربيجان والعراق في حكم الشوبانيين، يمعنون في التعدي على الناس ونهب أموالهم.

وفي هذه الأثناء عزم «قراجري»، أي «تيمورتاش» الكاذب، على قتل «الشيخ حسن الشوباني». فغافله وطعنه بسكين فأخطأه، وفر «الشيخ حسن» هذا إلى «كرجستان» حيث تقيم «ساتي بيك» أرملة الأمير «شوبان» وابنها منه الأمير «سيورغــان» عمّ «الشيخ حسن الصغيـر»، فنزل عليهمـا. ثم بلغه أن «تيمورتاش» الكاذب سار إلى تبريز قاصداً محاربته، فترك «كرجستان» وسار نحو تبريز حتى التقى به فهزمه وفر «تيمورتاش» هذا إلى بغداد، ودخل «الشيخ حسن» الصغير إلى تبريز.

سلطنة «ساتي بيك»

وفي تبريز حضر إليه ستة عشر رجلاً من أبناء الأسرة الشوبانية وطلبوا منه أن يختار واحداً من أسرة «هولاكو» لمنصب الإيلخان.

وإذ لم يكن أحد ممن بقي من هذه الأسرة أهلاً لهذا المنصب، فقد اختار أمراء العسكر الشوبانيون «ساتي بيك» بنت «أولجاتيو» أخت «أبو سعيد» لهذا المنصب سنة ٧٣٩ هـ. وكانت «ساتي بيك» تخالف الأمير «الشيخ حسن الكبير». وأمر «الشيخ حسن الشوباني» بذكر اسمها في الخطبة والنقود. واختاروا لوزارتها «ركن الدين الشيخي» و «غياث الدين محمد». والأول من أسرة «الخواجة رشيد الدين فضل الله» والثاني من أسرة «الخواجة علي شاه».

وبهذا أصبحت «ساتي بيك» و «الشيخ حسن الصغير» آمرين على آذربيجان و «أران». ولكن ظل كل قسم من نواحي إيران والعراق يحكمه أميرين من رجال «أولجايتو» و «أبو سعيد» السابقين، أو حاكم من الأسر الداخلة في طاعتهم. من جملة ذلك أن السلطانية وعراق العجم كانت بيد الأمير «الشيخ حسن الكبير»، وديار بكر بيد «حاجي طغاي»، وبغداد وعراق العرب بيد قبيلة «أويرات» وبيد «قراجري»، أي «تيمورتاش» الكاذب، وقسم من بلاد الروم بيد الأمير «أرتيا» نائب «الشيخ حسن الكبير» والقسم الآخر بيد «الملك أشرف» ابن الأمير «تيمورتاش»، وفارس بيد أسرة «إينجو»، ويزد بيد الأمير «مباوز الدين محمد مظفري» و «قهستان» بيد «عبد الله» ابن الأمير «مولاي»،

وهرات قسم من خراسان بيد آل «كرت»، والقسم الآخر من خراسان مع جرجان بيد «طغاتيمور»، وكرمان وأصفهان يحكمها بعض الأمراء المحليين.

وبعد إقرار «ساتي بيك» في تخت الإيلخان سار الأمير «الشيخ حسن الشوباني» قاصداً قزوين لقمع «الشيخ حسن الإيلكاني». ولكن هذا بادر إليه بطلب الصلح، واعترف رسمياً بسلطنة «ساتي بيك». وتلاقى الحسنان المتنافسان فتعانقا. واتفقا على أن يبقى الكبير في السلطانية مدة الشتاء، ويذهب الصغير و«ساتي بيك» إلى «أرّان». وفي فصل الربيع يعقدون مجلس شورى لتنظيم شؤون المستقبل. ثم ذهب «الشيخ حسن الصغير» و«ساتي بيك» إلى «أرّان» وعاد «الشيخ حسن الكبير» إلى العراق.

ولو دام هذا الصلح لجرّد «الشيخ حسن الكبير» من كل اعتبار. فقد كان ذلك منه في حكم التصديق لسيادة «الشيخ حسن الصغير» والأسرة الشوبانية. ولذلك أرسل الكبير أحد خواصه إلى خراسان يحرض «طغاتيمور خان» على القدوم إلى العراق. فوافقه هذا وسار، ومعه «أرغون شاه» والوزير «الخواجة علاء الدين محمد»، من خراسان يقصد العراق. ووصل إلى «ساوة» في شهر رجب سنة ٧٣٩ هـ. وهناك استقبله «الشيخ حسن الكبير». ولكن هذا لم يلبث أن تبين أنّه مخطىء، إذ رأى أن أمراء خراسان كلهم طائعون لرأي الوزير «الخواجة علاء الدين». أما هو فيهملونه ولا يكترثون له. بيد أنه تحمل هذا الوضع صابراً، إذ رأى أنّ لا حيلة له غير التحمل والصبر. وفي هذه الأثناء وصل إليهم خبر بأن «الشيخ حسن الشوباني» و«ساتي بيك» والأمير «سيورغان» قد ساروا من «أران» قاصدين قمع «طغاتيمور خان».

فلما وصلوا إلى آذربيجان كان جماعة من قبيلة «أويرات» قد اعتقلوا «قراجري»، أي «تيمورتاش» المزور، فحملوه إلى «ساتي بيك» فأمرت بقتله فقتل.

وأراد «الشيخ حسن الشوباني» أن يضعضع الأساس من معسكر «طغاتيمور» و«الشيخ حسن الكبير» فعمل إلى حيلة. وذلك أن تظاهر بطلب الصلح. فاستجاب له «طغاتيمور»، وذكره بما كان بين أبيه وبين الأمير

«شوبان» من مودة سابقة. فاتفق الطرفان على عقد الصلح. وبعث «الشيخ حسن الصغير» إلى «طغاتيمور» رسالة بأنه إن ساعده على دفع «الشيخ حسن الكبير» زوجه «ساتي بيك» وأيده جميع الشوبانيين.

وانطلت الحيلة على سذاجة «طغاتيمور» وأرسل إلى «الشيخ حسن الصغير» رسالة كتبها بخطه يعلمه فيها بقبوله هذا الاقتراح. فبعث هذا بالرسالة إلى «الشيخ حسن الكبير» وأطلعه على نوايا «طغاتيمور». وعلم هذا بما حصل فأخذه الخجل مما فعله، وأما «الشيخ حسن الكبير» فما كان منه إلاّ أن ذهب إلى «ساتي بيك» فقبّل يدها واعتذر إليها ثم سار بعسكره إلى «أوجان».

سلطنة شاه جهان تيمور خان

بعد ذلك، وكان «الشيخ حسن الكبير» قد وصل إلى «أوجان»، أبعد «الشيخ حسن الصغير» السلطانة «ساتي بيك» عن العرش بحجة أن المرأة لا تصلح لمنصب الإيلخان، ونصب في مكانها أحد أحفاد «يشموت» بن «هولاكو»، واسمه «سليمان خان»، وأجبر «ساتي بيك» على الزواج به.

فلما سمع «الشيخ حسن الكبير» بهذا الخبر نصب هو أيضاً «عز الدين» بن «آلافرنك» بن «كيخاتو» إيلخاناً، ولقبه بلقب «شاه جهان تيمور خان»، واختار لوزارته «الخواجة شمس الدين زكريا». وذلك في ذي الحجة سنة ٧٣٩ هـ، ثم ذهب إلى العراق العربي. وأصبحت بغداد وديار بكر وخوزستان في حكمه.

والتقى الحسنان المتنافسان القويان والإيلخانان الجديدان يوم الأربعاء آخر ذي الحجة سنة ٧٤٠ هـ في «مراغة» في نواحي نهر «جغاتو». وانتصر الصغير الشوباني على الكبير الإيلكاني، فعاد هذا إلى بغداد مغلوباً. ثم خلع «شاه جهان تيمور» عن العرش في شهر ذي الحجة سنة ٧٤٨ هـ، واستقل بالحكم لنفسه وأقام أساس سلسلة الأمراء الإيلكانيين أو «جلاير».

سلطنة «سليمان خان»

بعد أن نصب «الشيخ حسن الشوباني» في منصب الإيلخان «سليمان خان» بسط سلطته على آذربيجان و«أرّان» وكرجستان والعراق العجمي، وانهمك في تمكين حكمه وقدرته على تلك النواحي.

ولكن «الشيخ حسن الكبير» لم تزايله فكرة الانتقام من سميه المنافس. فأرسل في سنة ٧٤٠ هـ رسولاً إلى مصر إلى الملك الناصر يلتمس منه إنجاده بجيش يقوده واحد من أبنائه. فأجابه الملك الناصر برسالة قال فيها أن أبناءه صغار، لذلك فهو حاضر لأن يأتي بنفسه إلى العراق العربي، بشرط أن يسبق ذلك القبول بالتبعية له من «الشيخ حسن الكبير» و«حاجي طغاي» والأمير «حافظ» أخي الأمير «علي بادشاه».

وقبل بهذا الشرط كل من «الشيخ حسن» و«حاجي طغاي» وخطبا باسم سلطان مصر وضربا النقود باسمه، وأرسلا إلى الملك الناصر شيئاً من هذه النقود. وعزم هذا على المسير إلى العراق العربي.

وأهم هذا الحادث «الشيخ حسن الصغير»، فجهز جيشاً سار به من آذربيجان قاصداً ديار بكر ليقمع هذين الخصمين. وتغلب على «حاجي طغاي» وصالحه «الشيخ حسن الكبير». فلما بلغ ذلك إلى الملك الناصر رجع عن عزمه على السير إلى العراق. وتابع «الشيخ حسن الشوباني» سيره يتعقب «حاجي طغاي» في طريق ولاية «موش». وفي تلك النواحي قتل «حاجي

طغاي»، قتله الأمير إبراهيم أخو الأمير «علي بادشاه» سنة ٧٤٣ أو ٧٤٤ هـ.

وأغار «الشيخ حسن الصغير» على ولاية «موش» فأذلّها. واستقبله أمير «ماردين» مستسلماً. فأكرمه الأمير الشوباني و «سليمان خان» ولطفا به. ومن هناك انطلقا بعسكرهما يقصدون العراق لإخضاع «الشيخ حسن الكبير».

وبعث هذا بالأمير «علي جعفر» وآخر من قواده لصد «الشيخ حسن الصغير» فهزماه. فانطلق من ديار بكر إلى بلاد الروم. وفي «أرزنة» من تلك البلاد أحرق محراباً ومنبراً كان قد بناهما «حاجي طغاي». ونبش قبر «حاجي طغاي» وأخرج جثته منه. وأوقع كثيراً من التخريب والإرهاب. ثم عاد مع «سليمان خان» في جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ إلى تبريز حيث قضايا فصل الشتاء.

مقتل «الشيخ حسن الشوباني»

وانقضت بعد ذلك ثلاث سنوات حافلة بالمنازعات والمؤامرات في مختلف أنحاء المملكة الإيلخانيّة. وفي ذلك التاريخ، أي سنة ٧٤٤ هـ جهز «الشيخ حسن الصغير» جيشاً وأرسله مع «سليمان خان» والأمير «يعقوب شاه» أحد أمراء بلاد الروم إلى غزو تلك البلاد والاستيلاء عليها. ولكنهما انهزما فعادا أدراجهما. فلما وصلا إلى تبريز قبض «الشيخ حسن الصغير» على «يعقوب شاه» وحبسه.

وكانت «عزت ملك» زوجة «الشيخ حسن الصغير» على علاقة بيعقوب هذا. فاحتملت أن يكون زوجها قد حبسه لهذا السبب. ومن أجل أن يبقى سرها مكتوماً اتفقت وبعض خواصها من نساء الحرم على قتل «الشيخ حسن الصغير». فقتلته في ليلة الثلاثاء ٢٧ رجب سنة ٧٤٤ هـ على نحو قبيح. ولكن المؤامرة انكشفت. وبعد بضعة أيام من انكشافها قتل أتباع «الشيخ حسن الشوباني» زوجته القاتلة «عزت ملك» وقطعوها قطعة قطعة وأكلوها.

وقسم «سليمان خان» ما كنزه «الشيخ حسن الشوباني» في خزائنه من أموال لا تحصى بهم الأمراء. ثم ذهب إلى «قراباغ» إذ كان عاجزاً لا كفاءة له.

سلطنة «أنوشروان العادل»

وجاء إلى تبريز بعض الأمراء الشوبانيين، وهم «ياغي باستي» و«سيورغان» ابنا الأمير «شوبان»، وحفيده «الملك أشرف» بن «تيمورتاش» وأخو «الشيخ حسن الصغير». ثم لم يلبثوا أن وقع بينهم خلاف أدى إلى حرب انتصر فيها «الملك أشرف». فنصب، بعد انتصاره، المدعو «أنوشروان» إيلخاناً ولقبه بالعادل. وهذا الإيلخان قال بعضهم إنّه قبجاقي وقال آخرون هو من أولاد «هولاكو»، وقال آخرون إنّه من العرق الكاوياني.

وفي تلك الأثناء توفي «سليمان خان» الإيلخان الذي صنعه «الشيخ حسن الصغير». وكيفية موته غير معروفة.

وكان «أنوشروان العادل» آخر من تولى منصب الإيلخان من هذه السلسلة. ومصيره مجهول.

ولكن بقيت من عهده نقود مؤرخة سنة ٧٥٦ هـ. وقتل الإيلخان الآخر «طغاتيمور» سنة ٧٥٣ هـ.

وبهذا تكون سنة ٧٥٦ هـ آخر الأيام من العهد الإيلخاني. وبها ينتهي تاريخ حكم المغول من أحفاد جنكيز لإيران.

وأما الشوبانيون الثلاثة فقد فر «سيورغان» إلى ديار بكر لاجئاً إلى «إيلكان» ابن «الشيخ حسن الكبير» فأجاره وأكرمه، ثم لم يلبث أن قتله. وأما «ياغي باستي» فقد استسلم إلى ابن أخيه «الملك أشرف» فحمله معه إلى

تبريز. وبعد مدة قليلة قتله وأشاع أنّه هرب. وأما «الملك أشرف» فقد أصبح، بعد ذلك، مستقلاً بالحكم كل الاستقلال، وبقي على هذه الحالة أربع عشرة سنة، من سنة ٧٤٤ هـ إلى سنة ٧٥٩ هـ قضاها في الظلم والاستبداد وكنز الأموال، حتى نفذ صبر الناس فدعا أهالي تبريز «جاني بيك» عاهل «دشت قبجاق» إلى احتلال مدينتهم وتخليصهم من ذلك الظالم. فدخلها في أوائل سنة ٧٥٩هـ وقتل «الملك أشرف». وبقتله زالت دولة الأمراء الشوبانيين(١).

وهذا فهرست بأسامي إيلخانات إيران، وقد استمر حكمهم من سنة ٦٥١ هـ إلى سنة ٧٥٦ هـ:

١ - هولاكو خان بن تولوي بن جنكيز	من	٦٥١	إلى	٦٦٣
٢ - أباقا خان ابن هولاكو	من	٦٦٣	إلى	٦٨٠
٣ - السلطان أحمد تكودار بن هولاكو	من	٦٨٠	إلى	٦٨٣
٤ - أرغون خان ابن أباقا	من	٦٨٣	إلى	٦٩٠
٥ - كيخاتو بن أباقا	من	٦٩٠	إلى	٦٩٤
٦ - بايدو خان بن طرغاي بن هولاكو	من	٦٩٤ربع١	إلى	٦٩٤ ذي القعدة
٧ - غازان خان بن أرغون	من	٦٩٤	إلى	٧٠٣
٨ - أو لجايتو خدابنده بن أرغون	من	٧٠٣	إلى	٧١٦
٩ - أبو سعيد بها درخان ابن ألجايتو	من	٧١٦	إلى	٧٣٦
١٠ - أرباكاون	من	٧٣٦	إلى	
١١ - موسى خان بن علي بن بايدو	من	٧٣٦ شوال	إلى	٧٣٦ ذي الحجة
١٢ - محمد خان ابن متكو تيمور بن هولاكو	من	٧٣٦ ذي الحجة	إلى	
١٣ - ساتي بيك بنت أولجايتو	من	٧٣٩	إلى	٧٤١
١٤ - شاه جهان تيمور بن آلافرنك بن كيخاتو	من	٧٣٩	إلى	٧٤٠
١٥ - سليمان خان ابن يشموت بن هولاكو	من	٧٤١	إلى	٧٤٥
١٦ - طغا تيمور خان	من	٧٣٦	إلى	٧٥٣
١٧ - أبو شروان العادل	من	٧٤٤	إلى	٧٥٦

(١) مصادرنا الاساسية في بحث (الإيلخانيون) هي: كتاب (تاريخ المغول) لعباس إقبال، وكتاب (ابن الفوطي) للشيخ محمد رضا الشبيبي، وكتاب (جامع التواريخ) لرشيد الدين فضل الله الهمداني، وما نقل في بعض الدراسات عن كتاب (الحوادث الجامعة)، وموسوعة (أعيان الشيعة)، وما كتبه السيد جودت القزويني والعراق بين احتلالين.

مستدركات

- ١ -

لا بد من الإشارة إلى أن الهجمة المغولية لم تكن على البلاد الإسلامية وحدها، فإنهم بعد أن اجتاحوا شمال إيران ووصلوا إلى آذربيجان سنة ١٢٢٠م، اجتاحوا القوقاز ودخلوا القرم واحتلوا مدينة «سوداك» سنة ١٢٢٣م ووصلوا إلى أواسط آسيا، وحاصروا مدينة «كييف» وهناك تصدت لهم الجيوش الروسية فهزموها واجتاحوا مدن روسيا. ثم تحولوا إلى الشرق. وبعد حملة خوارزم كان جنكيز يتهيأ لغزو «تنغوث» على الحدود بين المغول والتبت، ولكنه مات خلال الحرب سنة ١٢٢٧م فخلفه ابنه الأكبر «أوغيدي» الذي تابع غزو الصين بين سنتي ١٢٣٦و١٢٤٠ ووصل إلى روسيا وبلغاريا وبولونيا وبوهيميا وهنغاريا، وأخيراً إلى مدينة البندقية في إيطاليا.

ولم تتحرر هذه الأمم من المغول إلّا ابتداء من حوالى سنة ١٣٦٠م حيث تحررت الصين أولاً، ثم تحررت أوروبا بما فيها روسبا سنة ١٣٨٠م.

- ٢ -

للعبرة التاريخية وبيان ما يؤدي إليه الشقاق في الأمة الواحدة نذكر هنا أن الشقاق بين المسلمين الذي مكن للمغول في المسلمين، هذا الشقاق

الذي عاد فنشب بين المغول أنفسهم هو الـذي أنقذ المسلمين من تمـادي تسلط المغول عليهم وامتداد هذا التسلط إلى أبعد مما امتد إليه.

فبعـد معركـة «عين جالـوت» التي انهزم فيهـا المغول، وغـاب عنهـا «هولاكو»، كان من المحتوم أن يعيد المغول الكرة على مصر بقيادة «هولاكو» نفسه، لولا نذر الشقاق التي أطلت بين المغول على الوجه التالي:

سنة ٦٥٨ هـ (١٢٥٩م) بعد سقوط بغداد بحوالي سنتين، وبعد موت «منكو قاآن» امبراطور المغول الذي كان أخوه «هولاكو» قائداً من قواده، قام صراع بين الأخوين «قوبلاي» و «أربوقا» وطلب الأول مساعدة أخيه «هولاكو». وقد أعقب ذلك خلاف بين «بركاي خلان بن جوجي» حاكم مغول القفجاق وابن عمه «هولاكو»، مما أدى إلى وقوع سلسلة من المعارك بين الفـريقين وتركيز «هـولاكو» قـواته في الجهـات التي يحمي بها ممتلكـاته من الخـطر الجديد، وعدوله عن غزو مصر، واتخاذه موقف الدفاع أمام دولة المماليك.

- ٣ -

جنكيز خان هو الذي أحيا اسم «المغول» الذي كان قد اندثر في منغوليا نفسها، ولفظ «مغول» لم يكن على عهد جنكيز خان سوى مصطلح رسمي، وكان مجهولاً تماماً لدى بقية الشعب. على أن توحيد جنكيز لهذا الشعب كان توحيداً لشعب بعيد عن الحضارة، فكان لا بد له قبل انطلاقه في غزوه من أن يفيد من الشعوب الأخرى.

ويقـول «بارتـولد» في كتـابه «تـركستان من الفتـح العربي إلى الغـزو المغولي» إن أول ممثلين للحضارة من بلاط جنكيز «وذلك قبل سنة ١٢٠٣م» ممن وصلتنا حقائق بشأنهم هم بعض التجار المسلمين.

وقد كان لانتصار جنكيز خان على الصين بعد ذلك واحتلاله «بكين» سنة ١٢١٥م أو سنة ١٢١٣م على اختلاف بين رأيين ـ كان لهذا الانتصار من الأثر في تركيز جنكيز وبلوغه المقام الرفيع ما لم يكن حتى لتوحيد القبائـل المغولية.

عاد علاء الدين خوارزم شاه بعد فشله في الوصول إلى بغـداد ـ عاد يتطلع نحو الشرق، فإذا كان قد فشـل بهيبته ثم بجيشـه في بلوغ عاصمـة الخلافة فلماذا لا يصل إلى الشـرق البعيد؟ لمـاذ لا تكون الصين مقصـده فيخضعها لسلطانه الطموح؟ ولكنه وهو يحلم بذلك ويقلب الأمر على وجوهه، فوجىء بأن جاره المتنامي القوة جنكيز خـان قد سبقـه إلى الصين، وحلت جيوشه في «بكين»، فكان أكبر همه أن يعرف حقيقة هذا الجار وحقيقة القوى التي يعتمد عليها. وعلى ما يروي الجوزجاني فإن علاء الدين خوارزم شاه أرسل سفارة إلى جنكيز خان كان على رأسها بهاء الدين الرازي الذي تلقى منه الجوزخاني أخبار رحلة تلك السفارة. وكان جنكيز لا يزال في الصين عند وصول السفراء إليه، إذ أنّه لم يعد إلى منغوليا إلاّ سنة ١٢١٦م فاستقبل الوفد بمظاهر الود، ومما قاله لهم إنّه إذا كان يعتبر نفسه سيّد المشرق فإنّه يعتبر علاء الدين محمد سيد المغرب، وهو يأمل بـأن لا يقوم بينهمـا إلاّ الوئـام والسلام، وأن يكون لتجار الفريقين حرية السفر والانتقال.

ثم رد على السفارة بسفارة مثلها أوفدها إلى علاء الدين خوارزم شاه، وعلى ما يروي النسوي في (سيرة جلال الدين) فإنّه كان على رأس السفارة الجنكيزية محمود الخوارزمي وعلي خواجة البخاري ويوسف كنكا الأتراري. وهكذا تعمد جنكيز أن يكون سفراؤه إلى الملك المسلم مسلمين.

وفي ربيع العام ١٢١٨م استقبل علاء الدين وهو في ما وراء النهر سفراء جنكيز، وكانت رسالة جنكيز كما يصفها النسوي: تشتمل على طلب المسالمة والموادعة وسلوك مسالك المجاملة. وقالوا: «إن الخان الكبيـر يسلم عليك ويقول ليس يخفى علي عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك، ولقد علمت بسطة ملك وإنفاذ حكمك في أكثر اقاليم الأرض، وأنا أرى مسـالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي. وغير خاف عليك أيضاً أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك وقد أذعنت لي قبائلهم وأنت أخبر الناس بأن بلادي منارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية من طلب غيرها،

فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التـردد عمت المافـع وشملت الفوائد[١]».

ومع أنه لم يعجب علاء الدين اعتبار جنكيز له كأحد أولاده، فإننا نفهم ما ذكره النسوي أن جواب علاء الدين كان إيجابياً، وأن جنكيز سرّ به.

ولكن الذي حدث هو أن جنكيز أرسل قافلة تجـارية كبيـرة كان كـل رجالها من المسلمين ـ كما يروي الجيويني ـ وانها كانت تضم في مجموعها ٤٥٠ رجلاً يذكر النسوي أنّه كان على رأسهم كل من: عمر خواجة الأتراري والجمال المراغي وفخر الدين الديزكي البخاري وأمين الدين الهروي.

أما ابن الأثير فلا يحدد عدد رجال القافلة ولا يذكر دينهم ويكتفي بالقول أنهم أتراك، كما لا يذكر مما حملوه من البضائـع إلا النقرة والقندس ثـم يردف ذلك بكلمة وغيرهما. أما الجوزجاني فيقول إن القافلة كانت تحتوي على خمسمائة جمل محملة بالبضائع من الـذهب والفضة والحـرير الصيني وثياب الترغوفر والقندس والسمور وغيرها من الأشياء.

واتفاقاً مع راوية الجويني فإنّه يغلب على الظن أن القافلة قد غادرت منغوليا في وقت واحد مع السفارة فبلغت مدينة الحدود «أترار» بعد قليل من مغادرة السفراء لأملاك علاء الدين خوارزم شاه. وتدل نصوص ابن الأثير على أن جنكيز حين أرسل القافلة كان متجهـاً بجيشه إلى نـواحي تركستـان وإن الغرض من إرسال القافلة هو أن يبيع تجارها ما يحملونـه من بضائـع، ثم يشترون بثمن ما باعوه كسوة كان يحتاجها رجال جنكيز في سيرهم الطويل نحو تركستان.

ويقول عطا ملك الجويني في كتابه «جهانكشا»: «كان جنكيز قد بعث مع التجار رسالة إلى السلطان يقول فيها: إن الحدود بيننا قريبة وقد كشفها العدو واستخلصناها كلها، ويقتضي منك حق الجوار بالعقل الإنساني الرزين الذي على الطرفين تعهده ومراعاته، وعلينا أن نلتزم جانب المعاونة إذا وقعت

---

(١) تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي.

الواقعة لأحدنا، وأن نسهل أمر المسالك والممالك ريثمـا ينتهي التجار من وضعهم ويعودون سالمين».

ويعلق عطا ملك على ذلك قائلاً: «ومع ذلك فإنه لم ينتصح بما قاله له ولم يعره التفاتاً بل قتل الرسول».

ومن النصوص التي مرت تتضح لنا عدة أمور:

١ ـ انه كان بين رعايا جنكيز من هم مسلمون، وأن جنكيز قد اختار مرسليه من التجار المسلمين لما يربطهم برعايا علاء الـدين خوارزم شـاه، وبعلاء الدين نفسه من روابط دينية، وأن علاء الدين لم يتوان مع ذلك عن الأمر بقتلهم وسلبهم.

٢ ـ إنه في الحين الذي أرسل فيه جنكيـز التجار إلى خـوارزم لأداء مهمتهم ببيع ما معهم وشراء ما يحتاجه جيشه، أرسل في الوقت نفسه رسولاً خاصاً إلى محمد علاء الدين خوارزم شاه يعلمه بأمر التجار ويعرض عليـه التحالف على الأعداء المشتركين، فتجاهل محمد علاء الدين ذلك وأمر بقتل الرسول أيضاً.

ـ ٥ ـ

عندما نفذ جنكيز وعيده واقتحم خوارزم ووصل إلى مدينة «أترار» انضم إليه نائب السلطنة في المدينة واسمه بـدر الدين العميـد، وكان ينـوب عن الصفي الأقرع الذي يدعوه النسوي وزير السلطان ببلاد الترك. وقد حصل منه جنكيز على معلومات مفصلة عن الأحوال السياسية في البلاد.

وفضلاً عن ذلك فقد كان مع جنكيز ثم مع أبنائه أيضاً عدد من التجار المسلمين عملوا على تعريف المغول الأحوال في كل موضع.

ـ ٦ ـ

يقول «بيير تولد شبولير» في كتابه (المغول في التاريخ) المترجم إلى

اللغة العربية، في الصفحة ٤٥ عن مرصد مراغة الـذي أنشأه نصيـر الدين الطوسي: «هو مرصد يدين له علم الفلك بكثير من معلوماته الهامة».

- ٧ -

غازان هو الابن البكر لأرغون تولى الملك وعمره ٢٤ سنة. وخلال عشر سنوات من موت أحمد تكودار سنة ١٢٨٤م، كان الإسلام قد تمكن في نفوس المغول فسهل الأمر على غازان.

وقد توفي غازان في سنة ١٣٠٤م وعمره ٣١ سنة.

- ٨ -

من أفضل ما وصفت به حال المسلمين إبان الغزو المغولي وما أصيبوا به من ضعف وانخذال وانهيار المعنويات هو قول الدكتـور جعفر خصبـاك: «كانت غالبية المسلمين في هذا الحين تنقصهم القيم الروحية التي نسميها الآن: (الايدلوجية) التي تشد بعضهم إلى بعض».

وقد كان الإسلام وهو أهم رابطة تجمع سكان المنطقة وتوحد فيما بينهم قد أضحى آنذاك مجرد ثقافة وأسلوب في الحياة، وقـد فقد قـوته الـدافعة القديمة وغلبت على أكثر المسلمين روحية الاستسلام للقضاء والقدر.

إسلام المغـول

مــر الحـديث عن إســلام المغـول مــوجـزاً، خــلال الحـديث عن (الإيلخانيين) وننشر هنا ما كنت قد علقت به في هذا الموضوع على ما نشر في إحدى الجرائد:

أنـا لم أقرأ كتـاب «الإسلام وحضـارته» للمستعـرب أندريـه ميكيـل، ومعلوماتي عنه مأخوذة مما كتبه عن التعريف به كاتب في العدد ١٠٢٩٦ من «الحياة».

نقل الكاتب أن المؤلف قـال عن إسلام المغـول، أن سبب اعتناقهم الإسلام ناتج عن أسباب سياسية، وذلك ليكونوا على دين واحد مع الشعوب التي حكموها. إلى آخر ما قال...

ونحن مع تقديرنا للمؤلف، وتقديرنا للجهود التي بذلها في تأليف هذا الكتاب، نقول أن هذا التعليل لاعتناق المغول الإسلام، هو تعليل سطحي، إذ أن أخذهم بالإسلام وانتماءهم إليه يعودان إلى جهود مضنية ومحـاولات مستمرة كانت تنجح أحياناً وتفشل أحياناً، إلى أن عمهم الإسلام وصار دينهم الذي يتمسكون به.

والعمل الذي بدأه رجال الإسلام أول ما بدأوا بعد سقوط بغداد وانحلال الرباط الذي كان يشـد العالم الإسـلامي بعضه إلى بعض، كـان الاحتفاظ

بالإسلام قوياً في نفوس المسلمين، وبعث العزائم الميتة، واذكاء الآمال الخابية، وإعداد الرجال الأكفياء لقيادة المستقبل الذي ينتظر العالم الإسلامي. وهذه المرحلة تولى زمامها نصير الدين الطوسي ومن جمعهم حوله من الأعوان. ولما نجحوا في ذلك، تحولوا إلى ما هو أبعد منه، إلى تحويل المغول إلى مسلمين وهذا ما كان لآل الجويني فيه الفضل الكبير.

في أول أخطاء المؤلف اعتباره غازان المسلم الأول بين ملوك المغول.

وهذا الاعتقاد جره إلى أن يقرر أن إسلام المغول كان لأسباب سياسية غايتها توطيد الملك وتثبيت الحكم.

وحتى لو سلمنا أنَّ ابتداء إسلام المغول كان في عهد غازان، فلن نسلم أن هذا الإسلام كان للأسباب التي ذكرها المؤلف، لما نعرفه عن الجهود التي بذلت في سبيل ذلك على مراحل متباعدة أدت في النهاية إلى إسلام غازان واعلانه الإسلام ديناً للدولة مما أدى في النهاية إلى إسلام الدولة كلها، وسنكتفي هنا بالتدليل على أن إسلام المغول سبق عهد غازان، وعلى أن هذا الإسلام لم يكن إلاّ لأسباب اعتقادية.

مات هولاكو وملك بعده ابنه أبقا والدولة على وثنيتها. ولكن المساعي الإسلامية الخفية كانت ناشطة في أكثر من ميدان، وكان من أكثر العاملين في هذا السبيل آل الجويني الذين استطاعوا التمركز في مواقع حساسة في الدولة الإيلخانيّة، فاستغلوا موقعهم هذه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه أولاً من أمور المسلمين، ثم النفاذ بعد ذلك إلى العقائدية المغولية لتحويلها إلى الإسلام. وراهنوا على الابن الثاني لهولاكو تكودار فاستطاعوا تليينه وإمالته إلى الإسلام، على أمل أن يجيء يوم يتولى فيه الملك فيجاهر بالإسلام، ويسلم المغول تبعاً له.

ومات أبقا في مدينة همدان سنة ٦٨٠ هـ بعد أن عهد بالملك إلى ابنه أرغون. ولكن آل الجويني ومن تابعهم من الأمراء والقواد رأوا الفرصة سانحة لتنصيب الابن الآخر لهولاكو تكودار. فنادوا بخلع الملك الجديد، ونصب تكودار مكانه باسم السلطان أحمد تكودار إعلاناً لإسلامه وإسلام الدولة.

وإذا كان آل الجويني سياسيين غير متفرغين للشؤون الدينية، ولا محيطين بتفاصيلها، فقد تولى أمر الإتصال الدائم بتكودار وشرح العقيدة الإسلامية له وتعميق جذورها في نفسه، شيخ صوفي يسمى كمال الدين عبد الرحمن الرافعي.

ولما كانت السلطة المركزية الإيلخانيّة بقيادة أرغون تملك من القوى ما تفسد به أمر تكودار، فقد مضى آل الجويني ومن والاهم بأحمد تكودار إلى مدينة (الطاف) الواقعة في أقصى خراسان واستقروا به هناك سنة ٦٨١ هـ.

وأرسل علاء الدين الجويني رسالة إلى أهل العراق عموماً وبغداد خصوصاً يصف لهم فيها الانقلاب الذي تم من خلع أرغون إلى نصب السلطان أحمد، ناعتاً الدولة الجديدة بالنعوت الإسلامية، قائلاً عنها: الدولة الإيلخانيّة الأحمدية التي نشرت ألوية الشريعة المحمدية، وبسطت يد العدل في الأرضين، وكفت عن البلاد والعباد أكف الظالمين والحمد لله رب العالمين.

ثم وصل إلى بغداد بعض أولاد علاء الدين ومعهم بعض النواب والحكام، فقوبلوا من البغداديين بمظاهرات التأييد الحماسية.

أما ما كان من أمر أرغون، فقد سلم أولاً بالأمر الواقع، مضمراً الانقضاض على هذ الأمر بعد تدبير وإحكام. فذهب إلى خراسان حيث قابل السلطان أحمد، ثم سافر إلى العراق.

وفي سنة ٦٨٣ هـ كان أرغون قد أحكم أمره وأعلن التمرد، وكانت كل المظاهر تدل على رجحان كفة أحمد تكودار، ولكن أرغون تمكن من استمالة جيش أحمد إليه متصلاً بالقادة وأبرزهم بوقا الذي أعلن انقلابه على أحمد، وهرع إلى أرغون وآزره على قتل بعض قواد السلطان أحمد معلناً أن أرغون هو السلطان. ووجد أحمد نفسه محاطاً بأعدائه فحاول الإفلات ولم ينجح، فقتل.

وهنا أذاع بوقا من قلعة تلا، مدفن هولاكو، القريبة من مراغة في

آذربيجان قتل تكودار لخروجه على دين آبائه وأجداده، وتولية أرغون مكانه. ثم أصبح هو الحاكم الفعلي إذ أسند إليه منصب نائب السلطنة متولياً بذلك جميع صلاحيات السلطان، يعاونه في منصب رفيع آخر أخوه أروق.

وفي سنة ٦٨٨ هـ تمكن أرغون من إسقاط بوقا، فقتله وقتل أولاده وأخاه ونوابه.

فشلت الدولة الإسلامية الإيلخانية وأسقطها انقلاب عسكري ـ كما رأينا ـ ولكن هذا الفشل كان إلى حين، إذ كانت جذور الدعوة قد تأصلت وظل دعاتها يقظين يعملون حتى تم لهم الأمر في عهد غازان.

بقي أن نتعرف على الإجراءات الإسلامية التي نفذها أحمد تكودار خلال فترة حكمه القصيرة:

كان همه الأول الإتصال بالعالم الإسلامي وإعلان تضامنه معه، وإنهاء العداء المزمن بين المغول والمماليك في الشام ومصر، فانتدب لهذه المهمة مرشده إلى الإسلام الشيخ عبد الرحمن، فسار برسالة منه إلى سلطان مصر المملوكي مؤرخة سنة ٦٨٠ هـ وعاد بالجواب إليه. ثم أردف السلطان أحمد رسالته الأولى برسالة ثانية مع الشيخ نفسه إلى الشام سنة ٦٨٢ هـ حيث كان الملك المنصور فيها.

ويذكر ابن الفرات في تاريخه في احداث سنة ٦٨٣ هـ وصول الملك المنصور قلاوون من مصر إلى دمشق واستقباله لوفد أحمد تكودار برئاسة الشيخ عبد الرحمن. ثم وصول الخبر بالانقلاب العسكري ومقتل أحمد، وإخبار قلاوون للوفد بذلك بتفاصيل ليس هنا مكان الحديث عنها.

علاقات المغول بالفاتيكان

مر بنا خلال البحوث السابقة بعض ما يتعلق بهذا الموضوع، وبمجمل العلاقات المُغولية المسيحية. وربما تكررت الإشارة هنا إلى شيء مما مر الحديث عنه هناك مما لا بد منه ليظل الموضوع مترابطاً عند الدخول في التفاصيل.

وسنبدأ أولاً بذكر العلاقة بين المغول والفاتيكان قبل قيام الدولة الإيلخانيّة، ثم بقيام هذه العلاقاة أيّام الملوك الإيلخانيين:

قبل قيام الدولة الإيلخانية

بعد موت جنكيز واختيار خليفة له عاود المغول التصميم على الزحف متابعة منهم لما رسمه جنكيز من خطط للاجتياح والتوغل في العالم.

وتقاسم أحفاد جنكبز: باتو بن جوجي وكيوك بن اكتاي ومنكو بن تولي، قيادة الجيوش المتهيئة للزحف على أوروبا، وتقدموا بها هازمين القبائل السلافية في السهول المتاخمة لنهر الفولكا، وأحرقت الحواجز الهامة هناك أمثال: فلاديمير وموسكو، واحتُلت اوكرانيا، وتم الاستيلاء على روسيا كلها.

ومشى المغول إلى بولونيا والمجر فهزموا الجيشين المتحدين: الجيش الألماني والجيش البولوني سنة ٦٣٩ هـ ثم كانوا على مشارف برلين.

وفي الوقت نفسه كان جيش آخر يتقدم إلى «فينا» عاصمة النمسا، وكاد المغـول أن يحكموا سيـطرتهم على أوروبا كلهـا لولا أن بلغهم جبـر وفـاة «اوكتاي»، فقرروا الانسحاب والعودة إلى بلادهم.

ولكن عودتهم لم تعد الاطمئنان إلى الأوروبيين الذين كان قد أصابهم الهلع من الزحف المغولي المدمر، وبقـوا يعيشون هـاجس معاودة المغـول للتقدم في أوروبا.

لذلك اتجهت انظارهم إلى الاتصال بالمغول واستحداث علائق حسنة بهم وتحويل انظارهم عن أوروبا إلى البلاد الإسلامية، مستغلين وجود أعداد وفيرة من النصارى في البلاط المغولي، بل إن قبائل برمتها كانت ذلك الحين تتخذ من النصرانية ديناً لها أمثال قبائل: كرائيت، واويغور، ونايمان.

ولقد ساعد التوجـه النصراني قـرار المجلس المغولي الأعلى (القـور بلتاي) اختيار «كيوك خان» لزعامة المغول، وكانت أم «كيوك» هذا «توراكينا خاتون» نصرانية، وكان قد سبق لها بعد وفاة زوجها وقبـل تولي ابنهـا، أن حكمت المغول بنفسها أربع سنوات. ويقول كتاب «روضة الصفا» أنها كانت قد عهدت قبل ذلك بتنشئة ابنها إلى الأمير النصراني «قداق».

وفور تولي «كيوك» السلطة عهد إلى مستشار أبيه «جينقاي» النصراني بمنصب الوزارة فنجح هذان الرجلان: «قداق» و«جينقاي» في تحويل تفكير «كيوك» عن اوروبا النصرانية، إلى البلاد الإسلامية.

ويتحدث صاحب كتاب «روضة الصفـا» عما كـان يبديـه «كيوك» من اهتمـام بالنصـارى ورعايـة لهم، وعن الدسـائس التي كـانت تحيكهـا تلك الجماعة على العالم الإسلامي بدعوة زعيم المغول للقضاء على الإسلام.

وفي الاحتفال الحافل الذي اقيم في تنصيب «كيوك» لبى ممثلو مختلف دول العالم الدعوة المغولية لحضوره، وكان بين من حضر ممثل إيطالي لبابا رومـا «أنيوسـان الرابـع ١٢٤٣ ـ ١٢٥٤» هو «دوبـلانو كـاربينو» من قسـاوسة

«الفرانسيسكين»[1] وقد طمع البابا في أن يستطيع ممثله هذا في إدخال المغول في النصرانية. لذلك عهد إليه بمهمتين: دعوة المغول إلى دينه مستغلاً وجود الحاشية النصرانية في بلاط «كيوك» ثم دعوتهم إلى تحويل أنظارهم عن غزو أوروبا، والتحالف مع البابوية وملوك أوروبا على المسلمين.

وفي السادس عشر من نيسان سنة ١٢٤٥م غادر هذا القسيس مدينة ليون فوصل في الرابع عشر من شباط سنة ١٢٤٦ مدينة «كييف» أولى المدن الداخلة في السيطرة المغولية، ومنها توجه إلى مدينة «سراي»[2] حيث التقى فيها «باتوخان» بن «جوجي». وبعد حصول مندوب البابا الذي كان مصحوباً بأخيه، على إذن بالسفر إلى العاصمة المغولية «قراقروم»[3] فوصلا بعد سفر طويل واجتياز صحار شاسعة وفلوات بعيدة.

وقد استغرق سفر «كاربينو» من ليون إلى قراقوم سنة وثلاثة أشهر وستة أيام. وفي العاصمة التقى بغيره من مندوبي الممالك الآسيوية والشرق أوروبية الذين شاركوا جميعاً في شهود الاحتفال بتتويج «كيوك خان».

واغتنم المندوب البابوي فرصة هذه اللقاءات ليوثق العلائق بين البابوية وبين روسيا والمجر وكرجستان، وليزداد اطلاعاً على شؤون منغوليا بعامة والبلاط المغولي بخاصة.

على أن وجود الجميع في ذلك الجو المغولي الحذر لم يكن يخلو من أخطار لشدة تحرز المغول من الأجانب وإساءتهم الظن بكل ما هو غريب عنهم. وقد قتل المندوب الروسي الدوق «ياروسلاف» بالسم لشبهة بسيطة، مع أنه كان مرسلاً إلى قراقوم من «باتوخان» المغولي.

---

(١) Johanes de Plano earpino المولود في ايطاليا سنة ١٢٢٠.

(٢) كانت سراي قاعدة المغول في روسيا، وهي تقع على ضفة نهر «الفولكا».

(٣) أمر «أوكتاي قاآن» ببناء مدينة جديدة اسماها «اردو باليغ»، فبناها له المعماريون الصينيون وأقيمت على أنقاض مدينة كان قد خربها «الاويغوريون»، وقد غلب عليها اسم «قراقروم» لوقوعها قريباً من جبال قراقروم.

جــواب «كيـوك»

قدم «كاربينو» رسالة من البابا إلى الملك المغولي «كيوك خان» وتلقى عليها جواباً لا يزال أصله محفوظاً في الفاتيكان مع غيره من الوثائق البابوية.

وكان جواب «كيوك» مملوءاً بالغرور والعجب بالنفس، تبدو فيه قسوة المغول وخشونه طبعهم، ولكنه مع ذلك بعث الاطمئنان والأمل في البـابا، وفي سائر الملوك الأوروبيين.

ورغب «كيـوك» في إرسال وفـد مغولي إلى حـاضرة الفـاتيكان بـرفقة «كاربينو» ولكن هذا عارض ذلك ولم يشجع عليه.

ويعلل «ادوار براون» في كتابه التاريخ الأدبي لإيران موقف هذا الموقف من «كـاربينو» بعـدة علل أهمهـا: عـدم كشف الحـروب بين ملوك أوروبـا النصارى، وما هم عليه من عداء عميق لبعضهم البعض. مما سيعرفه السفراء المغول في سيرهم إلى الفـاتيكان واجتيـازهم أوروبا، فيحملهم ذلـك على الاستهانة بهم وتحريض السلطات المغولية العليا على مهاجمة أوروبا.

ثم خشيـة «كاربينـو» من أن ينال السفـراء المغوليين بعض الأذى من الأوروبيين الذين عانوا من جيوشهم ما عانوا، ولم يكن المغول يغفرون لمن يعرض لسفرائهم بقتل أو أذى شديد.

على أن «كاربينو» لم يعـد بشيء قاطـع عن عدول المغـول عن غزو أوروبا، لذلك كان يخشى أن يتعرف سفراء المغول على الطرق والمسالك والمنافذ فيفيدهم ذلك في غزوهم الذي سيظل محتملاً دائماً.

ورجع «كاربينو» من قراقوروم، ولما وصل إلى «كييـف»، لم يكد يصدق أنّه نجا، وكان كمن تخلص من موت محتوم، لذلك كان يستقبل في كل مكان بالبهجة والتهنئة على خلاصه.

على أن بعض المؤرخين يصفـون رحلة «كاربينـو» بالـرحلة الشجاعـة ويضعونه في مصاف البحار البرتغالي الشهير «فاسكـودي كامـا»، ويرون أن

«كاربينو» قد فتح الطريق إلى آسيا، بمثل ما فتح «فاسكودي كاما» الطريق البحري إلى الهند.

الوفد البابوي الثاني

لم ييأس البابا «اينيو سان» الرابع من التعاون مع المغول فبعد موفده الأول «كاربينو» عمد إلى إرسال وفد آخر مؤلف من أربعة قساوسة هم: «آنسلم دو لمباردي» و«سيمون دوسنت» و«كانتن» و«آلبريك يو الكسندر». وهم جميعاً من جمعاة «الدومينيكين» وسكان فرنسا.

وقد حمل الوفد رسالة من البابا إلى عظيم المغول، فوصلوا إلى أولى المعسكرات المغولية في إيران، ثم اجتازوا آذربيجان وتفليس ووصلوا إلى مقر «بايجونويان» في لك السنواحي سنة ١٢٤٧م (٦٤٥ هـ) وقد أزعج هؤلاء السفراء الباباويون، المغول بحركاتهم وسكناتهم. فمن جهة كانوا يجهلون كيفية التعامل مع المغول، كما يجهلون الألقاب التي يلقب بها خان المغول. بل كانوا يجهلون حتى اسم الخان الأعظم. ثم كانوا يدعون المغول إلى السلام والمصالحة وتجنب إراقة الدماء، فلم تعجب المغول هذه المواعظ، وانكروا جهل القساوسة بما جهلوه من الأسماء والألقاب وأسلوب التعامل.

لذلك فقد قابلهم «بايجو» ساخطاً غاضباً وخاطبهم حنقاً قائلاً: لابد أن سيدكم البابا في غاية الجهل لأنه لا يعلم حتى اسم من يحكم هذه الأرض.

أما عن الحروب وسفك الدماء فقد قال: إننا نفعل ما نفعل بأمر من ابن السماء وبإذن منه.

وقدهم «بايجو» في إحدى اللحظات بقتل القساوسة الموفدين، ثم عدل عن ذلك لأنهم سفراء رسميون، وتحول هذه الصفة دون الفتك بهم. وقد أعادهم إلى أوروبا مزودين برسالتين، كما أرفقهم باثنين من أتباعه الغول. وفي العام ١٢٤٨م (٦٤٦ هـ) وصل المغوليان إلى أوروبا والتقوا البابا وسلموه

ما أرسل معهم. وكان مضمون إحدى الرسائل ما يأتي[1]:

إن هذه الرسالة مرسلة بأمر الخان الكبير «بايجو»، أيها البابا، لقد وصل رسلك وأوصلوا إلينا رسائلك، وقد تفوهوا في حضرتنا بكلمات جريئة، ولا ندري إن كانوا ينفذون بذلك رغبتك أم إنهم فعلوا ما فعلوه من تلقاء أنفسهم. ومهما كان الأمر فإننا نرسل لك هذا الجواب: إذا رغبت بدوام ملكك على أرضك ومائك وبلادك فإنّ عليك أن تقدم إلينا بنفسك وتقف أزاء حضرة حاكم بساط الأرض، وإن لم تفعل فالله وحده يعلم ماذا سيكون. . .

ونحن لا نريد منك الآن سوى الاجابة بأنك ستأتي أم لا، وإن كنت ستأتي، فهل ستأتي موادا أم معاديا. أ. هـ.

والواقع أن هذا الأسلوب في التهديد والوعيد هو الأسلوب الذي إعتاد المغول على استعماله في رسائلهم لمن يهددونهم ويتوعدونهم، فقد كتبوا مثلاً إلى كيخسرو أحد سلاجقة الروم قائلين: إنـك تتكلم بشجاعـة وسينصر الله من يشاء.

وقد أورد عطا الملك الجويني في كتابه «جهان كشاي» بعض عبارات التهديد التي هي من هذا القبيل، والتي كان المغول يكثرون من استعمالها.

وهكذا فإن موفدي البابا لم ينجحوا في مهمتهم، وعادوا من آسيا دون أن يتمكنوا من كبح جماح المغول وترويض وحشيتهم. على أنهم عرفوا في رحلتهم هـذه الكثير ممـا يحبون أن يعـرفوه من عـادات المغول وتقـاليدهم وخصوصيات أخلاقهم، ما كان الأوروبيون يجهلونه كل الجهل.

وقد أثار اغتباط البابا وملوك أوروبا ما عرفوه عن الوجود النصراني في أوساط المغول، وراودتهم الآمال في إمكان استغلال هذا الوجود للأهداف المنشودة.

---

(١) «جنكيز خان» لهارولد لمب: ص٥١٨ ـ ٥١٩.

مع المغول الإيلخانيين

من هولاكو إلى «أرغون»

أخذت علاقات الملوك المغول الإيلخانيين مع الأروبيين تتسع في هذا العصر باضطراد، وبدا أن الجو أصبح ملائماً لعقد اتفاقيات ومعاهدات بين الفريقين. وكان العامل الأكبر في ذلك استمرار الصراع الدموي بين الإيلخانيين ومماليك مصر والشام، وتوالي هزائم الإيلخانيين أمام المماليك، وعجز الأولين عن بسط سلطانهم في تلك المناطق، ما حدا بهم إلى التفكير في ضم البابا والأوروبيين إلى صفهم في نضالهم هذا.

ولم تمض السنة الأولى من حكم «منكو قاآن» وتجيء السنة الثانية حتّى كان يعهد إلى أخيه «هولاكو» بالتوجه غرباً إلى القضاء على الاسماعيليين ثم العباسيين واجتياح البلاد الإسلامية، وكان مما أوصاه به رعاية النصارى والاستماع دائماً إلى «آراء» زوجته النصرانية «دوقوز خاتون» والعمل بتلك الآراء.

وهكذا تحرك «هولاكو»، وهو ذو الأم النصرانية، والزوجة النصرانية ـ تحرك باتجاه إيران بجيوش فيها قبائل مغولية مسيحبة، هي قبائل: اويغور، ونايمان، وكرائيت.

ونفذ «هولاكو» وصايا أخيه «منكو قاآن»، وعمل بآراء زوجته «دوقوز»، فرعى النصارى كل الرعاية فيما اجتازه من بلاد، وحازه من عباد، مما مرت الإشرارة إلى بعضه في الفصول السابقة.

ولما بلغت البابا انباء هزيمة المغول في «عين جالوت» بادر على الفور إلى معاودة الاتصال بهم للتعاون على المسلمين. وتوجد في كلكسيون ادريك راينولد[1] رسالة من البلاط الفاتيكاني إلى «هولاكو»، وهي تفتقد إلى الاسم

(١) Ordic Raynold نقلاً عن «تاريخ المغول» تأليف دوسون: ج٣ص٤١٠.

والعنوان والتاريخ، على أنها تُنسب إلى البابا الكساندر الرابع[1] (١٢٥٤ ـ ١٢٦٤م)، وقد حملها إلى «هولاكو» القسيس المجري «جان»[2] ويعرب فيها البابا عن رغبته في إقامة علاقات ودية مع «هولاكو».

ويجب ان نتذكر هنا أن «هولاكو» كان قد وطّد علائته مع امبراطور روما الشرقية، وإذا كان «هولاكو» لم ينس هزيمة المغول في «عين جالوت»، ولم يبرح من ذهنه التفكير في الثأر لتلك الهزيمة، فإن انشغاله بمنازعات المغول كان يشغله عن العمل لغير نجاحه في خضم تلك المنازعات، على أنه لم يلبث أن مات في آذربيجان غير متجاوز من العمر الثماني والأربعين سنة. وخلفه في الحكم ولده الأكبر «أباقا» (١٢٦٥ ـ ١٢٨٢م) (٦٦٣ ـ ٦٨٠ هـ).

وأباقا خان ـ البوذي كأبيه ـ أحكم روابطه مع النصارى بعد زواجه من «دسبينا مريم» ابنة «ميشيل بالئولوس كوس»[3] (١٢٥٩ ـ ١٢٨٢م)، وقد كانت هذه الفتاة مخطوبة لـ«هولاكو»، وعند وصولها في طريقها إليه في مدينة مراغة عاصمة الإيلخانيين الأولى كان «هولاكو» قد مات فتزوجها ابنه أباقا خان، وهكذا صار صهراً للامبراطور البيزنطي.

وقد اجتمع لأباقا تربية الأم النصرانية دوقوز، ومخالطة الزوجة النصرانية هي الأخرى، فتهالك في حب النصارى وخدمة أغراضهم وإجلال كهونتهم على أنّه ظل بوذياً في ديانته، ولم يتحول إلى النصرانية، كما قد يزعم بعض الكاتبين[4].

وقد كان للعداء الذي استحكم أمره بين مماليك مصر والشام وبين

---

(١) ينقل عن هذا البابا بأنه كان محباً للسلام، رصيناً عادلاً، وأنه كان بعيداً عن صفات أسلافه المغرمين بالحروب مؤثراً الاشتغال بالدين على الاشتغال بالسياسة، وينقل المؤرخ «فرانسيسكن» عن هذا البابا أنّه مات حزيناً لما كان يرى من المخاصمات بين المسيحيين، والمنازعات التي كانت لا تخبو نارها يومياً في صفوفهم.

(٢) Jean Hongrois

(٣) Michel Paledgus

(٤) الثامن امبراطور القسطنطينية ومؤسس السلالة البالئولكية.

راجع كتاب: Histoire de Perse «Moeurs - Usages et ccutumes». Dece Pays.

Racontés* Ala Jeunesse Par Mme Laure Bernatc ص٢١٤

الإيلخانيين المغول، وقع فرح لا حد له عند المسيحيين، أراد «أباقا» استغلاله للتأثير في البابا وملوك أوروبا وحملهم على التحالف معه على المسلمين.

وفي العام ١٢٦٧م (٦٦٤ هـ) رد البابا «كلمان الرابع» (١٢٦٥ ـ ١٢٦٨م)(١) بالتفصيل على رسالة كتبها إليه «أباقا خان» بالخط الاويغوري(٢) طلب إليه فيها أن يكاتبه بالخط اللاتيني ليتسنى له فهم مضمونها(٣).

وتحدث البابا في رسالته عن جهوده في مقابلة معارضيه، ووعد الإيلخانيين بالانتصار لهم في حربهم مع المسلمين بقوى ملوك أوروبا.

وبعد ذلك بسنتين التقى ممثلون لميشيل بالئولوكوس بممثلين لـ«أباقا» في مدينة بلنسية بمنطقة الأراكون في إسبانيا، وكانت مطالب بالئولوكوس هي انضمام المغول إلى الملوك الأوروبيين في قتالهم للمسلمين تنفيذاً للوعد الذي قطعوه للبابا.

وبالرغم مما كان عليه ملك الأراكون من الشيخوخة فقد كان عازماً على شن الحرب استناداً إلى الوعود المغولية، ولكن الأمراء الاسبان لم يوافقوه على ذلك وذكروه بغدر المغول، وأعمالهم الوحشية التي لا يمكن لأوروبا أن تنساها.

وفي العام ١٢٧٤م (٦٧٣ هـ) أرسل «أباقا» وفداً مؤلفاً من ستة عشر

---

(١) البابا كلمان الرابع«Clment» من أشهر الباباوات وقد برز كل البروز في مواجهته لأباطرة المانيا من أسرة هوخشتافن.

(٢) كتبت هذه الرسالة العام ١٢٦٧م في مدينة فيتربو«Viterbo» الواقعة على بعد ٨٤ كم من روما.

(٣) يقول المؤرخ الإيراني سعيد نفيسي أنه كان متعارفاً في البلاط الفاتيكاني آنذاك أن تكتب رسائل البابا باللغة اللاتينية، ولأهمية هذه الرسائل ولعدم وجود مترجم لهذه اللغة عند المغول الإيلخانيين، فقد كانت الرسائل تترجم إما في البلاط الفاتيكاني إلى لغة فارسية خاصة متأثرة بالطابع الأجنبي، ثم تنقل هذه الترجمة إلى من يراد إرسال الرسائل إليهم من المغول. وإما أن يقوم رجال الدين الأوروبيون الموجودون للتبشير في بلاد المغول بترجمتها.

شخصاً إلى أوروبا، بتشجيع من ملك أرمينيا الذي كان يطمع في استخلاص بيت المقدس من المسلمين. وعهد «أباقا» برئاسة الوفد إلى القسيس «دافيد». ووصل الوفد إلى مقر البابا كراكوار العاشر «كريكوري» (١٢٧١ ـ ١٢٧٦م)، فدعا هذا إلى اجتماع ديني في مدينة «ليون» ساهم فيه ممثلوا المغول، فكان كل ما أسفر عنه الأمر أن عمّد بأمر البابا اثنان من رجال المغول.

أدرك ملوك أوروبا عدم جدوى تلبيتهم لدعوة «أباقا» بشن حملات صليبية على مصر والشام لاسيما بعد ما رأوه من نمو سريع في قوى المسلمين، وضعف في عزم قواتهم وإرادتها في الفترة الأخيرة من الحروب الصليبية.

ورداً على الرسالة الأخيرة التي بعث بها «أباقا» إلى ادوار الأول ملك انكلترا (١٢٧٢ ـ ١٣٠٧م)، اعتذر ادوار بعدم استطاعته ـ وهو في الوضع الذي هو فيه ـ إرسال جيش لاستخلاص بيت المقدس. ويمكن تلخيص رده بما يلي:

«لقد وصل إلينا القسيس دافيد وسلم الرسائل المرسلة منكم إلى البابا والملوك النصارى، هذه الرسائل التي تعرب عن ميلكم إلى النصرانية، وعزمكم على مساعدة النصارى في استرداد مكانهم المقدس من أعداء النصرانية.

ونحن نطلب من المقام المحترم تنفيذ ما عزم عليه[1] على أننا لا يمكننا الآن إعلامكم عن تاريخ توجهنا إلى المكان المقدس وتحرك النصارى إليه، لأننا لم نصمم بعد تصميماً قاطعاً في هذا الشأن[2].

(١) المقصود فتح بيت المقدس.

(٢) راجع: (تاريخ سياست خارجي إيران) تأليف الدكتور كاظم صدر: ص٣٧ ـ ٤٥.

٦ كانون الثاني ١٢٧٨[١]

ويرى صاحب كتاب «سياست خارجي إيران» أنه يمكن استخلاص ثلاثة أمور من هذه الرسالة:

١ ـ رغبة المغول في الاتحاد مع الأوروبيين والحصول على مساعدتهم.

٢ ـ كان لجواب الأوروبيين هذا الجواب الباعث على اليأس، وبعض العوامل الأخرى الأثر الكبير في دخول المغول في الدين الإسلامي.

٣ ـ التغييرات الرئيسية التي طرأت على أسلوب الحكم المغولي خلال فترة قصيرة.

في ذلك الوقت كان الوضع السياسي في أوروبا قد تغير تمام التغيير، ولم تعد أوروبا كما كانت العام ١٢٥٠م تهتم كثيراً بالقضاء على المسلمين واستخلاص القدس من جديد، وقد تخلى الملوك الأوروبيون عن الاستمرار في الحروب الصليبية، ولم يعد عندهم الاستعداد لتحمل أعباء توكل إليهم من البابا أو غيره.

وقد أدرك المسلمون في مصر والشام ضعف الأوروبيين وعجزهم ويقينهم بعدم جدوى حروبهم الصليبية. ولكن «أباقا خان» كان مصراً على حرب السلمين والقضاء عليهم، وكان لوجود فريق من النصارى في بلاطه وبين حاشيته أثر كبير في إصراره هذا، فضلاً عن حنقه الشديد هو نفسه على الإسلام والمسلمين وتوقه للثأر من هزيمة «عين جالوت».

لقد كان يطمح إلى الاستيلاء على آسيا الغربية، وشمال افريقيا وزعزعة الوجود الإسلامي في كل ذلك، لهذا فقد استمر سفراؤه في التوافد على البلاط الفاتيكاني في العام ١٢٧٦م(٦٧٥ هـ) ورحب البابا جان الحادي والعشرون (١٢٧٦ ـ ١٢٧٧) بقدوم ممثلي الإيلخان المغولي الذين كانت

---

(١) ذكر تاريخ هذه الرسالة في (تاريخ إيران) للسير برسي سايكس ٢٦ كانون الثاني ١٢٧٥: ص١٤٠.

مهمتهم اليوم ـ كما كانت بالأمس ـ تحريض النصارى على قتال المسلمين للوصول إلى القدس، ووعدهم بالتحالف معهم في هذا القتال. وفضلاً عن ذلك فقد كان موكولاً إليهم إبلاغ البابا باستعداد «أبـاقا خان» وقوبيلاي خان[١] في الدين النصراني.

وبادر الباب ـ كما كان يفعل في كل مرة ـ إلى إرسال هؤلاء الموفدين إلى ملكي فرنسا وانكلترا. على أنه عزم على إرسال وفد إلى بلاط الشرق، مؤلف من خمسة قساوسة لإنجاز تنصر «أباقا» وعمه «قوبيلاي»، ولكن المنية عاجلته قبل تحقيق ذلك إذ مات سنة ١٢٧٧م.

وفي السنة التالية حقق البابا الجديد نيقولا الثالث (١٢٧٧ ـ ١٢٨٠م) ما لم يستطع سلفه تحقيقه فأرسل وفداً قوامه خمسة قساوسة فرانسسكانيين إلى كل من «أباقا» في عاصمته تبريز، «وقوبيلاي» في عاصمته (خانبا ليغ)[٢].

وفي العام ٦٧٦ هـ مني «أباقا» بهزيمـة ساحقـة في أبولستين) ممـا مر تفصيله فيما تقدم القول. وعاود بعد حين. تحريضه فأرسل رسالة إلى البابا انوريوس الرابع (١٢٨٥ ـ ١٢٨٧م)[١٤] «Honoriuy» يحثـه فيها على السعي لاتحاد ملوك أوروبا ويعده بالتحالف معهم، ولكن لم يكن لهذه الرسالة التي حملها الأسقف الإيلخاني برصوما أية نتيجة.

ويوجد في متحف الفاتيكان رسالتان من رجل الدين الكبير «يهبلاها» الذي كان «أباقا» قد اختاره رئيساً لنصارى إيران، وهاتان الرسالة هما بعض ما كان يحرض به «يهبلاها» البابا على السعي لاتحاد نصارى الشرق والغرب. وقد كتبت إحدى الرسالتين بالعربية والأخرى بالآرامية ويعود تاريخهما إلى سنة ١٣٠٢م و١٢٠٤م.

وفي العام ٦٨١ هـ توفي «أباقا» فخلفه أخوه «تكودار». وفيما فصلنـاه

---

(١) قوبيلاي قاآن هو ابن تولي خان وعم أباقا. وكان آنذاك ملكاً على الصين، وقد أمضى السائح الإيطالي المشهور «ماركوبولو» سنوات في بلاطه، وتحدث في مذكراته عن عظمة ذاك البلاط.

(٢) خانبا ليغ: بكين، أو بكينك، عاصمة الصين.

قبل من أحداث غناء عن ذكره هنا.

على أنه لابد من القول أنه على أثر مقتل «تكودار» وتولي «أرغون» مكانه (١٢٨٤ ـ ١٢٩١م) (٦٨٣ ـ ٦٩٠ هـ) اتسعت العلاقات بين المغول الإيلخانيين والفاتيكان كثيراً، وتبودلت بين الفريقين الوفادات الداعية إلى الاتحاد والتآزر.

وبعد أن قتل «أرغون» الوزير العالم الكفء شمس الدين محمد الجويني وولى الوزارة اليهودي سعد الدولة فتآمرا معاً على المسلمين، ويرى صاحب كتاب «روضة الصفا» أنّه كان في عزمهما تحويل الكعبة إلى معبد للأصنام.

وبترجيح من (يهبلاها) الأسقف النطوري المار ذكره أنه أرسل «أرغون» وفداً برئاسة القسيس الاويغوري برصوما إلى البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ ـ ١٢٩٢م)، هذا البابا الذي ظل يطمح إلى تحويل «أرغون» من البوذية إلى النصرانية[١].

وفي العام ١٢٨٨م وصل الفاتيكان رسل «أرغون» وسلموا البابا رسالة من ملكهم، فرد البابا برسالة تبشيرية، شكر فيها أولاً لـ«أرغون» إرساله السفراء إليه ومساعيه في سبيل اتحاد المغول والعالم النصراني، ثم شرح له أصول المذهب الكاثوليكي وقواعده ونجاة البشر بتضحيات ابناء هذا الدين وتضحيات ابن الله... إلى غير ذلك من الشؤون التبشيرية.

وطلب في الرسالة الثانية التي تحمل التاريخ نفسه (العاشر من نيسان)، من «أرغون» الانضمام إليه في التفكير بتحرير القدس، والدخول في النصرانية لتنضم إلى ذلك الجموع الغفيرة التابعة له.

---

(١) كان لأرغون خان علاقات وثيقة مع البابا انوريوس الرابع الذي تولى البابوية لفترة قصيرة. وفي آخر سالة وجهها إليه أرغون طلب إليه تعريف رسله إلى ملك اسبانيا فيليب الثالث وإلى شارل دانجو. ولكن رسل أرغون وصلوا في وقت كان فيه انوريوس قد توفي وتولى مكانه نيقولا الرابع.

ومع رسالتيه إلى «أرغون» أرسل البابا رسالتين إلى الأميرتين المغوليتين المسيحيتين «الكاك» Elgag و«توكتان» Toctan[1] شكرهما فيهما على ما يبذلانه من جهد في نشر النصرانية والتبشير بها.

وكان الوفد الذي حمل رسائل البابا مكوناً من أعضاء كانوا قد أمضوا عشر سنوات في الشرق مبشرين بالنصرانية وعاملين على ترويج أمرها في أصعب الظروف وأشقّها. ثم عادوا إلى روما العام ١٢٨٩م. وبعد أن أطلع البابا على معلوماتهم الواسعة وأصغى إلى تجاربهم، وعرف ما يريد معرفته عن شعوب الشرق عهد إليهم بنقل رسائله إلى «أرغون» برئاسة (جون دومونت كورونيو).

شد كورونيو وأصحابه الرحال إلى البلاط المغولي المستقر في عاصمته تبريز بإيران، فوصلوها بعد عدة شهور، فاستقبلوا فيها بترحاب.

ويذكر «دوسون» صاحب كتاب «تاريخ المغول» «ص٦٩-٧٠» أن ممثل البابا أظهر البابا لـ«أرغون» وكأنه الاله والقائد الأوحد للكون، وأنه استمر بأساليبه حتى جعل المغول السذج يتقبلوْن النصرانية بلهفة.

وبعد أن أدى هذ القسيس الشجاع المضحي مهمته أحسن أداء، واصل رحلته متجهاً إلى الشرق الأقصى حتى بلغ الصين وبنى فيها عدة كنائس كبيرة.

كانت رسائل البابا إلى «أرغون» تتسم بصفة عامة بسمة الدعوة إلى الدخول في النصرانية، ويحضه في بعضها على نصرة النصارى، والعناية بالوفود المرسلة إليه.

ورد أرغون على رسائل البابا بعدّة رسائل حمل بعضها «بوسكارل دوجيزيلف» Bouscalle de jisulf وهو من أهل جنوى، يرافقه بعض الموفدين. ويعلل الدكتور علاء الدين آذري اختيار الرسول الجنوي إنما كان المقصود منه

---

(١) هي حفيدة أباقا وأم كيخاتو.

وصول الرسائل بأسرع وقت ممكن، ولم يوضح العامل المؤدي إلى السرعة، ولم اهتدانا إلى ذلك.

والذي يتبادر إلى الذهن أن العامل الوحيد هو اختصار الطريق، ولم يق لنا الدكتور الآذري أي طريق سلك ليكون الأسرع في الوصول(١).

كانت مهمة بوسكارل إبلاغ البابا بنفسه استعداد القوات المغولية لاستخلاص بيت المقدس من المسلمين، وطلب دعم البابا وملوك أوروبا في هذه المهمة. وبادر البابا إلى إرسال بوسكارل حاملاً رسالة «أرغون» إلى ادوار الأول (١٢٧٥ ـ ١٣٠٧م) ملك بريطانيا، ورسالة إلى فيليب لوبل (١٢٨٥ ـ ١٣١٤م) ملك فرنسا. وأرسل البابا مع بوسكارل رسالتبن منه إلى الملكين يطلب إليهما إعمال الفكر كل في الرسالة المرسلة، واتخاذ قرارات حكيمة باعثة على الأمل في نفس إيلخان المغول.

وقد جاء في إحدى الرسالتين مايلي:

«عندما يصلكم أبناؤنا الأشراف الأعزاء: آندريه الذي كان اسمه من قبل: زاكان، وعُمّد على يد الكاردينال اوستي، وابن أخيه دومنيك الذي كان اسمه كركي، وباسكارلوس دو جيزلفوس المواطن الجنوي، ومورا سوس، وهم رسل «أرغون» ملك التتار المعروف، يحملون رسائل إليكم فيها مقترحات.

اطلب إليكم استقبالهم على أفضل وجه والاهتمام كل لاهتمام بما يطلبون إليكم وتسهيل مهمتهم والتعجيل بإرسالهم، لأننا عازمون على إرسال سفيرنا الخاص إلى بلاط الملك».

وكانت رسالة «أرغون خان» إلى ملك فرنسا مكتوبة باللغة المغولية بالخط الاويغوري. ولاتزال محفوظة حتّى الآن في (أرشيف) الحكومة الفرنسية. وهذه ترجمتها:

«بمقدرة الرب الأزلية، وبعناية الخاقان أرغون نقول:

---

(١) دراسة الدكتور آذري في موضوع العلاقات المغولية الفاتيكانية هي من أنفس ما كتب في هذا الأمر. وهي من مصادرنا الرئيسية.

أي ملك فرنسا، لقد أخبرتنا عن طريق سفيرنا مار باصوما ساخورا بأنكم ستلتحقون بنا إذا ما بدأنا هجومنا على المصريين. وقد كان خبركم هذا مدعاة لسرورنا.

وقد قلت بأننا قد اقترحنا المسير في سبيل الله، آخر شهر من فصل شتاء سنة ١٢٩١ وسنقف أزاء دمشق. وفي الخامس عشر من أول شهور فصل الربيع سننتزع بيت المقدس بمشيئة الله إذا ما وعدتنا وأنفذت وعدك فأحضرت قواتك في الوقت المناسب. وقد أرسلت موسكريل[1] لوكوروجي إليكم لإبلاغكم بأنكم إذا بعثتم إلينا سفراء علماء يجيدون التحدث بعدة لغات، واحضروا معهم مختلف التحف والصور الملونة من بلاد فرنسا فإننا سنرحب بقدومهم.

حررت هذه الرسالة بقدرة الرب ورغبة الخاقان في كوندولن Condaulen في السادس من أول شهر من سنة البقرة...».

يقول دوسون في كتابه تاريخ المغول:

«كان «أرغون» موقناً بأن ملك فرنسا مستعد للالتحاق به بجيشه لتحرير القدس، ويرى أنّه إذا جاء ملك فرنسا بمن معه فسيستطيع إعداد عشرين ألف فارس، بل أكثر من ذلك بكثير، وذلك بمساعدة ملوك كرجستان المسيحيين التابعين له.

على أنه من جهة ثانية كان يقدر بأنه سيكون من العسير أن يتهيّأ لملك فرنسا أعداد كبيرة من الخيل يصل بها في جيشه العتيد، لذلك أبدى استعداده لتهيئة عشرين أو ثلاثين ألف رأس من خيل بأثمان مناسبة، كما تعهد بتزويد الجيش بما يحتاجه من دواب وغلال».

وقد أرسلت فرنسا بتحريض من البابا عدداً من ممثليها إلى «تبريز»، ولكن هؤلاء أظهروا عدم استعدادهم للركوع بحضرة «أرغون» لأنه غير

---

(١) موسكوريل: هو نفسه بورسكارل، إذ كان المغول كثيراً ما يستبدلون حرف الباء بحرف الميم.

نصراني، وبالرغم من أن الضباط المغول قاموا بتعليمهم «المراسم» التي يجب عليهم القيام بها في البلاط المغولي، إلّا أنهم أصروا على رفضهم، واضطر «أرغون» إلى إعفائهم من القيام بتلك المراسم. على أنه كتب في رسالة إلى فرنسا أنه من الواجب تبليغ رسلهم ضرورة القيام بالمراسم خارج دولتهم بمثل ما يقومون بها داخل دولتهم.

وفي ٢١ آب سنة ١٢٩١م كتب البابا نيقولا الرابع رسالة إلى «أرغون»، أبلغه فيها أنه استلم رسائله التي التي حملها «زاكان» وأنه أرسل حاملها، عملاً برغبته إلى انكلترا وفرنسا. ودعاه إلى الدخول في النصرانية، وأداء غسل التعميد.

كما بعث البابا برسالة إلى «اروك» خاتون[1] أعرب لها فيها عن امتنانه واغتباطه بعقيدتها النصرانية.

على أن المهم في كل ذلك هو أن جميع التخطيطات والمساعي والنوايا التي نشطت طوال تلك المدة في الفاتيكان وفي البلاط المغولي لاسترداد القدس، وتحطيم مسلمي مصر والشام لم تأت بأي نتيجة.

ولكن توسيع العلاقات السياسية بين تبريز وروما أدى إلى تقوية رجال الدين النصراني في البلاد الخاضعة لحكم الإيلخانيين وكثر فيها بناء الكنائس.

وكذلك فإن تردد الرسل البابويين والمندوبين الإوروبيين على إيران أدى إلى اهتمامهم بما تحويه أسواق إيران من انتاج ثمين متنوع، فقامت تجارة واسعة بين الفريقين وغدت تبريز العاصمة الإيلخانية أحد أكبر المراكز التجارية في آسيا.

وفي العام ٦٩٠ هـ مات «أرغون» وخلفه على عرشه أخوه «كيخاتو» الذي وصفه المؤرخون القدامى بالفسق والفجور وقلة المبالاة بما يفعل. وفي

---

(١) هي من ذرية «أونك» خان ملك قبيلة «كرائيت» المغولية، وكانت هذه الأميرة نصرانية طول حياتها، وكان يرافقها دائماً قسيس. وكان لها ولد عمّدته وأسمته نيقولا.

عهده تمت ترجمة كتاب «دياتسرون» إلى اللغة الفارسية[1] وبقي اسم المترجم مجهولاً. وربما كان الاسم مذكوراً في الصفحة الأولى، وهي مفقودة.

إن فترة حكم «كيخاتو» وخليفته «بايدو» لم يكن فيها أي جديد في العلاقات المغولية الأوروبية، أولاً لقصر تلك الفترة[2]، ثم لما قام من فتن واضطرابات داخلية، والأهم من ذلك قلة كفاءة هذين الملكين.

وبتولي «غازان» (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م) (٦٩٥ ـ ٧٠٣ هـ) تطورت الأمور إذ لم يلبث هذا الملك المغولي الإيلخاني أن أعلن إسلامه فأسلمت بإسلامه جماهير مغولية، وتتابع بعد ذلك إسلام المغول حتّى اندمجوا نهائياً في الإسلام.

وفي أيام «غازان» مات «قوبيلا خان» كبير الأسرة المغولية، فانتهت بموته آخر رابطة تربط المغول الإيلخانيين بالحكم المركزي المغولي، واستقل الإيلخانيون في تبريز كل الاستقلال المادي منه والمعنوي عن بلاط «خانبا ليغ».

وبعد أن كان النصارى يتمتعون برعاية البلاط الإيلخاني لفترة طويلة، فقدوا الرعاية والمنزلة التي كانتا لهما بسبب دخول زعماء المغول بإيران في الإسلام.

على أن سياسة المغول التوسعية ظلت تسيطر على «غازان» الذي أصبح اسمه بعد إسلامه «محمود غازان»، فغزا الشام سنة ٦٦٩ هـ واستطاع تحقيق نصر سريع فاحتل ما احتل من بلاد الشام. على أنه اضطر للإنسحاب بسبب هجوم المغول الجغتائيين، فاستعاد المماليك سيطرتهم على الشام.

---

(١) قام أحد المسيحيين السريان واسمه «طاطيانوس» بدمج الأناجيل الأربعة (لوقا ـ مرقس ـ يوحنا ـ متى) في كتاب واحد سمّاه «دياتسرون». وقد رمى في كتابه هذا لذكر تفاصيل حياة المسيح حاذفاً ما فيه تكرار.

(٢) استمر حكم بايدو خان ستة أشهر فقط.

ورغم تمسك «غازان» بالدين الإسلامي وتعصبه له فقد كان يرغب في إقامة علاقات وديّة مع الأوروبيين.

وفي شهر رمضان من العام ٧٠٠ هـ (مايس ١٣٠٠م) بعث ملك الأرغون جيمس الثاني رسالة مع موفد خاص إلى تبريز حاملة التهنئة والتبريك، وطالبة بعض المطالب للنصارى. كما أن سفراء «غازان» التقوا ملكي انكلترا وفرنسا، والتقى سفير ادوارد ملك انكلترا مع وفد مرافق له، «غازان» حاملين إليه رسالة من الملك[١].

ومهما يكن من أمر فإن كل ذلك لم ينجل عن أية نتيجة عملية، ولا شك أن الإوروبيين كان قد قل اهتمامهم بأمور الشرق، فضلاً عن أن «غازان» كان قد هزم هزيمته الكبرى سنة ٧٠٢ هـ في مرج الصفر على يد قوات الملك الناصر.

وبعد وفاة «غازان» تولى أخوه الأصغر «محمد خدابنده ألجايتو» (١٣٠٤ - ١٣١٦م) (٧٠٣ - ٧١٦ هـ) وفي العام ١٣٠٧م (٧١٤ هـ) أراد توثيق علاقاته بملوك أوروبا، فأرسل سفيراً زوده بعدة رسائل كتبت بالخط الاويغوري إلى كل من ملك فرنسا فيليب لوبل وملك انكلترا ادوارد الثاني، وإلى البابا كلمان الخامس.

وكما أن عهد «غازان» لم يسفر عن شيء عملي في العلائق الإيلخانيّة الأوروبية، كذلك كان الأمر في عهد خليفته «الجايتو محمد خدابنده».

على أن الشيء الوحيد الذي كان ذا نتيجة إيجابية، هو التجارة، ففي عهد خدابنده اتسع التبادل التجاري بين أوروبا وإيران ونالت كل من تبريز والسلطانية أهمية كبرى في هذا الموضوع.

---

(١) توجد أوراق مذكراتهم، وصورة عن نفقاتهم ومنها شراؤهم آنية فضية وقطعة من الخز وبيعهم لسجادة. وقد سافر هؤلاء عن طريق جنوا إلى طرابزون ونبريز، وحملوا في عودتهم نسراً حياً وضعوه في قفص وأوصلوه إلى بلادهم. وليس في أيدينا تفاصيل عن مهمتهم وسافرتهم «يراجع تاريخ إيران للسير برسي سايكس»: ص١٦٠.

مصادر الكتاب

ابن الأثير ، ابن خلدون ، مفرج الكروب في أخبار بني أيـوب ، جامـع التـواريخ ، دائـرة المعارف الإسـلاميـة ، ابن الفـوطي للشبيبي ، المغـول في التاريخ للصيـاد ، القامـوس الإسلامي ، العـراق في عهد المغـول الإيلخانيين للدكتـور جعفر خصبـاك ، دائرة المعـارف الإسـلاميـة الشيعيـة ، المـوسـوعـة الإسلامية ، مجلة العربي ، مجلة العرفان .

هذا عدا المصادر المذكورة في حواشي الكتاب .

الفهـــرس